مواهب الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري

الجزء الثامن

مواهب الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

الجزء الخامس

سرشناسه	:	سبزواری، عبدالاعلی، ۱۲۸۸؟ - ۱۳۷۲.
عنوان و نام پدیدآور	:	مواهب‌الرحمن فی تفسیرالقرآن/ تالیف عبدالاعلی الموسوی‌السبزواری.
مشخصات نشر	:	قم: دارالتفسیر،۲۰۰۷م. -= ۱۴۲۸ق. -= ۱۳۸۶ -
مشخصات ظاهری	:	۱۴ج.
شابک	:	دوره: 978-964-535-051-0
یادداشت	:	عربی.
یادداشت	:	ج.۶(چاپ دوم : ۱۳۸۶)
یادداشت	:	ج. ۱۲ (چاپ دوم: ۱۴۲۸ق. = ۲۰۰۷م. = ۱۳۸۵).
یادداشت	:	ج. ۱ الی ۱۴ (چاپ سوم: ۱۳۸۹) (فیپا).
مندرجات	:	ج. ۱. فاتحه- البقره.- ج. ۲-۴. بقره.- ج. ۵ و ۶. آل عمران.- ج. ۷. آل عمران- نساء.- ج. ۸ و ۹. نساء.- ج. ۱۰. نساء- مائده.- ج. ۱۱ و ۱۲. مائده.- ج. ۱۳ و ۱۴. انعام
موضوع	:	تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره	:	۱۳۸۶ ۸م۲۳س/BP۹۸
رده بندی دیویی	:	۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	:	۱۰۵۳۵۷۱

قم - خیابان معلم - میدان روح ا... - تلفن :۷۷۴۴۲۱۲ منشورات دارالتفسیر

مواهب الرّحمن في تفسير القرآن ج/٥

آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى الموسوي السبزواري

□ الطبعة الخامسة: ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م

□ المطبعة: نگين

□ الكميّة: ٢٠٠٠دورة (١٤-١)

□ رقم الايداع الدّولي للدورة ISBN Vols: 978-964-535-051-0

□ رقم الايداع الدّولي للجزء الخامس ISBN Vol 5: 978-964-535-056-5

١ـ لايجوز طبع هذا الكتاب إلّا باذنٍ خاص من مكتب السيد السبزواري في النجف الأشرف.

٢ـ يوزع هذا الكتاب:

العراق ـ النجف الأشرف، سوق الحويش، مكتبة المهذّب، الجوّال ٠٧٨٠١٥٤١٥٢٣

ايران ـ قم، شارع معلم، ميدان روح‌الله، انتشارات دارالتفسير، تليفون ٧٧٤١٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة يوسف الإلكترونية
لنشر وترويج الكتب
يوسف الرميض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الآية ١ ـ ٦

﴿الم ۝١ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾ .

هذه السورة تدعو الخلق إلى عبادة الله الواحد الأحد المتفرّد، المتّصف بصفات الجمال والجلال، كما تدعو المؤمنين إلى توحيد الصفوف والاتّحاد في الكلمة، وتحرّضهم على الصبر والمصابرة لمواجهة الأخطار وكيد الأعداء بعد انتشار الإسلام وذيوع صيته في الجزيرة والأُمم المجاورة لهم، وتحذّرهم عن الاختلاف والتفرقة، وتنبئهم عن كيد الأعداء واتّحادهم في إطفاء نور الله تعالىٰ بكلّ ما أمكنهم.

وفي هذه السورة بيان لأُصول المعارف الإلهيّة، وما به الاشتراك بين الأديان السماويّة، وتبيّن كيفيّة المحاجّة مع أهل الكتاب، وترشدهم إلى قصّة المباهلة مع وفد نصارى نجران.

وفيها ذكر خلق عيسىٰ عليه السلام الذي يشبه خلق آدم عليه السلام ، وإنكار كثير من أفعال اليهود والنصارىٰ ، والردّ على مزاعمهم في أنبياء الله تعالىٰ .

ويبيّن الله تعالى فيها حقائق دينيّة وأُموراً عامّة ، تجلب السعادة لهم في الدُّنيا والآخرة ، ويدفع بها شبهات المعاندين وتلبيس الكافرين ، وقد أثبت لنفسه مهامّ الصفات العليا وما يستلزم في تدبير ملكه وتوليته لأُمور المؤمنين وإحاطته بالكافرين ، وأنهى سبحانه وتعالى هذه السورة بالدُّعاء .

ومن وحدة الأُسلوب والغرض يستفاد أنّها نزلت دفعه واحدة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد أعدَّ العدّة لمواجهة الأخطار المحدقة بالدِّين من المشركين وأهل الكتاب .

ويكفي في عظمة هذه السورة المباركة أنّها ابتدأت بالتوحيد وأُمّهات الصفات (الحيّ والقيّوم) ، واختتمت بالأمر بالصبر والمصابرة والتقوى والوعد بالفلاح ، فجمعت بين المبدأ والمعاد بأحسن أُسلوب يأخذ بقلوب العباد ، فقد جمع الله تعالى بها بين التوحيد والنبوّة والمعاد ومراتب تكامل النفس وبدء الطبيعيّات من الله وسيرها إليه جلّ جلاله وبين القصّة والاحتجاج والبرهان . كلّ ذلك ينبئ عن عظمة الحكيم الحنّان . وسُمِّيت هذه السورة بسورة الاصطفاء أيضاً ، لأنّ فيها قوله : **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[1] .

وفي الآيات المتقدِّمة براعة الاستهلال تتضمّن خلاصة ما يذكر في هذه السورة المباركة ، فقد أثبت سبحانه وتعالى مهامّ صفاته العليا وأورد عزّ وجلّ ذكر الكتب الإلٰهيّة ، وحذّر الكافرين عن أفعالهم وأوعدهم بالعذاب الشديد ، ثمّ

---

١ . سورة آل عمران : الآية ٣٣.

ذكر ما هو بمنزلة العلّة لما ورد في المقدّمة. وأرشد المؤمنين إلى تذكّر آلاء الله تعالى وصفاته العليا، التي بها يدوم العالم وينتظم نظام الخلق.

فهذه الآيات اشتملت على أُصول المعارف الإلٰهيّة، أمّا التوحيد فقوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وأمّا النبوّة فقوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، وأمّا المعاد ببقيّة الآيات المباركة.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ﴾.

تقدّم الكلام في الحروف المقطّعة القرآنية في أوّل سورة البقرة، والمتحصّل منه أنّ الاحتمالات المتصوّرة فيها خمسة:

الأوّل: أنّها أسرار ورموز بين الموحي والموحى إليه، لا يعلمها أحد حتّى جبرائيل الذي هو أمين الوحي، فإنّ بين كلّ ملك والخواص من وزرائه أسراراً في المخاطبة والخطاب كما هو معلوم، بل هذا هو دأب المتيّمين من الأحباب، وقديماً قالوا إنّ للحبّ لغة خاصّة في مقابل كلّ لغة.

بين المحبّين سرٌّ ليس يُفشيه ... قولٌ، ولا قلمٌ للناس يحكيه

هذا في الحبّ المجازي، وأمّا الحقيقي منه فلا يعقل تمديده بحدّ أبداً.

الثاني: أنّ المركّب منها إشارة إلى أمر مهمّ في الشريعة المقدّسة.

ولكن يرد عليه: أنّ ذلك لا يكفي في الاحتجاج على أهل العناد واللجاج بل مطلق العناد، لما ثبت في محلّه من أنّه لا أثر للمجمل والرمز واللغز التي تنبو عنها الأفهام ولا يعتمد عليها الأعلام في مخاطباتهم، فتدخل في متشابهات القرآن الكريم التي عجزت عن فهمها العقول.

الثالث: أنّها اسم لنفس السورة التي بدأت بها.

ويرد عليه: أنّ فيه من الغرابة ما لا يخفى.

الرابع: أنّها ذكرت تمهيداً لإصغاء المخاطبين والسامعين.

وفيه: أنّه بعيد من الحكمة.

الخامس: أنّها ذكرت تجليلاً للسورة، يعني أنّ السورة وإن كانت فيها هذه الحروف الهجائية بحسب الظاهر، ولكنّها مشتملة على معارف لا تحيط بها العقول، ويعجز الإنسان عن الإتيان بمثلها.

وهناك وجوه أُخرىٰ، يمكن الجمع بينها. والقول بأنّ تمام تلك الوجوه منطوية فيها، وليس ذلك من شأن الآيات الكريمة ببعيد. وتمام الكلام تقدّم في أوّل سورة البقرة.

قوله تعالىٰ: **﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**.

تقدّم بعض الكلام فيه في تفسير آية الكرسي «٢٥٥ من سورة البقرة»، ونزيد هنا (**الله**) اسم للذات المستجمعة لجميع الكمالات الواقعيّة والإدراكيّة، والمسلوب عنها جميع النقائص كذلك، ونفس تصوّر هذا المعنى بما ذكرناه في فرض العقل، يُغني عن إثبات صفات جماله وجلاله ومعبوديّته المطلقة، وخضوع ما سواه له، ولا نحتاج إلى إقامة دليل آخر على ذلك، فالهويّة المطلقة في الكمال المطلق مجرّدة عن كلّ قيد وإضافة، منحصرة فيه عزّ وجلّ، وقد روي أنّ عليّاً عليه السلام قال: «يامَنْ هو، يا مَن ليس هو إلّا هو»، وعرض ذلك على سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله فقال لعليّ: «علمت الاسم الأعظم»، نعم هو اسم أعظم لمَن انقطع إليه تعالى كمال الانقطاع فتجلّى له حينئذٍ حقيقة أنّه ليس هو إلّا هو.

والحيّ القيوم بالمعنى الحقيقي لا يمكن للعقول المحدودة الإحاطة بهما، لأنّهما عين الذات المقدّسة، والعقول قاصرة من وصول تلك الساحة العظمىٰ،

بل الحياة في ما سواه عزّ وجلّ من المجرّدات، وغيرها تكون شارقة جزئية من شوارق تلك الحياة.

كما أنّ المراد بالقيوميّة فيه عزّ وجلّ مديريّته ومدبّريته وتربيته العظمى لجميع عوالم الممكنات، قيوميّة حياة تستلزم العلم والقدرة والهيمنة والإحاطة، لا أن تكون قيوميّة فاقدة للشعور والحياة، كما في الأسباب الطبيعيّة التكوينيّة.

فيكون لفظ القيوم بهذا المعنى من الأسماء الخاصّة به تعالى كلفظ (الله)، ولكن لو لوحظ فيه مبدأ الاشتقاق، وهو مطلق القيام بالشيء وعلى الشيء، ومطلق القيوميّة يكون من الوضع العام والموضوع له العام بحسب أصل المعنىٰ، ولكن بحسب الإطلاق منحصر فيه عزّ وجلّ.

هذا إذا لم يحصل مثل هذه الألفاظ علماً له عزّ وجلّ، وإلّا فيسقط أصل البحث، ولعلّ أحد أسرار توقيفيّة أسمائه المقدّسة عدم تدخلّ الجهات اللغوية والأدبية المتعارفة فيها، لتكون بنفسها مرجعاً وأصلاً يرجع إليها، لا أن يرجع فيها إلى غيرها.

ويصحّ أن يُراد من القيّوم، مقوّم وجود كلّ موجود حدوثاً وبقاءً.

كما يصحّ أن يُراد به مقوّم حياة كلّ ذي حياة، حيوانيّة كانت أو نباتيّة.

ويصحّ أن يُراد به قيّوم كمال كلّ ذي كمال.

والحقّ هو الأخير وسائر المعاني منطوية فيه، ولذا عقّبه سبحانه وتعالى بقوله: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**، لأنّ ذلك من شؤون حياته وقيوميّته المطلقة.

والحيّ والقيوم من أعظم الأسماء الحسنىٰ.

والأوّل من أسماء الذات، بل الثاني أيضاً إن رجع إلى الحكمة التامّة التدبيريّة والقدرة الجامعة التامّة، كما يصحّ أن يكون برزخاً بين اسم الذات واسم

الفعل باختلاف الجهة.

وإنّما ذكرهما سبحانه هنا وفي آية الكرسي «٢٥٥ من سورة البقرة»، لأنّهما دون لفظ (الله) وفوق باقي أسمائه المباركة إلّا الاسم الأعظم، بناءً على كونه من مقولة اللفظ كما يظهر من بعض الروايات، ويصحّ أن يكونا من بعض أجزائه التي مَنْ علم خصوصيّات التركيب يؤثّر الأثر المطلوب.

ويمكن أن يستدلّ بهذه الآية الشريفة على وحدة المعبود، بأن يُقال إنّه لابدّ أن يكون حيّاً قيوماً، والحيّ القيوم منحصر في واحد عقلاً ونقلاً، فالمعبود منحصر بواحد كذلك.

وافتتاح هذه السورة بهذه الجملة المباركة الجامعة لجميع صفات الجلال والجمال، يدلّ على كمال الاعتناء بها، وحقّ لها أن تكون سورة الاصطفاء.

وفيها التعليل لما ورد في الآية التالية، أي الله الذي هو واحد في اُلوهيّته وذو الحياة الكاملة، والقائم على تدبير خلقه بأحسن نظام وأتمّ حكمة، لقادر على أن ينزل الكتاب الفارق بين الحقّ والباطل، ولا يخفىٰ عليه أمر مخلوقاته، فمَن آمن بما أنزل على رسله فقد فاز، ومَن كفر فقد خاب وسيجزيه الله، إنّه عزيزٌ ذو انتقام.

قوله تعالىٰ: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾.

المراد بالكتاب القرآن الكريم، والباء في (**بالحقّ**) إمّا في موضع الحال، أو للمصاحبة، أي حال كونه بالحقّ أو مصاحباً له لا يفارقه، ولا تعتريه شبهة، ولا يطرأ عليه الباطل في جميع شؤونه.

ومصدّقاً حال آخر، أي حال كونه معترفاً بصدق ما بين يديه ومبيّناً له.

والمراد بما بين يديه: ما تقدّم من الكتب الإلهيّة، وهي التوراة والإنجيل وغيرهما.

والتنزيل: هو النزول، وقد تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾[١]، كيفيّة نزول القرآن، والفرق بين النزول والإنزال الذي يدلّ على الدفعة.

والآية تدلّ على صحّة نسبة الكتب الإلٰهيّة المتقدّمة إلى الوحي الإلهي، وصدق بعض الحقائق التي ورد فيها، وتدلّ على ذلك آيات كثيرة:

منها: قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**﴾[٤].

وقال جلّ شأنه: ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾[٥].

ويستفاد من هذه الآية الشريفة كثرة عناية الله تعالى بالتوراة؛ لأنّ جميع الكتب السماويّة ـ بما فيها القرآن الكريم ـ تشترك في أُصول المعارف الإلهيّة التي

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٨٥.

٢ . سورة المائدة: الآية ٤٤.

٣ . سورة المائدة: الآية ٤٦.

٤ . سورة المائدة: الآية ٤٨.

٥ . سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

منها الدعوة إلى المبدأ جلّ جلاله وتوحيده ونفي الأضداد والأنداد ، ومنها المعاد والعدل الإلهي ، والترغيب إلىٰ رحمة الرحمٰن والتحذير من الشيطان وعداوته للإنسان ، ومن عذاب الله تعالىٰ ، كما تذكر قصص الأنبياء وما لاقوه من الظالمين في جنب الله ونصرة الله لهم ، وتبيّن قصّة ابتلاء آدم عليه السلام وإخراجه من الجنّة .

كما أنّها تشترك في بيان مكارم الأخلاق وما يرتفع به الإنسان إلى أعلى الجنان وما ينزله إلى حضيض الحيوان ، وتشترك في بيان المستقلّات العقلية ، كحسن الإحسان وقبح الظلم ، وبيان جملة من التكوينيّات والطبيعيّات .

إلّا أنّها تختلف في بعض الفروع العملية الذي يقتضيه السير التكاملي الإنساني الذي تنوط به المصالح التشريعيّة ، وهذه كلّها أُصول نظام التشريع التي لابدّ وأن تجمعها جميع كتب السماء .

وبعبارة أُخرى : أنّ الوحي السماوي بالنسبة إلى أنبياء الله تعالىٰ واحد بوجود نوعي ، والتوراة والإنجيل والقرآن من أفراد ذلك النوع ، كما أنّ الإنسان واحد نوعي له أفراد كثيرون ، فيصحّ لنا تأسيس قاعدة كلّية وهي الاتّحاد في الكتب السماوية ، ولكن القرآن مظهر لجميعها ، فما كان منها موافقاً للقرآن يكون صحيحاً ومعتبراً ، وما كان مخالفاً له يردّ علمه إلى أهله ، إلّا إذا ثبت بدليل معتبر جهة المخالفة ، والأدلّة القطعيّة التي أقاموها علىٰ نسخ القرآن هو إنّما يكون بالنسبة إلى الجهات المخالفة ، لا المساواة والموافقة التي هي مقتضى الأصل والقاعدة فيها .

والآية الشريفة وإن دلّت على صحّة نسبة التوراة والإنجيل إلى الله تعالىٰ ، ولكن لابدّ أن تكون في الجملة ، لا على نحو الكلّية والمجموع ، لدلالة آيات أُخرىٰ علىٰ وقوع التحريف فيهما :

قال تعالىٰ : **﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ**

الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[١].

وقال تعالىٰ: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾**[٢].

قوله تعالىٰ: **﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ﴾**.

التوراة لفظ عبراني ومعناها الشريعة، وتُطلق على العهد القديم المتكوِّن من أسفار موسى الخمسة، التي يُسمِّيها اليهود بالناموس، وهي: سفر التكوين، وسفر التثنية، وسفر الخروج، وسفر اللّاويين أو الأحبار، وسفر العدد.

وقد وقع الخلاف بين المؤرِّخين في صحّة نسبة التوراة الموجودة بين أيدينا إلى موسىٰ عليه السلام، ولا يزال كثير من اللاهوتيين يشكّون في صحّة النسبة ويرون أنّها كتبت بعد عصر موسىٰ عليه السلام، وإن كان القول بأنّ جميع تلك الأسفار ليست من الوحي لا يخلو من غلوّ وإفراط في القول، فإنّ فيها ما يكون منسوباً إلى موسىٰ عليه السلام، كما تشهد له الأدلّة الكثيرة، إلّا أنّ المراد من التوراة في القرآن هي الحقيقة المنزلة علىٰ موسىٰ عليه السلام بوحي من الله تعالىٰ، كما تدلّ عليه الآيات الكثيرة، قال تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾**[٣]، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم فيما يقرب من ثمانية عشر مورداً مقرونة بالتجليل والتعظيم.

واختلف الأُدباء في اشتقاقها، ونحن في غنى عن ذلك بعد كونها غير عربية الأصل.

والإنجيل كلمة يونانية ومعناها (الجلوان)، أي ما يعطى لمَن يبشّر بالشيء،

---

١. سورة المائدة: الآية ١٣.

٢. سورة المائدة: الآية ١٥.

٣. سورة المائدة: الآية ٤٤.

أو البشرىٰ بالخلاص ، وتُطلق عند المسيحيّين على الأناجيل الأربعة ، وهي إنجيل لوقا ، وإنجيل مرقس ، وإنجيل متى ، وإنجيل يوحنا .

والعهد الجديد يطلق علىٰ هذه الأناجيل الأربعة المتكوّنة من سبعة وعشرين سفراً ، تتضمّن سيرة المسيح وتعاليمه وأعمال الرُّسل (الحواريّين) ورؤيا يوحنّا اللاهوتي ، وقد اختلفوا في تأريخ كتابتها .

ولكن الإنجيل في القرآن الكريم هو الكتاب المنزل من الله تعالىٰ علىٰ عيسىٰ عليه‌السلام ، الموصوف بأنّه كتاب واحد حقيقي مشتمل على النور والهداية ، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم فيما يقرب من اثنى عشر مورداً .

وقد اختلف العلماء في اشتقاق هذه الكلمة علىٰ وجوه ، ولكن كونها غير عربيّة الأصل يكفينا عن الخوض في ذكرها .

ويستفاد من مجموع الآيات التي وردت هذه الكلمة فيها أنّ الإنجيل كتاب واحد حقيقي ، وليس هو متعدّداً كما يدّعيه المسيحيّون ، وأنّه لم يؤمن من السقط والتحريف كالتوراة ، ويرشد إلى ذلك إفراد الاسم والتوصيف بأنّه هدى للناس ، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام في ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

وإنّما ذكرهما سبحانه في أوّل السورة توطئة لما سيذكره من قصصهم وما يتعلّق بولادة عيسىٰ عليه‌السلام .

ومن سياق الآية المباركة يستفاد أنّ التوراة والإنجيل نزلتا جملة واحدة ، بخلاف القرآن فإنّه نزل تدريجيّاً ، حيث عبّر تعالىٰ : **﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾** ، وقال تعالىٰ : **﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾** ، كما مرّ سابقاً .

إن قيل : ورد نفس التعبير في قوله تعالىٰ : **﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾** ، فيدلّ على نزول القرآن جمعاً ودفعة ، فيتحقّق التنافي بين الآيتين .

قلنا : لو كان النزول والتنزيل مرّة واحدة حقيقة فالإشكال وارد ، ولكن

للقرآن نزولات متعدّدة كما تقدّم سابقاً في قوله تعالىٰ : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[١] ، فمرّة نزل نجوماً ومراراً نزل دفعة ، وإنّما ذكره هنا تجليلاً وتعظيماً لمقام القرآن بالنسبة إلى سائر الكتب السماويّة .

قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ .

الفرقان : ما يفرق بين الحقّ والباطل ، وقد استعملت هذه المادّة في القرآن الكريم كثيراً ، وجميعها تدلّ على تلك المعارف الإلهيّة والأُصول الحقّة النظامية ، التي تبيّن وظيفة العبد وما هو مطلوب في مقام العبودية وإقامة العدل والحقّ ، فيشمل الكتب الإلهيّه وأنبياء الله تعالى والأحكام الإلهية التي تعيّن وظائف العبد ، كما يشمل العقل وكلّ أمر محكم ، ويدلّ على ذلك آيات متعدّدة :

منها: قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[٤] .

والمراد به هنا القرآن الكريم ، فهو باعتبار وجوده الجمعي يسمّى قرآناً ، وباعتبار تفرقته بين الحقّ والباطل يسمّى فرقاناً ، وباعتبار إرشاداته يكون نوراً ، وباعتبار كونه أساساً للعمل والحكم بالعدل يسمّى ميزاناً ، وتختلف أسماؤه الشريفة باختلاف صفاته المباركة .

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

٢ . سورة الأنفال : الآية ٤١ .

٣ . سورة الأنبياء : الآية ٤٨ .

٤ . سورة الفرقان : الآية ١ .

وقيل: المراد بالفرقان العقل، وقيل الدلالة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وقيل النصر، وقيل الحجّة القاطعة للرسول ﷺ على مَن حاجّه في أمر عيسىٰ عليه السلام، وفي بعض الروايات: «الفرقان هو كلّ أمر محكم، والكتاب هو جملة القرآن الذي يصدقه مَن كان قبله من الأنبياء»، ويظهر وجه جميع ذلك ممّا ذكرناه آنفاً.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾.

أي: إنّ الذين كفروا بآيات الله وجحدوا بها لهم عذاب شديد، وذلك لأنّ الكفر بآيات الله حرمان عن منبع النور والهداية والسعادة، مع أنّ النفس مستعدّة لجميع ذلك ولها قابلية إبراز كلّ كمال من الكمالات الممكنة إلى الظهور، فيكون نفس هذا الحرمان عذاباً لما يتبعه من الندامة والشقاوة، فلا يختصّ العذاب بالآخرة، وهو ظاهر إطلاق الآية الشريفة التي توعد الكافرين بآيات الله بالعذاب في الدُّنيا والآخرة، وهذا من الحقائق القرآنية التي تؤكّدها جملة من الآيات الشريفة، فتعدّ حرمان النفس عن الكمالات التي أعدّها الله تعالى لها من العذاب، ويعدّ المعرض عنها شقيّاً قد سلب السعادة عن نفسه، فكلّ ما يكون سبباً لسعادة الإنسان إذا كفر به يكون عذاباً وشقاءً له، فتكون السعادة والشقاوة في نظر القرآن بسعادة الروح وشقاوتها، وأمّا سعادة الجسم والبدن فهي إن أوجبت سعادة الروح فهي السعادة العظمى والكمال الأتمّ، وإلّا كانت شقاءً وعذاباً، قال تعالىٰ: ﴿**مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾[1]، فالعذاب الإلهي إنّما يكون بالنسبة إلى الروح والجسم، ولكن المهمّ هو الأوّل. وهذا بخلاف ما يراه الإنسان الذي لم يعبأ بما وراء المادّة ولم يتخلّق بأخلاق الله تعالىٰ في السعادة والشقاء، فإنّه يعتبر ما يكون سبباً للاستمتاع المادّي ـ كالمال والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٩٧.

والفضّة ـ سعادة ، وما يكون بخلاف ذلك شقاءً وعذاباً ، وهذا مخالف لما عليه الواقع الإنساني المؤلَّف من البدن والروح ، والكتب الإلهية إنّما نزلت لتهذيب الروح وإسعادها ورفع شقائها ، لا خصوص سعادة الجسم فقط ، وللبحث تتمّة تأتي في الموضع المناسب .

قوله تعالىٰ : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ .

مادّة (نقم) تدلّ على إراءة الكراهة ، سواء كانت باللِّسان أم بالعقوبة ، وهي كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم ، ولا تدلّ المادّة بشيء من الدلالات على أن يكون الانتقام للتشفّي ، كما هو الدائر في انتقام الإنسان ، فإنّ الله تعالى أعزّ جانباً وأبعد ساحةً من أن ينتفع أو يتضرّر بشيء من أعمال عباده . ولكن منشأ الانتقام يكون فيهم (أي المنتقم منه) ، ويقوم بهم قيام الصورة بالمادّة ، وبينهما تلازم ، ولا يعقل انفكاكهما إلّا في فرض الوهم .

والمعنى : أنّ الله قويّ شديد نافذ في إرادته ، منيع الجانب لا يرضى بأن تُهتك محارمه ، ينتقم ممّن خالفها وأعرض عنها .

وما ورد في هذه الآية الشريفة معلول آخر للحياة الحقيقيّة ـ من كلّ جهة ـ والقيوميّة المطلقة ، ولا معنى لهما إلّا إيصال كلّ ممكن إلى ما يليق به ، بعد بسط العدل والإحسان والرحمة والعفو والغفران .

قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ .

معلول آخر للحياة الحقيقيّة والقيوميّة المطلقة ، فإنّ وحدة الحيّ القيوم تستلزم الإحاطة المطلقة ، وأن لا يخفى عليه شيء ممّا سواه ، وإلّا كان خلفاً ولا يعقل غفلة العلّة ـ العليم الحكيم ـ عن معلوله .

ويصحّ أن يكون ما ورد في هذه الآية الشريفة كالعلّة ، أي لا يخفى عليه

شيء في الأرض ولا في السماء، فهو الحيّ القيوم.

وإنّما قدّم تعالى الأرض على السماء لقربها إلى أذهان المخاطبين واُنسهم بها، وإرشادهم إلى أنّ أرضهم ـ التي يفعلون فيها ما يفعلون ـ تحت إحاطته الفعليّة.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ معنى العلم فيه تبارك وتعالىٰ يرجع إلى أمر سلبي، أي لا يخفى عليه شيء لقصور العقول عن درك علمه بالمعنى الإثباتي، لقصورها عن درك ذاته، ويدلّ علىٰ ذلك أخبار كثيرة.

كما تدلّ الآية المباركة أيضاً على العلم التفصيلي الفعلي الإحاطي لله تعالىٰ، وتدلّ عليه آيات اُخرىٰ، منها:

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾**[2].

قوله تعالىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ﴾**.

الصورة تطلق تارةً: على الهيئة الخاصّة، وبهذا المعنى يصحّ أن تكون من الأعراض، كالصور المتصوّرة في الأذهان، أو ما ينتقش على الجدران أو ما ترتسم في المرآة أو في كلّ جسم شفّاف له قابليّة المحاكاة. وفي العصر الحديث اتّسعت دائرتها، وهي بهذا المعنى تعمّ ما يكون له ظلّ كالتمثال أو ما لا ظلّ له.

---

١. سورة الحجر: الآية ٢١.

٢. سورة الأنعام: الآية ٥٩.

وتُطلق أُخرىٰ: في مقابل المادّة، فتكون جوهراً من مقوّمات الجواهر المركّبة من المادّة والصورة، ويعبّر في الفلسفة عن المادّة بالجنس باعتبار الوجود الذهني، وعن الصورة بالفصل كذلك أيضاً، وإلّا فالحقيقة واحدة والتصوير إلقاء الصورة.

والرحم في الحيوان هو العضو الذي يتكوّن فيه الجنين إلى حين الولادة ومحل تربية الطفل. واستعير للقرابة باعتبار انتهاء أفرادها إلى رحم واحد. ويتضمّن معنى الرأفة والإحسان أيضاً، وبهذا المعنى يطلق على الله تعالىٰ، فهو الرحمٰن الرحيم.

وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«لمّا خلق الله الرحم قال تعالى: أنا الرحمٰن وأنت الرحم، شققتُ اسمك من اسمي، فمَن وصلك وصلته، ومَن قطعك قطعته».

ومنه يظهر معنى الحديث الآخر: «الرحم معلّقة بالعرش تقول: اللّهُمَّ صِل مَن وصلني، واقطع مَن قطعني».

ومخاطبة الرحم لله تعالى ليست ببعيدة، فإنّ الأشياء كلّها ـ بحقائقها الواقعيّة ـ مرتبطة مع الله عزّ وجلّ، يخاطبها الله تعالى وتخاطبه، ولكنّها مستورة إلّا على أهل البصيرة والبصائر.

وإنّما خصّ سبحانه وتعالى تقدير الإنسان وتصويره بالذكر مع أنّه له التقدير العام في جميع المخلوقات، لكمال العناية بالإنسان، الذي هو أعزّ خلقه وأشرفه، فقد ذكر تعالى تصوير الإنسان في آيات أُخرىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1].

---

١ . سورة التغابن: الآية ٣.

وقال تعالىٰ: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[1].

ولبيان كيفيّة خلق عيسىٰ عليه السلام الوارد في هذه السورة والتعريض بالنصارىٰ في ما يقولونه فيه عليه السلام.

وقد أبدع سبحانه وتعالىٰ في تصوير الإنسان، ممّا يدلّ علىٰ بديع صنعه وحكمته البالغة وعلمه الأتمّ، واعتنى بجميع تفاصيله اعتناءً بليغاً، وأودع فيه من الحكم والأسرار وفق قوانين منظّمة تعجز عقول البشر عن الوصول إلى كنهها، ومعرفة دقائقها مهما بلغوا في العلم والمعرفة، فقد كشف العلم الحديث عن بعض جوانب تلك الأسرار والحكم ممّا يبهر العقول ويجلّ عن الوصف، فحقيق لله تعالى أن يقول في خلق الإنسان: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2]، ويكفي جانب من تلك الجوانب وجهة من جهاته أن تكون حجّة على العباد.

وعن عليّ عليه السلام: «الصورة الإنسانية أكبر حجّة لله علىٰ خلقه، وهي الجسر الممدود بين الجنّة والنار».

وأمّا ما ورد في الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّ الله خلق آدم على صورته»، فإنّ المراد صورة مخلوقة اختارها الله تعالى لنفسه، وجعلها حجّة علىٰ عباده وسخّر لها ما في السماوات والأرض، وليس المراد صورة الله تعالىٰ؛ لأنّه يستحيل أن تكون لله صورة كما ثبت ذلك في الفلسفة العلمية، ويدلّ على ما ذكرناه ما ورد في الحديث يشرح هذه الرواية، وهو أنّه: «سبّ رجل شخصاً بحضور النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: قبّحك الله وقبّح مَن على صورتك، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: لا تقل هكذا، فإنّ الله خلق آدم علىٰ صورته»، أي علىٰ صورة الرجل المسبوب، فيكون سبّه سبّاً لآدم عليه السلام وسائر الأنبياء أيضاً.

---

١. سورة الانفطار: الآية ٨.

٢. سورة المؤمنون: الآية ١٤.

قوله تعالىٰ : ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ .

لفظ (**كيف**) يستعمل في ما فيه شبيه وما لم يكن له شبيه ، كالأبيض والأسود والصحيح والسقيم ونحوها .

و(كيف) من إحدى المقولات التسع العرضية المعروفة في الفلسفة القديمة والحديثة ، ويدخل فيه الاشتداد والتضعف لاتّصافه بالحركة ، كما أنّ فيه الشدّة والضعف بذاتها .

وهو من ألفاظ العموم ، ولا يطلق عليه تعالى لتقوّمه بالغير كما في غيره ، وفي الحديث : «هو الذي كيّف الكيف ولا كيف له» ، وإلى ذلك تشير القاعدة التي أسّسها أئمّة الدِّين عليهم السلام في المعارف الربوبيّة : «كلّ ما يوجد في المخلوق لا يوجد في الخالق» ، وقصارى ما يمكن القول فيه عزّ وجلّ هو إنّه تعالىٰ شيء لا كالأشياء وذات لا كالذوات ، حتّى لا يلزم التعطيل .

وإطلاق الكيف في المقام باعتبار المخاطبة مع الناس والإنسان المخلوق وأطواره في الأرحام ، لا بالنسبة إلى الملك العلّام .

ومادّة (شيء) تأتي بمعنى المشيء وجوده ، فكلّ موجود شيء وبالعكس ، ولا يطلق على العدم ، وقد أثبت الفلاسفة مساوقة الوجود للشيئيّة ، وقال بعض أكابرهم :

ما ليس موجوداً يكون ليسا   قد ساوق الشيء لدينا ايسا

ولا يطلق بهذا المعنى على الله عزّ وجلّ ، وتقدّم في الحديث : «إنّه شيء لا كالأشياء» .

والمشيئة بالمعنى الوصفي تكون من صفات الفعل؛ والفرق بينها وبين الإرادة بالكلّية والجزئية ، أو الحدوث والبقاء ، فالحدوث يسمّىٰ مشيئة ، والبقاء والإبقاء إرادة .

بيان ذلك: أنّ كلّ فعل اختياري صادر من الفاعل المختار لابدّ وأن يسبقه أُمور لا يمكن تخلّف واحد منها، كما هو الثابت بالوجدان والبرهان، وهذه الأُمور تسمّى بـ«أسباب الفعل»، وهي:

الأوّل: هو العلم بالفعل ولو على نحو الإجمال، وفي الجملة لئلا يكون من طلب المجهول المطلق الذي هو قبيح من العاقل، بل هو محال في نفسه، لأنّ توجّه النفس إلى شيء لا يتحقّق إلّا بتعيّن ذلك الشيء في الجملة.

الثاني: المشيئة بمعنىٰ توجّه النفس إلى طلبه إجمالاً.

الثالث: التقدير، وهو التفات النفس إلى خصوصيّاته كمّاً وكيفاً ومن سائر الجهات.

الرابع: القضاء، أي: حكم النفس بإيجاده خارجاً.

الخامس: إبرام هذا القضاء، أي الاستقامة فيه وجعله بحيث لا يتخلّف.

السادس: الإرادة الموجودة للفعل.

وهذه كلّها موجودة في كلّ فعل اختياري يحصل من الفاعل المختار، ولو كان هو الله تعالى الخالق القهّار.

نعم، في الإنسان واقعها موجودة في النفس ومرتكزة فيها إجمالاً وإن لم يعلم بها تفصيلاً، ولا يضرّ ذلك، لأنّها بوجودها الواقعي مقتضية لحصول الفعل لا بوجودها العلمي التفصيلي الفعلي.

وأمّا بالنسبة إلى الله تعالىٰ فمن حيث إحاطته الوجودية فوق ما نتعقّله من معنى الإحاطة، فإنّ جميع تلك الأُمور موجودة ومعلومة له تعالىٰ تفصيلاً، فهو عالم بجميع أطوار وجود الفعل وشؤونه، بل عالم بما سواه كلّية وجزئية قبل الإيجاد وبعده، وجميع مراتب التغيّرات والتبدّلات، وكذلك هو عالم بقدره وقضائه وإمضائه وإبرامه وإرادته ـ التي هي عين فعله الأقدس ـ علماً تفصيليّاً إحاطيّاً.

ويمكن تقليل ما ذكرناه من الأسباب بإدخال بعضها في البعض، ويمكن تكثيرها بتفصيل بعضها إلى أُمور، ولذا اختلفت الأحاديث الشريفة الواردة في أسباب الفعل قلّةً وكثرة.

وكيف كان، فقد وقع الكلام في أنّ هذه الأسباب من صفات الفاعل أو من صفات الفعل. أمّا في الإنسان فيصحّ أن تعدّ من صفات الفاعل، كما يصحّ أن تعدّ من صفات الفعل، ولا محذور فيه من عقل أو نقل، فيُقال: فاعل مريد، وفعل مراد، وفاعل مقدّر (بالكسر). وفعل مقدّر (بالفتح)، خصوصاً في العلم الذي لا إشكال فيه من أحد أنّه من صفات الفاعل في الخالق والمخلوق، وكذا القدر والقضاء والإبرام، إمّا باعتبار منشئهما وهو العلم الإحاطي الأكمل والحكمة البالغة، أو باعتبار إضافتهما إلى الممكن المخلوق، فلاريب في كونهما من صفات الفعل.

وأمّا بالنسبة إليه تعالىٰ، فما كانت مستلزمة للتغيير والتبدّل فمن صفات الفعل، وما لم تكن كذلك فمن صفات الذات.

وأصل الإشكال الذي ذكروه في عدم إمكان جعل المشيئة والإرادة من صفات الذات، أنّ الإرادة علّة تامّة منحصرة لحصول المراد، فإن كانت في مرتبة الذات فيلزم إمّا تعدّد القدماء، أو كون الذات المقدّسة محلّاً للحوادث، وكلّ منهما مستحيل. وقد أثبتوا امتناع كلّ ذلك بالبراهين المتقنة.

ولكن يمكن الجواب عن ذلك:

أوّلاً: بأنّ علّية الإرادة لحصول المراد إنّما تكون في الفاعل الموجب (بالفتح) ـ أي الفاعل غير المختار ـ دون الفاعل العالم المختار، الذي تكون الإرادة فيه من المقتضيات، كسائر أسباب الفعل فلا يلزم محذور فيه أبداً، خصوصاً في الإرادة الأزلية، فالاختيار في الفعل والترك، والقدرة القهّارية باقية

قبل الإرادة وحينها وبعدها، وحين حصول الفعل أيضاً، ولعلّ إحدى مصالح جعل البداء لله جلّ جلاله ترجع إلى ذلك، حيث قال: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[١].

وثانياً: أنّه علىٰ فرض كون الإرادة علّة تامّة لحصول المراد، ولكن العلّية لاتكون علىٰ نحو الجزاف، بل هي علىٰ نحو منظّم بالنظام الأحسن الأكمل الأتمّ، فإذا أراد جلّت عظمته خلق آدم وهبوطه، أو طوفان نوح، وبعثة نبيّنا الأعظم ﷺ، وقيام الساعة، وجزاء أهل الجنّة والنار، بل جميع العوالم الطولية والعرضية، يكون مورد إرادته الكاملة وفق النظام الأحسن الأكمل، وإلّا يكون من تخلّف المراد عن الإرادة، وهو محال.

وثالثاً: أنّ الإرادة إن كانت علّة تامّة لحصول المراد، فإنّما هو بالنسبة إلى حصول المراد بالأصل لا المراد بالعرض. والمراد بالأصل فيه عزّ وجلّ يرجع إلى ابتهاج ذاته بذاته في ذاته، بلا محذور في البين، كما قالوا ذلك في علمه الأزلي بما سواه، وسمعه، وبصره. وفي الحديث: «عالم إذ لا معلوم، وسامع إذ لا مسموع، وبصير إذ لا مبصر».

وبعبارة أُخرىٰ: تكون الإرادة التكوينيّة من هذه الجهة، كالإرادة التشريعيّة، فإذا أراد الله تعالى الصلاة ـ مثلاً ـ من عباده، أرادها وفق نظام خاصّ، بحيث يكون أوّلها تكبيرة وآخرها تسليمة، مع تخلّل القيام والركوع والسجود والأذكار في البين، فإرادته انبساطية علىٰ جميع ذلك، كما أنّ إرادته الأزلية التكوينيّة تكون كذلك.

قد يُقال: إنّ ماذكرنا في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢].

---

١. سورة الرعد: الآية ٣٩.

٢. سورة آل عمران: الآية ٤٧.

ويمكن الجواب عنه: بأنّ مرتبة الأمر التكويني غير مرتبة الإرادة، كما هو ظاهر الآية الكريمة. هذا كلّه بحسب القواعد العقلية.

وأمّا بحسب ظواهر النصوص التي تدلّ على جعل الإرادة والمشيئة من صفات الفعل لا الذات، فلابدّ من اتباعها، ولا محيص عمّا ورد فيها.

هذا إجمال ما يتعلّق بموضوع القضاء والقدر، اللذين هما من أسباب الفعل في كلّ فاعل مختار.

وأمّا أسرار القضاء والقدر في فعل الله جلّ جلاله، فقد حيّرت الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين.

وفي الحديث عن عليّ عليه السلام: «بحرٌ عميق فلا تلجه، وطريقٌ مظلم فلا تسلكه، وأنّه سرُّ الله فلا تتكلّفه»، وسيأتي في الموضع المناسب تتمّة الكلام إن شاء الله تعالىٰ.

وتعليق التصوير على المشيئة الإلهيّة إنّما هو لأجل تعميم التصوير ليشمل جميع أقسامه في أصل الخلق والصفات والكيفيّات الأخلاقيّة والطبيعيّة، والإرشاد إلى عدم إحاطة الأفهام والعقول، كما لا يمكن الإحاطة بالمشيئة الإلهية.

والمشيئة في قوله تعالىٰ: ﴿**يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾، مشيئة تقدير وإرادة مشيئة حتم، وهو يرشد إلى اختلاف الحالات والعوارض واللوازم الواردة على النطف في الأرحام، فإنّ جميع تلك الأُمور ـ سواء كانت من لوازم الوجود أم من لوازم الماهيّة، التي هي مجعولة بالعرض ـ تكون تحت القدرة الإلهية، بل تشمل جميع التقديرات الحاصلة للإنسان كالعزّة والذلّة والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر والعذاب ونحو ذلك، فإنّ جميعها يكون في الرحم على نحو الاقتضاء والمشيئة، كما يظهر من الأخبار، منها قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «السعيد

مَنْ سعد في بطن أُمّه ، والشقيّ مَن شقى في بطن أُمّه» ، ولا بأس بتسمية جـميع ذلك بالصورة بمعناها الأعمّ .

ومن ذلك يعلم الوجه في تعقيب الآيات المتقدِّمة بـهذه الآيـة الشـريفة ، ويصحّ أيضاً أن تكون تحذيراً وتخويفاً بقدرة الله تعالىٰ ، فإنّه قادر على أن يبدّل صورة الإنسان إلى صورة أُخرىٰ ، إتماماً للحجّة وبياناً للقدرة الكاملة ، ليـرتدع الناس عن المعاصي والآثام .

قوله تعالىٰ : ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ .

تعليل لما تقدّم ، وعود إلى ما بدأ به الكلام من التوحيد ، أي هو المتوحّد في الأُلوهية والمتفرّد في جميع شؤون خلقه ، العزيز بقدرته وسلطانه ، لا يغلب في إرادته وقضائه ، هو الحكيم ، أي يفعل بمقتضى الحكمة التامّة .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات المتقدِّمة على أُمور :

الأوّل : أنّه قد أثبت أكابر الفلاسفة المتألّهين توحيد الذات، وتوحيد المعبود، وتوحيد الصفة والفعل لله جلّ جلاله ـ بمعنى أنّه لا شريك له تعالىٰ في شيء من ذلك، فهو واحد متوحِّد متفرِّد في جميع ذلك ـ ببراهين عقليّة متينة (جزاهم الله تعالى خيرا)، ويمكن استفادة وجه يجمع تلك البراهين من قوله تعالىٰ : **﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**، فإنّه يدلّ على وجدانية الذات المستجمعة لجميع صفات الجلال الجمال والمعبودية الحقيقيّة في الإله الواحد القهّار.

وذلك بأن يُقال : إنّ الذات الجامع لجميع الكمالات الواقعيّة، والمسلوب عنه جميع النقائص كذلك، إمّا أن يفرض وجوده أو لا؟

والثاني باطل بالضرورة، والأوّل يستلزم تحقّقه كذلك، أي مسلوباً عنه جميع النقائص الواقعيّة وجامعاً لجميع الكمالات كذلك، وإلّا لزم الخلف، وهو باطل بالضرورة أيضاً، ولابدّ أن يسلب عنه الإمكان، ويكون العلم والحياة والقيوميّة والحكمة عين ذاته، لأنّ خلاف كلّ ذلك نقص، والمفروض أنّه مسلوب عنه جميع النقائص الواقعيّة مطلقاً.

الثاني : إنّما ذكر سبحانه «الحيّ القيوم» أوّلاً ورتّب عليه تنزيل الكتاب بالحقّ، ليعلم من عظمة المنزل عظمة التنزيل، فكما لا حدّ للحيّ القيوم جلّت عظمته، كذلك لا يمكن تحديد هذا الكتاب العظيم الذي نزل بالحقّ، المهيمن على جميع الكتب الإلهيّة، ويكون ترتّب تنزيل الكتاب بالحقّ على الحيّ القيوم

من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامّة المنحصرة ، يعني حيث إنّه تعالىٰ حيّ وقيوم نزل الكتاب بالحقّ .

الثالث : إنّما عبّر سبحانه بالتنزيل ، للإشارة إلى كثرة العناية والاهتمام بوجود القرآن العظيم ، فإنّه كنسخة واحدة لشرح نظامي التكوين والتشريع ، فقد تجلّى الله تعالىٰ فيه وأنزله بالحقّ ومن الحقّ ، وفي الحقّ ، وإلى الحقّ .

أمّا أنّه بالحقّ ، فهو من لوازم كونه من الحقّ المطلق ، إذ لا يعقل نزول شيء منه إلّا بالحقّ .

وأمّا أنّه في الحقّ ؛ لأنّه نزل من الحيّ القيوم إلى قلب سيّد المرسلين ، والغاية منه هو النعيم الأزلي الذي يبقىٰ ولا يفنىٰ .

الرابع : يدلّ قوله تعالىٰ : ﴿**مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ على أنّ اعتبار الكتب الإلهية السابقة إنّما يكون بإمضاء القرآن العظيم ، فهو الأصل في مدرك الاعتبار ، ويكون هو المعتمد في الموافقة والمخالفة ، وفي الكلام من براعة الأُسلوب وروعة البيان ما لا يخفىٰ .

الخامس : إنّما قدّم سبحانه تنزيل الكتاب على نبيّه في الذكر على إنزال التوراة والإنجيل ، لأنّ القرآن العظيم هو الأصل في الكتب السماويّة ، وإن تأخّر إنزاله في سير الزمان لمصالح كثيرة ؛ منها حصول استعداد النفوس لذلك ، وإلّا فهو الأوّل والأصل ، فمعارفه شموس طالعة ، وأحكامه أقمار منيرة ، وآدابه نجومٌ مضيئة ، تستشرق الأرواح من شوارقه وتستنير النفوس من بوارقه ، تحيا الأرواح حياة أبدية وتتنعّم الأشباح بنعمة سرمدية ، توصلها إلى قاب قوسين أو أدنى ، والاقتراب من العليّ الأعلىٰ .

ألمّ بنا وصفٌ أجلّ من الوصف　　أدقّ من المعنى وأخفى من اللُّطف
تمازجه الأرواح وهي لطيفة　　إذا هو روح الروح والروح كالظرف

نـــعمنابه رغداً مـــن العـــيش برهة ورأسُ رتبته المعقول في عالم الكشف

السادس: الفرقان يصحّ أن يكون وصفاً بحال ذات القرآن، فإنّه الفارق بين الحقّ والباطل، والهداية والغواية، كما يصحّ أن يكون ذلك وصفاً بحال المتعلّق، أي الفارق بين المؤمن وغيره، فيستفيد كلّ منهم بقدر لياقته واستعداده، قال تعالىٰ: ﴿**أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾[١].

السابع: إنّما كرّر سبحانه وتعالى مادّة (ن ز ل) في الآية المباركة ثلاث مرّات، للاهتمام التامّ بالمنزل وكثرة العناية به، والمراد بالكتاب في أوّل الآية المباركة هو القرآن الذي هو بين أيدينا، بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾، والمراد من التنزيل التدريجي نجوماً متفرّقة حسب تعدّد الخصوصيّات، فلاحظ سبحانه وتعالىٰ باعتبار وجوده الجمعي بعد تماميّة مراتب التنزيل وذكره مستقلّاً.

وأمّا التوراة والإنجيل فيستظهر منن الآية الشريفة: ﴿**وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ**﴾ أنّهما نزلا دفعة وهو كذلك؛ لأنّ الإنجيل مقتبس من التوراة، وهي نزلت دفعة.

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾، فهو عبارة عن المحكمات الفارقة بين الحقّ والباطل، التي تكون في ضمن القرآن، والتكرار ثانياً لكثرة أهمّيتها وجعل إنزالها إنزالاً دفعيّاً ثانياً مضافاً إلى التنزيل التدريجي، ولا بأس بجعل الاختلاف في التعبير من باب التفنّن في الكلام الذي هو من جهات الفصاحة والبلاغة.

ويمكن أن يوجّه بوجه آخر أدقّ وألطف، وهو أنّه إذا لوحظ الوحي بالنسبة إلى الموحي وقلب الموحى إليه، فهو نزول مطلقاً، لتنزّههما عن الزمان والزمانيات، ولكن إذا لوحظ بحسب هذا العالم المادّي الزماني المتدرّج الوجود، فهو تنزيل، فيكون كلّ منهما بحسب وعائه وعالمه، وبذلك يجمع بين

---

١. سورة الرعد: الآية ١٧.

جميع الآيات السابقة من غير محذور في البين.

الثامن: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ تقدير جميع الأُمور المتعلّقة بالإنسان، فيكون كفر الكافر وإيمان المؤمن غير خارجين عن تقدير الله تعالى علىٰ نحو الاقتضاء، ويكون الكلام تعميماً بعد التخصيص، وقد ذكر التقدير في الإنسان إتماماً للحجّة، وتثبيتاً لإيمان المؤمن، وتطييباً لنفوسهم وتخويفاً بانتقام الكافرين وتعريضاً بالنصارىٰ في أمر المسيح عليه السلام.

التاسع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ بعد ذكر ما تقدّم من إنزال الكتب الإلهية والفرقان والانتقام من الكافرين وتصوير الإنسان في الأرحام، على أنّ جميع ذلك دليل علىٰ وحدانيّته، وأنّه لابدّ من استنادها إلى إله واحد مدبّر حكيم، يفعل ذلك بعزّته فلا يغلبه أمر.

العاشر: أنّ المتأمّل من أهل العرفان في جملة من الآيات الشريفة من سورة آل عمران، والآيات المباركة في آخر سورة الحشر، والآيات الأُول من سورة الحديد، يعلم أنّها تتضمّن أبواباً من المعارف، وحقائق من الواقعيّات، وإشارات من المعنويات، ولا يصل إلى جميع ذلك إلّا بتصفية النفس والمجاهدة في سبيل الله تعالىٰ.

وعن بعض المشائخ: أنّ في هذه الآيات أسراراً أفاضها الله تعالى علينا، أنّه وليّ الإفاضة، خصوصاً في تكرار لفظ «هو» أربع مرّات:

تارةً: مشيراً إلى تجلّي الذات.

وأُخرىٰ: مشيراً إلى التجلّي الفعلي بتصوير صورة الإنسان، التي هي أعظم آية وعليها يدور خلق سائر العوالم.

وثالثة: مشيراً إلى تجلّي العزّة والحكمة.

ورابعة : بالتجلّي التشريعي في المعارف الحقّة والقوانين التامّة ، ويلزمه التجلّي الجزائي أيضاً ، فإنّ التشريع بلا جزاء لغو .

***

بحث روائي:

في «الكافي» عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ : ﴿**وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾ قال عليه السلام : «القرآن جملة الكتاب ، والفرقان المحكم الواجب العمل به» .

وفي «تفسير القمّي» : «الفرقان هو كلّ أمر محكم ، والكتاب جملة القرآن الذي يصدقه مَن كان قبله من الأنبياء» .

أقول : قد تقدّم ما يتعلّق بذلك في التفسير .

في «المجمع» : عن الكلبي ، ومحمّد بن إسحاق والربيع بن تنس ، وفي «الدرّ المنثور» : عن أبي إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر ، عن محمّد بن جعفر ابن الزبير، وعن ابن أبي إسحاق ، عن محمّد بن سهل بن أبي أمامة وغيرهم :

«أنّ صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران لمّا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكانوا ستّين راكباً وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم :

العاقب : أمير القوم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون إلّا عن رأيه واسمه عبد المسيح .

والسيّد: ثمالهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم .

وأبو حارثة بن علقمة: أسقفهم وحَبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتّىٰ حسن علمه في دينهم ، وكانت ملوك الروم قد شرّفوه وموّلوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده ، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة ودخلوا مسجده حين صلّى العصر ، عليهم ثياب الحبرات

جباب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، يقول بعض مَن رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس وقاموا فصلّوا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فصلّوا إلى المشرق، فكلّم السيّد والعاقب رسول الله ﷺ، فقال لهما رسول الله ﷺ: أسلما. قالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير، قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمَنْ أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسىٰ، فقال لهما النبيّ ﷺ: ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيٌّ لا يموت، وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلىٰ، قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم علىٰ كلّ شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنّ ربّنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنّ عيسىٰ حملته أُمّه كما تحمل المرأة، ثمّ وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثمّ غذى كما يغذى الصبي، ثمّ كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلىٰ، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها».

أقول: ما ورد في الرواية مطابق للأدلّة العقلية أيضاً، وليس فيها جهة من جهات التعبّد، ويمكن أن يكون نزول مجموع الآيات التي ذكرت في الرواية بعضها من باب المقدّمة لدفع احتجاجاتهم، لا أن تكون بنفسها احتجاجاً عليهم.

في «العلل» عن النبيّ ﷺ: «سُمّي القرآن فرقاناً لأنّه متفرّق الآيات، والسور نزلت في غير الألواح وغير الصحف، والتوراة والإنجيل والزبور أُنزلت كلّها جملة في الألواح والورق».

أقول: أمّا التوراة والإنجيل والزبور أُنزلت جملة واحدة، فيمكن أن يستشهد بقوله تعالىٰ: **﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾**[١].

فيستفاد منه أنّ التوراة كانت مكتوبة بالخط الأزلي في الألواح، وأمّا أنّ الألواح من أيّ شيء كانت، فلا يستفاد ذلك من الآية المباركة. ويشهد لما قلنا قوله تعالىٰ: **﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾**[٢].

وأمّا أنّ الإنجيل نزل جملة واحدة، فلقوله تعالىٰ: **﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾**[٣]، وغيره من الآيات المباركة التي يستفاد من سياقها أنّه كان مكتوباً وأتاه الله إلى عيسىٰ عليه السلام.

وأمّا الزبور، فيشهد قوله تعالى: **﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾**[٤]، فإنّ المنساق منه أيضاً النزول الجمعي.

ثمّ إنّ القرآن والفرقان من الأُمور الإضافية النسبية، فيصحّ نسبة الجمع إلى القرآن في كلّ ما يصحّ انتساب الجمع إليه، كالجمع بين الدفّتين، أو الجمع في قلب سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله، أو الجمع في اللوح المحفوظ، أو الجمع في علم الله تعالىٰ، أو الجمع في غير ما ذكر من العوالم.

كما أنّ الفرقان يصحّ بانتساب التفريق إلى كلّ ما صحّ ذلك عقلاً وشرعاً من التفريق بين المحكم والمتشابه، والتفريق بين أُصول المعارف والأحكام، والتفريق بين الآيات الدالّة على التكوين والآيات الدالّة على القصص

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٥٤.

٢. سورة الأعلى: الآية ١٩.

٣. سورة المائدة: الآية ٤٦.

٤. سورة النساء: الآية ١٦٣.

والحكايات، إلى غير ذلك من جهات الفرق. فما ذكر في الروايات في معنى الفرقان يكون من باب ذكر المصداق، كما مرّ.

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام، قال: «إنّ الله إذا أراد أن يخلق النطفة التي هي ممّا أخذ عليها الميثاق في صلب آدم عليه السلام أو ما يبدو له فيه، ويجعلها في الرحم حرّك الرجل للجماع، وأوحى إلى الرحم أن افتحي بابك حتّى يلج فيك خلقي وقضائي النافذ وقدري، فتفتح بابها، فتصل النطفة إلى الرحم، فتردّد فيه أربعين يوماً ثمّ تصير علقة أربعين يوماً، ثمّ تصير مضغة أربعين يوماً، ثمّ تصير لحماً تجري فيه عروق مشتبكة، ثمّ يبعث الله ملكين خلّاقين يخلقان في الأرحام ما يشاء الله، فيقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة، فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فينفخان فيها روح الحياة والبقاء، ويشقّان له السمع والبصر والجوارح وجميع ما في البطن بإذن الله تعالىٰ، ثمّ يوحي الله إلى الملكين: اكتبا عليه قضائي وقدري ونافذ أمري، واشترطا لي البداء في ما تكتبان، فيقولان: ياربّ ما نكتب؟ فيوحي الله عزّ وجلّ إليهما أن ارفعا رؤوسكما إلى رأس أُمّه فيرفعان رؤوسهما، فإذا اللّوح يقرع جبهة أُمّه فينظران فيه فيجدان في اللّوح صورته وزينته وأجله وميثاقه شقيّاً أو سعيداً وجميع شأنه، قال: فيملي أحدهما علىٰ صاحبه، فيكتبان جميع ما في اللوح ويشترطان البداء فيما يكتبان، ثمّ يختمان الكتاب ويجعلانه بين عينيه ثمّ يقيمانه قائماً في بطن أُمّه، قال: فربما عتا فانقلب، ولا يكون ذلك إلّا في كلّ عاتٍ أو ماردٍ، وإذا بلغ أوان خروج الولد تامّاً أو غير تامّ، أوحى الله إلى الرحم أن افتحي بابك حتّى يخرج خلقي إلى أرضي، وينفذ فيه أمري، فقد بلغ أوان خروجه، قال: فيفتح الرحم باب الولد، فيبعث الله إليه ملكاً يُقال له زاجر فيزجره زجرة فيفزع منها الولد فينقلب فتصير رجلاه فوق رأسه ورأسه في أسفل البطن ليسهّل الله

على المرأة وعلى الولد الخروج، قال: فإذا احتبس زجره الملك زجرة أُخرىٰ، فيفزع منها فيسقط الولد إلى الأرض باكياً فزعاً من الزجرة».

أقول: هذا الحديث يبيِّن جملة من أسرار التكوين ببيان واضح، والأُمور التي ذكرت فيه أسرار معنوية وأسرار تكوينيّة حقيقيّة لا تنافي الأسباب الطبيعيّة المعروفة، إذ يمكن أن يكون في شيء واحد أسباب جليّة واضحة وأسباب خفية معنوية، لا يحيط بها إلّا الله تعالىٰ، وهما في حاق الواقع يرجعان إلى شيء واحد، وكلّ واحد منهما يكون من المقتضى لتحصيل المعلول، أو يكون كلّ واحد منهما علّة تامّة مترتّبة كلّ سابقة علّة للاحقتها، فيصير كلّ واحد علّة تامّة من جهة ومقتضياً من جهة أُخرىٰ، كما هو شأن العلل والمعلولات المترتّبة في حصول النتيجة القصوىٰ.

وأمّا قوله عليه السلام: «النطفة التي ممّا أخذ عليها الميثاق»، فهو مطابق للقانون العقلي، وهو انبعاث المعلول عن علّته، ولا ريب في أنّ جميع الموجودات خصوصاً النطفة التي يريد أن يجعلها سوياً أتمّ خلق الله وأهمّه، وارتباطه تكويناً مع الله ثابت، ويصحّ أن يعبّر عن هذا الارتباط بالميثاق، فهو ميثاق تكويني من جهة، واختياري من جهة أُخرىٰ، يسمّى في الأخبار بعالم الذرّ والميثاق، كما يأتي شرحه عند قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾[1]، ويصحّ أن يعبّر عن ذلك بالطينة أيضاً، فالميثاق قضاء حتمي وما يبدو له غير حتمي متوقّف على البدء.

وأمّا قوله عليه السلام: «فتصل النطفة إلى الرحم» هذا من الأسباب الطبيعيّة، وقد تقدّم آنفاً أنّه يمكن أن يجتمع مع الأسباب المعنوية أيضاً.

---

١ . سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

وأمّا قوله عليه السلام : «ثمّ تصير لحماً تجري فيه عروق مشتبكة» ، قد ورد في ذلك كمّية وكيفيّة نصوص كثيرة ، وقد كشف العلم الحديث كثيراً منها ، وفرّع الفقهاء على ذلك تعيين دية ما في الأرحام .

وأمّا قوله عليه السلام : «ثمّ يبعث الله ملكين خلّاقين» ، يصحّ أن يعبّر عن القوّة الخلّاقة بالملك؛ لأنّ الطبيعة بأجزائها وجزئياتها كلّها من جنود الله تعالىٰ .

وأمّا قوله عليه السلام : «يقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة» ، المراد من الاقتحام هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، توضيحاً للأفهام وتشريفاً للملك ، فإنّه مختصّ بأعالي البدن ، وفي الحديث : «نظّفوا المأزقتين فإنّهما محلّ الرقيب والعتيد» ، والملك إن كان جسماً لطيفاً فهو ألطف من البخار الحاصل من حركة الدم ، فاقتحامه في البطن والعروق معلوم ، ويعبّر عن ذلك في الفلسفة بـ(الروح البخاري) ، وإن كان مجرّداً فهو أوضح من أن يخفى ، فيكون من سنخ الإدراكات المحسوسة التي توجب حصول صورة في النفس ، وكما أنّ أعالي البدن موكولة بالملك، فأسافلها موكولة بأفعال الشيطان ، كما يظهر من روايات كثيرة .

وأمّا قوله عليه السلام : «فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء» ، يمكن أن يُراد من الروح القديمة موضع مادّة الروح ، وهي ماء الرجل وماء المرأة معاً ، فيكون بمنزلة الموضوع لتعلّق الحياة به ، والتعبير بـ«القديمة» لفرض التقدّم الزماني على نفخ الروح الحياتي ، فالمراد به القدم الإضافي ، لا القدم الحقيقي .

وأمّا قوله عليه السلام : «فينفخان فيها روح الحياة والبقاء ويشقّان له السمع والبصر والجوارح وجميع ما في البطن بإذن الله تعالىٰ» ، يصحّ انطباق ذلك كلّه على القوى الطبيعيّة المسخّرة تحت أمر الله تبارك وتعالىٰ ، فإن شئت فسمّها ملكاً ، وإن شئت فسمّها قوى طبيعيّة مسخّرة تحت إرادة الله عزّ وجلّ ، ويصحّ التعبير في جميع

ذلك بـ(الحركة الجوهرية)، التي هي تحت إرادته عزّ وجلّ، لأنّ إرادته الأزلية تعلّقت بالاستكمال والترقّي والتعالي.

وأمّا قوله عليه السلام: «ثمّ يوحي الله إلى الملكين: اكتبا عليه قضائي وقدري ونافذ أمري واشترطا لي البداء فيما تكتبان»، يظهر من جملة من الروايات أنّ المكتوب عليه هو الجبين. وأمّا اشتراط البداء فيدلّ عليه نصوص كثيرة، الدالّة على ثبوته في جملة من موارد القضاء والقدر، وسنتعرّض لتفصيل ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

وأمّا قوله عليه السلام: «فيقولان: ما نكتب؟ فيوحي الله عزّ وجلّ إليهما: أن ارفعا رؤوسكما إلى رأس اُمّه فيرفعان رؤوسهما فإذا اللوح يقرع جبهة اُمّه فينظران فيه»، لأنّ محلّ مجمع الحواس هو الجبهة، فيكون أشرف من سائر أعضاء البدن، والتخصيص بالاُمّ لأنّ الأب قد انفصل عنه بانفصال النطفة، ولكثرة علاقة الاُمّ بالحمل، ولذا يكون جبينها حاملاً للمواثيق.

وأمّا قوله عليه السلام: «فيجدان في اللوح صورته وزينته وأجله وميثاقه سعيداً أو شقيّاً وجميع شأنه فيملي أحدهما على صاحبه فيكتبان جميع ما في اللوح ويشترطان البداء فيما يكتبان»، ولعلّ اشتراط البداء من أجل أنّ الحوادث اللاحقة على الإنسان وما يجري عليه في المستقبل، تكون لأجل مقتضيات خاصّة لابدّ من تبدّلها وتغيّرها، فلابدّ من اشتراط البداء حينئذٍ، حفظاً لنظام الأسباب والمسبّبات، وممّا ذكرنا ظهر شرح بقيّة الحديث.

القمّي في قوله تعالىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾، قال عليه السلام: «يعني ذكراً أو اُنثىٰ وأسود أو أبيض وأحمر وصحيحاً وسقيماً».

أقول: ما ذكره عليه السلام من باب الغالب والمثال، وإلّا فتصوّرات الأرحام بالنسبة إلى جميع الجهات والمقتضيات غير معلومة إلّا له تبارك وتعالىٰ، ولذا قال تعالىٰ: ﴿**كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ معلّق على مشيئته غير المحدودة، ويشهد لذلك أنّه عليه السلام لم يذكر

الجمال ـ مثلاً ـ مع أنّه من أهمّ وأتمّ جهات صور الإنسان .

***

بحث فلسفي:

عن جمع من الفلاسفة أنّهم حدّدوا الفيض النازل من الحيّ القيوم إلى الممكنات بحدّ خاصّ مترتّب طولاً ، فلا يستفيض كلّ لاحق إلّا بواسطة السابق عليه ، وجعلوا أوّل هذه السلسلة ما اصطلحوا عليه بـ«القاهر الأعلى» ، وآخرها ما أسموه بـ«الهيولى الأولىٰ» ، وفصّلوا القول في ذلك بالنسبة إلى خلق الممكنات من علوياتها وسفليّاتها ، وهو تصوّر حسن في نفسه ، ولكنّه تحديد لقدرة الله تبارك وتعالى وإرادته الكاملة ، بحسب غاية ما يدركونه بعقولهم ، وهو أعمّ من الواقع بلا إشكال؛ لأنّ الواقع ذاتاً وصفة وفعلاً ومن كلّ حيثيّة وجهة غير محدود ، فكما أنّ ذاته الأقدس أجلّ من أن يحيط به العقول ، فكذا صفاته العليا وفعله وسائر ما هو من ناحيته جلّت عظمته ، فلا يمكن تحديد قوله تعالىٰ : ﴿**إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ بشيء أبداً .

نعم إن أرادوا به السنّة الإلهيّة من أنّه أبى أن يجري الأُمور إلّا بأسبابها ، فهو صحيح ، ولكن لا دليل علىٰ تحديد ما ذكروه من عقل أو نقل ، وللبحث بقيّة نتعرّض لها إن شاء الله تعالىٰ .

***

بحث عرفاني:

لاريب في أنّ الإنسان أشرف الممكنات ، لأنّه الفصل الأخير لجميعها في المسير الاستكمالي ، فيكون الكلّ متوجّهاً إليه بالتكوين ، توجّه المقدّمات بالنتيجة .

وفيه اجتمعت العلل الأربع؛ أمّا العلّة الفاعلية ، فقد قال الله تعالى بعد ذكر

الأدوار وعوالم خلق الإنسان: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١].

وأمّا العلّة المادّية، فقد أخبر سبحانه وتعالى أنّه المباشر للخلق والتربية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾[٣].

وأمّا العلّة الصورية قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾[٤].

وأمّا الغائية فقد قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾[٥].

فجميع الموجودات يحبّ الإنسان محبّة تكوينيّة، فالكلّ مسخّر له، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[٦]، كما أنّ الإنسان بطبعه يحبّ جميع الموجودات لفرض تفانيها فيه، فتكون المحبّة والعشق من الطرفين (أي تعاشقا)، فالموجودات كالشجرة بالنسبة للإنسان وهو كالثمرة، فخلقت الدُّنيا له ولأجله.

فلابدّ للإنسان من بذل الجهد لكشف أسرار الموجودات ورموزها واستخراج الحقائق منها، وذلك لا يكون إلّا بالارتباط التامّ مع الربّ المطلق والقيوم بالحقّ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

---

١. سورة المؤمنون: الآية ١٤.

٢. سورة ص: الآية ٧١.

٣. سورة الأنعام: الآية ٢.

٤. سورة الحشر: الآية ٢٤.

٥. سورة البقرة: الآية ٢٩.

٦. سورة لقمان: الآية ٢٠.

بَرَكَاتٍ مِنْ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[١]، فهو أشدّ أنحاء العلم وأمتنه وأقواه، كما أثـبته الفلاسفة ـ من قديمهم وحديثهم ـ وجميع أهل العرفان.

ولكن الإنسان قصّر في ذلك، فأوقع نفسه في ظلمات بعضها فوق بعض، لا يمكنه التخلّص عن بعضها فكيف عن جميعها، قال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[٢]، وليس المراد بهذا المشي في طـريق خـاص أو عـلم مخصوص، بل المشي في جميع أبواب العلوم والمعارف، مشياً مطابقاً للـواقـع يصل إلى النتيجة الحقّة، قال تعالىٰ: **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾**[٣].

***

---

١. سورة الأعراف: الآية ٩٦.

٢. سورة الحديد: الآية ٢٨.

٣. سورة الحشر: الآية ١٩.

الآية ٧

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝٧﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالىٰ في الآيات المتقدِّمة نزول الكتاب على النبيّ الهادي الأمين، بيّن في هذه الآية الشريفة بعض أوصاف الكتاب، بأنّه يشتمل على أُصول المعارف واضحة ومفهومة، هي أُمّ الكتاب، وأُخرىٰ يصعب درك المراد منها، فتختصّ معرفتها به جلّت عظمته وبالأنبياء والأولياء الأُمناء على الوحي المرتبطين به عزّ وجلّ، فيعول في درك حقائقها عليهم، فإنّ معرفة تلك الأُصول والآيات تفوق العقل البشري، فلا يعلم حقائقها إلّا الله العالم المحيط بما سواه، أو الذين أفاض عليهم أنوار علومه، وكرّمهم بمعرفة أسرار كتابه ورموزه والإحاطة بتأويله، فهم يشرحون لمَن دونهم الواقع المطلوب وما استفادوه من الغيب المحجوب. وهذا من إحدى جهات جامعيّة هذا الكتاب المبين، وكمال نظمه في تقنين القوانين..

ولكن الذين في قلوبهم انحراف وضلال عن سواء الفطرة، ويميلون عن

الحقّ، يتركون الأُصول الواضحة والمعارف الحقّة التي تطابقت مع فطرة العقول، ويتحرّون وراء المتشابه، طلباً لإيقاع الفتنة بين الناس وإضلالهم وتلبيس الواقع عليهم.

على خلاف الذين بلغوا من علمهم ما يعرفون به الحقائق، واعترفوا بالحقّ الواقع بأنّ جميع الكتاب وكلّه لله تعالى، فأرشدوا الناس إلى الهداية والسعادة. وختم سبحانه وتعالى الآية المباركة بمدحهم مدحاً بليغاً لا حدّ له، فوصفهم بأنّهم من أُولي الألباب.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ**﴾.

تقدّم الفرق بين الإنزال والتنزيل بالنسبة إلى جميع الآيات المباركة بوجه كلّي، وإنّما ذكر عزّ وجلّ الإنزال لأنّ المقصود الأهمّ في المقام هو بيان تبعيض الآيات الشريفة، بأنّ بعضها محكمات والأُخرى متشابهات.

ومادّة (حكم) تأتي بمعنى الإتقان والإصلاح والحتم والمنع عن الخبط والفساد، وهي كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، قال تعالىٰ ـ حكايةً عن نوح ـ: ﴿**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ**﴾[1]، وفي الحديث: «إنّ الجنّة للمحكمين»، أي الذين حتم عليهم القتل بعدما خيّروا بين الشرك والقتل فاختاروه على الشرك.

والإحكام في الكتاب تستعمل في موردين:

الأوّل: بالنسبة إلى جميع هذا الكتاب العظيم، المشتمل على الأُسلوب

---

١ . سورة هود: الآية ٤٥.

المحكم المتقن والصادر من المصدر الأزلي الحكيم، وهذا وصف لجميع آيات القرآن حتّى المتشابهات منه، لأنّها منه عزّ وجلّ، وهي محكمة من تمام الجهات، من حيث الصدور، ومن حيث الأُسلوب، ومن حيث الإعجاز، ومن حيث الهداية، فهي محكمة بجميع ما مرّ من معاني الإحكام، قال تعالىٰ: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[1].

الثاني: في مقابل المتشابه، فتصير الآيات الشريفة حينئذٍ علىٰ قسمين، محكمة ومتشابهة، والمراد من المحكمات في هذه الآية الشريفة معلومة الدلالة ومفهومة المراد، أي مصونة عن طروّ التردّد والاحتمال عند الأذهان المستقيمة.

قوله تعالىٰ: ﴿**هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾.

مادّة (ا م م) تأتي بمعنى الأصل، قال تعالىٰ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾[2]، وسمّي اللوح المحفوظ بـ(أُمّ الكتاب)، قال تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[3]، وأُمّ النجوم المجرّة، وسمّيت المحكمات أُمّ الكتاب لأنّها أُصول المعارف الإلهيّة، والقوانين الخلقية، وتنظيم الأنظمة الدنيوية والأُخرويّة، فإذا كانت المحكمات أُصول القرآن فهي أُصول جميع الكتب السماويّة، لأنّ جميع الكتب السماوية شوارق من أشعّة القرآن، استشرقت بها قلوب الأنبياء السابقين، حتّى تجلّت بتمامها في قلب سيّد المرسلين، فشرقت شوارق قلبه المقدّس بعد الاتّصال بالذات الأقدس بجوامع الكلم التي هي في نفسها مدار الفقه والفلسفة

١. سورة هود: الآية ١.

٢. سورة الشورىٰ: الآية ٧.

٣. سورة الزخرف: الآية ٤.

والبرهان لأهل اليقين والعرفان، لاتّصال النور بالنور، فيشعّ في مراتب البروز والظهور.

والتشابه من الشبه، وهو من المفاهيم العامّة الاستعمال في المحاورات الدائرة بين الناس، فيستعمل في مطلق مشابهة شيء بشيء آخر كيفاً أو كمّاً أو في جهة أُخرىٰ، وربما يكون ظهور اللفظ في معنى عرفي يوجب التشابه والالتباس في مورد الاستعمال، كقوله تعالىٰ: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2]، كما أنّ المجمل كذلك أيضاً.

وقد يتّصف جميع الكتاب بالتشابه أيضاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾[3]، لتشابه جميع آياته في الفصاحة والبلاغة وبديع الأُسلوب وكمال الجمال، وأنّها صادرة عن مبدئ حكيم قدير، لا يمكن أن يحيط بحكمته وصنعه إدراك الممكنات.

وهو غير التشابه الذي ورد في هذه الآية الشريفة كما في المحكمات، والمعنى أنّ الآيات المحكمات التي هي أُمّ الكتاب هي الأصل الذي لابدّ أن يرجع إليه عند قصور العقول عن درك معاني غيرها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

مادّة (ز ي غ) تأتي بمعنى الميل عن الاستقامة إلى خلافها، وهي مستعملة بهيئات كثيرة في القرآن، لعلّ أشدّها على النفس قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[4].

---

١. سورة الفتح: الآية ١٠.

٢. سورة طٰه: الآية ٥.

٣. سورة الزمر: الآية ٢٣.

٤. سورة الصف: الآية ٥.

وزيغ القلوب ميلها عن الحقّ، وله مراتب كثيرة فعلاً وقولاً واعتقاداً، بل وخطرة في القلب، والكلّ مضبوط لدى العليم الخبير بالدقائق والشاهد للحقائق.

والآية الشريفة تعبّر عن أحوال الناس في تلقّيهم الآيات الشريفة بمحكماتها ومتشابهاتها، فإنّ منهم مائلاً عن الحقّ، يتبع المتشابه ابتغاءً للفتنة والضلال، كما عبّر جلّ شأنه بـ﴿**ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿**ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾.

مادّة (ب غ ي) وردت بمعنى طلب تجاوز الاقتصاد كمّاً وكيفاً، تجاوزه أو لم يتجاوزه.

والبغي علىٰ قسمين: محمود ومذموم.

والأوّل: مثل قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً**﴾[1]، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إنّ الله يحبّ بغاة العلم»، وكذا تجاوز العدل إلى الإحسان.

والثاني: كتجاوز الحقّ إلى الباطل أو الشبه.

والتمييز بينهما بالقرائن، فإن كان الطلب لشيءٍ محمود، فالابتغاء فيه يكون كذلك، وإذا كان الطلب مذموماً، فالابتغاء مذموماً أيضاً، ولكن أكثر موارد استعماله يكون في الذمّ.

وهيئة الافتعال تدلّ علىٰ كثرة الاهتمام بذلك، قال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾[2].

والفتنة: الاختبار، من قولهم فتنت الذهب بالنار، أي اختبرته للتمييز بين

---

١. سورة الإسراء: الآية ٢٨.

٢. سورة الرعد: الآية ٢٢.

جيّده ورديّه، ولها مراتب كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿**وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً**﴾[١]، وتستعمل في النار وفي العذاب أيضاً من باب استعمال اللفظ في بعض لوازم المعنىٰ، وليس ذلك من المشترك اللفظي في شيء، قال تعالىٰ: ﴿**ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾[٢]، أي عذابكم، وقوله تعالىٰ: ﴿**أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا**﴾[٣]، والتأويل من الأَوْل، أي الرجوع إلى الأصل، أو البيان، وله مراتب كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**﴾[٤]، ولكن البيان..

تارةً: يكون واقعيّاً وعن حجّة معتبرة، وهو ممدوح.

وأُخرىٰ: يكون اعتقاديّاً وبلا حجّة معتبرة، وهو مذموم.

والمعنى: أنّ الذين في قلوبهم زيغ يميلون عن المحكمات إلى المتشابهات، لأجل ابتغاء الفتنة، أو ابتغاء تفسير الآية وبيانها حسب آرائهم ومعتقداتهم.

وسياق الآية الشريفة أنّها في مقام ذمّ الصنفين، فلابدّ وأن يكون ابتغاء الأمرين بالاختيار والتعمّد حتّى يتعلّق به الذمّ، وكذا إذا كانا منتسبين إلى قصور الإدراك وترتّب علىٰ ذلك الفتنة والتأويل بلا اختيار وعمد لهما، كبعض مَنْ فسّر الآيات المتشابهة من القرآن وبيّنها برأيه الخاصّ، مغروراً بنفسه، فيصحّ توجيه الذمّ إليه لتقصيره في السبب.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**﴾.

---

١. سورة طه: الآية ٤٠.

٢. سورة الذاريات: الآية ١٤.

٣. سورة التوبة: الآية ٤٩.

٤. سورة الأعراف: الآية ٥٣.

الرسوخ: الثبوت والاستقرار والتحقّق، وله مراتب كثيرة كمراتب أصل الإيمان به جلّت عظمته، ولم يستعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم إلّا في موردين، أحدهما المقام، والثاني قوله تعالىٰ: **﴿لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾**[1].

والمعروف بين المفسّرين وجمع من الأدباء أنّ جملة: **﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾** مستأنفة، وأنّ الجملة الأُولىٰ مبتدأ والثانية خبر، فيكون المعنى أنّ الراسخين في العلم يقولون آمنّا بالله عزّ وجلّ وأنّ الآيات كلّها من عند الله تعالىٰ، في مقابل مَنْ كان في قلبه زيغ فيتّبع ما تشابه منها.

ويرد عليه: أنّ قول كلّ من عند ربّنا، قول عامّة المسلمين، فإنّهم يعتقدون بأنّ القرآن كلّه من عند الله تعالى، بلا فرق بين عالمهم وجاهلهم وأهل البادية والسوق منهم، وسياق الآية الشريفة سياق المدح والثناء، فيختصّ بقوم خاصّ، ولا يعمّ كلّ مَنْ قرأ القرآن ولا يلتفت إلى مداليل الآيات المباركة ومعانيها، فهذا الوجه مخدوش.

إلّا أن يراد من الراسخين في العلم المعنى السلبي، أي مَن ليس في قلبه زيغ ولم يمل من الحقّ إلى الباطل، فيشمل عامّة المسلمين أيضاً، ولا يختصّ بصنف خاص، فيصير معنى الآية المباركة مَن كان بصدد الإضلال والإلحاد يتبع المتشابه، ومَن لا يكون كذلك يقول كلّ من عند الله.

وهو بعيد عن سياق الآية الشريفة أيضاً.

والمنساق من الآية الشريفة أنّ الجملة معطوفة على الله، أي لا يعلم تأويله

---

١. سورة النساء: الآية ١٦٢.

إلّا الله والراسخون في العلم. والراسخ في العلم منحصر بسيّد الأنبياء ﷺ ومَن استفاد منه هذا العلم، حيث قال فيه: «اللّهُمَّ علّمه التأويل»، وعن عليّ عليه السلام: «علَّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح من كلّ باب ألف باب»، فالجملة ليست مستأنفة بل معطوفة على المستثنى، ويكون من قبيل عطف البعض على الكلّ مثلاً، لأنّ هذا العلم بالنسبة إلى الله تعالى أوّلاً وبالذات، وبالنسبة إلى سيّد الأنبياء ثانياً وبالعرض. فيكون كنسبة علم المتعلّم إلى المعلِّم، وهذا الوجه هو الظاهر من الآية المباركة، وتدلّ عليه روايات كثيرة، كما يأتي. وإنّما أتى بلفظ الجمع تعظيماً وإجلالاً، وليشمل المصطفى سيّد المرسلين والمتّقين، الذي هو في قمّة مقام اليقين بالنسبة إلى المعارف الربوبيّة، ولا فرق بين علمه ﷺ بالتأويل وعلمه تعالى به إلّا بالاعتبار، لفرض أنّ علمه بالتأويل من علم الله تعالى، فالفرق بينهما بالمظهر (بالضم) والمظهرية (بالفتح) في مقام التنزيل والتأويل، ولذا صار ﷺ خاتماً لمَن سبق وفاتحاً للعلوم والمعارف لمَن لحق، وهذا في الممكنات يختصّ به، فهو الراسخ في علميّ التنزيل والتأويل بحقيقة معنى الرسوخ علماً وعملاً.

على أنّ الآية الكريمة ليست بعديمة النظير، فإذا ألقى ملك عظيم خطاباً على رعيّته، وكان الخطاب مشتملاً على محكوم ومتشابه وتأويل، يكون أخصّ وزراء ذلك الملك أعرف بمتشابهاته وتأويلاته من غيره، فكيف بمقام الرسالة الأحمدية التي هي أتمّ مرآة للمعارف الربوبيّة؟!

مع أنّه لا ثمرة لهذا النزاع بعدما عرفت من أنّ للتأويل والغيب مراتب متفاوتة، فبعضها يختصّ به سبحانه وتعالى، وبعضها مستلهم منه تبارك وتعالىٰ، ومحمّد ﷺ هو قائد هذا العلم ومَن تعلّم منه، فلا نزاع في البين على هذا، سواء كانت الجملة مستأنفة أو معطوفة.

نعم، يتصوّر النزاع الصغروي في بعض مصاديق الراسخين، وسيأتي في البحث الروائي ما يتعلّق بذلك.

وما عن بعض من أنّ الجملة مستأنفة، وأنّ التأويل منحصر به عزّ وجلّ، لأنّ أدب القرآن الكريم في نظام المقام جرى على أن يذكر النبيّ الأعظم أوّلاً مستقلّاً بعنوان الرسالة ونحوه، ثمّ يعطف عليه البقيّة، قال تعالىٰ: **﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾**[١]، وقال تعالىٰ: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾**[٢]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الشريفة.

غير صحيح، أوّلاً: بأنّه تعالى ذكر رسوله في بدء الكلام، بقوله جلّ شأنه: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾**.

وثانيها: إنّما هو على فرض كلّيته يكون فيما إذا كان مع الرسول غيره يجمعهما شيء واحد، كما في الآيات المباركة المتقدِّمة.

قال تعالىٰ: **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾**[٣].

وقال تعالىٰ: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾**[٤].

وأمّا إذا كان الموضوع منحصراً به ﷺ، وكانت البقيّة منبعثة منه انبعاث الأشعّة من الشمس، فلا تعدّد ولا اشتراك حينئذٍ، فلا حاجة لذكره ﷺ

---

١. سورة التوبة: الآية ٨٨.

٢. سورة التوبة: الآية ٢٦.

٣. سورة آل عمران: الآية ٦٨.

٤. سورة التوبة: الآية ٢٦.

بالخصوص بعد فرض الحصر فيه.

ودعوى: أنّ العلم بالتأويل منحصر به جلّ شأنه، ولا يتعدّى عنه، لأنّه من علم الغيب الذي اختصّ به، فينحصر التأويل به تعالىٰ ولا يعمّ غيره.

مخدوشة: بأنّ العلم بالغيب مختصّ به تعالى بالذات بلا إشكال، عقلاً ونقلاً، ولكن أنبياءه وأولياءه يستلهمون بعض ذلك منه ويظهرونه للناس، إثباتاً لمقامهم واحتجاجاً على الخلق، فليكن المقام كذلك.

وقولهم: آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا، من قبيل ترتّب المعلول على العلّة، لأنّ علمهم بأنّ جميع الآيات الشريفة من المحكم والمتشابه من عنده تعالى يوجب الإيمان بالكلّ، فلا متشابه عندهم في الواقع، لأنّهم بما علّمهم الله تعالى من علم التأويل يردّون المتشابه إلى المحكم، فهما بمنزلة قرينة اللفظ، وذي القرينة عندهم بخلاف غيرهم، فيتحقّق عندهم المتشابه ويأخذون به ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل.

والمعنى: وما يعلم تأويل القرآن كلّه إلّا الله والراسخون في العلم، الذين كرّمهم الله تعالى بهذه الرتبة بتعليمه لهم، ومع العلم بتأويله يقولون آمنّا بالكتاب كلّ من المحكم والمتشابه والتنزيل والتأويل من عند ربّنا.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾**.

اللّب: العقل الخالص عن كلّ الشوائب، وإنّما عبّر سبحانه وتعالى بالتذكّر، لأنّ التذكّر والتفكّر في المعارف الربوبيّة من شؤون العقل الخالص، فإنّ أُولي الألباب يتفكّرون في المعارف الإلهية، فينتقلون من المعلول إلى العلّة أو بالعكس.

والآية المباركة تبيّن شرف الخطاب والمخاطب، إذ نفس هذا الخطاب

خطاب تشريفي، فلابدّ وأن يكون المخاطب مَن له الإضافة التشـريفيّة، وليس ذلك إلّا مَن كان من أُولي الألباب، وقد مدحهم سبحانه وتعالى في جملة كثيرة من الآيات المباركة، ولعلّ أهمّها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[1].

***

١. سورة آل عمران: الآية ١٠٩.

بحوث المقام

بحث أدبي:

تقدّم أنّ سياق الآية الشريفة يدلّ على أنّ جملة: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، فتكون جملة: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ في موضع الحال ومحلّه النصب لذلك، أي مع كونهم راسخين في العلم قائلين آمنّا به كلّ من عند ربّنا، واستشهدوا لذلك بقول الشاعر:

الريح تبكي شجوةً والبرق يلمع في غمامة

أي: أنّ البرق يبكي أيضاً لامعاً في غمامة، فإنّ هذا المقال صفة عامّة لكلّ مسلم، سواء كان راسخاً في العلم أم مَن كان في قلبه مرض، فهذه الآية تبيّن صفتين للراسخين في العلم:

أحدهما: جهة رسوخهم في العلم.

ثانيهما: جهة إيمانهم وتسليمهم للكتاب من كلّ جهة، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنّهم يقولون إنّ المتشابه والمحكم من عند ربّنا، لكنّهم يتّبعون المتشابه ولا يردّونه إلى المحكم، لأغراضهم الفاسدة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾. أصل يذكر يتذكّر، وفيه الابدال، فإنّ أهل اللغة ذكروا قاعدة وهي إنّ تاء الإفتعال لو وقعت بعد دال أو ذال أو زاي انقلبت دالاً، نحو: أدان، واذدكر وازدان، ويجوز في نحو اذدكر قلب الذال دالاً أو الدال ذالاً، فتقول: ادكر واذكر.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآية الشريفة أُمور:

الأوّل: استعمال لفظ (الأُم) مضافاً في القرآن الكريم وكلمات الفصحاء كثير جدّاً، مثل قوله تعالىٰ: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾[1]، بل لا يستعمل هذا اللفظ إلّا مضافاً إلى الظاهر أو المضمر، وهذه الإضافة لاريب في أنّها تفيد الاختصاص، وأنّها:

تارةً: تكون من قبيل اختصاص المادّة للصور المتعدّدة.

وأُخرىٰ: من الاختصاص الخارجي.

وإنّما عبّر سبحانه وتعالىٰ: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ للدلالة على أنّ مجموع المحكمات من الآيات المباركة بمنزلة المادّة لجميع الآيات الشريفة، فلابدّ من رجوعها إليها، فتكون الإضافة من قبيل الأوّل، بمعنى أنّ المحكمات بمنزلة المادّة للآيات الشريفة، فلابدّ من رجوع جميعها إليها، وإلّا يكون من قبيل الصورة بلا مادّة، وهو غير ممكن.

الثاني: إنّما قدّم سبحانه وتعالى (الفتنة) على (التأويل)؛ لأنّها أهمّ وأعمّ بالنسبة إليه، لكون الفتنة أكثر وقوعاً، وأقوى في الإغواء والإضلال من التأويل، لأنّه إخبار عن معتقد الشخص قد يمكن أن لا يعتني المخاطب بمعتقده، بخلاف الفتنة، فتكون أشدّ وأغوىٰ في الإضلال عن التأويل.

الثالث: سياق الآية المباركة يدلّ على الذم إن جزم بالمتشابه من دون إرجاعه إلى المحكم وترتّب الأثر عليه، فيدخل في ذلك جميع الآراء الفاسدة والمذاهب الباطلة التي يتمسّك بها ببعض الآيات المتشابهة لإثبات ما يدّعونه.

وأمّا مجرّد الاحتمال فقط من غير قصد ترتّب الأثر عليه، لا يكون من اتباع المتشابه وابتغاء الفتنة، نعم لو حرّر ذلك ودوّن وعلم أنّه يتبع احتماله غيره ويترتّب عليه الأثر، يدخل تحت الآية الشريفة.

---

١. سورة الشورىٰ: الآية ٧.

الرابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ المعنى السلبي، أي عدم الحجاب لديهم عن درك الحقائق القرآنية، والمعنى الإيجابي، أي معاينة الواقع والحقيقة، فهما متلازمان.

وللرسوخ في العلم مراتب متفاوتة يمكن جمعها في ثلاثة: علم الله جلّ جلاله، وعلم رسوله الأمين ﷺ، وعلم مَن علّمه رسول الله، وستأتي بقيّة الكلام في الآيات الآتية إن شاء الله تعالىٰ.

الخامس: إنّما كرّر سبحانه وتعالىٰ: (الابتغاء) في الآية الشريفة مع قرب متعلّقهما، دفعاً لتوهّم رجوع التأويل إلى الفتنة.

السادس: إنّما أطلق سبحانه وتعالى الفتنة ليشمل كلّ فتنة تقع في الخارج مستندة إلى التمسّك بالآيات المتشابهة، سواء كانت دنيوية أم أُخرويّة، نوعيّة كانت ـ كالفتن التي تهدف الاجتماع وتفسده ـ أم شخصيّة، وسواء كانت في العقيدة، كالبدع، أم في غيرها، دائميّة كانت أو محدودة.

السابع: اتباع المتشابه لغرض ابتغاء الفتنة ـ كما تقدّم ـ من باب الحكمة، لا من باب العلّة، وقد تترتّب على ابتغاء المتشابه أغراض فاسدة أُخرىٰ.

الثامن: ابتغاء الفتنة قد يكون عن اختيار والتفات، وقد يكون مترتّباً على إشاعة المتشابه، ترتّب الأثر على المؤثّر، أي الابتغاء يكون بلا اختيار ولا التفات، وإن كان الاتّباع اختيارياً، وإطلاق الآية المباركة يشمل كلا القسمين.

التاسع: إنّما ختم سبحانه وتعالى الآية الشريفة بالثناء على الراسخين بقوله جلّت عظمته: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾، للدلالة على أنّ ذوي العقول الكاملة يتلقّون ممّا وهبهم الله تعالى من علم التأويل في ردّ الآيات المتشابهة إلى المحكمات، ولكن القشريّين يتّبعون المتشابه.

***

بحث روائي:

في «الكافي» عن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال:

«إنّ أُناساً تكلّموا في القرآن بغير علم، وذلك أنّ الله تبارك وتعالىٰ يقول: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾**، فالمنسوخات من المتشابهات، والمحكمات من الناسخات».

أقول: هذه الرواية محمولة على ذكر بعض المصاديق، لا الحصر الحقيقي.

في «تفسير العيّاشي»: «سُئل الصادق عليه السلام عن المحكم والمتشابه؟

قال: المحكم ما يعمل به، والمتشابه ما اشتبه على جاهله».

أقول: المراد بالجاهل مَن لم يكن راسخاً في العلم، وإلّا فمَن كان كذلك مثل رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا وجه للتشابه والتأويل بالنسبة إليه، وسيأتي في البحث العلمي ما يدلّ على ذلك.

في «تفسير العيّاشي» ـ أيضاً ـ: عن أبي عبدالله عليه السلام: «إنّ القرآن محكم ومتشابه، فأمّا المحكم فتؤمن به، وتعمل به، وتدين به، وأمّا المتشابه فتؤمن به ولا تعمل به، وهو قول الله عزّ وجلّ: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾**، والراسخون في العلم هم آل محمّد».

أقول: هذه الرواية تدلّ على ما تقدّم في التفسير من أنّ الجملة عطف على اسم الجلالة، وأنّ الذين في قلوبهم زيغ يعتقدون بأنّ جميع الآيات بأصنافها من عند الله تعالىٰ، ولكنّهم يتّبعون المتشابه لابتغاء الفتنة ويعملون به.

وقوله عليه السلام: «وأمّا المتشابه فتؤمن به ولا تعمل به»، فهو مطابق لفطرة العقول، إذ المجمل لا اعتبار به لديهم، فلابدّ من ردّه إلى المحكم والمفصّل.

وأمّا قوله عليه السلام: «والراسخون في العلم هم آل محمّد»، فقد تقدّم أنّهم علموا ذلك بالوراثة عن خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله، ويأتي ما يدلّ على ذلك.

في «تفسير العيّاشي» عن مسعدة بن صدقة، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه؟ قال: الناسخ الثابت المعمول به، والمنسوخ ما قد كان يعمل به ثمّ جاء ما نسخه، والمتشابه ما اشتبه على جاهله».

أقول: تقدّم في الرواية الأُولى عن الصادق عليه السلام ما يتعلّق بهذه الرواية.

وفي رواية أُخرىٰ: «الناسخ الثابت، والمنسوخ ما مضى، والمحكم ما يعمل به، والمتشابه الذي يشبه بعضه بعضاً».

تقول: المراد من الثابت، أي الحجّية في العمل به، كما أنّ المراد من ما مضى، أي مضى أمده وانتفت حجّيته، وسيأتي في البحث العلمي ما يتعلّق بالمقام.

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام: «المنسوخات من المتشابهات».

أقول: تقدّم أنّه من باب ذكر أحد المصاديق، فلابدّ وأن يحمل على قبل العلم بالناسخ، وإلّا فيزول التشابه لا محالة.

في «الكافي» عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام، قال: «نحن الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله».

أقول: لأنّ علمهم من علم رسول الله صلى الله عليه وآله، وورثوا ذلك منه بالوراثة العلمية والنسبيّة.

في «الكافي» عن بريد بن معاوية، عن أحدهما عليهما السلام في قول الله عزّ وجلّ: « **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾**، فرسول الله أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله عزّ وجلّ جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه، والذين لا

يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلم فأجابهم الله بقوله : ﴿**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**﴾، والقرآن خاص، وعام، ومحكم، ومتشابه، وناسخ، ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه» .

أقول : هذا بيان لأصل الراسخ في العلم، وهو رسول الله ﷺ، وما يتفرّع منه، وهم أوصياؤه العظام، كما مرّ في التفسير، وسيأتي في البحث العلمي ما يتعلّق بذيل الرواية .

في «الكافي» عن أبي الصباح الكناني عن الصادق عليه السلام : «نحن قوم فرض الله عزّ وجلّ طاعتنا، لنا الأنفال، ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم» .

أقول : المراد من الطاعة هنا اتّباع أقوالهم وأفعالهم، لأنّ قولهم وفعلهم عليهم السلام حاكيان عن قول النبيّ ﷺ وفعله، وكلّ مَن قال عن النبيّ ﷺ شيئاً يجب إطاعته، لأنّ قوله يكون قول النبيّ ﷺ، وهو قول الله عزّ وجلّ .

عن عليّ عليه السلام في حديث له مع معاوية : «القرآن حقّ ونور وهدى ورحمة وشفاء للمؤمنين الذين آمنوا، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، يا معاوية إنّ الله عزّ وجلّ لم يدع صنفاً من أصناف الضلالة والدّعاة إلى النار إلّا وقد ردّ عليهم واحتجّ في القرآن، ونهى عن اتّباعهم وأنزل فيهم قرآناً ناطقاً عليهم، علمه من علمه وجهله من جهله، وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليس من القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن ولا منه حرف إلّا وله حدّ مطلع على ظهر القرآن وتأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم، وأمر الله عزّ وجلّ الأئمّة أن يقولوا : آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا، وأن يسلموا لنا وأن يردّوا علمه إلينا، وقال عزّ وجلّ : ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ ويطلبونه» .

أقول : الروايات في أنّ للقرآن ظهراً وبطناً كثيرة، وفي بعضها سبعة أبطن،

وذلك كلّه محمول على مراتب التأويل، التي يعلمها مَن علم تأويل القرآن، كما سيأتي.

وأمّا قوله عليه السلام : «وله حدّ مطلع على ظهر القرآن»، المراد من هذا المطلع ما يفهمه العالم بالتأويل، وعلمه مختصّ بالراسخ في العلم، والرسوخ في العلم لا يحصل بكثرة الممارسة، بل نور يستوهب من رسول الله صلى الله عليه وآله، كما مرّ.

وأمّا قوله عليه السلام : «وأمر الله عزّ وجلّ الأئمّة أن يقولوا آمنّا به كلّ من عند ربّنا»، قد أثبتنا في التفسير أنّ ذلك لا ينافي كونهم راسخين في العلم، ومع ذلك يؤمنون بأنّ الكلّ منزل من عند الله تبارك وتعالىٰ.

وأمّا قوله عليه السلام : «أن يردّوا علمه إلينا وقال الله عزّ وجلّ: **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾**، يظهر من سياق هذه الرواية وذكر هذه الآية الشريفة في ذيلها أنّ الاستنباط من القرآن لابدّ وأن يكون للراسخ في العلم فيه، وهو كذلك لما تقدّم غير مرّة من أنّ القرآن الكريم لا يشرحه إلّا السنّة، فهو كالمتن لها، لا يفهم المراد من المتن إلّا بالرجوع إلى السنّة المقدّسة.

في «تفسير العيّاشي» عن بريد بن معاوية، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم، فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من التنزيل والتأويل، وما كان لينزل عليه شيئاً لم يعلمه التأويل، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه.

قال: جعلت فداك، إنّ أبا الخطّاب كان يقول فيكم قولاً عظيماً.

قال: وما كان يقول؟

قلت: قال: إنّكم تعلمون علم الحرام والحلال والقرآن.

قال: إنّ علم الحلال والحرام والقرآن يسير في جنب العلم الذي يحدث في

الليل والنهار».

أقول: أمّا أنّ الله تبارك وتعالى علّم رسوله جميع ما أنزل، فهو حقّ واقع، إذ لا معنى للوحي والتشريع بالنسبة إلى خاتم الأنبياء إلّا ذلك، وأمّا كون علم الحلال والحرام يسير في جنب علم ما يحدث في الليل والنهار، لأنّه من الأُمور الغيبيّة وأسرار القضاء والقدر التي تحيّرت العقول في أصل دركها، فضلاً عن الإحاطة بها، ويمكن أن يستظهر من هذه الرواية أنّ ذلك أيضاً من متفرّعات الرسوخ في العلم، فكما أنّ أصل الرسوخ في العلم، بجميع مراتبه مختصّ به تعالى، فكذلك أسرار ما يحدث بالليل والنهار.

نعم، استلهم أولياؤه بعض مراتبه.

عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام:

«إنّ رجلاً قال لأمير المؤمنين عليه السلام: هل تصف ربّنا نزداد له حبّاً وبه معرفةً؟

فغضب عليه السلام وخطب الناس فقال ـ فيما قال ـ: عليك يا عبد الله بما دلّك عليه القرآن من صفته، وتقدّمك فيه الرسول من معرفته، فائتمّ به واستضيء بنور هدايته، فإنّما هي نعمة وحكمة أُوتيتها، فخذ ما أُوتيت وكن من الشاكرين، وما كلّفك الشيطان علمه ممّا ليس عليك في الكتاب فرضه ولا في سنّة الرسول وأئمّة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله سبحانه، ولا تقدر عظمة الله، واعلم يا عبد الله أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الاقتحام على السدد المضروبة دون الغيوب، فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فقالوا آمنّا به كلّ من عند ربّنا، وقد مدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّى تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه منهم رسوخاً، فاقتصر على ذلك، ولا تقدّر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين».

أقول: أمّا غضبه عليه السلام بالنسبة إلى هذا الشخص فلأنّه أراد توصيف الله تعالى بما هو خارج عن ظاهر الكتاب المبين والسنّة المقدّسة الشريفة، ويشهد لذلك قوله عليه السلام: «عليك يا عبد الله بما دلّك عليه القرآن من صفته وتقدّمك فيه الرسول»، ثمّ ذمّه عليه السلام للتعمّق في ما وراء ذلك، وقد ورد في جملة من الأخبار ذمّ ذلك أيضاً.

وأمّا قوله عليه السلام: «وما كلّفك الشيطان علمه ممّا ليس عليك في الكتاب فرضه»، فالمراد التوهّمات أو الخيالات الحاصلة في النفس في المعارف، فليس لأحد أن يتبعها، بل لابدّ من الاعتقاد بالواقع على ما هو عليه وإيكال علم ذلك إلى الله تبارك وتعالىٰ، وإلّا فيدخل ذلك في اتّباع الشيطان وإغوائه والتعمّق المنهي عنه.

وأمّا قوله عليه السلام: «إنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الاقتحام على السدد المضروبة دون الغيوب»، فقد ذكر صفات الراسخين في العلم ومدحهم، يعني أنّهم اكتفوا بما استفادوا من النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله من الرسوخ في العلم، ولم يتعدّوا ما وراء ذلك، لكونه حينئذٍ من التعمّق المنهي عنه، فمثل هذه الروايات تدلّ على أمرين:

الأوّل: كونهم راسخين في العلم، واستفادوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله.

الثاني: أنّهم لا يقتحمون ـ في ما وراء ما استفادوا من الرسوخ في العلم ـ السدد المضروبة دون الغيوب.

في «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث، ثمّ قال:

«إنّ الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبدلون من تغيير كلامه، قسّم كلامه ثلاثة أقسام، فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلّا مَن صفا ذهنه ولطف حسّه وصحّ تميّزه ممّن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلّا الله وأنبياؤه والراسخون في العلم ـ الحديث».

أقول: هذا الحديث مطابق لما تقدّم من أنّ المتشابه والمحكم وغيرهما من مراتب الإدراكات، فلابدّ في كلام الحكيم أن يلحظ فيه هذه المراتب.

وعن بريد بن معاوية، قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله: **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾**.

قال: يعني تأويل القرآن كلّه إلّا الله والراسخون في العلم، فرسول الله أفضل الراسخين قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله منزلاً عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه، فقال الذين لا يعلمون: ما تقول إذا لم نعلم تأويله؟ فأجابهم الله: يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا والقرآن له خاص، وعام، وناسخ، ومنسوخ، ومحكم، ومتشابه، فالراسخون في العلم يعلمونه».

أقول: المراد من «تأويل القرآن كلّه» ما اشتمل على المتشابه والتأويل، وإلّا فالمحكمات ليس لها تأويل.

عن فضيل بن يسار عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم، نحن نعلمه».

تقول: تقدّم وجه ذلك.

في «العيون» عن الرضا عليه السلام: «مَن ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم ـ ثمّ قال ـ إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكماً كمحكم القرآن، فردّوا متشابهها إلى محكمها، ولا تتّبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا».

أقول: قد ذكرنا في التفسير أنّ اشتمال كلمات الأعاظم والأكابر على المحكم والمتشابه غالبي، بل فطري بالنسبة إلى مراتب العقول، كما يأتي في البحث العلمي.

في « الكافي » عن الباقر عليه السلام : «إنّ الراسخين في العلم مَن لا يختلف في علمه».

أقول : هذا من باب بيان بعض آثار الراسخين في العلم ، لا جميعها .

في «الدرّ المنثور» أخرج ابن جرير وغيره عن أنس وأبي امامة ووائلة بن أسقف وأبي الدرداء أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل عن الراسخين في العلم :

فقال : «مَن برّت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ، ومَن عفّ بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين في العلم» .

أقول : هذا تفسير باللازم ، لأنّ من لوازم التقوى والمواظبة على أحكامه الاتّصاف بما ورد في الرواية ، ويصير العالم بذلك راسخاً في العلم ، وليس ذلك من باب الحصر الحقيقي ، بل لابدّ وأن يحمل على الحصر الإضافي .

وعن عليّ عليه السلام أنّه قيل له : «هل عندكم شيء من الوحي؟ قال : لا والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ، إلّا أن يعطي الله عبداً فهماً في كتابه» .

أقول : يستفاد منه أنّ فهم القرآن الذي أفاضه الله تعالىٰ علىٰ عبده من مراتب الوحي وشؤونه ، وهو كذلك؛ لأنّ جميع ما شرحه عليّ عليه السلام في الأُصول والمعارف وكذا أولاده المعصومين ، خصوصاً الباقران والرضا عليهم السلام ، لا يكون إلّا من مراتب الوحي الإلهي ، المستفاد من الوحي الكلّي ، وهو القرآن الكريم ، بل جميع ما أعطاه الله لنبيّه صلى الله عليه وآله من جوامع الكلم الذي افتخر به صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء يكون كذلك .

في «الكافي» عن الصادق عن أبيه عن آبائه عليهم السلام ، قال :

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أيّها الناس ، إنّكم في دار هدنة ، وأنتم على ظهر سفر ، والسير بكم سريع ، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كلّ جديد ويقرّبان كلّ بعيد ، ويأتيان بكلّ موعود ، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز .

قال: فقام المقداد بن الأسود، فقال: يارسول الله، وما دار الهدنة؟

فقال: دار بلاغ وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع، وماحل مصدق، ومَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومَن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتابٌ فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق؛ له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه، ولا تُبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة لمَن عرف الصفة فليجلّ جال بصره وليبلغ الصفة نظره، ينج مَن عطب، ويخلص مَن نشب، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات، فعليكم بحسن التخلّص وقلّة التربّص».

أقول: أمثال هذه الرواية تدلّ على عظمة القرآن ورفعة شأنه، الملجأ في الفتن والشدائد، وقوله ﷺ: «ماحل مصدق»، أي خصم مجادل مصدق.

وأمّا قوله ﷺ: «ومَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة»، أي جعله منهجاً في عمله، كما أنّ المراد من الجعل في الخلف وترك العمل به، ومعلوم أنّ العمل بالقرآن يوجب الفوز بالجنّة، كما أنّ ترك العمل به يوجب الدخول في النار.

وأمّا قوله ﷺ: «وهو الفصل ليس بالهزل»، أي الفاصل بين الحقّ والباطل. والمراد من نفي الهزل نفي أيّ وجه من البطلان عنه.

وأمّا قوله ﷺ: «وله ظهر وبطن»، المراد من الظاهر ما يفهم من ظاهر الآيات الشريفة، والمراد من الباطن الإشارات والرموز التي يجمعها القرآن التي تحدث إلى يوم القيامة قرناً بعد قرن، والظاهر والباطن موجودان في كلمات الأكابر والعظماء، فكيف بكلمات الله تبارك وتعالى التي يتشعع معارف بطونها إلى يوم القيامة.

وأمّا قوله عليه السلام: «فظاهره حكم وباطنه علم»، المراد من الحكم التصديق الجازم، وليس المراد بذلك الحكم المصطلح عليه عند الفقهاء، بل هو الأعمّ منه، والمراد من العلم هو القضايا الحقيقيّة الكاشفة عن الحقائق التي هي العلوم الواقعيّة، لأنّ كلّ تصديقٍ يكشف عن علم، والعلم تابع لظاهر التصديق.

والمراد من علمية الباطن ـ مع أنّ ظاهره علم أيضاً ـ هو العلم الذي اختصّ به أولياؤه المكرمون.

وأمّا قوله عليه السلام: «ظاهره أنيق وباطنه عميق»، المراد من الأنيق حسن الأُسلوب والإبداع، وأنّ الأفئدة تهوى إليه، وأمّا أنّ باطنه عميق فلأنّ العقول قاصرة عن الإحاطة بتأويلاته، وكلّ ما تأمّل فيه يتجدّد لها معنى غير الأوّل.

وأمّا قوله عليه السلام: «له تخوم وعلى تخومه تخوم»، التخم (بفتح التاء) حدّ الشيء وعلامته، والجمع التخوم، والمراد به حدّ معاني القرآن وعلاماته، ولاريب في أنّها تتفاوت بحسب مراتب التأويل ومعانيها.

وأمّا قوله عليه السلام: «ودليل على المعرفة لمَن عرف الصفة»، يعني أنّ القرآن دليل على معرفته تبارك وتعالى لمَن عرف أنّه كلام نازل عن الله سبحانه، وحيث عرف صفة علمه تعالى من أنّه غير متناه من جميع الجهات، فتتحقّق لديه المعرفة التامّة ويذعن بتلك الصفات المتقدّمة للقرآن.

وأمّا قوله عليه السلام: «فليجل جال بصره»، المراد من جولان البصر التفكّر في القرآن بما رغّب إليه الشرع، بحيث يكون تفكّره موافقاً للحدود الشرعية.

وأمّا قوله عليه السلام: «وليبلغ الصفة نظره»، يعني يتأمّل بالمعنى الذي مرّ آنفاً من أنّه من الله تعالىٰ، فحينئذٍ فإن بلغ إلى نظره معاني مستحدثة غريبة، طبّقها على الشرع، فإن وافقها يعتمد عليها وإلّا يذرها في بقعة الاحتمال.

وأمّا قوله عليه السلام: «ينج من عطب»، أي يخلّصه عن تعبه الذي أتعبه في

المعقولات، فإنّ القرآن منتهى جميعها، فلابدّ وأن يرجع كلّها إلى كلام الله سبحانه وتعالىٰ.

وأمّا قوله ﷺ: «ويخلص من نشب»، أي ينجي ويخلّص كلّ مَن تعلّق بالقرآن عن جميع المهالك والمتاعب.

وأمّا قوله ﷺ: «فإنّ التفكّر حياة قلب البصير»، فهو قاعدة عقليّة متّفق عليها في المعقول، ودلّت عليها نصوص كثيرة، فقد أثبتوا: «من أنّ غذاء الروح وحياتها المعنوية إنّما هو بالتفكّر»، والآيات القرآنية التي ترغّب إلى التفكّر في الطبيعة وما وراءها تدلّ على ذلك، وسيأتي بيان تلك القاعدة إن شاء الله تعالىٰ.

وأمّا قوله ﷺ: «كما يمشي المستنير في الظلمات»، فهو واضح، إذ ليس الخلاص من ظلمات الجهل إلّا بالاستنارة من نور الفكر إن كان في المعارف الدينيّة.

وأمّا قوله ﷺ: «فعليكم بحسن التخلّص»، يعني تخلّصوا من التفكّر في القرآن بوجه حسن، فلا تدخلوا فيه كلّ وهم وخيال».

وأمّا قوله ﷺ: «وقلّة التربّص»، يعني لا تتعمّقوا في خصوصيّات القرآن التي لاتصل إليها عقولكم، بل أوكلوها إلى الله تعالى بالرجوع إلى الراسخين في العلم، ومَن أوحى إليه.

ويمكن أن يُراد بقلّة التربّص الممانعة عن دخول الأوهام الباطلة والخيالات الفاسدة في القرآن.

في «الكافي» عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة وضياء من الاحداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدُّنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، وما عدل أحد من القرآن إلّا إلى النار».

أقول: تقدّم ممّا ذكرنا في الحديث السابق بيان هذا الحديث وعدم الريب فيه.

ثمّ إنّ هناك طوائف أُخرىٰ من الروايات التي ترتبط بالموضوع، فلابدّ من التعرّض لها وبيان ما يتعلّق بها.

ما ورد في تفسير القرآن بالرأي:

وردت روايات كثيرة دالّة على النهي عن تفسير القرآن بالرأي، مثل ما عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «مَنْ فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار».

وعن أبي داود في «سننه»، عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن قال في القرآن بغير علم جاء يوم القيامة ملجماً بلجامٍ من نار».

وفي «تفسير العيّاشي» عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام: «مَن فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء».

وفي «تفسير العيّاشي» ـ أيضاً ـ: عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «الرأي في كتاب الله كفر».

وفي «سنن الترمذي» عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «مَن قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ».

أقول: صريح هذه الروايات الذمّ في إعمال الرأي في القرآن العظيم، بل جعله بديل الكفر في بعضها، وأنّ مصيره إلى النار.

والنظر في القرآن أو إعمال الرأي فيه يتصوّر على وجوه:

الأوّل: الأخذ بظاهره العرفي، الذي هو ظاهر عند النوع وتدور الاستفادة من القرآن مداره، مثل قوله تعالىٰ: ﴿**يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾[1]، وقوله

١ . سورة المائدة: الآية ١.

تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

الثاني: إعمال النظر الشخصي في الآيات الشريفة وتفسيرها به، ولكنّه لايتعدّى عن مرحلة الاحتمال الذهني والحضور الفكري إلى الخارج، فلا إذعان ولا اعتقاد.

الثالث: ما يكون من إعمال النظر الشخصي، ويكون الناظر في مقام ترتّب الأثر عليه، والإذعان بأنّ ذلك مراد الله سبحانه وتعالىٰ.

وشمول هذه الأخبار للقسم الأوّل ممنوع بلا إشكال، وإلّا لبطلت الإفادة والاستفادة من الكتاب العظيم الذي وضع لأجل ذلك، وكذا شمولها للقسم الثاني لفرض عدم ترتّب أي أثر عليه، بل يكون مجرّد العبور الذهني والخطور الفكري الذي قد يكون بلا اختيار.

وأمّا القسم الأخير فهو المعلوم المتيقّن من مفاد جميع تلك الأخبار، ويشهد لذلك الشواهد العقلية أيضاً، فإنّ كلمات الأكابر والأعاظم لابدّ أن تحفظ عظمتها بأيّ وجه أمكن من دون تدخّل الآراء الخاصّة في تفسيرها، فكيف بالقرآن العظيم؟

وما قيل في معنى التفسير بالرأي من الوجوه فإن رجعت مآلها إلى ما ذكرناه فهو، وإلّا فالخدشة واضحة فيها؛ لأنّ أكثرها دعوى بلا دليل.

ومن ذلك يعلم أنّه لا وجه لفتح باب الاجتهاد الشخصي في الآيات الشريفة، إذ لا موضوع فيها بعد فرض أنّ متشابهاتها ترجع إلى محكماتها، وهي مشروحة بالسنّة المقدّسة.

---

١. سورة الأنعام: الآية ١١٨.

نعم، باب الاجتهاد النوعي مفتوح في تفسير الآيات، بمعنى إرجاع المتشابه منها إلى المحكمات، وأخذ شرح المحكم من السنّة الشريفة.

ويستفاد ما قلناه من الآيات الشريفة أيضاً.

قال تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[3].

إلى غير ذلك من الآيات الشريفة، التي يستفاد من جميعها أنّه لابدّ في الاستفادة من القرآن الكريم عدم الاجتهاد الشخصي، بل ردّ الآيات بعضها إلى بعض والاستعانة بالسنّة المقدّسة، وأنّ التفسير بالرأي هو القول بغير علم، كما ورد عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «مَن قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده في النار».

وأمّا ما ورد في بعض الروايات من النهي عن ضرب بعض القرآن ببعض، كما في جملة من الأخبار.

ففي «تفسير العيّاشي» عن الصادق عن أبيه عليهما السلام، قال: «ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلّا كفر».

وفي «المحاسن» عن الصادق عليه السلام: «ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلّا كفر».

وفي «الدرّ المنثور» عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه:

«أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج على قوم يتراجعون في القرآن وهو مغضب،

---

١. سورة النساء: الآية ٨٣.

٢. سورة الحجر: الآية ٩٢.

٣. سورة الإسراء: الآية ٣٦.

فقال : بهذا ضلّت الأُمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض ، قال : وإنّ القرآن لم ينزل ليكذّب بعضه بعضاً ، ولكن نزل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به» .

وفيه ـ أيضاً ـ : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه :

«سمع رسول الله صلى الله عليه وآله قوماً يتدارئون ، فقال : إنّما هلك مَن كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنّما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه» .

أقول : ضرب القرآن بعضه ببعض يحتمل فيه وجوه :

الأوّل : ردّ المتشابه إلى المحكم ، وهذا صحيح ، بل واجب كما أُمرنا به عقلاً وشرعاً ، ولا وجه للطعن عليه بل جعله كفراً .

الثاني : الاستشهاد لآية بآية أُخرىٰ ، وهذا أيضاً صحيح إذا كان مطابقاً للسنّة الشريفة ، وقد وقع ذلك في كلمات الأئمّة عليهم السلام أيضاً .

الثالث : ما إذا اختار رأياً مستقلّاً ونظرية خاصّة من عند نفسه في تفسير آية ورأي كذلك في آية أُخرىٰ ، وجمع بينهما برأيه ، أو جعل آية أُخرىٰ دليلاً لما اختاره من عند نفسه ، فهذا هو المذموم بلا إشكال ، بل قد يوجب الكفر أيضاً لأنّه يستلزم تكذيب القرآن ، كما مرّ في الحديث .

ولعلّ ما سأله الصدوق عن شيخه ابن الوليد في معنى الرواية المتقدِّمة عن «المحاسن» هو ذلك ، وأيضاً يدلّ على ما ذكرنا روايات كثيرة :

منها : ما في «تفسير العماني» عن إسماعيل بن جابر ، قال :

«سمعت أبا عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يقول : إنّ الله تبارك وتعالى بعث محمّداً فختم به الأنبياء ، فلا نبيّ بعده ، وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتاب فلا كتاب بعده ، أحلّ فيه حلالاً وحرّم حراماً ، فحلاله حلال إلى يوم القيامة ، وحرامه

حرام إلى يوم القيامة ، فيه شرعكم وخبر مَن قبلكم وبعدكم ، وجعله النبيّ ﷺ علماً باقياً في أوصيائه فتركهم الناس ، وهم الشهداء على أهل كلّ زمان ، وعدلوا عنهم ثمّ قتلوهم ، واتّبعوا غيرهم ثمّ أخلصوا لهم الطاعة حتّى عاندوا مَن أظهر ولاية ولاة الأمر وطلب علومهم ، قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿**وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ**﴾ ، وذلك أنّهم ضربوا بعض القرآن ببعض ، واحتجّوا بالمنسوخ وهم يظنّون أنّه الناسخ ، واحتجّوا بالمتشابه وهم يرون أنّه المحكم ، واحتجّوا بالخاص وهم يقدّرون أنّه العام ، واحتجّوا بأوّل الآية وتركوا السبب في تأويلها ، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه ، ولم يعرفوا موارده ومصادره ، إذ لم يأخذوه عن أهله ، فضلّوا وأضلّوا .

واعلموا رحمكم الله : أنّه مَن لم يعرف من كتاب الله عزّ وجلّ الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والمحكم من المتشابه ، والرخص من العزائم ، والمكّي من المدني ، وأسباب التنزيل ، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة ، وما فيه من علم القضاء والقدر ، والتقديم والتأخير، والمبين والعميق ، والظاهر والباطن ، والابتداء والانتهاء ، والسؤال والجواب ، والقطع والوصل ، والمستثنى منه والجار فيه ، والصفة لما قبل ممّا يدلّ على ما بعد ، والمؤكّد منه والمفصّل ، وعزائمه ورخصه ، ومواضع فرائضه وأحكامه ، ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون ، والموصول من الألفاظ ، والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده ، فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله . ومتى ما ادّعى معرفة هذه الأقسام مدّع بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على الله الكذب ورسوله ، ومأواه جهنّم وبئس المصير» .

ومنها : ما عن نبيّنا الأعظم ﷺ في ذيل ما ورد في «الدرّ المنثور» :
«فما علمتم منه فقولوا ، وما جهلتم به فكلوه إلى عالمه» .

ومنها: ما في «نهج البلاغة» قال عليه السلام:

«ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمّ ترد تلك القضية بعينها على غيره، فيحكم فيها بخلافه، ثمّ يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم، فيصوّب آراءهم جميعاً وإلٰههم واحد ونبيّهم واحد، وكتابهم واحد أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه؟! أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟ أم أنزل الله سبحانه ديناً تامّاً فقصّر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه؟ والله سبحانه يقول: **﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾**، وقال **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾**، وذكر أنّ الكتاب يصدق بعضه بعضاً، وأنّه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: **﴿وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾**، وأنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تكشف الظلمات إلّا به».

وخلاصة ما يستفاد منها ـ على طولها ـ أنّ فهم القرآن لابدّ وأن يكون أوّلاً بإرجاع المتشابه إلى المحكم وإرجاع الحكم إلى السنّة، ثمّ ترتّب الأثر بما يستفاد من المحكم والاعتراف بالعجز عن الفهم والدرك، وأنّ التفسير بالرأي والعمل به بدون ذلك يستلزم الاختلاف المذموم عقلاً وشرعاً.

ما ورد من أنّ للقرآن بطوناً:

وردت روايات كثيرة دالّة على أنّ للقرآن ظهراً وبطناً، كما في «تفسير العياشي» عن الفضيل بن يسار، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: (ما في القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف إلّا وله حدّ، ولكلّ حدّ مطلع)، ما يعني بقوله: لها ظهر وبطن؟

قال: ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بعد، يجري

كما يجري الشمس والقمر كلّما جاء منه شيء وقع، قال‌الله: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾، نحن نعلمه».

أقول: يظهر من هذه الرواية أنّ أسرار التأويل تجري في التكوينيّات من حيث بدأها إلى ختامها، وأنّ وقوعها في الخارج مطابق للتأويل الذي يكون في القرآن، ولا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم، ففي الحقيقة يمكن استفادة جميع أسرار التكوين من الآيات الشريفة بالتأويل، كما يظهر من الآيات الشريفة، قال تعالىٰ: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وعن نبيّنا الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إنّ للقرآن ظهراً وبطناً، ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن».

وعن عليّ عليه‌السلام: «ما من آية إلّا ولها أربعة معان، ظاهر وباطن وحدّ ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحدّ هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو مرادن الله من العبد بها».

وعن نبيّنا الأعظم صلى‌الله‌عليه‌وآله: «إنّ للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً».

في «تفسير العياشي» عن جابر، قال: «سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابني، ثمّ سألته ثانيةً فأجاب بجوابٍ آخر، فقلت: جعلت فداك، كنت أجبت في المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم! فقال: يا جابر، إنّ للقرآن بطناً وللبطن بطن، وظهراً وللظهر ظهر، يا جابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، أنّ الآية يكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء، وهو

---

١. سورة يٰس: الآية ١٢.

٢. سورة الأنعام: الآية ٥٩.

كلام متّصل يتصرّف في وجوه».

أقول: المراد من قوله عليه السلام: «وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن» قبل التفحّص وردّ المتشابه إلى المحكم، وأمّا بعد ذلك وتقرير العقول بالشريعة المقدّسة، فلا بعد حينئذٍ، بل أُمرنا بالتعقّل والتدبّر والتفكّر في القرآن الكريم في كثير من الآيات الشريفة، ولا معنى لكون ذلك فيما هو بعيد عن العقول، فهو بعيد في عين كونه قريباً إلى العقول بالاعتبارين، كما مرّ آنفاً، وهو كلام متّصل يتصرّف في وجوه.

وفي «المعاني» عن حمران بن أعين، قال:

«سألت أبا جعفر عليه السلام عن ظهر القرآن وبطنه.

فقال: ظهره الذين نزل فيهم القرآن، وبطنه الذين عملوا بأعمالهم يجري فيهم ما نزل في أُولئك».

والروايات في هذا المساق كثيرة جدّاً، مضمونها واحد وإن اختلفت التعبيرات الواردة فيها.

والمراد من الظهر والبطن والحدّ والمطلع التي وردت في الروايات المتقدِّمة حقيقة واحدة ذات مراتب تشكيكيّة، فالظهر أي ما يفهم من الظاهر، فهو مرتبة منها، والبطن أي ما يستفيده الراسخ في العلم مرتبة أُخرىٰ منها، وكذا المطّلع أو المطلع، فالمراتب مختلفة والحقيقة القرآنية واحدة، ونحن في حجب عن درك تلك المراتب، مثال ذلك: أنّ اللبن حقيقة واحدة، وهو في عالم الماديّات عبارة عن ما هو المعهود الذي يدرّ من ثدي الأُنثى من الحيوان، وفي عالم الرؤيا مثلاً عبارة عن العلم؛ لأنّ المعروف عند أهل التعبير أنّ مَن رأى اللبن في منامه يرزق علماً، ويمكن أن يكون في عالم الآخرة شيئاً آخر غيرهما، فالحقيقة واحدة ولكن المراتب مختلفة، فبعضها ظاهرة وبعضها غير ظاهرة.

وكذا الصلاة الواردة في القرآن الكريم كثيراً، فإنّ لها حقيقة تشكيكيّة، ولها مراتب، منها القيام بين يديّ الربّ بالعمل الخارجي، ومنها القيام بين يديّ الربّ بالجوهر الجسماني الخارجي، كما يكون في أولياء الله تعالىٰ، ومنها بالصورة الذهنية، ورابعة بما حصل للنبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج بتعليم الله تعالى له مشافهة، فيمكن حينئذٍ حمل البطون على مثل هذه المراتب، والمراتب التي لم يمكن أن تظهر لنا للحجب المانعة عن الوصول إلى تلك الحقائق، ويشهد لما ذكرنا ما في «تفسير العياشي» ما تقدّم عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

ولا ينافي ما ذكرناه قول عليّ عليه السلام فيما مرّ: «ما من آية إلّا ولها أربعة معان ظاهر وباطن وحدّ ومطلع ـ الحديث»، وكذا قول أبي جعفر عليه السلام فيما مرّ من رواية حمران بن أعين، فحمل البطون فيها على المراتب الطولية ـ كالصحابة مثلاً والتابعين لهم وتابع التابعين، وهكذا إلى يوم القيامة ـ هو أيضاً صحيح؛ لصحّة حمل لفظ البطن على جميع ذلك، إذ لا فرق في ذلك بين أن يكون البطن ـ أي ما يفهم من اللفظ عرضيّاً ـ كما مرّ أو طوليّاً.

ما ورد من أنّ القرآن أُنزل علىٰ سبعة أحرف:

وردت روايات كثيرة بطرق متعدّدة وتعبيرات مختلفة، ولكن مضمون جميعها واحد، منها ما عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «أُنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف».

وعن عليّ عليه السلام: «إنّ الله أنزل القرآن علىٰ سبعة أقسام، كلّ منها كاف شاف، وهي: أمر وزجر، وترغيب وترهيب، وجدل ومثل وقصص».

وفي بعض الروايات: «زجر وأمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال وقصص».

أقول: ليس الحصر الوارد فيها حقيقيّاً حتّى يتحقّق التنافي، بل هو من

الحصر الإضافي الاعتباري، والمراد منها ما فسّره عليّ عليه السلام: «إنّ القرآن حمال ذو وجوه»، أي يحمل كلّ وجه إن طابق الموازين الشرعية والعقلية.

ومن ذلك يعرف أنّ تفسيرها بالقراءة أو بالبطن، أو تفسيرها بالأمر أو الزجر والترغيب والترهيب والجدل والقصص ـ كما مرّ ـ لا يوجب التنافي، لفرض عدم كونها في مقام بيان التحديد الحقيقي.

***

بحث عرفاني:

المراد من العلم في قوله تعالىٰ: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾، هو العلم بالمعارف الحقّة وحقائق الأشياء التي توجب السعادة الأبدية وخروج النفس الإنسانية عن حدود الحيوانيّة والبهيميّة ووصولها إلى منتهى أوج الروحانيّة المجرّدة، بواسطة معرفة الموحي والوحي والموحى إليه والإذعان علماً وعملاً ومعرفة، حسب الإمكان، وقد جمع ذلك كلّه في قوله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[١]، وفي قوله جلّ شأنه: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٢].

وعن علي عليه السلام في قوله: «رحم الله امرئاً عرف من أين وفي أين وإلى أين»، وقد جمعها علماء النفس والأخلاق في قولهم: «أوّل العلم معرفة الجبّار، وآخر العلم تفويض الأمر إليه».

وعن الصادق عليه السلام: «مَن حرم الخشية من الله فليس بعالم وإن شقّ الشّعر في المتشابهات، ومَن لم يكن عمله مطابقاً لقوله فليس بعالم».

فيكون المراد بالرسوخ: الرسوخ العملي المنبعث عن العلم بالمعارف

---

١. سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

٢. سورة فاطر: الآية ٢٨.

الحقّة، حتّى يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[١]، فيصير القول والعمل والاعتقاد شيئاً واحداً، فتسري الروح الإيماني من القلب إلى العمل، بل من العمل إلى القلب، لأنّ للأعمال تأثيرات حقيقيّة في الملكات النفسانيّة، فيكون من النور وفي النور وإلى النور، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢]، وبعبارة أُخرى يصير قلبه قرآناً علميّاً وجوارحه قرآناً عمليّاً، فلا محالة يتحقّق الرسوخ.

وأوّل المصداق الحقيقي لذلك هو خاتم الأنبياء، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٣]، ثمّ مَن ربّاه تربية علميّة وعمليّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكلماته المقدّسة في نهج البلاغة أظهر دليل لما قلنا، ثمّ مَن ربّى بهما أيضاً تربية علميّة وعمليّة فأخذوا علومهم ومعارفهم من النبيّ الأعظم وتأسّوا به في أفعاله وأذعنوا بأقواله، فربوا في حجر الإسلام ورضعوا من ثدي الإيمان، فرسخ العلم في أُصولهم وعروقهم وقلوبهم وجوارحهم، فجعل الله لهم نوراً يمشون به في الظلمات ويرشدون به إلى سبل السلام.

***

بحث فلسفي:

لاريب في اختلاف أفراد الانسان في مراتب إدراكاته سواء كانت القوى المدركة جسمانية (كالقوى الخمس الظاهرة أي السامعة والباصرة واللامسة

---

١. سورة المجادلة: الآية ٢٢.

٢. سورة الحديد: الآية ١٢.

٣. سورة النحل: الآية ٤٤.

والشامّة والذائقة) أم معنوية كالفكر والعقل، بل إنّ اختلاف القوى الجسمانية المدركة يعمّ الحيوانات وبعض النباتات، بل بعض المعادن أيضاً على ما ثبت في العلم الحديث، وهل يكون اختلاف القوى الإدراكية المعنوية في الإنسان من خصوصيّات العقل المودع فيه؟ أو من النفس الناطقة؟ أو منهما معاً؟ أو من شيء آخر كالبيئة والاجتماع أو المأكل والمشرب أو غيرها؟ لا يعلم ذلك غير الله تعالى، فكلّ محتمل.

ومن ذلك ينشأ اختلاف الاستعدادات في مراتب الاستفادة وتحصيل العلوم، ولذا ورد عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم». وتقدّم في البحث الروائي ما يدلّ على ذلك. هذا إذا كانت العلوم والاستفادة منها مستندة إلى أسباب وعلل ظاهرية، كأغلب العلوم.

وأمّا إذا كان العلم مستنداً إلى وحي السماء مباشرةً، كما في الأنبياء، أو تسبيباً كمن يتلو تلوهم، أي الآخذين منهم، فلا اختلاف فيهم حينئذٍ، لفرض الانتهاء إلى علمٍ لا يعقل فيه الاختلاف أبداً وهو علم الله جلّ جلاله.

نعم، الاختلاف في أصل الرسالة والنبوّة موجودٌ، وهو شيء آخر لا ربط له بالمقام، قال تعالى: **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾**(١). وتقدّم الكلام في معنى التفضيل.

ومنه يظهر أنّ الإجمال والتشابه ونحوهما يستند إلى معنى سلبي، وهو عدم إحاطة العقول بالواقعيّات وقصورها عن دركها، قال تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾**(٢).

***

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

٢. سورة النحل: الآية ١٤.

بحث علمي:

المحكم والمتشابه وعلم التأويل يحصل من الاستعدادات المكنونة في الإنسان المختلفة غاية الاختلاف ـ كما مرّ في البحث السابق ـ فإذا أُلقي خطاب في مجمع أو أُلقي درس في جامعة، أو ألقينا مثلاً سائراً بين الناس، فمنهم مَن لا يتجاوز فهمه الصريح المحض، ومنهم مَن يتجاوز ذهنه إلى اللوازم القريبة منه، ومنهم مَن يتعدّى إلى الأكثر عمقاً ويتجاوز إلى اللوازم والملزومات البعيدة أيضاً، خصوصاً إذا كان الدرس من العلم الذي هو فوق المادّة والمحسوس، ويتحصّل من ذلك أُمور:

الأوّل: تحقّق تلك العناوين، أي المحكم والمتشابه والعلم بالتأويل من الأُمور الفطرية المستندة إلى الاستعداد ـ أو الدرك ـ الذي هو أمر غير اختياري، ويختلف ذلك حسب الاستعداد ودرك الأفراد وكثرتهم وقلّتهم.

الثاني: أنّ المحكم والمتشابه ما كان بحسب النوع لا الشخص؛ لأنّ ذلك هو المدار في الخطابات الملقاة على الناس، كما أنّ المراد من المتشابه المستقرّ منه دون الزائل بالتعمّق.

الثالث: أنّهما ـ أوّلاً وبالذات ـ من صفات المعنىٰ، ثمّ يسريان إلى اللفظ، فيصحّ أن يكونا من صفات اللفظ أوّلاً وبالذات فيسريان إلى المعنى أيضاً لمكان الاتّحاد بين اللفظ والمعنى، ولذا يسري حسن أو قبح أحدهما إلى الآخر، فيصحّ البحث عنهما في مباحث الألفاظ كما يصحّ البحث عنهما في مباحث الحقائق العلميّة، كما هو شأن كثير من المفاهيم.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ الأقوال الواردة في معنى المتشابه ـ التي تتجاوز العشرة ـ كلّها من باب المغالطة والاشتباه بين المفهوم والمصداق، فقد ذكروا مصاديق المتشابه في حقيقته ومعناه، وهو باطل لأنّ مصاديقه كثيرة، كما أنّ مناشئه أيضاً كذلك.

والبحث في المحكم والمتشابه من جهات، نذكر الأهمّ منها.

مفهوم المحكم والمتشابه:

المحكم والمتشابه أو المجمل والمبيّن من المفاهيم العرفية في كلّ محاورة ولغة من اللغات، فإنّ كلّاً منهما تشتمل على محكم ومتشابه ومجمل ومبيّن عند أهل تلك اللغة، فيصحّ عدّ مفهوم تلك الصفات من المفاهيم المبيّنة في المحاورات.

وما هو المعروف في تعريف المتشابه: «ما لا يعرف المراد منه إلّا بالقرينة»، مثل قوله تعالىٰ: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1]، لا يعرف بدواً المراد منه إلّا بالرجوع إلى قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2]، فيُعرف أنّ المراد منها القوّة والإحاطة، أو القدرة بالملازمة، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[3]، يُعرف المراد بالرجوع إلى ما تقدّم من الآية المباركة من أنّه الرحمة والغفران بالملازمة.

وكذا في المحكم من أنّه: «ما يعرف المراد منه بلا استعانة قرينة»، مثل قوله تعالىٰ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة. راجع إلى ما ذكرنا أيضاً.

المحكم والمتشابه من الأمور النسبيّة:

تقدّم أنّهما يرجعان إلى اختلاف الاستعدادات المتفاوتة في الإنسان،

---

١. سورة الفتح: الآية ١٠.

٢. سورة الشورى: الآية ١١.

٣. سورة الفجر: الآية ٢٢.

٤. سورة الحمد: الآية ٣.

٥. سورة النور: الآية ٥٦.

فيكونان من الأُمور النسبيّة الإضافية ، لاختلاف منشئهما وسببهما ، وإن رجعا إلى حالات اللفظ وصفاته فهي أيضاً أُمور نسبية اختلافية ، تختلف باختلاف الجهات الخارجيّة ، ولأجل ذلك نرى الاختلاف في عدّ مصاديق المتشابه ، فربّ شخص يعدّ لفظاً أو آية من المتشابه وينكره الآخر ، أو قد يكون الاختلاف من شخص واحد في موردين أو في زمانين .

وقد أُطلق لفظ المحكم والمتشابه على الأفراد ،كما في بعض الروايات .

المدار في المحكم والمتشابه:

المناط في اتّصاف الكلام بالمحكم والمتشابه إنّما هو الأنظار العرفية العادية المؤهّلة لورود عامّة الخطابات عليها؛ لأنّها المدار في تلقّي الأحكام ، وليس المدار الأنظار الدقّية العقليّة؛ لاختصاصها بطائفة خاصّة وعدم كونها مدار الإفادة والاستفادة النوعية ، فلو كانت الآية أو الرواية بحسب الأنظار العرفية تعدّ متشابهة، وبحسب الدقّة العقلية ـ أي بإعمال الأساليب العلميّة ـ تكون محكمة ، لا يؤخذ بها ، بل تردّ إلى المحكم ، وأمّا لو كانت بحسب الأنظار العرفية محكمة دون الأنظار الخاصّة ـ أي الدقّية العقليّة ـ يؤخذ بها .

ولو كانت آية أو رواية محكمة عند طائفة ومتشابهة عند أُخرىٰ ، فإن كانت الأولى من ذوي الخبرة والفنّ لابدّ للثانية من اتّباعها ، وكذا العكس ، ومع التساوي يعمل كلٌّ بحسب تكليفه ورأيه بعد استقرار المحكم والمتشابه ، ومع التعارض في مورد يمكن الرجوع إلى أصالة عدم الحجّية المقرّرة في علم الأُصول.

أسباب التشابه:

لا وجه لتحديد مناشئ التشابه والإجمال بحدّ خاصّ وموارد معيّنة ، بعدما عرفت ، فيصحّ أن يكون منشأ التشابه نفس وضع اللفظ لغة من حيث هو ، مثل

قوله تعالىٰ: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ**﴾[١]، أو يكون في اختلاف القراءة، مثل قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ**﴾[٢]، أو يكون المنشأ اختلاف السنّة الواردة في تفسير الآية الشريفة لو كانت متنافية فيصير التشابه من باب الوصف بحال المتعلّق، لا الوصف بحال الذات، وقد يتعلّق اختيار المتكلّم بالإجمال والتشابه لأغراض مترتّبة على ذلك.

نسبة التشابه:

التشابه من الصفات ذات الإضافة، ولا يعقل التشابه بالنسبة إلى علم الله جلّ جلاله؛ لأنّه عين ذاته المهيمن لجميع الجهات والمحيط بها، وكذا بالنسبة إلى الموحى إليه كما مرّ. وإنّما يتحقّق التشابه بالنسبة إلى غيرهما من المخاطبين في خطابه تعالى أو غيره،سواء أكانوا حاضرين في مجلس الخطاب،أم غائبين عنه، لما مرّ من أنّ السبب الأوّلي في التشابه إنّما هو اختلاف الإدراكات وقصورها.

نعم، يمكن أن يوحى إلى النبيّ ﷺ آية ثمّ يوحى إليه مرّة أُخرىٰ شرح تلك الآية وبيانها، وتسمية ذلك بالتشابه إلى الموحى إليه في الآية الأُولىٰ مشكل بل ممنوع، وهما بمنزلة الشارح والمشروح، وليس ذلك من المجمل أيضاً، وكذا لو وصل الحكم إلى الموحى إليه إجمالاً، وانتظر ﷺ بيانه وتفصيله، كما تقدّم في تغيير القبلة، قال تعالىٰ: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾[٣].

مع أنّ الأدلّة الدالّة على أنّ خاتم النبيّين من أهمّ الراسخين في العلم يأبى عن ذلك كلّه، فخروج التشابه بالنسبة إليه ﷺ تخصّصي، لا أن يكون تخصيصيّاً،

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

٣. سورة البقرة: الآية ١٤٤.

والفرق بينه وبين الله تبارك وتعالى أنّ التخصّص بالنسبة إليه جلّ شأنه بالذات، وبالنسبة إليه ﷺ بالغير، أي من الله تعالى، كما تقدّم ذلك.

واقعيّة المحكم والمتشابه:

لا شكّ في أنّ الألفاظ موضوعة للمعاني الواقعيّة، فلا دخل للاعتقاد فيها، كما أثبتنا ذلك في علم الأُصول. فالمراد من المحكم و المتشابه هو الواقعي منهما دون الاعتقادي، لأنّ الواقعيات مورد وضع الألفاظ دون الاعتقاديات، إلّا أن يدلّ دليل على الخلاف، و حينئذٍ كلّ من اعتقد أنّ آية من الآيات القرآنية أو حديثاً من السنّة محكم أو متشابه، ثمّ بعد مدّة تبيّن الخلاف لا أثر لاعتقاده و لا يترتّب عليه آثارهما، و لا يكون من باب تبدّل الموضوع، بل من باب كشف الخلاف، و لابدّ و أن يبحث عنه في مباحث الإجزاء المقرّرة في علم الأُصول.

موضوع المحكم والمتشابه:

المحكم و المتشابه يعرضان بعد استقرار حجّية الكلام، إذ لا ريب في أنّ دلالة اللفظ تغاير حجّيته، فقد يكون اللفظ دالّاً على شيء و لم يكن حجّة، مثلاً العام و المطلق قبل الفحص عن الخاص و المقيّد ظاهران و دالّان على العموم و الإطلاق، و لكنّهما ليسا بحجّة و لا يجوز التمسّك بكلّ منهما إلّا بعد الفحص و عدم الظفر بالمخصّص و المقيّد، فالدلالة إنّما تعتبر طريقاً إلى الحجيّة، فلولا الحجيّة و صحّة الأخذ و الاستدلال لا أثر لنفس الدلالة من حيث هي، فالمحكم و المتشابه يعرضان على الكلام الصحيح الثابت حجّيته.

و بعبارة أُخرى: المراد بالمحكم و المتشابه إنّما هو المستقرّ منهما، لا الزائلان بعد التروي و التأمّل.

التشابه في القرآن:

لا ريب في تحقّق التشابه و أصل حدوثه في الجملة بالنسبة إلى الأُمّة في

القرآن، و لا مجال لإنكار ذلك. كما لا شكّ أنّه في معرض الزوال بالرجوع إلى الراسخ في العلم و إلى المحيط بالسنّة المقدّسة، التي هي مبيّنة لمتشابهات القرآن، أو بردّ الآيات المتشابهة إلى المحكمات منها، كما في الآية المباركة، فحينئذٍ لا يبقى موضوع للتشابه الدائمي في القرآن.

نعم، أصل حدوثه في القرآن ممّا لا ينكر، قال تعالى: **﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾**.

فما عن بعض من إنكار التشابه في القرآن تمسّكاً بقوله تعالى: **﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾**[١]، و قوله تعالى: **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾**[٢]، و غيرهما من الآيات.

غير صحيح، لما مرّ في الآية المباركة **﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾**، بل يدلّ على ذلك وجدان أهل المحاورة، لأنّهم يفرّقون بالفطرة بين الدلالة في قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾**[٣]، و بين الدلالة في قوله تعالى: **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾**[٤]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وأمّا ما استدل به من الآيات الشريفة، ففيه: أنّ كون الكتاب بمجموعه مشتملاً علىٰ تبيان كلّ شيء، أو أنّه بيان للناس، لا ينافي وجود بعض المتشابهات بعد صيرورتها تبياناً إن ردّت إلى المحكمات.

نعم، لو أراد إنكار دوام التشابه في القرآن لا أصل حدوثه، فهو صحيح لأنّ القرآن قانون دائمي نوعي إلى يوم القيامة، ولا وجه لوقوع التشابه الدائمي فيه،

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

٢. سورة النحل: الآية ٨٩.

٣. سورة الأنعام: الآية ٩٤.

٤. سورة الفجر: الآية ٢٢.

خصوصاً بعد أن أُمرنا بردّ المتشابه إلى المحكم ثمّ الاستفادة منه .

إن قيل :إن جملةً من مفتتحات السور وأوائلها باقية على التشابه إلى الأبد.

يُقال : أنّها معلومة أيضاً عند الراسخين في العلم ، و فسّرت أيضاً بما مرّ .

و بالجملة : لا تشابه في القرآن بعد عرض الآيات المتشابهة على المحكمات أو على العقل المقرّر شرعاً . فالتشابه حدوثي لا دائمي في القرآن .

الحكمة في اشتمال القرآن على المتشابه:

بعد أن ظهر أنّ الآيات المتشابهة في القرآن الكريم ترجع إلى القصور في العقل، وعدم الإحاطة بردّ تلك الآيات إلى المحكمات ، تصير الحكمة في إنزال الآيات المتشابهة حينئذٍ أمراً سلبياً ، وهو عدم درك العقول وعدم احاطتها بالحقائق القرآنية ، وإلّا فلا قصور في نفس الآيات المباركة بعد ردّ بعضها إلى البعض ، ففي الواقع لا تشابه في الآيات القرآنية ، لا ثبوتاً ولا إثباتاً إذا عرضت الآيات المتشابهة على العقل المدرك المقرّر بالشرع ، فيكون التشابه في النظر البدوي من الإدراك ، لا في النظر الحقيقي ، و لذا نرى الاختلاف في تعيين المصاديق للآيات المتشابهة عند العلماء و المحقّقين .

و أمّا ما أُشكل على وقوع التشابه في القرآن بأنّه لا وجه له ، مع أنّ القرآن قانون أبدي ، و هو كتاب فسّرت آياته من لدن عليّ حكيم ، فلابدّ أن يكون شرعة لكلّ وارد و يستفيد منه كلّ أحد .

غير صحيح ، لأنّ اختلاف العقول في جهات الإدراك فطري خارج عن تحت أي اختيار، و القرآن لا يعدو الفطرة .

المتشابه في السنّة:

كما أنّ في القرآن محكماً و متشابهاً ، كذلك يكون في السنّة المقدّسة ، ففيها متشابهات و محكمات لابدّ و أن يردّ المتشابه إلى المحكم . و قد ظهر ممّا

ذكرنا أن ذلك حدوثي لا دائمي، و ينشأ ذلك من اختلاف الاستعدادات كما مرّ، و ردّ متشابهاتها إلى محكماتها إنما هو من شأن الفقهاء و المحدّثين العالمين العاملين بها، ففي السنّة الشريفة راسخ في العلم أيضاً، و تقدّم ما عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «ان في أخبارنا متشابها كمتشابه القرآن، فردّوا متشابهها إلى محكمها، و لا تتّبعوا متشابهها فتضلّوا».

التأويل ومعناه:

تقدّم أن التأويل من الأول. و للأول عرض عريض جداً، فيشمل كلّ ما له قابلية الشمول، مثلا أن قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ يشمل كلّ ما تؤول إليه الصورة الإنسانية من الخصوصيّات الذاتية و العرضية و الزمانية و المكانية، و يدخل في التأويل كلّ ذلك، فإذا نظر الراسخ في العلم إلى صورة إنسان يعلم بعلمه الراسخ جميع الحالات الواردة على الإنسان في عوالمه الطولية و العرضية، فيعلم أنّه كيف يعيش و متى يموت، و في أي محل يقبر، فجميع هذه الصور معلومة عنده حسب شأنه و رسوخه في العلم، و هذا أعظم أنواع التأويل.

فالتأويل أخصّ من التفسير بلا إشكال، لأنّ التفسير من فسّر، و هو و السفر بمعنى واحد، أي كشف القناع، و يحصل ذلك ببيان أوّل مرتبة من مراتب معاني اللفظ، بخلاف التأويل، و لذا يختصّ التأويل بأئمّة الدّين، كما ورد عنهم: «أنّ عندنا علم التأويل»، على ما تقدّم معناه، فيكون علم التأويل أجلّ و أعظم بمراتب من علم التشريع، وعبّر عن بعض مراتبه بعلم البلايا و المنايا، فإنّ له مراتب كثيرة، لأنّ للقرآن بطوناً، ولعلّ المراد منها بعض مراتب التأويل.

الفرق بين التأويل والتنزيل:

ظهر ممّا تقدّم الفرق بينهما، فإنّ التنزيل يختصّ بالآيات المباركة من حيث

اللفظ و غيره، و التأويل كلّ ما له قابلية الشمول للآية، فيكون الفرق بينهما أنّ التنزيل إنّما يلحظ باعتبار وجوده الجمعي، أي الوحدة في الكثرة، و التأويل إنّما يلحظ باعتبار وجوده الانطباقي الانبساطي الخارجي في الحوادث التكوينيّة و التشريعيّة، من أوّل الحدوث إلى آخر الخلود، لجميع الجزئيات و الخصوصيّات و العلل و المعلولات و الشرائط و الموانع، باعتبار الوجود الانبساطي الخارجي، و لا يمكن الإحاطة بذلك إلّا لله جلّ شأنه، لقصور ما سواه عن ذلك، و قد يفيض بعض ذلك لخلّص عباده، كما مرّ.

و قد بيّن الله تبارك و تعالى في سورة الكهف من آية ٦٦ إلى ٧٨ في ما سأله موسى عن الخضر عليه السلام الفرق بين التنزيل و التأويل، فقال تعالى حاكياً عن الخضر: ﴿**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً**﴾، فالتأويل ما فعله الخضر و أجاب عن ما سأله موسى، و التنزيل ما سأله موسى عن الخضر. و نعم ما نسب إلى بعض أكابر العرفاء: «التأويل علم الحقيقة، و التنزيل علم الشريعة والطريقة»، ومثّل لذلك بالفقيه والطبيب، فإنّ الفقيه محتاج إلى الطبيب في العلم بالعلاج والعلم بخواص الأدوية، والطبيب محتاج إلى الفقيه في العلم بظواهر الشرع.

و الجامع القريب بين التنزيل و التأويل إحقاق الحقّ و إبطال الباطل.

أمّا التأويل في السنّة و الروايات، فقد ورد فيها أيضاً ـ كما في بعض الروايات ـ لأنّ لها الوجود الانبساطي الخارجي القابل للانطباق على القضايا الخارجيّة أيضاً، كما تقدّم في تأويل الآيات الشريفة.

كما أن علم تعبير الرؤيا أُطلق عليه التأويل أيضاً، قال تعالى حاكياً عن نبيّه يعقوب لابنه يوسف عليه السلام: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ**﴾[1]، و المراد منها الأحاديث الحاصلة من النوم، بقرينة قوله

---

١. سورة يوسف: الآية ٦.

تعالى حاكياً عن الملأ: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾[١]، و قد ورد في السنّة المقدّسة أنّ الرؤيا جزء من تسعة و تسعين جزءاً من أجزاء النبوّة.

مورد التأويل في الآيات القرآنية:

لا ريب في ثبوت التأويل في القرآن في الجملة، بلا شكّ كما دلّت عليه الآيات المباركة، و هل يصلح جميع الآيات أن تكون مورداً للتأويل حتّى المحكمات و المتشابهات منها أو يختصّ ببعض دون بعض؟ لا طريق لنا إلى إثبات ذلك إلّا بما وصل إلينا من بيان التأويل وإلّا فليس لنا ضابطة تميّز الآيات المتّصفة بالتأويل عن غيرها لفرض اختصاص ذلك بالراسخ في العلم.

الفرق بين التأويل ومطلق استعمال اللفظ:

تبادر المعنى من اللفظ و استعماله فيه ـ و لو بنحو المجاز ـ ليس من التأويل، لا لغةً و لا عرفاً، و إنّ الاستعمال أخصّ من التأويل مورداً، و يمتاز كلّ منهما عن الآخر بأُمور:

الأوّل: أنّ التأويل له مراتب كثيرة، لأنّ للقرآن بطوناً ـ كما في البحث الروائي ـ و لها لوازم و ملزومات، و بالنسبة إلى المؤول تارةً يكون الذهن مأنوساً بشيء دون آخر، فيؤولها حسب الأُنس الذهني، إن لم يكن مخالفاً للحجج الشرعية الدائرة، و ذلك لا يكون إلّا من الإفاضة الغيبيّة الإلهيّة المختصّة بأهلها، كما تقدّم، و ذلك لا يكون في التبادر و الاستعمال.

الثاني: أن الأوّل بمعنى الرجوع و المرجع ـ كما تقدّم ـ و يصحّ أن يكون لكلّ موجود من موجودات هذا العالم ـ جوهراً كان أو عرضاً ـ بجميع أنواعها

---

١ . سورة يوسف: الآية ٤٤.

مناشئ ومراجع كثيرة،سابقة على مايفهم من ظاهر لفظه ولا حقة كذلك، وحوادث محفوفة بكلّ واحد منها، فيشمل التأويل جميع تلك الوجودات، أو العلوم الحادثة في العالم من أوّل هبوط آدم إلى قيام الساعة من جميع أنحاء العلوم و الخواص كلّية أو جزئية، بسيطة أو مركّبة، في الجواهر أو الأعراض في الأفلاك أو الأملاك.

وبعبارة أُخرى: الإحاطة العلميّة الحضورية بجميع ما سوى الله من كلّ جهة، ومثل هذا العلم غير محدود وغير متناه، ويختصّ بعض مراتبه بالله جلّ ذكره، و بعضه الآخر يفيضه جلّ شأنه على مَن يشاء من عباده، و هم الراسخون في العلم الذين أفنوا جميع شؤونهم الإمكانية في مرضاته تعالى، كما يطلع على الغيب المحجوب بعض عباده المقرّبين المحبوبين. فللتأويل وجود انبساطي يشمل جميع ما تقدّم، بخلاف الاستعمال كالتبادر وأمثاله، فإنّه محدود من جميع الجهات.

الثالث: صفات الحقيقة و علاماتها و كذا شرائط المجاز قد لا تكونان في المعنى المؤول، لأنّه قد لا تستأنس الأذهان العامّة بذلك، كما في قصّة موسى و الخضر في سورة الكهف من آية ٦٤ إلى آية ٨٢، و لكن في الاستعمال لابدّ منها، أو لابدّ من قرينة تدلّ على صحّة الاستعمال.

الرابع: المؤول لا يصحّ التمسّك به في الحجج الظاهريّة، بخلاف الاستعمالات الظاهرية، فإنّها حجّة عند العقلاء، سواء كانت بلا قرينة أم معها.

نعم، لو كان دليل من الخارج على إرادة المعنى المؤوّل يكون حجّة حينئذ، لكنّه من باب الوصف بحال المتعلّق لا الوصف بحال الذات، هذا بالنسبة إلى نوع الأذهان العامّة، أمّا بالنسبة إلى العالم بالتأويل و الراسخ في العلم، يكون المعنى المؤول حجّة عنده، كما في قصّة الخضر و موسىٰ.

دوران الأمر بين التأويل و التفسير:

لو ورد حديث في معنى آية من الآيات القرآنية و شكّ في أنه من التفسير

لها أو التأويل، فمع الظهور اللفظي يؤخذ به و يكون من التفسير و أنه حجّة، و أمّا لو لم يكن كذلك فمقتضى الأصل عدم الحجّية ما لم تكن قرينة من الخارج تدلّ عليها، فيدخل في البحث السابق من أنّه ليس كلّ تأويل حجّة إلّا لأهله.

و كذا الآيات القرآنية، فلأنّها إمّا محكمة، أو متشابهة، أو مردّدة بينهما، و يجري على الأخيرة حكم الثانية، فلا يصحّ التمسّك بها إلّا بعد الرجوع إلى ما ورد في شرحها في السنّة المقدّسة.

الاستعارات والكنايات القرآنية:

لا ريب في أنّ الآيات المباركة مشتملة على الكنايات، التي هي من أهمّ شؤون الفصاحة و البلاغة، و يعدّ ذلك من أدب القرآن، مثل قوله تعالى: **﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾**[1]، فإنّه كناية عن البراز، و قال تعالى: **﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾**[2]، فإنّه كناية عن الجماع، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة، فهي لاتكون من المتشابهات بل إنّها من المحكمات، فإنّ لها ظهوراً عرفياً و لو بالقرينة في المعنى المراد. و قد أثبتنا في علم الأصول أنّ المدار في المحاورات على الظهورات العرفيّة و لو كانت مجازيّة.

وكذا ما ورد في بعض الأحاديث من أنّ القرآن: «نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة».

وأمّا اللطائف و الإشارات و الدقائق، فإنّها إن كانت منساقة من ظاهر اللفظ بحسب المحاورة، تكون من المحكمات، وإلّا فهي من المتشابهات.

و من هنا يظهر فساد ما عن بعض من إنكار كون الكنايات من المحكمات و أنّها من المتشابهات.

***

---

١. سورة المائدة: الآية ٧٥.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٣٧.

الآية ٨ ـ ٩

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾.

نداء ملكوتي من قلوب الراسخين في العلم، يشمل ذروة العرش الأعلى حتّى ذرّة ما تحت الثرى، تطرب الممكنات من سماع لفظه، و تزجر العوالم من خطاب وعظه، تتدفّق منه الرحمة و النور على جميع الأحياء، بل على مَن في القبور.

و في لفظ (ربنا) من الاستغاثة و الانقطاع في أن يثبتهم على الحقّ ما ليس في غيره، و غالب دعوات الأنبياء و المنقطعين إليه جلّت عظمته مبدوءة به، لأنّه من أنين المربوب الضعيف إلى الربّ الخبير اللطيف، و دعاء المسكين الفقير إلى الغني المطلق الخبير.

ولابدّ و أن يكون هذا الدُّعاء مقول قول الراسخين في العلم، الذين ملئت قلوبهم بالإيمان بالله جلّ شأنه، و الذين يرون كمال استغنائهم في كمال الفقر إليه تبارك و تعالى، كما عن نبيّنا الأعظم ﷺ في قوله: «اللّهُمَّ اغنني بالافتقار إليك، و لا تفقرني بالاستغناء عنك».

و في ابتهالهم إلى الله تعالى بأن يثبتهم على الحقّ، و أن يفيض عليهم رحمته، لا سيما في يوم الجمع الذي لا ريب فيه دلالة بأنّ الغاية القصوى ذلك

اليوم، و أنّ العوالم كلّها في طريق السير إلى ذلك الموعد الذي لا يخلفه الله تعالى لجمعهم و فصلهم، و لا يمكن أن يتخلّف ذلك الغرض أنّه الهدف من السير الاستكمالي للإنسان. وكيف يمكن أن يهمل ذلك مع أنّ الربوبيّة العظمى تقتضي الوفاء بالوعد، وإلّا يلزم الخلف.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

مادّة (ز ي غ) تأتي بمعنى الميل عن الاستقامة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

والمعنى: ربّنا لا تمل قلوبنا عن الحقّ بعد إذ هديتنا إليه. و هذا الدُّعاء عام لجميع ما هو حقّ من المعارف و القرآن و الأحكام و المعاد، فيشمل الشريعة الختمية بكلّياتها و جزئياتها و أصولها و فروعها.

و الميل عن الحقّ إمّا قصدي و عمدي بالاختيار، أو نسياني لا عن اختيار، أو اضطراري و اجباري. و الأوّل فيه الإثم و العقاب، بل قد يوجب الكفر، و الأخيران لا أثر لهما، لحكم العقل بذلك، و لما ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «رفع عن أُمّتي الخطأ و النسيان و ما اضطرّوا إليه».

قوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾.

مادّة (و هـ ب) بمعنى التمليك مجّاناً و بلا عوض، وكلّ ما أُخرج من العدم

---

١. سورة الصف: الآية ٥.

٢. سورة سبأ: الآية ١٢.

إلى الوجود من جميع الممكنات هبة منه تبارك و تعالى، إذ لا يعقل الاستيعاض لمَن هو مستغن بذاته عن غيره لذاته بالنسبة إلى غيره، ممّا هو محتاج بذاته اليه عزّ و جلّ.

و أمّا قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾**[1]، و قوله تعالى: **﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾**[2]، ففيه عناية و تلطّف في الكلام، لا أن يكون من الاشتراء و القرض الحقيقي، وإلّا يلزم على الله الاستكمال، و هو قبيح و محال، و الرحمة بمعنى اللطف و الإحسان.

والمعنى: هب لنا من عندك رحمة. و تشمل جميع النعم الدنيويّة و الأُخرويّة التي أهمّها الاستقامة في الدِّين بالدين، فإنّها جامعة للرحمة الدنيويّة و الأُخرويّة.

قوله تعالى: **﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾**.

الآية الشريفة بمنزلة التعليل لما قبلها. و الوهّاب من أسماء الله الحسنى، تكون المبالغة في نظائره باعتبار المتعلّق لا باعتبار الذات، إذ لا معنى للمبالغة فيما لا منتهى و لا حدّ في أي جهة من جهات كماله و جلاله.

مع أنّ المبالغة من الجهات الكيفيّة، و هي منفية عنه تعالى بالأدلّة العقليّة و النقلية، قال عليّ عليه السلام: «هو الذي كيّف الكيف فلا كيف له، و أيّن الأين فلا أين له»، وكلّ ما هو في المخلوق لا يوجد في الخالق.

قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾**.

---

١. سورة التوبة: الآية ١١١.

٢. سورة التغابن: ١٧.

أي أنّك باعث الناس و محييهم بعد فنائهم و تفرّقهم ليوم لا شكّ فيه، و في هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة، لأنّ ذلك قضية عقليّة جامعة حاكية لمصير استكمال الطبيعة و ظهور الأعمال بصورها المناسبة في طريق الاستكمال، و أنّ البعث واجب عقلي و لازم في الطبيعة، قد قرّرته جميع الكتب السماويّة أيضاً. فقولهم: لا ريب فيه، أي لا شكّ فيه حسب الأدلّة العقليّة، و يمتنع عدم تحقّقه و سلب وقوعه، كما أنّ قولهم: «إنّك جامع الناس» كاشف عن فطرتهم العقليّة، لا أن يكون أمراً شرعياً لإثبات جمعهم، و إن كانت الآيات المباركة تثبت ذلك أيضاً، قال تعالى: **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[١].

قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾**.

عدول من الضمير إلى الظاهر للتنبيه على استحالة خلف الوعد بالنسبة إليه جلّ شأنه، لكماله تعالى و قدسيّته، و أن الميعاد عامّ لا يختصّ بقوم و طائفة، و الآية المباركة بمنزلة التعليل في تحقّق المعاد و عدم الريب فيه.

والمعنى: أنّك جامع الناس و باعثهم من قبورهم للجزاء ليوم لا شكّ فيه، كما أخبرت به في كتابك و وعدتنا به و أنّك لا تخلف الميعاد.

***

١. سورة الدخان: الآية ٤٠.

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآية الشريفة أُمور:

الأوّل: إنّما أضاف الراسخون في العلم الربّ إلى أنفسهم، و سألوا منه عدم الزيغ كما سألوا الرحمة، لأنّهم يرون انحصار جميع جهاتهم و نسبهم و إضافاتهم فيه تبارك و تعالى، فهو يربّيهم كيف ما شاء و أراد، فيكون نسبة سلب الازاغة إليه تعالى من جهة التربية المعنويّة التي يربّيهم الله تعالى.

و لذا كرّر لفظ (ربّنا)، فيستفاد منه نهاية الانقطاع منهم إليه جلّ شأنه.

الثاني: المراد من الرحمة في قوله تعالى: **﴿وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾**، رحمة خاصّة تختصّ بمقامات الراسخين في العلم، و هي تعمّ إبقاءهم على هذه الحالة، فيكون بمنزلة البيان لقوله تعالى: **﴿لاٰتُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا﴾**.

و يمكن أن يُراد بها الإفاضات و الإلهامات المعنويّة التي تناسب مقام الرسوخ في العلم، و هي غير محدودة بحدّ خاص، فتشمل جميع اللوازم و الملزومات الطولية و العرضية الغيبيّة لكلّ آية، ممّا لا يمكن أن يطلع عليها إلّا الله جلّ جلاله.

و بالجملة: أهمّ مراتب الرحمة التي لا يعقل مرتبة فوقها هي معرفة المعارف الإلهية بمراتبها المؤهّلة عندهم و العمل بها، و هي منحصرة بالإفاضة منه سبحانه و تعالى على قلوب الراسخين و منهم على غيرهم، فهذا الدُّعاء و الابتهال من أسمى الدعوات و أكملها إلى أكرم مدعو و أجلّه، و أنّه قرين الإجابة و الاستجابة، لأنّ له دخلاً في تكميل نظامي التشريع و التكوين. فهذه

الجملة: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾، ترجع إلى بيان المبدأ، كما أنّ ذيل الآية المباركة يرجع إلى بيان المعاد، فالآية الكريمة بصدرها و ذيلها تبيّن المبدأ و المعاد و التلازم بينهما، بأُسلوب جذّاب دقيق و بيان يأخذ بمجامع القلوب و توجّهها نحو الربّ الجليل المحبوب، و نظائر هذه الآية كثيرة، يأتي بيانها إن شاء الله تعالى.

و يمكن أن يكون هذا الدُّعاء منهم مع كونه من الرحمة الخاصّة بهم دعوة منهم إلى أن يجعل الله تبارك و تعالى غيرهم ـ المستأهلين لهذا المقام ـ مشمولين لهذا الدُّعاء.

و هذا هو دأب أولياء الله تعالى في دعواتهم، حيث لا يخصّون أنفسهم بدعاء خاص، بل يعمّونه لغيرهم. فيسقط نزاع بعض المفسّرين في أنّ الدُّعاء خاص أو عامّ، إذ لا تنافي بين الخصوص و العموم بالنسبة إليهم، بأن يكون الخاصّ منشأً لحصول العام بالنسبة إلى غيرهم.

الثالث: يستفاد من الآية الشريفة أنّ عدم زيغ القلب أعمّ من الهبات المعنوية و الإفاضات السماويّة، فيمكن أن يستجاب منهم دعاء عدم زيغ القلب، و تبقى الإفاضات المعنوية (أي الرحمة الخاصّة) بعد، و لذا قالوا: **﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾**.

و بعبارة أُخرى: عدم زيغ القلب أعمّ من هبة الرحمة، التي هي كالأرض التي هي معدّة لكلّ نبات و زرع، فيستمطرون منه تبارك و تعالى و يستوهبون منه أنحاء النباتات المعنوية و الأثمار الحقيقيّة في هذه الأرض، أعني القلب الذي خلا عن جميع الشوائب و الأوهام.

الرابع: يستفاد من تكرار الخطاب في قوله تعالى: **﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾**، الحصر الحقيقي، لأنّهم يرون انحصار جميع الهبات فيه تبارك و تعالى، و هذه

إشارة إلى قول: «لا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيم».

الخامس: يستفاد من هذه الآية الشريفة أن علم الراسخين في العلم يدور مدار علم المبدأ و المعاد، فعندهم المرتبة القصوى من علم المبدأ و المعاد، و فيهما تنطوي سائر العلوم التي تقع في طريق استكمال النفس الإنسانية الكاملة، التي هي أكبر حجّة لله تعالى في أرضه، و خلقت الدُّنيا و الآخرة لأجلها، و فيهما تنطوي الفلسفة العلميّة و العمليّة، التي هي أعظم المباني العقليّة و أجلّها، و أكثرها أبواباً و فصولاً، بحيث جعل كلّ منها علماً مستقلّاً برأسه.

السادس: يستفاد من مجموع الآية الشريفة الواردة في شأن الراسخين في العلم، أدب الدُّعاء و الابتهال إليه تبارك و تعالى، فلابدّ أن يكون الداعي منقلعاً من جميع الجهات الإمكانية، و منقطعاً إلى الحقيقة الربوبيّة من كلّ جهة، بحيث يرى نفسه فانياً تحت إرادة القدير المتعال، كما هو شأن الراسخين في العلم، و يمكن أن ينطبق عليهم قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّٰاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهٰا وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾**[1]، فإنّ حقيقة مثل هذه الآية المباركة منطبقة على الراسخين في العلم، و لو حدّ و عرّف الراسخون في العلم بما ورد في مثل هذه الآية الشريفة لكان حدّاً حقيقيّاً واقعيّاً.

السابع: ربما يتوهّم التنافي بين قوله تعالى حاكيا عن الراسخين: **﴿رَبَّنَا لَاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾**، و بين قوله تعالى حاكياً عن آدم و زوجته: **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾**[2]، و قوله تعالى حاكياً عن إبراهيم: **﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا**

١ . سورة الزمر: الآية ١٧ ـ ١٨.

٢ . سورة الأعراف: الآية ٢٣.

يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١].

و الجواب: أن مثل الآيتين الأخيرتين إنّما ورد لبيان إظهار ذل العبودية و التذلّل بالحقّ لدى المعبود المطلق، فيكون مثل هذه الآيات و ما فى سياقها من السنّة الشريفة، وارد في مقام الإخبار عن الشيء بداعي ذلّ العبودية المحضة، لا بداعي وقوع المخبر به في الخارج، و هذا كثير شائع في اللغة و العرف، خصوصاً عند أهل الذوق و العرفان، فلا محذور في البين عند من كان متوجّهاً إلى خصوصيات البيان.

***

بحث روائي:

في «الكافي»: عن هشام بن الحكم، قال: «قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام، إنّ الله حكى عن قوم صالحين أنّهم قالوا: **﴿رَبَّنَا لَاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾** حين علموا أن القلوب تزيغ و تعود إلى عماها ورداها، أنّه لم يخف الله مَن لم يعقل عن الله، و مَن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة ببصرها و يجد حقيقتها في قلبه، و لا يكون أحد كذلك إلّا مَن كان قوله لفعله مصدقاً، و سرّه لعلانيّته موافقاً، لأنّ الله تبارك اسمه لم يدلّ على الباطن الخفي من العقل إلّا بظاهر منه و ناطق عنه».

أقول: هذه الرواية من أجلّ الروايات الواردة في المعارف الإلهية، فقوله عليه السلام: «علموا أنّ القلوب تزيغ و تعود إلى عماها»، لأنّهم علموا أنّ الإنسان مركّب من مادّة و صورة، و من لوازم المادّة و الجسمانية زيغ القلوب، فسألوا ربهم بهذا الدُّعاء الذي هو أكمل الدعوات بالنسبة إلى الاستكمالات الإنسانية في

---

١. سورة الشعراء: الآية ٨٧ ـ ٨٩.

جميع العوالم التي ترد على الإنسان، فعلمهم هذا من قبيل العلم باللازم بعد علمهم بالملزوم.

و أمّا قوله عليه السلام: «إنّه لم يخف الله مَن لم يعقل قلبه على معرفة ثابتة ببصرها»، فهو من القضايا الوجدانية التي يكون دليلها معها و يكفي تصوّرها في تصديقها، لأنّ المخافة من الشيء تتوقّف على تعقّل ذلك الشيء و لو بالجملة، فإنّ المخافة بلا تعقل تكون عبثاً و لهواً، و يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

و أمّا قوله عليه السلام: «و يجد حقيقتها في قلبه»، فهو من القضايا الفطرية، لأنّ الاعتقاد بشيء يستلزم تصوّره وتصديقه في الجملة، وإلّا فلا موضوع للاعتقاد أصلاً.

و أمّا قوله عليه السلام: «و لا يكون أحد كذلك إلّا مَن كان قوله لفعله مصدقاً و سرّه لعلانيّته موافقاً»، فهو من أتمّ البيان و الحجّة لبيان العقيدة في شيء، لأنّه إذا كان الفعل مخالفاً للقول و كان بينهما اختلاف و تناف، لا تحصل العقيدة بذلك.

نعم، دعوى الاعتقاد الصوري مع مخالفة الفعل للقول حاصلة، و لكن لا أثر لها، و يدلّ على ذلك ما تقدّم في بعض الروايات عن الصادق عليه السلام: «مَن حرم الخشية من الله فليس بعالم، و إن شقّ الشعر في المتشابهات، و مَن لم يكن عمله مطابقاً لقوله فليس بعالم».

و أمّا قوله عليه السلام: «لأنّ الله عزّ اسمه لم يدلّ على الباطن الخفي من العقل إلّا بظاهر منه و ناطق عنه»، فهو حقّ لا ريب فيه، لأنّ الظاهر عنوان الباطن و بمنزلة اللفظ للمعنى، و يستكشف المعنى من اللفظ، فإذا كان أصل المعنى باطناً للظاهر

---

١. سورة فاطر: الآية ٢٨.

فكيف يتحقّق هذا العنوان؟!

و في «تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام: «أكثروا من أن تقولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا و لا تأمنوا الزيغ».

أقول: ما ذكره عليه السلام مطابق للأدلّة العقليّة التي أثبتوها في محلّه، من أن كلّ حادث يحتاج في البقاء إلى العلّة كما يحتاج إليها في أصل الحدوث، فنفس الهداية الحادثة من الله تعالى بصرف الوجود لا أثر لها ما لم تكن باقية و منشأ للأعمال الصالحة، و يدلّ على ما قلنا ما عن النبيّ صلى الله عليه وآله في الحديث الآتي.

في «الدرّ المنثور»: أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و الترمذي و ابن جرير و الطبراني و ابن مردويه، عن أُمّ سلمة: «ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكثر في دعائه أن يقول: اللّهُمَّ مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك. قلت: يا رسول الله، و أنّ القلوب لتتقلّب؟ قال: نعم، ما خلق الله من بشر من بني آدم إلّا و قلبه بين إصبعين من أصابع الله، فإن شاء أقامه، و إن شاء أزاغه».

أقول: ليس المراد من الإصبعين ما هو المفهوم منهما ظاهراً، بل المراد منهما قضاؤه و قدره، و ربوبيّته و تربيته، و يكون التعبير بالإصبعين كناية عن سهولة ذلك كلّه عنده تبارك و تعالى.

***

بحث عرفاني:

الممكنات بأسرها ـ و منها الإنسان الذي هو أجلّها و أشرفها ـ لابدّ لها من ارتباط مع خالقها، كما أنّ للخالق ارتباطاً مع خلقه، و هذا الارتباط على قسمين:

الأوّل: الارتباط التكويني، و قد أثبت أكابر الفلاسفة في محلّه، أنّه أوثق الارتباطات و أجلاها و أتمّها، بل و أشدّها، و من أجل ذلك يقسم الخالق

بمخلوقه، كما يقسم الحبيب بمحبوبه، قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١].

و قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[٢].

و قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٣].

لأنّ الفاعل يرى قدرته و ظهوره في فعله، فالفعل من مظاهر بروز الفاعل و تجلّياته و ظهوره، فيسعى كلّ منهما لصاحبه بما يريده تكويناً و يرضاه و ما يشتهيه، و إن شئت سمّيت هذا بتسبيح الممكنات، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٤]، فلا بأس، و إن شئت سمّيته بالفطرة، كما عن بعض، فلا بأس و إن شئت سمّيته بشروق نور أزلي من الغيب المحجوب على ظلمات الممكنات، فلا بأس. هذا كلّه بناء على ما هو المعروف بين الفلاسفة من القول بتكثّر الوجود و الموجود. و هذا القسم سير تكويني متدرج في قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، و قول: «لا حول و لا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم».

الثاني: الارتباط الاختياري الالتفاتي الفعلي، و عليه يدور أساس تكميل الإنسان، و لأجله أُنزلت الكتب السماويّة و القرآن المبين، و هو غاية دعوة الأنبياء و جميع المرسلين، و به تقوم درجات الجنان و دركات النيران، و عليه يدور أساس تكميل الإنسان إلى ما لا حدّ لأقصاه و لا يمكن أن يدرك مداه، و به

---

١. سورة التين: الآية ١ ـ ٤.

٢. سورة الفجر: الآية ١ ـ ٤.

٣. سورة الشمس: الآية ١ ـ ٨.

٤. سورة الإسراء: الآية ٤٤.

يسير الإنسان في عالمي الأظلّة و الأنوار، و يفرح من نسيم يفوح عن ربوع المحبوب و تلألُه، و يدرك سرّ الحياة و الجمال و الجلال:

أراك تزيد في عيني جمالا فأعشق كلّ يوم منك حالا
تزيد ملاحة و أزيد تيما فحالي فيك تنتقل انتقالا

و مثل هذه الآية الكريمة: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، و الآية المباركة: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[1].

و قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

والآيات المباركة الأُخرى ترشد إلى هذا القسم من الارتباط، حتّى يتّحد الارتباط التكويني مع الارتباط الاختياري، فتزداد جوهرة النفوس الإنسانية تلألؤاً و جمالاً، و تعرج إلى معارج لا حدّ لها عظمةً و جلالاً، قال الله جلّت عظمته: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت و لا أُذن سمعت و لا خطر على قلب بشر».

و إن اختلفا يصير الإنسان الذي هو من أسعد المخلوقات، وأفضل الممكنات، من أخسّها و أسفلها، لأنّه قطع ارتباطه مع خالقه و خالف منعمه، و أنزل مقام نفسه حتّى في مرتبة التكوين، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

---

١. سورة الزمر: الآية ١٧ـ١٨.

٢. سورة الحديد: الآية ١٢.

أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١].

و قال تعالى: **﴿ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾**[٢].

و قال تعالى: **﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**[٣].

إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وهذا القسم من الارتباط حالي، لا أن يكون مقالياً كما يعرفه أهل العرفان.

***

بحث فلسفي:

من المباحث المهمّة في الفلسفة الإلهيّة بحث المعاد، و قد اهتمّ به الأنبياء و المرسلون و جميع الكتب السماويّة و الفلاسفة و المتكلّمون اهتماماً بليغاً، و أطالوا البحث فيه من كلّ جهة، و في المقام مباحث نستوفي الجوانب الأهم منها.

ثبوت أصل المعاد:

يجب وجود المعاد عقلاً و شرعاً، كوجوب وجود المبدأ كذلك، و الفرق بينهما أن وجوب المبدأ ذاتي، و وجوب المعاد بالغير.

و المعاد من العود، و وجوبه في النظام الأحسن الذي يشمل جميع العوالم عقلي، و يمكن تقرير دليله بوجوه:

الأوّل: ما هو الأسد و الأخصر بأن يقال: إنّ الأرواح و النفوس أبدية، أي

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

٢. سورة البقرة: الآية ١٧.

٣. سورة البقرة: الآية ٧.

خالدة و باقية، فلا حدّ لآخرها باتّفاق الشرائع السماويّة و جميع الفلاسفة ـ على ما يأتي ـ و تعطيل هذه الأبدية المطلّقة وإهمالها عن كلّ شيء قبيح عقلاً، فيستحيل ذلك عليه عزّ وجلّ، بل لابدّ من إبراز مقتضيات ذواتها و خصوصيّاتها المحفوفة بها، و لا يتحقّق ذلك إلّا بالمعاد، فيجب المعاد في النظام الأحسن الربوبي، هذا بالنسبة إلى المعاد الروحاني المتّفق عليه بين الجميع.

و أمّا المعاد الجسماني، فإنّه يمكن تقرير وجوبه بأن يقال: إنّ الأرواح و النفوس في فعلها محتاجة إلى الآلات الجسمانية، أي الجسد (القلب و البصر و السمع و الرجل و غيرها)، و إن كانت في ذاتها مستغنية عنها، فإنّ الأرواح توجد متّحدة مع الجسم طول الحياة و تنفصل عنه عند الموت، ولابدّ من عود جميع آلاتها (أي الجسد) التي كانت تعمل بها بعد الموت، لفرض تقوّم فعلها بها، و أنّها كانت مأنوسة بتلك الآلات من كلّ جهة.

و قيام غيرها مقامها باطل، لأنّه يستلزم تنعيم ما لم يصدر منه منشأ النعمة، و تعذيب ما لم يحصل منه منشأ العذاب، و هو قبيح عقلاً، فكيف بالنسبة إليه تعالى؟ فيثبت المعاد الجسماني.

إن قيل: لا ريب في تحلّل الأجزاء الجسمانيّة في الدُّنيا، و في عالمنا هذا، و تبدلّ تلك الأجزاء و وصول بدل ما يتحلّل إليها في كلّ مدّة، فالبدن الموجود في سنّ العشرين مثلاً غير ما كان في سنّ العشرة، فيلزم المحذور، أي تنعيم ما لم يصدر منه منشأ النعمة و تعذيب ما لم يحصل منه منشأ العذاب، أو ترجيح المرجوح على الراجح، فليكن البدن الموجود في عالم الآخرة كذلك أيضاً، أو يكون من غير سبق بدن أصلاً.

يقال: التبدّلات الحاصلة على البدن في هذا العالم ليست تبدّلاً مادّيّاً و صوريّاً من كلّ جهة، بل المادّة الأوليّة محفوظة، و إنّما تتبدّل بعض

الخصوصيّات و بعض الصور ، فالمادّة التي تقوم بها النعمة و العذاب محفوظة في أصلها ، فيرد العذاب و النعمة على ما صدر منه .

الثاني : الملازمة الواقعيّة الحقيقيّة بين المبدأ و المعاد ، لأنّ المعاد مظهر مالكية المبدأ و قهّاريته و سائر صفاته الجمالية و الجلالية ، و المبدأ بدون تلك الصفات لغو محض ، بل غير ممكن ، وكذا العكس فهما متلازمان ثبوتاً ، و لا يمكن التفكيك بينهما واقعاً ، خصوصاً بالنسبة إليه تبارك و تعالى .

الثالث : الملازمة الثبوتيّة بين التشريع و الجزاء ، فإنّ أحدهما بدون الآخر لغو ، و هو محال عليه تعالى .

الرابع : أنّ إهمال تعذيب المسيئين و جزاء المحسنين قبيح في النظام الأحسن ، و هو محال على الله جلّت عظمته ، و الآخرة ليست إلّا دار تعذيب المسيّئين و جزاء المحسنين ، فلابدّ من تحقّقها ، و هذا العالم غير قابل لتعذيب المسيئين فيه ، لأنّه محدود من كلّ جهة ، و أنّه ظرف الاستكمال كما يأتي .

و هناك أدلّة أُخرى تدلّ على الثبوت نتعرّض لها في الآيات المناسبة إن شاء الله .

إثبات المعاد:

يمكن الاستدلال عليه بالأدلّة الأربعة :

فمن العقل: ما تقدّم من أدلّة وجوب وجوده ، إذ لا يعقل أن يكون شيء واجب الوجود و غير متحقّق في الخارج ، مع أنّ الممكنات بأسرها خلقت في طريق الاستكمال الدائم ـ لا الزائل ـ لفرض أبدية النفس و الروح ، كما أثبتها جميع الفلاسفة ـ الطبيعيّين منهم و الإلهييّن ـ و لابدّ في ذلك الاستكمال من نهاية و حدّ ، سواء كان الاستكمال في الخير أم الشرّ ، و أن المعاد مظهر الاستكمال

و نهايته، و أن هذا العالم ظرف الاستكمال كما نراه، فالإنسان ـ الذي هو أشرف الموجودات و خلقت الأشياء لأجله ـ يكون في مسير الكمال الذي لابدّ له من مظهر، و هو المعاد، أي عالم الآخرة، وإلّا يلزم الخلف، أي يكون الكمال بلا أثر و نتيجة.

و أمّا من الكتاب: فآيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: **﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾**[١].

و قوله تعالى: **﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[٢].

و قوله تعالى: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[٣].

إلى غير ذلك من الآيات، وكذا جميع الكتب السماويّة، فإنّ أهمّ دعوتها هي الدعوة إلى المبدأ و المعاد.

و أمّا السنّة: فهي فوق حدّ الإحصاء بألسنة مختلفة شتّى.

و أمّا الإجماع: فإجماع جميع الأنبياء و المرسلين، و جميع أهل الكتاب و المسلمين.

المعاد الروحاني والجسماني:

أمّا الأوّل، أي عود الأرواح بعد انفصالها عن الأبدان إليها للجزاء، و التعبير بالعود بالنسبة إلى الأرواح من باب الوصف بحال المتعلّق، لفرض أنّ الأرواح أبدية لا تفنى.

---

١. سورة الأعراف: الآية ٢٩.

٢. سورة الزمر: الآية ٧.

٣. سورة التوبة: الآية ١٠٥.

نعم، عند انعدام جميع ماسواه تعالى ينعدم، ثمّ يوجد ولم يسم ذلك بالمعاد.

و لا خلاف فيه من أحد ـ ثبوتاً و إثباتاً ـ في معاد الأرواح، فإنّهم أثبتوا أنّ الأرواح إمّا شقيّة، أو سعيدة، و مصير الأُولى إلى النار، بخلاف مصير الثانية، فإنّها إلى الجنّة، و لا يعقل الفناء المحض و الإهمال بالنسبة إلى الأرواح أصلاً، كما أثبته الفلاسفة، بل المنساق من الأدلّة السمعية ـ كتاباً و سنة ـ ذلك.

و يمكن إقامة الدليل العقلي عليه بأن يقال: إنّ الفناء و الاضمحلال من لوازم الجسم و المادّيات، لمكان تحلّل الأجزاء تدريجاً، و أمّا إن كان بسيطاً من كلّ جهة ـ كالأرواح و جميع المجرّدات و الروحانيين من الملائكة ـ فلا موضوع للفناء و التحلّل فيه، فيبقى بعد الحدوث أبداً.

نعم، الانعدام بمشيئة الله تعالى و إرادته شيء آخر لا ربط له بالموت و الفناء، فكلّ موجود إما أزلي و أبدي، و هو منحصر به جلّ شأنه، أو حادث أبدي، و هو المجرّدات و الروحانيون، أو حادث و فان، و هو الأجسام و المادّيات.

و أمّا كون شيء أزلياً و فانياً، فهو ممتنع للقاعدة التي تسالم الكلّ عليها من أن: «كلّ ما ثبت قدمه امتنع عدمه»، فمعاد الأرواح ممّا لا يعتريه الشكّ أصلاً، و مَن أنكره فقد **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾**[1].

و أمّا المعاد الجسماني الذي هو مورد دعوة الأنبياء و جميع كتب السماء، فقد أثبته جميع كثير من أكابر الفلاسفة و أعاظمهم، حتّى من غير المسلمين.

و إنّما أشكل بعض في استحالته من أنّه إعادة المعدوم، فإن الجسم لو انعدم فإعادته محال. و هذا الإشكال قديم الجذور، فقد حكاه الله تعالى في جملة من الآيات المباركة عنهم:

---

١. سورة النمل: الآية ١٤.

قوله تعالى: ﴿**مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**﴾[١].

و قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾[٢].

و غيرهما من الآيات الشريفة.

و لكن أصل الإشكال فاسد، لأنّه مغالطة حصلت من قياس قدرة الخالق على قدرة المخلوق، أي الممكن، فظنّوا أنّ ما لا يمكن بالنسبة إلى قدرة المخلوق هو غير ممكن بالنسبة إلى قدرة الخالق أيضاً، و لا ريب في بطلانه، لأنّ قدرة المخلوق محدودة و قدرة الخالق غير محدودة بوجه من الوجوه، حتّى إنّه تعالى خلق الأشياء من العدم، فليكن المعاد بالنسبة إلى الأجساد كذلك أيضاً، على فرض تحقّق العدم بالنسبة إليها، مع أنّه لا يمكن لفرض بقاء المواد الأوّلية، و إنّما تغيّرت الصور و الجهات الخارجيّة، و لذا قال تبارك و تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[٣]، فالذي يصوّر مادّة المواد و الهيولى الأُولى إلى صور شتّى بأكمل الصور و أحسنها، يقدر على كلّ ما شاء و أراد، و هو قادر على أن يعيد جميعها.

و ثانيا: أنّ استحالة إعادة المعدوم لا تختصّ بالمعاد الجسماني، بل تجري في جميع الممكنات حتّى الأرواح، بل مطلق المجرّدات، لانعدامها قبل يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[٤]، مع أنّ المعاد

---

١. سورة يس: الآية ٧٨.

٢. سورة الجاثية: الآية ٢٤.

٣. سورة الروم: الآية ٢٧.

٤. سورة غافر: الآية ١٦.

الروحاني متّفق عليه بين جميع الفلاسفة ، بل العقلاء أيضاً .

و ثالثا : على فرض التسليم أنّ المحال إنّما هو إعادة المعدوم بجميع خصوصيّاته الزمانيّة و المكانيّة و سائر الجهات ، لا خصوص المادّة و الصورة ، مع عدم ملزم لإعادة سائر الجهات ، و أنّهما محفوظان في عالم القضاء و القدر ، اللذين هما أوسع العوالم الربوبيّة ، بل يمكن أن يكونا محفوظين في الأذهان السافلة أيضاً ، فلا موضوع للمغالطة أصلاً .

الشبهات الواردة على المعاد:

أوردت شبهات كثيرة على المعاد ، و لكن أهمّها ثلاث :

الأولى : ما اصطلح عليها في كتب الفلاسفة و المتكلّمين بشبهة الآكل و المأكول ، و تعرّض لها بعض كتب الفلسفة الحديثة أيضاً ، و هي قديمة و ترجع جذورها إلى ما قبل الإسلام ، كما يستفاد من الآيات المباركة ، و حاصل الشبهة أنّه إذا تورد على بدن الإنسان صور أشياء مختلفة ،كأن صار الإنسان مثلا فريسة لسبع ، و صار السبع فريسة لسبع أقوى منه ، ثمّ استحال الجميع إلى التراب ، و استحال التراب إلى النبات ، و صارت هي مأكول الحيوان أو الإنسان ، فكيف يمكن أن يعود بدن الإنسان الذي تواردت عليه صور شتّى في المعاد ، و هل يعاد بالبدن الأوّلي و الهيكل الأصلي للإنسان ، و المفروض انعدامه بالكلّية؟ أو بالصورة العارضة عليه :

فيلزم أوّلاً: أن لا يعود البدن أو الجسم الموجود في دار الغرور في عالم الحشر و النشر ، و هو خلاف ما تقدّم من الأدلّة الدالّة على إثبات المعاد الجسماني .

و ثانيا : يلزم تنعيم من لم يصدر منه فعل الطاعة ، و تعذيب من لم يصدر منه

منشأ العقاب، و هو باطل بالضرورة، و هذا هو أصل الشبهة.

و لكنّها باطلة، لما تقدّم من أن الصور التي تعرض على الشيء و تتغيّر لا تنافي بقاء المواد الأوّلية لذلك الشيء، فهي باقية و محفوظة و إن تبدّلت الصور العارضة عليها و حصلت التطوّرات، لكن المادّة الأوّلية باقية، نظير المضغة التي تكون في مصير الاستكمال الإنساني، فهي موجودة في الإنسان و إن بلغ من العمر ما بلغ، و لكن تتبدّل عليها الحالات و الصور الكثيرة، و المعاد الجسماني أيضاً كذلك، فيكون التعذيب وارداً على من صدر منه فعل المعصية، و التنعيم على من صدر منه فعل الطاعة، و هو باق و إن عرضت عليه صور كثيرة.

مع أنّ العلم الحديث في التجزئة و التحليل تمكّن من تجزئة المواد في الجسم، و امتياز المواد الحيوانية عن النباتية، و هما عن غيرهما، فكيف بقدرته تعالى؟!

و لا فرق في ذلك بين أن يكون الآكل هو الحيوان أو يكون إنسان آخر، كما لو أكل إنسان إنساناً آخر، فالجواب في الجميع واحد.

و أصل الشبهة ناشئة من تحديد قدرة الخالق و قياسها على قدرة المخلوق، مع أنّ قدرة المخلوق أمكنها السيطرة على حفظ المواد الأوّلية في الجسم و امتيازها عن غيرها، بل و نموها كما عرفت، و هذه الشبهة مقرّرة في القرآن الكريم بنحو الإجمال:

قال تعالى: **﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ﴾**[١].

و قال تعالى: **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾**[٢].

---

١. سورة يس: الآية ٧٨.

٢. سورة القيامة: الآية ٣ و ٤.

الثانية: أنّ المعاد إنّما هو لتعذيب الأشقياء و تنعيم السعداء، و هذه النتيجة يمكن أن تحصل في هذه الدُّنيا و في هذا العالم، فلا يحتاج إلى التعذيب في عالم الآخرة، فيعذب الله تعالى الأشقياء في هذه الدُّنيا حتّى يرد الجميع إلى عالم الآخرة بلا منشأ للعقاب، فيردون الجنّة بغير حساب، فيكون التعذيب في هذا العالم بمنزلة التوبة الممحاة للذنوب، و هذه الشبهة كثيرة الدوران في الفلسفة الحديثة.

و لكنّها باطلة أوّلاً: لأنّ الله تبارك و تعالى جعل للذنوب في هذه الدُّنيا ما يوجب محوها و إزالتها، كالحدود و التعزيرات و الدّيات و الكفّارات و التوبة و الاستغفار و التكفير، قال تعالى: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾**[1]، فأي إنسان عمل بذلك، فلا ذنب له فيتحقّق التعذيب في هذا العالم بالحدود و التعزير و الديات و غيرها، فلا موضوع لهذه الشبهة، فإن الله تعالى أجلّ من أن يعذب العاصي مرّتين.

و ثانياً: أنّ كثيراً من المعاصي في هذه الدُّنيا ناشئ من سوء السريرة و فساد الطينة اقتضاءً، و هذا العالم بزمانه و زمانياته قاصر عن تعذيب مثل هذه السريرة، لأنّ هذا العالم متناه، و السريرة فيها اقتضاء عدم التناهي، فلابدّ و أن يؤجّل إلى عالم الآخرة.

و ثالثاً: أنّ هذا العالم ظرف الاستكمال في جميع الجهات، و التعذيب مناف له، نعم بعض آثار الذنوب تظهر في هذه الدُّنيا، و أنّها من الآثار الوضعية، و لا ربط لها بالتعذيب و المعاد.

الثالثة: المعاد الجسماني مستلزم للتناسخ الباطل ـ كما سيأتي ـ فيكون المعاد الجسماني باطلاً كذلك، خصوصا بعد اشتمال الأدلّة السمعية على حشر

---

١. سورة النساء: الآية ٣١.

بعض أفراد الإنسان بصورة بعض الحيوانات.

و الجواب عنها: أنّ المعاد الجسماني ليس من التناسخ في شيء، و بينهما تباين كلّي، لأنّ التناسخ الباطل عبارة عن انتقال الروح من بدن في هذا العالم إلى بدن غيره، كلّ منهما في عرض الآخر، و أما بقاء الروح إلى عالم آخر طولي و تغيير بدنه حسب المقتضيات و الملكات، فلا ربط له بالتناسخ أصلاً، بل يكون المقام نظير ما إذا ابتلى بدن الإنسان بمرض، بحيث زالت محاسنه و ذهبت هيئته و صفاته بالمرّة لأجل الجهات الخارجيّة مع بقاء روحه، فكم من شخص كان في غاية الجمال في شبابه فصار قبيحاً في هرمه و شيخوخته، وكم مرغوب إليه في سن فصار مرغوب عنه في سنّ آخر، و هكذا فالمعاد الجسماني من هذا القبيل. هذا فيما إذا تغيّر البدن في عالم الحشر، و أمّا إذا لم يتغيّر فلا موضوع للشبهة أصلاً.

***

الآية ١٠ ـ ١٣

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾.

الآيات المباركة مرتبطة بما قبلها، حيث إنّها ختمت بذكر اليوم الذي لا ريب فيه، فقد ذكر فيها بعض خصوصيّات ذلك اليوم، وهي أنّ أعمال الكافرين لا تغني عنهم شيئاً، وأنّ مصيرهم إلى النار، بل هم وقودها، بلا اختصاص في ذلك بالذين كفروا بدعوة محمّد ﷺ، بل يعمّ جميع الكفّار الذين كفروا بأنبيائهم.

وقد أعلن سبحانه وتعالى أنهم مغلوبون في هذه الدّنيا، ويحشرون في الآخرة إلى النار.

كما أنّهم رأوا بأنفسهم ما وقع بين الفئتين المؤمنة والكافرة، من نصرته تعالى الفئة المؤمنة منهما على الكافرة.

والآيات الشريفة تتضمّن نداء حقيقيّا واقعيّا صادراً عن الحقّ الواقع الذي لا مرية فيه ولا شكّ يعتريه، وهو أنّ المخاصمة مع الله جلّ جلاله ليس فيها إلّا

الهلاك و الخسران، و لا يعقل أن تتدارك بشيء ممّا هو في ذاته و حدوثه و بقائه محتاج إليه جلّت عظمته. و أنّ الكفر به تعالى سواد شديد و ظلمة مهلكة، لا يمكن محوهما أزلاً و لا أبداً، إلّا بالخروج من تلك الظلمة إلى الإيمان و النور في دار الدُّنيا و عالم الغرور.

و يقرع هذا النداء مسامع الملكوت الأعلى، و عقول ذوي الألباب من أهل الدُّنيا.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾**.

تقدّم معنى الكفر و أقسامه، و المراد منه في المقام إنكار المبدأ أو الشرك به، أو إنكار المعاد، أو إنكار دعوة النبيّ صلى الله عليه وآله، و بين جميع ذلك تلازم في الجملة، فإنّ إنكار المبدأ ملازم لإنكار النبوّة و المعاد، و إنكار النبوّة مستلزم لإنكارهما أيضاً، لأنّ الاعتقاد بالمبدأ و المعاد لابدّ أن يكون من طريق شريعة سيد المرسلين.

و الغناء عدم الحاجة، و هو من الأُمور التشكيكية ذات الإضافة، فالغني المطلق ـ ذاتاً و صفةً و فعلاً ـ منحصر به تعالى، قال تعالى: **﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾**[1]، و قال تعالى: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾**[2].

و يُطلق على الغني بالذات و المحتاج بالفعل، و يمكن أن يتصوّر ذلك في المجرّدات، فإنّها في مرتبة ذاتها خالية عن الاحتياج إلى المادّة، لكن في مرتبة

---

١ . سورة محمّد: الآية ٣٨.

٢ . سورة الحديد: الآية ٢٤.

الفعل محتاجة إليها، و إن كان فيها أيضاً أشدّ الاحتياجات و هو الإمكان، فكلّ ممكن محتاج، كما أن كلّ محتاج ممكن.

و يطلق على غناء النفس، الذي هو عبارة عن قلّة الحاجات، و منه قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنى**﴾[١].

و في الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «الغنى غنى النفس».

كما يطلق على الأموال التي يكتسبها الإنسان، كقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ**﴾[٢]، و قوله تعالى: ﴿**إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[٣].

و المراد منه في المقام القسم الأخير فقط، كما يأتي.

والمعنى: أنّ الذين كفروا بالله تعالى و بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله لا تنفعهم و لا تنجيهم أموالهم التي يبذلونها لجلب منافعهم و دفع مضارهم الدنيوية، و لا أولادهم الذين يتناصرون بهم في دفع ملمّاتهم و يعولون عليهم في الخطوب و الشدائد الدنيوية من عذاب الله شيئاً، لفرض نفاذ المال و اضمحلاله، و حدوث النفرة بين الآباء و الأولاد، كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾[٤]، فلا ينفعهم اعتقادهم بأن قالوا: ﴿**نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾[٥]، و قد أنكر سبحانه و تعالى ذلك عليهم و ردّهم بقوله جلّ شأنه: ﴿**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي**

---

١. سورة الضحى: الآية ٨.

٢. سورة النساء: الآية ٦.

٣. سورة النور: الآية ٣٢.

٤. سورة عبس: الآية ٣٤ ـ ٣٧.

٥. سورة سبأ: الآية ٣٥.

الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[١].

فالمراد من الاغناء هو الإغناء عن أهوال الآخرة و شدائدها، و الإضافة المالية تنقطع بمجرّد الموت، و تنتقل إلى الغير، فتكون هذه القضية من المنتفية بانتفاء الموضوع.

نعم، لو أنفق ما له في سبيله تعالى يكون باقياً إلى الأبد و ينتفع به المنفق، قال تعالى: **﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾**[٢]، و هو مفروض العدم لفرض الكفر و عدم الإيمان.

و أمّا الأولاد، فلا يذكرون آباءهم في شدائد الدُّنيا فضلاً عن أهوال العقبى: **﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾**[٣]، فلا منجى من تلك الأهوال و الشدائد إلّا بالإيمان و العمل الصالح فقط، لانقطاع الإضافات في شدائد الدُّنيا، فضلاً عن شدائد الآخرة التي لا تناهي لشدّتها و لا حدّ لمدّتها.

قوله تعالى: **﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾**.

الوقود الحطب أو ما توقد به النار و تلتهب، و في التعبير بالوقود بالنسبة إلى الكفّار إشارة إلى أنهم بمنزلة المادّة و الأصل لتعذيب سائر أهل النار، كما أن الوقود في هذا العالم يكون أصلا و مادّة للإحراق و سائر الأشياء المستفادة من النار، كذلك الكفّار في تعذيب أهل النار:

قال تعالى: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾**[٤].

---

١. سورة سبأ: الآية ٣٧.

٢. سورة البقرة: الآية ١١٠.

٣. سورة الحج: الآية ٢.

٤. سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

و قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[1].

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الدأب العادة المستمرّة أو السير الدائم، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾[2]، و يطلق على الجدّ و الاجتهاد أيضاً من باب الملازمة، قال تعالى محكياً عن تأويل يوسف لرؤيا الملك: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾[3].

و الآية المباركة مثال لكل جبّار عنيد، كذب بآيات الله تعالى بعد تماميّة الحجّة عليه، فتشمل جميع الأقوام الذين كانوا في الدُّنيا، و الذين سيأتون إليها إلى آخر فنائها.

و الذنب مؤخّر الشيء و استعمل في النصيب أيضاً، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾[4]، و يطلق على كلّ فعل يستوخم عقباه، و لذلك يسمّى الذنب بتبعة، كما ورد في كثير من الدعوات لما يتبع الإنسان من عواقب الفعل:

قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾[5].

و قال تعالى: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾[6].

و الذنب على أقسام كما يأتي ذكرها في الآيات المناسبة، و المراد به في

---

١ . سورة الجن: الآية ١٥.

٢ . سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

٣ . سورة يوسف: الآية ٤٧.

٤ . سورة الذاريات: الآية ٥٩.

٥ . سورة الأنفال: الآية ٥٤.

٦ . سورة الأعراف: الآية ١٠٠.

المقام الذنب الذي يرفع الحجّة و يغلق باب التوبة، فلا تقوم الساعة إلّا على شرار خلق الله تعالى كما في الأحاديث.

والمعنى: أنّ الذين كفروا بدعوة النبيّ و أنكروا الشريعة دأبهم كدأب قوم فرعون مع موسى عليه السلام، و دأب مَن قبلهم من الأمم، كذبوا بآيات الله و حججه فاستولت عليهم ذنوبهم فأهلكهم الله و نصر الرسل، و الله شديد العقاب بالنسبة إلى الكفّار أو الذين علموا بالحقّ الواقع و أنكروه.

قوله تعالى: **﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ﴾**.

الخطاب متوجّه إلى سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله، بل في الواقع متوجّه إلى كلّ نبيّ أو ولي من أولياء الله تعالى و أنبيائه الذين يستضعفون في الأرض بكلّ نحو من الأنحاء، و مع ذلك لهم قدم راسخ في إظهار الحقّ و إعلاء كلمته.

مادّة (ح ش ر) تأتي بمعنى الجمع و السوق و حيث إنّ الجلاء عن المحلّ و الخروج عن المقرّ يستلزم الحركة، سمّي ذلك حشراً، و يُقال ذلك في الجماعة غالباً، سواء كان الحشر في الدُّنيا كما في قوله تعالى: **﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾**[١].

و قال تعالى: **﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾**[٢].

أم في الآخرة مثل قوله تعالى: **﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾**[٣].

---

١. سورة الشعراء: الآية ٥٣.

٢. سورة النمل: الآية ١٧.

٣. سورة الكهف: الآية ٤٧.

و أُطلق (الحاشر) على سيِّد الأنبياء، و لعلّه لتنزيل هذا الفرد العظيم منزلة الجماعة، أو لأن الناس يحشرون خلفه، و على ملّته يسوق الناس إلى المحشر، فإنّه آخر الأنبياء و أوّل فيض السماء، فيقوم على قدميه بين يدي الله جلّ جلاله و الناس مصطفون خلفه، فيسوقهم إلى موازين العدل و الحساب و تعيين الجزاء بالثواب و العقاب، و مادّة (بأس) من المواد المستعملة في الذمّ بجميع هيئاتها، اسماً و فعلاً.

والمعنى: قل للكافرين من اليهود و غيرهم من الكفّار، إنّكم ستغلبون و تقهرون في هذه الدُّنيا و تساقون في الآخرة إلى النار و بئس المهاد، لما مهدتموه لأنفسكم.

و في الآية بشارة إلهية للمسلمين بالغلبة الواقعيّة الحقيقيّة لهم و لأنبياء الله و أوليائه و المتّقين، و إن كان لأعدائهم الغلبة الاعتقاديّة الوهمية الزائلة، لاقتضاء الدُّنيا على الوهم و الخيال.

ووعدٌ منه عزّ و جلّ بحفظ دينه من كيد الكفّار و شبه المعاندين و أضاليلهم، فيكون مضمونها مثل قوله تعالى: **﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**[1]، و غيرها من الآيات الكريمة التي تبشّر المؤمنين بالنصر و الغلبة، فتكون هذه الآية من المغيّبات القرآنيّة، و هي كثيرة.

و يصحّ أن يراد بالغلبة المعنى العام منها، الشامل للغلبة الخارجيّة في الدُّنيا و الآخرة، و الغلبة في الاحتجاج كما هو كذلك في الواقع، و الآية تشير إلى أمر طبيعي، و هو الصراع بين الحقّ و الباطل، و التي هي من السير الاستكمالي للطبيعة الإنسانيّة، كما أشرنا إليه مراراً، و سيأتي في الموضع المناسب إقامة البرهان عليه.

---

١ . سورة التوبة: الآية ٣٢.

و يستفاد من هذه الآية الشريفة عدم شمول الشفاعة للكافرين، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الحشر إلى جهنم و الدخول فيه، سواء غلبوا أم لا، لأن حيثيّة الكفر تعليلية، لا يمكن تخلّف المعلول عنها، كما برهن في محلّه.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾.

تحذير للذين كفروا، و إنذار لهم بعدم الإصرار على اللجاج و المعاندة، و عدم الاغترار بالعدد و العدّة. و دعوة للمؤمنين للاعتبار و التفكّر فيما منّ الله تعالى عليهم بالنصر و الغلبة و تأييدهم، مع ما هم عليه من القلّة في العدد و العدّة، و تصرّفه في الأبصار و جعل الفئة القليلة كثيرة في أعين الأعداء، فكان ذلك شارقة من شوارق الأنوار الربوبيّة على أصحاب بدر و نصرتهم على الكفر و الجهالة، و بها تنفس صبح السعادة و انطوى بساط الشرك و الجهالة، فخرجوا منتصرين في هذه الواقعة قد رفعوا راية الإسلام و زعزعوا أركان الشرك و الطغيان، و قد شدّوا على العزائم و أذعنوا بالنهوض لطاعة الرسول القائد، فظفروا بالنجاح و النصرة.

و قد استشهد في هذه الواقعة بدور حزنت عليهم شمس الضحى، و ارتفع أنين سيّد الأنبياء على القليب بما يصدع القلوب:

«زمّلوهم بدمائهم فإنّهم يُحشرون يوم القيامة و أوداجهم تشخب دماً».

فما بدرٌ إلّا منبع النور و الصفا ... يضيء لأهل الأرض من أُفق السّما
مصارع عشّاق تجلّت قلوبهم ... بحبّهم الرحمٰن حبّاً متيّما

و الخطاب متوجّه إلى الرسول الكريم لما هو رأس الأمّة و رئيسهم، فيشمل المؤمنين.

و الآية: الدلالة الواضحة. **و الفئة**: الجماعة الملفّقة مع غيرها لغرض من الأغراض. **و الالتقاء**: الاجتماع و التلاقي.

و الآية لم تذكر واقعة بدر بالاسم، و لكنّها تشير إلى أمر معهود بين المؤمنين المخاطبين، فتنطبق على واقعة بدر، إذ لم يعهد أن يكون التصرّف في الأبصار في غيرها.

و غزوة بدر من أهمّ غزوات الرسول الكريم، و هي أوّل غزوة خرج المسلمون منها منتصرين.

و بدر: اسم ماء بين مكّة و المدينة، و قد وقعت في السابع عشر من شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، و جيش المسلمين مؤلّف من ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلاً، سبعة و سبعون منهم من المهاجرين، و صاحب رايتهم علي بن أبي طالب عليه السلام، و مائتان و ستة و ثلاثون من الأنصار و صاحب رايتهم سعد بن عبادة، وكان في العسكر تسعون بعيراً و فرسان أحدهما للمقداد بن عمرو، و الآخر لمرثد بن أبي مرثد، وكان معهم ستّة دروع و ثمانية سيوف، و استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار، و الرعب يقدم جميع المسلمين، وكان نصر الله يرفرف فوق رؤوسهم، و النبيّ الأعظم هو السبب المتّصل بين الأرض و السماء، فكان النصر حليفهم و الغلبة أليفهم، و نزلت كلمة التوحيد من السماء، و جعلها أهل بدر شعارهم و على أعلامهم.

و يرجى من المسلمين أن يجعلوا هذه الواقعة نصب أعينهم و يهتدوا على هديها و يكونوا من البدريّين.

قوله تعالى: **﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾**.

أي: انظر إلى تلك الفئة القليلة التي تقاتل في سبيل الله، و إلى الفئة الكافرة

الكثيرة، و قد كتب للأولى ـ مع قلّتها ـ الغلبة، و على الثانية ـ على كثرتها ـ الذلّ و الهوان، و في ذلك عبرة لأُولي البصائر و الأبصار بعدم الاغترار بالكثرة في الأموال و الأولاد، فإن ذلك ليس سبيل النصر و النجاح، بل الله ينصر من يشاء و لا يعجزه شيء.

قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

أي: ترى الفئة الكافرة الفئة المؤمنة المرئية مثلي عددهم في العين و المشاهدة، لأجل إرعاب الكفّار و إعلان الغلبة. و هذا الأمر لا ريب فيه بالنسبة إلى قدرة الله تعالى، لإحاطته على البصائر، فكيف بالأبصار؟ مع أنّ تكثير العدد بالنسبة إلى رؤية العين أمر ممكن بحسب الأسباب الطبيعيّة، كما ثبت في علم المبصرات.

و يمكن أن يكون ذلك تصرّفاً في الهواء المجاور للعين، بحيث ينعكس الواحد متعدّداً فيها.

و الآية الشريفة تبيّن تكثير المؤمنين في العين، و لكن الآية الأُخرى في سورة الأنفال تبيّن تقليل المسلمين في أعين الأعداء، و هي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[1].

و وجه الجمع بين الآيتين أن التكثير كان لغرض و التقليل كان لغرض آخر، و لعلّه كان التقليل لأجل اجتراء العدوّ على مقاتلة المسلمين، ثمّ تكثيرهم في أعين الكفّار و إحاطة المسلمين بهم، ليفوزوا بالنصر و الغلبة، و هذا من أحد أسرار الحروب، كما هو المعهود في العصر الحاضر، كما يمكن أن يكون التقليل

١. سورة الأنفال: الآية ٤٤.

و التكثير في زمانين متعدّدين ، أو يكون في زمان واحد و لكن يقلّل بعضاً و يكثّر بعضاً آخر .

و ظاهر الآية الشريفة أنّ الضميرين في قوله تعالى : ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾ يرجعان إلى الجملة السابقة ، أي ترى الفئة الكافرة المسلمين ستمائة و ستة و عشرين ، مثلي عددهم ، و هو ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا ، كما مرّ .

و في مضاعفة العدد في رأي العين زيادة في الرعب و الهيبة في قلوب الكافرين ، ليجنبوا عن قتال المسلمين ـ كما تقدّم ـ لاختلاف الموردين ، و هذا الوجه أقرب بلحاظ الآيتين الشريفتين و أظهر .

و قد قيل في شأن الضميرين وجوه كثيرة أُخرى ، أهمّها :

اختلاف المرجع في الضميرين ، فيرجع أحدهما إلى المؤمنين و الآخر إلى الفئة الكافرة ، أي يرى المؤمنين مثلي عدد الكافرين . و لكنّه بعيد عن ظاهر اللفظ .

وقيل : إنّ الضميرين يرجعان إلى الفئة الكافرة ، أي يرى الكافرون أنفسهم مثلي عددهم ، و هو تسعمائة و خمسون ، فكان عددهم في رأي العين ألفين و ذلك ليوافق تقليل عدد المسلمين الوارد في الآية الأُخرى ، فيكون عددهم السدس في النسبة .

و يردّ عليه : أنه مخالف لظاهر الآية الشريفة و يوجب اللبس ، و أن حقّ الكلام حينئذ أن يكون يرون أنفسهم مثليهم ، و التطابق بين الآيتين الشريفتين حاصل ، و لو لم نقل بهذا الوجه كما عرفت .

و قيل : إن معنى الآية الشريفة أن المسلمين كانوا يرون الكافرين مثليهم في الجمع لا في العدد .

و قال شيخنا البلاغي : «كانوا يرون جمع قريش مثليهم بحسب رؤية العين

للجمع و صورة التجنّد، لا بحسب الاحراز للعدد و معرفة الكمّية، و الحكمة في ذلك هي أنّ الاستقلال في العدد يوجب الوهن و الجبن، فيتساهلون عن حرب الكافرين استضعافاً لهم. و لكن لم يروهم في أعدادهم و مقدارهم لئلّا تهولهم كثرتهم فيحجموا عن مناجزتهم و يتخاذلوا عن حربهم، كما قال تعالى في صورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾».

و فيه: أنّه بعيد عن سياق الآيتين الشريفتين بعد التأمّل فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

الأيد و الأد: القوّة. و هي إذا أضيفت إلى الله تعالى تكون غير متناهية و غير محدودة بحدّ من جميع الجهات، إلّا إذا خصّصها الله تعالى بمورد خاصّ، لأنّها تابعة للمصالح الحقيقيّة الواقعيّة، و في المقام ذكر عزّ و جلّ بعده النصر و الغلبة.

و قد أيّد الله تعالى المسلمين بالنصر و الغلبة، و هي قد تكون حسيّة ظاهريّة كما في غزوة بدر و غيرها، أو تكون في الحجّة و البرهان، فأيّد الله تعالى الإسلام بحجج متينة و مباني قوية، أُصولاً و فروعاً، و إلى كلا الأمرين يشير ما ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «الإسلام يعلو و لا يعلى عليه».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

العبرة: الموعظة، و الإبصار جمع البصر أو البصيرة، و الظاهر هو الأخير، أي البصيرة دون بصر العين فقط ـ كما يراه بعض ـ باعتبار أنّ الآية تتمّة للآية السابقة التي كان التصرّف في رؤية العين. و ذلك بقرينة العبرة، فإنّها من الاعتبار الذي يحصل في البصائر.

و إنّما ذكر سبحانه البصر لأجل المبالغة، باعتبار أن العين هي التي تعتبر، و لأجل أنّ المورد يتضمّن التصرّف في رؤية البصر.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: أن الأموال و الأولاد وكثرة العدد و العدّة التي يعدّها الإنسان في حياته، مسخّرة تحت إرادة الله عزّ و جلّ، و قد يصرفها على ضدّ ما يريده الإنسان، فيؤيّد الله تعالى الفئة القليلة فتغلب الفئة الكثيرة بإذنه عزّ و جلّ، ففي الآية الشريفة الموعظة البليغة للإنسان بعدم الاغترار بما عنده من الأسباب الظاهريّة، فلابدّ من التوجّه إليه تعالى و استمداد العون منه عزّ و جلّ.

و هذه الآيات الشريفة ترشد الإنسان إلى التحفّظ على نفسه و شدّة الحيطة، لئلا يغفل عن الله تعالى و ينسى ذكر ربّه فيقع في المهالك، قال تعالى: ﴿**وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[1].

كما أنّها تبيّن أنّه لابدّ من الارتباط مع عالم الغيب الذي نسبته إلى الإنسان كنسبة الروح إلى الجسد، فلا أثر لأحدهما بدون الآخر، و هذا الارتباط منه ما هو غير اختياري، و أنّ له التأثير التامّ و لا يحيط به إلّا العليم العلّام، و منه ما هو اختياري، و هو إمّا أن يكون التفاتيّاً تفصيليّاً، و هو مختصّ بأخصّ الخواصّ، و إمّا أن يكون إجماليّاً و لجميع أفراد الإنسان، بل الحيوان له حظ من ذلك، ففي الحديث: «مهما أبهموا عن شيء لا يبهمون عن خالقهم و رازقهم و موضع سفادهم»، و لعلّ الله عزّ و جلّ بفضل العلوم الحديثة يكشف عن بعض أسرار هذا الارتباط.

---

١ . سورة الحشر: الآية ١٩.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ**﴾، على أنّ الكفر و الباطل ممحوق لا محالة، و أنّ الحق لا يمكن الغلبة عليه و إزالته، و بمضمون ذلك آيات أُخرى:

قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[1].

و قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾[2].

و غيرهما من الآيات المباركة.

و يمكن أن يجعل غلبة الحقّ على الباطل من السير الاستكمالي للطبيعة الإنسانيّة، كما أشرنا إليه في عدّة مواضع من هذا التفسير.

الثالث: الآية الشريفة تتضمّن الوعد بالغلبة و الفوز بالنجاح للمؤمنين، و هو من المغيّبات القرآنية التي هي كثيرة في القرآن الكريم.

الرابع: صريح الآية الشريفة عدم شمول الشفاعة للكافرين، و أنّهم في جهنم خالدون، و قد تقدّم في سورة البقرة البحث في الشفاعة و موارد ثبوتها فراجع.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فِي سَبِيلِ اللّهِ**﴾ على العلّة في غلبة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، فإنّه كلّما خلصت النية وكانت الغاية سبيل الله تعالى، كان التأييد من الله تعالى أكثر، و أن المؤمن أشدّ ثباتا في سبيله تعالى و أكثر عزيمة، و هو من أهمّ أسباب الظفر و الغلبة و النجاح.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾ على العلّة في استحقاق

---

١ . سورة التوبة: الآية ٣٢.

٢ . سورة النور: الآية ٥٥.

الإنسان للعقاب في الآخرة، و هي أن المعاصي إذا صارت عادة للإنسان بحيث لا يضمر إلّا الذنب و المعصية مهما طال به العمر، استحق العقاب الدائم.

و فيه ردّ على من زعم أنّ عمر الإنسان محدود في الدُّنيا، فلا وجه لاستحقاق العاصي العذاب الدائم و خلوده في النار، فهو إنّما يستحقّ لأجل إضماره المعصية و الذنب مهما طال به العمر، بحيث صار عادة له.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**، أنّ أخذ الله تعالى للعاصين و عقابهم لا يكون من طرف خاص، كالفوق أو التحت أو نحوهما، كما في الشرور المتوجّهة إلى الإنسان، بل أخذه تعالى من جميع الجهات و الخصوصيات، فلا تنفعه الأموال و الأولاد و العزّة و الملك.

الثامن: إنّما قدّم سبحانه و تعالى الأموال على الأولاد، لكون حبّ المال عند الإنسان آكد و أقدم من حبّ الولد، و إن كان حبّ الولد قد يغلب على حبّ المال، قال تعالى: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾**[1]، و قال علي عليه السلام: «ينام الإنسان على الثكل و لا ينام على الحرب»، فالمال في نظر الإنسان هو السبب المهمّ في حياته، و به يستوفي حاجاته و يشبع رغباته، و قد تصل به الحالة إلى الركون إلى الأموال و الأولاد، و تشغله عن ذكر ربّه، فينساه و به هلاكه، لأنه يغفل عن نفسه أنه تحت إرادته عزّ و جلّ.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾**، على أنّ العادات السيّئة التي يغفل عنها الإنسان لها الأثر الكبير في زيغه و ضلاله و عذابه، و ما أرسل الله الرسل و الأنبياء إلّا لإرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، و نبذ ما يكون سببا في ضلالهم و غوايتهم، و هذه الآية واحدة من الآيات الكثيرة التي ترشد الإنسان إلى هذا الأمر الخطير، و تبيّن شدّة تأثير هذا الأمر الاجتماعي، بحيث

---

١. سورة الأنفال: الآية ٢٨.

يسلب عقل لإنسان و يسيطر على حواسه و مشاعره و يوصله إلى طريق مسدود، و لا يختصّ مضمون الآية الشريفة بآل فرعون و الذين خلوا من قبلهم، بل يجري في جميع أفراد الإنسان.

العاشر: إنّما أضاف سبحانه الأخذ و شدّة العقاب إلى ذاته الأقدس، لأنّه تعالى مصدر الجزاء ثواباً و عقاباً، كما أنّه مصدر التشريع إيجاباً و تحريماً، فهو المهيمن على الجميع، و يكون ثوابه و عقابه موافقين للحكمة التامّة البالغة.

الحادي عشر: ظاهر قوله تعالى: **﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾**، أنّهم من أوّل حدوثهم في الدُّنيا وقود النار، إلّا أن خصوصية العوالم حجبت أعيننا عن رؤية ذلك في الدُّنيا، فأيّ وقود ناري أشدّ و أغلظ من التربية في الكفر و الفسوق و العصيان.

الثاني عشر: إنما ذكر سبحانه و تعالى فرعون و الذين من قبلهم دون من بعده، ليتفأل أهل التوراة و الإنجيل و القرآن بانقطاع الفرعونيّة و الفراعنة و هلاك فرعون موسى و هارون.

الثالث عشر: إنّما ذكر سبحانه و تعالى سبيل الله في جهاد المؤمنين، و لم يذكر في المقابل سبيل الشيطان أو سبيل الطاغوت ـ كما في آيات أُخرى ـ لبيان العلّة في غلبة الفئة المؤمنة، و إنّها الإيمان بالله، وكون الجهاد في سبيله، و لبيان العلّة في انهزام الفئة الأُخرى، و هي الكفر به عزّ و جلّ، فكانت المقابلة بين العلّتين دون السبيلين ليذكر السبيل الآخر.

***

بحث أدبي:

مقتضى الاستعمالات المتعارفة الأخذ بعموم اللفظ و إطلاقه، ما لم تكن قرينة معتبرة على الخلاف، و أنّ زمان صدور الكلام و مكانه و الأُمور العامّة

المحفوفة بالكلام لا تصير مقيّدة و مخصّصة للإطلاق أو العموم، و على ذلك جرت سيرة الإفادة و الاستفادة بين الناس في كلّ كلام يصدر من كلّ متكلّم لكلّ مخاطب.

و طريقة (القرآن) لم تخرج عن طريقة العرف، فقد وافقتها في جميع ذلك، لأنّ آيات القرآن الكريم كلّيات واقعيّة حقيقيّة، و مطابقتها لزمان خاص أو مكان مخصوص من باب الانطباق لا التقييد الحقيقي، فما ذكره المفسّرون في شأن نزول هذه الآية الكريمة انطباقي قهري، لا أن يكون تحديداً لمعناها بوجه من الوجوه، فالآية الشريفة تشمل جميع ما يصحّ انطباقها عليه، من أوّل نزولها إلى آخر الدُّنيا، انطباقاً حقيقيّاً واقعيّاً، كما هو الشأن في جميع القضايا الحقيقيّة.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي» في قوله تعالى: **﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ﴾**، أنّها نزلت بعد بدر لما رجع رسول‌الله ﷺ من بدر أتى بني قينقاع و هو يناديهم، وكان بها سوق يسمّى سوق النبط، فأتاهم رسول‌الله ﷺ فقال: يا معشر اليهود، قد علمتم ما نزل بقريش و هم أكثر عددا و سلاحا وكراعا منكم، فادخلوا في الإسلام، فقالوا: يا محمّد، إنّك تحسب حربنا مثل حرب قومك؟ و الله لو لقيتنا للقيت رجالاً، فنزل عليه جبرئيل فقال: يا محمّد: **﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ﴾**.

أقول: روي قريباً منه في «المجمع»، و في «الدرّ المنثور» عن ابن إسحاق و ابن جرير، و البيهقي في «الدلائل» عن ابن عبّاس.

***

الآية ١٤ ـ ١٧

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

الآيات الشريفة تبيّن حقيقة الدُّنيا و الآخرة، و أن الأُولى محفوفة بحبّ الشهوات و ما يوجب الضلال و الخروج عن الصراط المستقيم، و أنّ رغائب النفوس و دوافع الغريزة، هي التي تشغل الناس عن التبصّر و الاعتبار و التوجّه إليه سبحانه و تعالى، و تحجبهم عن منابع النور و الحكمة، كما تحرمهم عن نعيم الآخرة.

و قد عدّ سبحانه و تعالى في الآية الأُولى أُصول الشهوات المنسوبة إلى نفس الإنسان و أنّها التي توجب الزيغ و الضلال، و أنّ قلوب الناس ملئت حبّها و جعلت مشغوفة بها، و هي الستّة ـ النساء، و البنون، و الأموال، و الخيل، و الأرض المخصبة، و الأنعام ـ التي تتدخّل في سلوك الإنسان في الدُّنيا و تعيّن مستقبله في العقبي، فهي قضايا حقيقيّة تصدقها العقول، فتكون الآية الشريفة

بمنزلة الشرح لحقيقة حال من يعتقد أن الاستغناء إنّما يكون بالتلذّذ بالنساء و الأولاد و الأموال و ما وهبه الله تعالى، فأعرضوا عنه عزّ و جلّ، لانهما كهم في المشتهيات و حبّ الدُّنيا، و بيّن عزّ و جلّ أنّ ما في الدُّنيا من جميع المشتهيات هي متاع زائل لا قرار له.

و في الآية التالية ذكر سبحانه و تعالى نِعم الآخرة و لذائذها، و هي جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و أزواج مطهّرة، و أهمّها رضوان من الله، و قد بيَّن عزّ و جلّ ما يوجب الاستمتاع به، و الدخول في رضوانه جلّ شأنه، و الوسيلة لكسب السعادة في العقبى، كما بيّن الطريق الذي لابدّ من سلوكه ليوصلنا إليه عزّ و جلّ، و هو الإيمان به تعالى و اللجوء إليه و الصبر و الإنفاق و التوبة و الإنابة، ثم الصدق في جميع ذلك و الخضوع لديه عزّ و جلّ.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾.

مادّة (زين) من المواد الكثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيئات شتّى:

قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[1].

و قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ازَّيَّنَتْ﴾[2].

و قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[3].

و في حديث الاستسقاء: «اللّهمّ أنزل علينا في أرضنا زينتها»، أي نباتها الذي يزيّنها.

---

١ . سورة فصلت: الآية ١٢.

٢ . سورة يونس: الآية ٢٤.

٣ . سورة القصص: الآية ٧٩.

و الزينة من الأُمور الإضافية المختلفة بحسب اختلاف العادات و الأعصار و الأمصار، وأنـّها من الجماليّات التي يكون حسنها ممدوح و جذّاب للنفوس، بل إنّ بعض مراتبها ممّا يدرك بالحسّ، و لا يمكن وصفها باللفظ، و الزينة الحقيقيّة هي ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله، لا في الدُّنيا و لا في الآخرة، و غيرها ممّا يوجب الشين في حالة دون أُخرى، فهي زينة بالوجه و الاعتبار، و ليست هي حقيقيّة على الإطلاق.

و الزينة على أقسام ثلاثة:

زينة نفسانيّة: كالعلم و الاعتقادات الحسنة و الكمالات النفسانية المقرّرة في الشريعة.

و زينة بدنيّة جسمانيّة: كالشمائل الظاهريّة الحسنة، قال عليّ عليه السلام: «زينة المرء حُسن أدبه، و جمال الرجال في عقولهم، و عقول النساء في جمالهن».

و زينة خارجيّة: كالمال و البنين و الاعتبار. و قد ذكر تعالى جميع ذلك في مواضع من القرآن الكريم.

فتارةً: نسبها إلى نفسه عزّ و جلّ، قال تعالى: **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُم الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾**[1].

و قال تعالى: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾**[2].

و أُخرى: إلى الشيطان، قال تعالى: **﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[3].

و ثالثة: لم يسمّ فاعلها ـ كما في المقام ـ والوجه في ذلك أنّ الله تعالى خلق

---

١. سورة الحجرات: الآية ٧.

٢. سورة الأعراف: الآية ٣٢.

٣. سورة الأنعام: الآية ٤٣.

الدُّنيا و ما عليها وسيلة إلى نيل الكمال و الوصول إلى غاية حميدة ، و هـي الدار الآخرة ، فكانت الدُّنيا متاعاً و دار مقام ينزل إليها الإنسان في برهة من الزمـن ، ليتزوّد منها إلى سفر آخر طويل ، فكلّما كان الزاد أحسن و أبقى ، كان العيش في الآخرة أهنأ و أحسن ، و قد خلق الله تعالى الدُّنيا زينة ليـرغّب إليـها الإنسـان ، و تكون وسيلة للتزوّد منها، و يتوسّل بها إلى الدخـول فـي رضـوان الله تـعالى ، قالعزّ و جلّ : **﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾**[1] و إلى ذلك يشير كلّ ما ورد من الآيات التـي تنسب الزينة إليه تعالى .

و أمّا إذا جعل الإنسان الدُّنيا و ما عليها من الزينة محطّ نظره ، و اعـتبرها أمراً مستقلّاً و جعلها هي الغاية من دون أن تكون وسيلة و ذريعة إلى الدخول في رضوانه تعالى ، و أحبّها حتّى وصل بهم الأمر إلى أنّهم جعلوا ما في الدُّنـيا مـن الأموال و الأولاد تغني عنهم ، فزيّنت لهم أعمالهم ، فكانت الدُّنيا وبالا عـليهم ، فتكون الزينة مستندة إلى الشيطان أو إلى نفس الإنسان ، و إن كانت الدُّنيا مخلوقة لله تعالى ، و قد أذن للإنسان أن يتمتّع بها ، ليتمّ النظام ، و لكن لم يزين الدُّنيا لتلهّي الإنسان بها و يعرض عن ذكره عزّ و جلّ ، فإن الله تعالى أعزّ و أمنع من أن يدبر خلقه بما لا غاية له ، أو يوصل الإنسان إلى غاية فاسدة ، فالتعبير بالمجهول في (زين) للتنبيه على ما تقدّم كما سيأتي .

و تقدّم معنى الحبّ في آية ١٦٥ من سورة البقرة .

و مادّة (شهوة) تأتي بمعنى نزوع النفس إلى ما تريده . و هي:

إمّا صادقة ، أي ما يقوم بها البدن و لا تتمّ الحياة البشرية إلّا بها ، و تكون من أتمّ ما بني عليه النظام الأحسن ، بحيث لو اختلّت لبطل النظام و تـعطلت أُمـور

---

١ . سورة الكهف : الآية ٧ و ٨ .

الأنام، فإنّها من سنن الحياة المستلذة بها.

و إمّا كاذبة، و هي الشهوة المذمومة، أي الإغواء أو الدافع الشيطاني، و إنها مستقذرة حذّرت الأديان الإلهيّة منها، و جعلتها محور الانحرافات و الأخلاق الذميمة، سواء كانت خفيّة، أي الصفات الذميمة و الأخلاق السيّئة التي يضمرها صاحبها و يصرُّ عليها، كما في الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه و آله: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم الرياء و الشهوة الخفيّة»، أم كانت ظاهريّة، و هي ما كانت ظاهرة من العمل.

و الشهوات: جمع شهوة، و هي توقان النفس للملائم أو الملذ لها، و هي من أهمّ القوى التي خلقها الله تعالى في الحيوان، و لو لولاها لما قام له أصل و لا بنيان.

و سياق الآية المباركة يدلّ على أن فاعل التزيين هو الشيطان أو النفس، لأنّ حبّ الشهوات مذموم، و يشتدّ الذم كلّما اشتدّ الحبّ، و يخف كلّما خف حتّى يصل إلى مرتبة الحبّ النظامي الذي هو من لوازم الطبيعة في الإنسان و الحيوان، فتزول المذمّة رأسا، بل يكون ممدوحا و يكون خلافه نقصا و مذموما، و على ذلك يحمل ما ورد عن سيد الأنبياء صلى الله عليه و آله: «أحببت من دنياكم ثلاث: الطيب و النساء، و قرّة عيني الصلاة»، و سيأتي وجه آخر لحمل كلامه.

و يمكن أن تكون الآية الشريفة في مقام بيان طبيعة الإنسان و ما يتدخّل في سلوكه، فإذا وفّق بين الحبّ و الطبيعة، بحيث يتحكّم العقل بالتوفيق بينهما، كانت النتيجة فاضلة و الأثر عظيماً، و يكون حبّا ممدوحاً، و هو الذي يشاؤه الله و يريده و يرتضيه، و لا ريب في أنه ممدوح عقلا أيضاً، فيكون تزيين الله تعالى هو إذنه و بيان حدوده، فقد زين حبّ المذكورات في الآية الشريفة المتقدّمة وفق الحكمة المتعالية ليكون وسيلة لتنظيم النظام و بقاء النوع و حسن الاجتماع،

و أمّا إذا ألهى القلب عن التوجّه إلى الله تعالى و أوجب الغفلة عنه عزّ و جلّ، فهو من تزيين الشيطان و وساوسه، و هو مذموم عقلا أيضاً.

قوله تعالى: **﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾**.

ذكر سبحانه و تعالى أُموراً ستّة من المشتهيات، و هي الأُمور التي تتدخّل في شؤون الإنسان و سلوكه و تحدّد مصيره.

و (من) بيانيّة، و البنين جمع ابن، و هو الذكر من الأولاد، و لكن في المقام يشمل الذكور و الإناث، بقرينة قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾**[1]، و قوله تعالى: **﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾**[2]، و قوله تعالى: **﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[3]، و إنّما أتى عزّ و جلّ بصيغة الذكور إمّا تغليباً، أو يكون كناية عن حبّهم المذموم الذي كان دائراً بينهم.

و إنّما زين حبّ البنين مع كونه من حبّ النساء أيضاً، لأن البنين هم الغاية القصوى من حبّ النساء، و هم النتيجة لذلك الحبّ.

و القناطير: جمع القنطار، و هو المال الكثير، و في بعض الأخبار ملأ مسك ذهبا، و قيل ملأ جلد ثور ذهباً، و قيل غير ذلك، و هو اسم لمعيار خاص أيضاً، و سمّي المال بالقنطار، لأنّ صاحبه يعبر بواسطته الحياة الدُّنيا، و يختلف ذلك اختلافاً كثيراً بحسب الأشخاص و الأزمنة و الأمكنة و غيرها، كالغنى الذي لا يمكن تحديده بحدّ خاص، و من حدّدهما إنّما يحدّدهما بحسب الجهات

---

١. سورة التغابن، الآية: ١٥.

٢. سورة سبأ: الآية ٣٧.

٣. سورة الممتحنة: الآية ٣.

الخارجيّة، لا بحسب ذاتهما.

و المقنطرة اسم مفعول جيء به للتثبيت و التوكيد، كما هو عادة العرب في توصيف الشيء بما يشتقّ منه للمبالغة و تثبيت معناه له. و هذا التعبير مشعر بالكثرة و الاقتناء.

و تعداد المشتهيات باعتبار كون الإنسان ذا أصناف، فإنّ بعضاً منه يتعلّق حبّه بالنساء، و بعضاً آخر يتعلّق بجمع المال و تخزينه، و ثالثاً بالأولاد البنين منهم بالخصوص، و رابعاً بالأنعام و الحرث. و ربما يجتمع في فرد أكثر من واحد من تلك المشتهيات، فإنّ الشهوة ذات مراتب متفاوتة شدّةً و ضعفاً بالنسبة إلى شخص واحد في حالات مختلفة، فضلاً عن الأشخاص.

فالآية المباركة تبيّن طبع الإنسان على نحو القضية الحقيقيّة، كما أنّها ليست في مقام حصر الشهوات، فقد يتعلّق حبّ الإنسان بالجاه و المقام و نحو ذلك، و إن كانت المشتهيات الأُخرى ـ التي لم تذكر في الآية الشريفة ـ أقلّ تأثيرا ممّا ذكر فيها، فهي أُمور وهمية تتعلّق بها الرغبة و مقصودة ثانوية، فيكون الحصر إضافيا، فلا منافاة بين هذه الآية الشريفة و بين قوله تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[1]، و سيأتي في البحث العلمي ما يتعلّق به.

و تعلّق حبّ الإنسان بهذه الثلاثة واضح، لأنّ بها ينتظم النظام الاجتماعي في هذه الدُّنيا، بل النظام الفردي و الاقتصادي فيها، و بها تتحقّق أغلب رغباته، و بقدر اشتداد هذه المشتهيات و ضعفها يتحدّد سلوك الإنسان و يتعيّن خلقه في الدُّنيا و مصيره في الآخرة، فإن بالنساء تتحقّق المعاشرة الزوجية إليهن و تسكن النفوس، و هن الطرف الآخر من الحياة التي عليهن مسئوليات كثيرة في الكفاح و العيش، فالمرأة و الرجل متشابكان في عموم المنافع و انتظام النظام، و لأجل

١. سورة الكهف: الآية ٤٦.

ذلك أسّس العلماء قاعدة اصطلحوا عليها بقاعدة الاشتراك، أي اشتراك النساء مع الرجال في الأحكام، إلّا ما خرج بالدليل، و قد حدّد الشرع المقدّس هذه الشهوة بحدود خاصّة تحدّد مسؤولية كلّ واحد منهما في هذه الحياة و تنظّم شؤونهما، و التعدّي عنها يوجب الفساد و الدمار.

و إنّما لم يذكر عزّ و جلّ حبّ النساء للرجال ـ مع أنّ الناس في صدر الآية الشريفة يشمل كلّاً منهما، كما أنّ بقيّة الشهوات عامّة لهما ـ إمّا لأنّ من أدب القرآن الكريم و السنّة الشريفة الستر على النساء مهما أمكن، أو لأجل أنّ كثيراً من الأُمور التي تتعلّق بهذه الشهوة إنّما يتعلّق بالرجال و تقلّ في جانب النساء، فإنّ الأشدّ و لعاً بحبّ النساء و اتّخاذهن صواحب في اللذائذ و نحو ذلك هم الرجال، كما أنّهن أشدّ تأثيراً على الرجال، إذا اشتدّ الغرام و التعشّق بهن.

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾.

المسومة: إمّا بمعنى الراعية من سامت الإبل سوما إذا ذهبت لترعى، أو بمعنى المعلّمة لتعرف من غيرها من السمة بمعنى العلامة، و منه قوله ﷺ يوم بدر: «سوموا فإن الملائكة قد سومت»، أي اعملوا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضاً، و هي تلك الخيل التي يقتنيها الأغنياء و غيرهم للافتخار و التباهي، مضافاً إلى كونها ممّا يبذل بإزائها المال الكثير.

و الأنعام و هي الإبل و البقر و الغنم، و إنّها أموال أهل القرى و البادية، و منها يكون معاشهم و ثروتهم.

و الحرث اسم لكلّ ما يحرث، أي المغروس و المزروع، فيشمل نفس الزرع و تربيته، فيكون فيه معنى الكسب. و الحاجة إليه أشدّ من غيره، و حبّه لا يكون ضارّاً بأُمور الآخرة، و لذلك أخّره عن الأنواع السابقة، و بذلك تتمّ جميع ما يزين أصناف الناس، فقد ذكر سبحانه الأنواع التي توجب الافتنان بكلّ

صنف، فالذهب و الفضة لأهل التجارة و الخيل للملوك و أهل الجاه و المقام، و الأنعام لأهل البادية، و الحرث لأهل القرى و الأرياف، فتصلح الآية الشريفة لكلّ عصر و مصر من دون اختصاصها بصنف خاص و مورد كذلك.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

المتاع اسم لكلّ ما يتمتّع به، و يعبّر عنه لكلّ ما هو في معرض الزوال و الاندثار، و التعبير به للتزهيد في الدّنيا و الترغيب للآخرة، التي هي دار البقاء و الحيوان، أي ما ذكر من المشتهيات هي أُمور يتمتّع بها في هذه الدُّنيا الفانية التي يتزوّد منها برهة من الزمن، يقضي بها حوائجه من دون أن تكون باقية دائمة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

المآب: المرجع، و حسن المآب هو المرجع الذي لا فناء فيه و لا عناء و المنزّه عن كلّ نقص و عيب، فلا يشغل المتاع الزائل في الدُّنيا عن الخير الآجل و المطلق في العقبى.

و في الآية المباركة كمال الترغيب إلى الاخرة، و تحقير الدُّنيا و التقليل من شأنها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾.

تفصيل لما أجمل سابقاً، و بيان لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾، فقد أمر سبحانه و تعالى نبيّه ببشارة المتّقين، بأنّ لهم عند الله تعالى ما هو أعظم من هذه المشتهيات الزائلة المحدودة، التي لا تبقى و لا تدوم، و هو الخير للإنسان، فلا خير في ما سواه، و هو و إن كان مشابهاً لما في هذه الدُّنيا و مجانساً للشهوات الإنسانية، و لكنّها أجلُّ النِّعم و أعظمها، و هو خال عن النقص و بريء

عن القبح و الشرور، و قد ذكر سبحانه ذلك في كلام بليغ تتوجّه إليه النفوس و تهتزّ من فرح اللقاء الأرواح و القلوب. و فيه جذبة ربوبيّة من الملكوت الأعلى للمتّقين المسجونين في سجن الدُّنيا، و قد وعدهم الجنّة و مطهرات الأزواج و الرضوان.

و من إطلاق الخير يستفاد أنّه خير في ذاته و من جميع شؤونه و جهاته.

و إنّما أتى سبحانه بالكلام على صورة الاستفهام، لتوجيه النفوس إلى الجواب و تشويقهم إلى العمل، و هو أُسلوب فصيح يؤثّر في النفس و يستفزّها على إصغاء الجواب.

قوله تعالى: **﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾**.

جملة **(للذين اتّقوا)** خبر مقدّم، و جملة: **(جنّات تجري)** مبتدأ مؤخّر.
و التقوى هي إتيان الواجبات الشرعية و اجتناب المحرمات الإلهيّة، و هي المراد بالعمل الصالح الذي كثر الاهتمام به في القرآن الكريم، كما أنّها الورع الذي حثّت عليه السنّة المقدّسة بألسنة شتّى، فقد ورد: «أنّ من اجتنب محارم الله فهو من أورع الناس»، و هي أساس الكمالات و قرّة عين الأنبياء و المرسلين، و هي السبب المتّصل بين أهل الأرض و السماء، و بها ينتظم نظام الدُّنيا و العقبى.

و لفظ الجنّات يدلّ على كثرة الأشجار و استتار الأرض بها و تعدّدها، و جريان الأنهار من تحت الأشجار إنما هو لأجل تماميّة بهجة الجنّات و ازدياد رونقها، وكون الجنّات كذلك من أجلى مظاهر الفرح و الانبساط، لا سيما إذا استيقن الإنسان بدوام تلك النعمة، و لذا عقّبها بقوله تعالى: **﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾**، لتماميّة النعمة، بخلاف نعيم الدُّنيا.

و لجريان الأنهار أنواع كثيرة: منها ما إذا كان منبع الأنهار من غير تحت الأشجار، و منها ما إذا كان المنبع من تحتها، و منها ما إذا كان نزول الماء من الفوق في الأنهار ثمّ الجريان منها صاعدا (على نحو الفوارة) بالقدرة الأزلية الخلّاقة إلى غير ذلك، و بالجملة أن هذه الجنّات تشتمل على جميع اللذائذ بأعلى مراتبها.

و الأزواج المطهّرة هي تلك الأزواج التي يرغب إليها الإنسان، التي تكون طاهرة من جميع الرذائل ومبرّأة من كلّ عيب وذم ونقصان، خلقاً و خُلقاً بما يلائم طبع الإنسان، فهي في غاية الملاحة والبشاشة والسرور، وفي ذلك تمام النعمة.

و قد خصّ الله تعالى الأزواج بالذكر من بين سائر اللذائذ الجسمانيّة، لأنّ النساء أعظم المشتهيات النفسانيّة، و الوقاع من أشدّ اللذائذ عند الإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّٰهِ﴾.

الرضوان بكسر الراء أو ضمها من الرضا مصدران، و هو ملائمة الشيء لنفس صاحبه و سرورها به.

و قد تكرّرت مادّة (رضى) في القرآن الكريم بهيئات شتّى تبلغ سبعين مورداً، و قد ينسب الرضا إلى الله عزّ و جلّ و يراد به عناية خاصّة غير محدودة بأي حدّ من النعم المعنويّة، بلا فرق بين أن يكون رضاؤه تعالى بالنسبة إلى أفعال العباد و طاعتهم له عزّ و جلّ، أو صفاتهم و أحوالهم، أو بالنسبة إلى أمر آخر يتعلّق بهم، قال تعالى: **﴿رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[١]، و قال تعالى: **﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾**[٢]، و قال تعالى: **﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾**[٣].

---

١. سورة الفتح: الآية ١٨.

٢. سورة المائدة: الآية ٣.

و قد ينسب إلى العبد، و هو آخر مقامات العبوديّة الخالصة الذي هو التخلّق بأخلاق الله تعالى، و التفاني في حبّه، و لذلك درجات كثيرة، منها رضاء العبد عن الله تعالى لجزائه الحسنى و حكمه، قال تعالى: **﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[٤].

و رضوان الله تعالى هي الغاية القصوى لكلّ ذي لب، و هي أعلى مراتب اللذائذ الروحانيّة، و ذكره بالخصوص إنما هو لأجل بيان أن الرضا هو أقصى ما يشتهيه الإنسان من مشتهيات الدُّنيا، بل هو الغاية منها، فلابدّ من السعي إلى رضوان الله تعالى الذي هو من أعظم اللذائذ عند المتّقين و ذوي الألباب، فهو الخير الذي لا يتصوّر أعظم منه، لا ما يتصوّره الإنسان من الخير في المال و القناطير، فإنّ ذلك إنّما يكون برضائه تعالى، و لذلك اعتنى عزّ و جلّ به و أفرده بالذكر في مقابل الجنّات و الأزواج المطهّرة في هذه الآية و في سائر الآيات التي اقترن بغيره من اللذائذ:

قال تعالى: **﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾**[٥].

و قال تعالى: **﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾**[٦].

و قال تعالى: **﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾**[٧].

---

٣ . سورة الزمر: الآية ٧.

٤ . سورة التوبة: الآية ١٠٠.

٥ . سورة المائدة: الآية ٢.

٦ . سورة التوبة: الآية ٢١.

٧ . سورة الحديد: الآية ٢٠.

و قد جمع سبحانه و تعالى في هذه الآية الشريفة اللذائذ الجسمانية في الآخرة، و هي الجنّات و الأزواج المطهّرة، و اللذّة المعنويّة الروحانيّة، و هي الرضوان الذي لا يحدّه حدّ و لا يشوبه نقص.

و يستفاد من الآية الشريفة اختلاف درجات المتّقين في الآخرة، و أنّ لأهلها مراتب و طبقات، فمنهم مَن لا يليق به إلّا اللذائذ الجسمانيّة، كالجنّات و الأزواج المطهّرة، و منهم من عظمت منزلته و ارتقى إدراكه و علا قربه، فلا يليق به إلّا رضوان الله تعالى.

قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾**.

أي: و الله خبير بعباده عليم بأفعالهم و ما تطويه ضمائرهم، فلا تخفى عليه خفاياهم و أُمورهم، فيجازي كلّ فرد بما يكسبه و ما يليق بأفعاله.

و يستفاد من الآية الشريفة أن امتياز كلّ فرد من أفراد الإنسان بما يشتهيه الداخل في عواطفه و سلوكه في حياته الدنيويّة و الأُخرويّة تحت إرادة الله تعالى و حكمته البالغة، و هو عالم بمصالحهم و جزائهم لا تخفى عليه أُمورهم، فهذه الآية الشريفة بمنزلة التعليل لجميع ما سبق ذكره.

قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**.

بيان لصفات المتّقين المدلول عليهم بقوله تعالى: **﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾**، و هي من الصفات الحميدة، و فيه إشارة إلى بعض صفات المحبّين المخلصين، و بعض مقامات العارفين، كلّ ذلك في خطاب بليغ إلى أعزّ حبيبه و أطهر قلب من الشرك و أنواع العيب، و فيه تظهر المعبوديّة المحضة للمعبود الحقيقي، كما أن فيه وعد الاستجابة للطائعين و العابدين.

و القول: مطلق ما يشعر بالحكاية عمّا في الضمير، بخلاف الكلام فإنّه أعمّ

من القول، فكلّ كلام قول و لا عكس، و المراد به في المقام مطابقة ضمائرهم مع ما يقولون بألسنتهم، و سياق الآية الشريفة شاهد لما قلناه.

و مادّة (غفر) تأتي بمعنى إزالة الوسخ و الدنس، يقال: «اغفر ثوبك في الوعاء ليذهب عنه وسخه». و هي من الموارد الكثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيئات مختلفة جدّاً، و قد أضافها الله تعالى إلى نفسه الأقدس في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، فهو الغفّار و الغفور، وأن منه المغفرة:

قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ﴾[1].

و قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾[2].

و قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[3].

و قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[4].

و قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[5].

و مادّة (ذنب) تأتي بمعنى التبعة، أي القبح الذي يتبع صاحبه، و الفرق بينه و بين الجرم بالاعتبار، لأنه بمعنى القطع، أي يقطع ارتباط صاحبه بالله تعالى، فكلّ مجرم مذنب وكذا العكس.

و الآية المباركة في مقام بيان استنجاز الوعد بعد الإيمان بالله تعالى و لذا فرع غفران الذنوب على الإيمان، يعني أنّنا و فينا بما عهد إلينا و هو الإيمان، فانجز اللّهُمَّ بوعدك بستر ذنوبنا بعفوك و خلاصنا من عذابك. و عهد الله تعالى هذا

---

١ . سورة الرعد: الآية ٦.

٢ . سورة طه: الآية ٨٢.

٣ . سورة هود: الآية ١١.

٤ . سورة آل عمران: الآية ٣٥.

٥ . سورة يوسف: الآية ٩٨.

مذكور في جملة من الآيات صريحاً و ضمناً ، منها:

قوله تعالى : ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ﴾[١].

و قوله تعالى : ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[٢].

و قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٣].

و معنى الآية الشريفة : الذين يؤمنون و يعترفون بحقيقة العبوديّة لله تعالى و الإيمان به عزّ و جلّ ، و يجعلون ذلك وسيلة لطلب غفران الذنوب و نجاتهم من عذاب النار ، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

و الآية المباركة ليست في مقام المنّة عليه عزّ و جلّ ، بل له تعالى المنّة على عباده أن هداهم إلى الإيمان .

و إنّما خصّوا اسم الربّ في دعائهم لما فيه من إظهار العبوديّة و الاسترحام .

و إطلاق الآية المباركة يشمل جميع الذنوب الكبيرة و الصغيرة ، و قد قرّر عزّ و جلّ إيمانهم مع ذلك ، فتكون الآية الشريفة حجّة على من قال بأن ارتكاب الكبيرة لا يجتمع مع الإيمان .

نعم ، لو أراد أنه حين الارتكاب يزول إيمانه العملي بخصوص ما ارتكبه ،

---

١ . سورة الأحقاف : الآية ٣١.

٢ . سورة الزمر : الآية ٥٣.

٣ . سورة الصف : الآية ٩ ـ ١٢.

كما هو المستفاد من قوله ﷺ: «لا يزني الزاني و هو مؤمن»، فله وجه، لكنّه لاينافي بقاء أصل الإيمان بنحو الجملة و الإجمال.

و الوقاية من عذاب النار و النجاة منها أعمّ من المغفرة و الدخول في الجنّة، وإنّما طلبوا النجاة من عذاب النار لأنها الوسيلة للوصول إلى الجنّة و مقدّمة له.

قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

الصابر هو الحابس نفسه عن ارتكاب المعاصي و الملازم لامتثال الأوامر، و الصادق المخبر بالشيء على ما هو عليه، و القانت المطيع، و القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع، و قد فسّر بكلّ واحد منهما أيضاً، و لكن إذا استعمل في الأنبياء و الأولياء و عباد الله المخلصين يراد به هما معاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ﴾[1]، و الإنفاق هو بذل ما هو راجح بذله، فيشمل المال و الجاه و العلم و قضاء حوائج الناس، و الأسحار جمع سحر، و هذه المادّة في أية هيئة استعملت تفيد معنى الخفاء و الإخفاء. و في المقام عبارة عن اختلاط ظلام آخر الليل بضياء الفجر، و هو اسم لذلك الوقت، و هو أفضل الأوقات و أشرفها و أحسنها للعبادة، و أطيبها لحضور القلب و الإقبال على الدُّعاء و المناجاة مع الربّ، و أبعدها عن مداخلة الرياء، و كلّما قيل في مدحه و فضله فهو قليل، فكم لله تعالى فيه من نفحة عطرة منّ بها على من يشاء و جائزة موفرة يخصّ بها مَن أخلص في الدُّعاء، و كم من عبادة فيها هبّت عليها نسمات القبول، و دعوة من ذي طلبة مشفوعة بالمأمول، فهو وقت العلماء العاملين و العرفاء المتعبّدين،

---

١. سورة النحل: الآية ١٢٠.

و هو وقت نجوى الحبيب مع الحبيب ، بلا تخلل مغاير أو رقيب ، فالسعيد مَن أدرك هذا الوقت الشريف و استفاد من رحمة الربّ اللطيف .

و هذا الوقت من آخره معلوم ، و هو اختلاط ظلام الليل بضياء النهار ، و أمّا من أوّله ، فعن جمع هو السدس الأخير من الليل ، و عن آخرين أنّه الثلث الأخير منه ، و عن آخر أنّه الثمن ، و الكلّ صحيح بحسب مراتب الفضل ، و قد تعرّضنا لبعض الكلام فيه في كتابنا «مهذب الأحكام» فراجع .

و الآية المباركة تشتمل على خمس خصال وصف بها المتّقون ، و هي أُمّهات الصفات الحسنة و الخصال الحميدة و الأخلاق الكريمة ، فبالصبر ينال الإنسان أعلى المقامات و يتحلّى بمحاسن الأخلاق ، و بدونه لا يمكن أن يصل إلى درجة التقوى ، و لذا قدّمه سبحانه في الكلام . و إطلاقه يشمل الصبر على الطاعة و الصبر عن المعصية و الصبر عند المصيبة ، و هو و الصدق من أعلى مقامات السالكين إلى الله تعالى، و أفضل درجات أهل الحقّ و اليقين ، خصوصاً إن عمّمنا الصدق ليشمل صدق اللسان و الحركات و خطرات الجنان و تطابق الظاهر مع الباطن ، فحينئذ لا يتصوّر للعبوديّة مقام فوق ذلك إن طابق كلّ ذلك مع الشرع المبين و اقترن مع الخضوع و التذلّل لله تعالى .

و هذه الخصال الخمس تستجمع جميع الخصال الحميدة و الأخلاق الكريمة ، و لا يشذّ منها كلّ متّق ، و هي خصال متكاملة تشيد صرح الإنسانية الكاملة و تبلغها إلى أوج السعادة و أقصى الدرجات .

و بالأُولى منها ينال الإنسان تلك الصفات و الخصال الكريمة التي تعلق بالنفس و تبعدها عن رذائل الأخلاق .

و بالصدق يتحلّى بالصفات التي تتعلّق بالظاهر .

وهاتان الخصلتان ترجعان إلى نفس الإنسان وتصلحان سريرته وعلانيّته.

و القنوت لله تعالى يجعل الإنسان خاضعاً ذليلاً بين يدي عظمته، مطيعاً لإرادته عزّ و جلّ، و هذه الخصلة تصلح ما بينه و بين الله تعالى.

و الإنفاق يبعده عن رذيلة الشح و يجعله يشعر بما يجري على أخيه الإنسان، فيتحسّس بالمسؤولية، فهذه الخصلة تصلح بينه و بين الناس.

و أمّا القيام بالسحر، فهو ارتباط مع عالم الغيب طلباً منه العون في جميع أُموره و الاستعاذة من الشيطان و النفس الأمّارة.

و الاستغفار بالأسحار هو القيام آخر الليل و الصلاة فيه و طلب الرحمة و المغفرة، كما فسّرته السنّة المقدّسة بذلك، و ما ورد في الآيات الكريمة بالنسبة إلى السحر على أقسام ثلاثة:

الأوّل: هذه الآية الشريفة و قوله تعالى: **﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾**[1].

الثاني: قوله تعالى: **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[2].

الثالث: قوله تعالى: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾**[3]، و التهجّد بالليل هو الاستيقاظ بالعبادة من قراءة القرآن و الدُّعاء و الصلاة و نحوها من العبادات، و يستفاد من الجميع مطلوبيّة أصل الاستغفار في خصوص هذا الوقت الشريف، و لها مراتب كثيرة، منها أن يكون في الوتر من صلاة الليل، و هي أفضلها و أشرفها، و منها أن يكون في ضمن

---

١. سورة الذاريات: الآية ١٧ ـ ١٩.

٢. سورة السجدة: الآية ١٦ ـ ١٧.

٣. سورة الإسراء: الآية ٧٩.

الدُّعاء و المناجاة و لو كانا في غير الصلاة، و منها نفس كلمة: «استغفر الله ربي و أتوب إليه»، و مقتضى الإطلاق مطلوبيّة الجميع مع اختلاف المراتب.

و الاستغفار بالسحر يوجب التوفيق لترك الذنوب في أثناء النهار، فيكون سببا لمحو الذنب السابق، و مقتضياً لترك الذنب اللاحق، فتستعدّ نفوس المستغفرين في الأسحار بذلك للاستعانة بأنوار الجلال و الاستفادة من فيوضات الرحمن التي لم تزل و لا تزال.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾**، على أنّ جميع ما يلهي الإنسان عن ذكر الله تعالى و ما يؤثّر في سلوكه في دار الدُّنيا إنّما هي هذه المذكورات في الآية الشريفة، و هي ردّ على من ذهب إلى أنّ عواطف الإنسان و أحاسيسه إنّما توجّهها الشهوة الجنسيّة فقط، فهي التي تحدّد سلوكه في حاضره ومستقبله وتوجب الكابة والأمراض النفسيّة أو الجسميّة إن كبتها الفرد، و لذلك دعى إلى الإباحة الجنسيّة، وسيأتي في البحث العلمي تتميم الكلام.

الثاني: يستفاد من سياق الآية المباركة أنّ الفاعل لتزيين المذكورات فيها إنّما هو الشيطان الذي يزين أعمال الإنسان، كما ورد في جملة من الآيات الشريفة القرآنية:

قال تعالى: **﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾**[1].

و قال تعالى: **(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[2].

فيكون حبّ هذه الأشياء صارفاً عن محبّة الله تعالى ما لم يجعلها الإنسان في طريق السعادة و الفوز بالفلاح، و لا ينافي ذلك أن يكون أصل هذه الأشياء

---

١ . سورة العنكبوت: الآية ٣٨.

٢ . سورة الأنعام: الآية ٤٣.

و طبايعها من صنع الله تعالى الخالق الحكيم القيوم على خلقه المدبر لهم تدبير علم و حكمة، فإنّ من سنّته عزّ و جلّ أنّه خلق الإنسان حرّا مختارا في أعماله، و أودع في خلقه بديع صنعه و أرسل الرسل لهداية الناس و أنزل معهم الكتاب و الحكمة لسعادتهم، و قد خلق إبليس الذي يوسوس للإنسان و يصرفه عن طريق الخير و السعادة على نحو الاقتضاء، كما لم يمنع الإنسان من اتباعه، كلّ ذلك لئلا يثبت الجبر فيبطل الثواب و العقاب، و لإتمام الحجّة و الامتحان و تمييز المؤمن عن غيره و إثبات التكليف و التشريع و تثبيت قانون الجزاء.

الثالث: أنّ التزيين على حبّ الشهوات دون نفسها، للدلالة على أنّ تلك الأُمور بنفسها لم تكن مذمومة، فإنّ الشهوات الإنسانية لها دخل في الحياة و بها يتمّ النظام، و لكن إن تعلّق الحبّ بها بحيث يكون صدّاً عن الله تعالى، فيرجع تزيين حبّها للناس إلى جعل هذه الأُمور في أعينهم بحيث يكون شغلهم الشاغل، و التولية فيها سبباً للإعراض عن الله تعالىٰ، بأن يجعلوها أهدافاً لهم فقط لا وسيلة فيكون هذا الحبّ مذموماً و تزداد المذمّة كلّما اشتدّ الحبّ، و تخفّ كلّ ما خفّ و ضعف حتّى يصل إلى مرتبة الحبّ النظامي الذي هو من لوازم الطبيعة الإنسانيّة و وسيلة تنظيم الحياة لكسب مرضاة الله تعالى، فتزول المذمّة رأسا، و يكون خلافه نقصا و مذموما، و يستفاد ما ذكرناه من جملة من الآيات الشريفة، منها:

قوله تعالى: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**[1].

وقوله تعالى: **﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾**[2].

---

١. سورة الأعراف: الآية ٣٢.

٢. سورة القصص: الآية ٧٧.

إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

و على ذلك يحمل ما ورد عن المعصومين عليهم السلام في مدح بعض المشتهيات، منها ما عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «أحببت من دنياكم ثلاث: الطيب، و النساء، و قرّة عيني الصلاة».

الرابع: قد ورد في الآية الشريفة أقسام الشهوات التي تختلف رغبات الناس فيها ـ كما مرّ ـ فهم على أصناف بالنسبة إلى حبّها، فمنهم من يتعلّق حبّه بالنساء ولاهمَّ إلّا التعشّق بهنّ و صرف همّه في المؤانسة بهن و مصاحبتهن، و إن استلزم المحرّمات و وجوه الفساد، و منهم من يحبّ التكاثر و التقوّي بالأولاد، و هذا لا يكون إلّا بالبنين دون البنات، و لهذا خصّ ذكرهم دونهن، و منهم من هو مغرم بالمال و جمعه، و هذا يتحقّق بالذهب و الفضّة اللذين بهما يتقوّم سائر الأشياء، و يكون حبّه لغيرهما بالتبع، و منهم من يحبّ الحرث و الزرع أو اتخاذ الأنعام، و منهم من يحبّ الفروسيّة فيتخذ الخيل المسوّمة.

و ربما يتحقّق في شخص واحد قسم واحد من هذه الشهوات، و ربما يجتمع أكثر من واحد، و قلّما يجتمع جميعها في شخص واحد، فالآية الشريفة مع أنّها في مقام بيان تعداد المشتهيات و تكثّرها، تكون في مقام بيان أصناف الناس و اختلافهم في حبّ هذه المشتهيات بالملازمة.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، على أنّ ما في الآخرة مشابه لما في الدُّنيا، و أنّ الإنسان يلتذّ بنعيم الآخرة كما يلتذّ بنعيم الدُّنيا من المأكل و المشرب و المناكح و غير ذلك، و أنّ الفرق هو أنّ نعيم الآخرة لا يشوبه نقص و أنّه يختصّ بالمؤمن، بخلاف نعيم الدُّنيا، و ذلك لأن وجود الإنسان في الآخرة عين وجوده في الدُّنيا، فهو بنفسه متقوّم بالاستفادة من اللذائذ؛ دنيويّة كانت أو أُخرويّة، و لكلّ منهما أسباب خاصّة تختلف

باختلاف العوالم، و هو لا يوجب الاختلاف بحيث يعرض عن نعيم الآخرة و تكون باطلة و عبثا بالنسبة إليه، و يدلّ على ما قلناه جميع الكتب السماويّة، خصوصا القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، و يؤكّد ذلك في قوله تعالى في آخر هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، و سيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام إن شاء الله تعالى.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾، على نوعين من الجزاء:

أحدهما: جسماني، و هو الجنّات التي تجري فيها الأنهار و الأزواج الطاهرة.

و الثاني: العقلي الروحاني الذي هو من أعظم اللذّات، و هو رضوان من الله تعالى الذي لا يتصوّر فوقه لذّة.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي**﴾ على مراتب الجنّة، و اختلاف درجات أهل الجنّة، و أنهم على مراتب و درجات.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ أنّ هذه الشهوات هي أُمور دنيئة بالنسبة إلى ما عند الله عزّ و جلّ من الرضوان و الجنان، و أنّ هذه الشهوات هي أُمور زائلة وقتيّة ليست مبنيّة على الحقيقة و الواقع، و إنّما خلقها الله تعالى لإقامة هذه الحياة الفانية الزائلة و تكوين الاجتماع الإنساني، و بدونها يعرض الاختلال بل الفناء عليه.

التاسع: إنّما قدّم سبحانه و تعالى النساء على جميع الشهوات، لأنّهنّ حرث بني آدم، و أنّ شهوة النساء هي أكثر الشهوات إعمالا عند الناس، و هي من أعظم اللذائذ الجسميّة عند الإنسان، بل هي الركن الأساس في الحياة، و لذا ورد في

الحديث: «أنّ من تزوّج فقد أحرز نصف دينه أو ثلث دينه». و لكن ليست هي الركيزة الوحيدة في الإنسان، كما يدّعيه بعض علماء النفس.

العاشر: إتيان لفظ «الجنات» في قوله تعالى: **﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾**، يدلّ على تعدّدها لكلّ واحد من المتّقين، مجهّزة بكلّ ما يتصوّر فيه من الفرح و الانبساط و السرور و الراحة، كمّاً و كيفاً، و ذلك لأجل تعدّد موجبات استحقاق الجنان في هذه الدُّنيا، كما هو واضح.

الحادي عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾**، على أنّ رضوان الله تعالى هو من مشتهيات الإنسان في الدارين، لأنّه إنّما يطلب مشتهيات الحياة الدُّنيا لأجل رضاء النفس بها و راحتها، فهو من مشتهياته إمّا بحدّ ذاته، أو بالملازمة، و لذا جعله تعالى في مقابل الجنّات و الأزواج في هذه الآية الشريفة، و في مقابل الفضل و المغفرة و الرحمة في آيات أُخرى:

قال تعالى: **﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَاناً﴾**[1].

و قال تعالى: **﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾**[2].

و قال تعالى: **﴿بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾**[3].

و إنّما أطلق سبحانه الرضوان في المقام للدلالة على شموله للنفس، و الصفة، و الفعل و جميع الخصوصيات.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**، على تفصيل ما أجمله سبحانه في قوله تعالى: **﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾**. أي أنّ التقوى إنّما تتحقّق بما ذكر في الآية الشريفة، و هي الإيمان بالله، و إظهار

---

١. سورة المائدة: الآية ٢.

٢. سورة الحديد: الآية ٢٠.

٣. سورة براءة: الآية ٢١.

العبوديّة له عزّ و جلّ، و الاسترحام منه تعالى في طلب العفو و الغفران، و الصبر على الطاعة و عن المعصية و في الخطوب، و الصدق في القول و الفعل، و الخضوع له عزّ و جلّ، و الإنفاق في سبيله تعالى، و قيام الليل و التهجّد فيه بالاستغفار.

الثالث عشر: إنّما قرن سبحانه الاستغفار بالإنفاق في الآية الكريمة، للدلالة على أنّ شحّ النفس من أقوىٰ موجبات الحرمان عن قربه عزّ و جلّ.

الرابع عشر: إنّما أجمل تبارك و تعالى الاستغفار و الدُّعاء في السحر للإشارة إلى كثرة أهمّية هذا الوقت، ولابدّ أن لا يفوت فضله على الإنسان بالدعاء و طلب الغفران.

***

بحث روائي:

في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام: «ما تلذّذ الناس في الدُّنيا و الآخرة بلذّة أكثر لهم من لذّة النساء، و هو قوله تعالى: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾**. ثمّ قال: و إن أهل الجنّة ما يتلذّذون بشيء من الجنّة أشهى عندهم من النكاح، لا طعام و لا شراب».

أقول: رواه العياشي في «تفسيره» أيضاً.

و الوجه أنّه تعالى لم يخلق ألذ من النساء في الجنّة، لأنهنّ من منشآت الله تعالى مباشرة، كما قال عزّ و جلّ: **﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً﴾**[1] فإنّهنّ الجزء الأعظم من النظام الأتمّ كما تقدّم، و لأنّها المؤانسة بما خلق من رحمته جلّت عظمته، هذا بحسب اللذائذ الجسمانيّة. و أمّا غيرها، فله شأن آخر سيأتي في البحث الفلسفي إن شاء الله تعالى.

١. سورة الواقعة: الآية ٣٥ ـ ٣٧.

و في «تفسير القمّي» في قوله تعالى : ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ قال أبو عبدالله عليه السلام : «القناطير جلود الثيران مملوءة ذهباً».

أقول : رواه في «المجمع» عن الباقر و الصادق عليهما السلام أيضاً ، و هو من إحدى معاني القناطير المقنطرة ، و تقدّم تفسيرها بالمال الكثير الجامع لجميع ذلك .

و في «تفسير القمّي» ـ أيضاً ـ : قال عليه السلام : «الخيل المسوّمة الراعية و الأنعام ، و الحرث يعني الزرع» .

أقول : تقدّم ما يرتبط بذلك في التفسير .

و في «تفسير العياشي» ، في قوله تعالى : فِيهَا ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ ، عن الصادق عليه السلام : «لا يحضن و لا يحدثن» .

أقول: هذا من مصاديق الطهارة، وإلّا فهنّ طاهرات من كلّ خبث ودنس ورذيلة.

و في «الفقيه» و «الخصال» عن الصادق عليه السلام : «مَن قال في وتره إذا أوتر : استغفر الله و أتوب إليه سبعين مرّة و هو قائم ، فواظب على ذلك حتّى تمضي سنة، كتبه الله تعالى عنده من المستغفرين بالأسحار ووجبت له المغفرة من الله تعالى».

و في «المجمع» ، عن الصادق عليه السلام قال : «مَن استغفر سبعين مرّة في وقت السحر فهو من أهل هذه الآية» .

أقول : الروايات في فضل الاستغفار ـ خصوصاً في الليل ـ كثيرة جدّاً تعرّضنا لبعضها سابقاً ، و يمكن أن يستفاد وجوب المغفرة من استجابة الله تعالى دعاء المؤمنين في هذه الآية الشريفة : ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ .

***

بحث فلسفي:

لا ريب في أنّ كمال العلّة الفاعليّة من كلّ جهة يقتضي كمال العلّة الغائيّة

كذلك، لأنّ الغاية علّة فاعليّة بوجودها العلمي، و علّة غائيّة بوجودها الخارجي، هذا في غير المبدأ تبارك و تعالى.

و أمّا في المبدأ عزّ و جلّ، فهو بذاته جاعل و خالق لما سواه، و هو تعالى بذاته و صفته و فعله حسن، و بهذا الحسن الذاتي و الصفتي و الفعلي غاية و مرجع لما سواه، فيكون عنده حسن المآب لا محالة، و إذا كان في البين نقص و فساد و خسّة فإنما هو من مقتضيات اختيار الإنسان، لا أن تكون بالنسبة إلى المبدأ و المآب، فما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾، إنّما هو قضيّة عقليّة برهانيّة قرّرها الله تعالى في كتابه الكريم، و ليس المراد من لفظ «عنده» الحدّ الخاص من الزمان أو المكان، بل المراد إحاطته عزّ و جلّ بما سواه إحاطة قيوميّة و ربوبيّته العظمى حدوثاً و بقاءً، و تبديلاً إلى كلّ ما يشاء، و إفناء متى أراد، فهو الحي القيوم مبدءاً و مآباً، و هو الحيّ القيوم في ما بينهما، و كلّ ذلك بالنسبة إلى كلّ ما سواه بمعنى واحد.

ثمّ إنّ اللذّة إمّا روحانيّة معنويّة، أو جسمانيّة ظاهريّة، و الأخيرة متقوّمة بالقوى الجسمانيّة، بل عن جمع من محقّقي الفلاسفة إنكار أصل اللذائذ الجسمانيّة، و أنّها ليست إلّا من دفع الآلام فقط، و أثبتوا ذلك مفصّلاً.

و أمّا الأُولى فهي من أعلى مدارج كمال الإنسان و صعوده و ارتقائه إلى عوالم لا نهاية لعظمتها، و هي شجرة أصلها ثابت و فرعها في السماء، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها، و لا ينالها أحد إلّا بالتفاني في مرضاته حتّى يصل إلى درجة البقاء فيه عزّ و جلّ، و لعلّ أحد معاني رضوان الله تعالى يرجع إلى ذلك، و ما ورد في بعض الروايات المتقدّمة من أن النساء أشهى اللذائذ إنما هي باعتبار اللذائذ الجسمانيّة، بل يمكن أن ترجع تلك اللذّة في الجنّة إلى اللذّة الروحانيّة، باعتبار كون النساء فيها من صنع الله تعالى مباشرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً﴾[١]، و أمّا اللذائذ المعنويّة فهي أكبر و أعظم و ألذّ بالنسبة إلى بعض الناس.

و هل تكون الشهوات من مختصّات هذا العالم بأُصولها و فروعها و نتائجها المترتّبة عليها، أو تعمّ الدار الآخرة أيضاً لكن بوجه أحسن و أليق يتناسب مع ما في ذلك العالم، بحيث يكون نسبة ما في هذا العالم إلى ذلك العالم نسبة المعنى إلى اللفظ أو نسبة الحقيقة إلى المجاز؟

و الذي تدلّ عليه الآيات الكثيرة في القرآن الكريم و السنّة المقدّسة هو التعميم، قال تعالى: **﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[٢]، و قال تعالى: **﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾**[٣]، و الآية التي تقدّم تفسيرها تدلّ على ذلك أيضاً، فأصل الحقيقة واحدة و إنّما الاختلاف في الجهات الخارجيّة، فجميع الشهوات النفسانيّة موجودة في الدار الآخرة على النحو الأتمّ الأكمل، قال تعالى: **﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾**[٤]، فإنّ الإنسان فيها هو الإنسان في الدُّنيا، و إنّما يتمتّع في الآخرة بما أعدّه في الدار الدُّنيا من الحسنات و السيّئات، و بالملذّات التي كان يريدها في الدُّنيا و تحصل سعادته في الآخرة، و الحرمان منها شقاء و ضيق.

و إنّما ذكر تعالى جملة منها في الدُّنيا، إنّما هو لمتاعها و قيام نظام هذا العالم بها، لا أن تكون مختصّة بها دون غيرها إلّا على مفهوم اللقب الذي لا يكون حجّة، كما ثبت في العلوم الأدبيّة.

---

١. سورة الواقعة: الآية ٣٥ ـ ٣٨.

٢. سورة الزخرف: الآية ٧١.

٣. سورة البقرة: الآية ٢٥.

٤. سورة الرعد: الآية ٢٦.

و يمكن أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾، وجود ذلك كلّه فيها على النحو الأتمّ و الأكمل، فإنّ مآب كلّ شيء فيه حسن، إذ السير هو سير استكمالي و توجّه إلى الكمال، و هذا هو مقتضى إطلاق الآيات التي وردت فيها ملذّات الآخرة و مشتهياتها من دون تعليق لها بوجه من الوجوه، بخلاف الآيات التي اشتملت على ملذّات الدُّنيا، فإنّ فيها تعليقاً بوجه من الوجوه، و إن كانت ملذّات الدُّنيا يشترك فيها المؤمن و الكافر، بخلاف ملذّات الآخرة فإنّها مختصّة بالمؤمن.

***

بحث عرفاني:

شهود حقائق الموجودات على ما هي عليها في الواقع بجواهرها و أعراضها و لوازمها و ملزوماتها الأزليّة و الأبديّة حدوثاً و بقاءً، بل و قبل الحدوث يصحّ أن يعبّر عنه بالغيب الذاتي، و لا حدّ لهذا الشهود من كلّ جهة، و لو عبّر عن ذلك بابتهاج الذات بالذات يصحّ أيضاً، و هو مختصّ بالواحد الأحد الصمد، و لا يدانيه مَلَك مقرَّب و لا نبيٌّ. و قد يفاض منه شعاع على الغير، و هو تابع لقدر الإفاضة كمّاً و كيفاً. كما أنّه لا يختصّ بعالم دون عالم، فإنّ الإشعاع أزلي و أبدي و النفوس المستعدّة تستفيض من ذلك الإشعاع بقدر القابلية، و يصحّ أن يكون رضوان الله تعالى إشارة إلى ذلك الإشعاع، و لعلّ الله تعالى يوفّقنا لتفصيل المقام في مستقبل الكلام إن شاء الله تعالى.

و من ذلك يعلم أنّه لو جعل العبد غاية عباداته الوصول إلى رضوان الله تعالى، كانت من أكمل الغايات و أحسنها.

و حبّ الشهوات هو من أغلظ الحجب الظلمانيّة بين العقل و إدراك الحقائق النوريّة و المعارف الربوبيّة، بل هو نار الله الموقدة التي تطلع على

الأفئدة، لأنّ منشأ الحبّ هو القلب، فإذا كان متعلّقاً بالأهواء الباطلة و الشهوات، يصير القلب كخرقة بالية منغمرة في دار الغرور، محجوب عن منبع الجلال و النور، فإنّها لا تعمي الأبصار، و لكن تعمي القلوب التي في الصدور، فيضلّ عن الصراط المستقيم، و لا غاية بعد ذلك إلّا سواء الجحيم. فلا غاية لإعمال الشهوات المذمومة إلّا العار و النار، فإنّ حقيقة الإنسان الكاملة ـ التي هي كالصورة لجميع العوالم الإمكانيّة ـ لم تعرف بعد و لن تعرف، و إن بذل العلماء المحقّقون من الفلاسفة الإلهيين و غيرهم جهودهم، و صرف العرفاء الشامخون طاقتهم فيه، لأنّها أعظم سرّ الله تعالى في الخليقة، و هي من أجلّ مخلوقاته في جميع العوالم الربوبيّة، ولابدّ في عرفانها من العكوف على بابه و التماس ذلك من وجهه و كتابه، و مثل هذه الآيات المادحة لمقام التقوى و الشارحة لها، تشير إلى لمعة من لمعات ذلك النور الحقيقي، فكما أنّ للتقوى و العبوديّة لله عزّ و جلّ مراتب، كذلك للإنسانيّة الكاملة، بل مراتبها تدور مدار العبوديّة الخاصّة، و كلّ ما قالوه العرفاء من وحدة الوجود و الموجود و أمثال ذلك في تعبيراتهم، إن رجع إلى ذلك فلا باس به، و في غير ذلك يرد علمه إليهم.

و كلّ الذي شاهدته فعل واحد ... بمفرده لكن بحجب الأكنة
إذا ما أزال الستر لم تر غيره ... و لم يبق بالأشكال إشكال ريبة
و حقّقت عند الكشف أن بنوره ... اهتديت إلى أفعاله بالدجنة
و تظهر للعشاق في كلّ مظهر ... من اللبس في أشكال حسن بديعة
ففي مرّة لبنى و أُخرى بثينة ... و آونة تدعى بعزّة عزت
تجلّيت فيهم ظاهراً و احتجبت ... باطناً بهم فأعجب لكشف بسترة

و المتحصّل من الآيات القرآنيّة و السنّة المقدّسة أنّ الإنسان الكامل، كما أنّه مخلوق لله تعالى، كذلك مورد تربيته حدوثاً و بقاءً إلى أن يرد دار الخلود،

و أنّ إرادة الإنسان الكامل متفانية في مرضاته، فيصحّ أن يقال إنّ الإنسان الكامل مورد مشيئته و إرادته، و يشهد لذلك قوله تعالى: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمى﴾**[١]، و قوله تعالى: **﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرى﴾**[٢].

و في الأحاديث القدسية: «من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة»، و في بعض الأحاديث: «يشكو لله تعالى عن عبده المؤمن يوم القيامة فيقول الله عزّ و جلّ: عبدي إنّي مرضت فلِمَ لم تعدني؟ يقول العبد: يا ربّ كيف أعودك و أنت ربّ العالمين؟ يقول الله تعالى: مرض عبدي المؤمن فلو عدته لو جدتني عنده»، و الأحاديث في سياق ذلك كثيرة، فما عبّر به بعض الأعاظم من الفلاسفة من الوحدة تعبير حسن إن أراد به ما يستفاد من سياق القرآن و السنّة، و عبارة أُخرى عمّا شرحه أمير المؤمنين عليه السلام عن بينونة الصفة، لا بينونة العزلة، فقال عليه السلام في بعض خطبه الشريفة: «بائن مع خلقه بينونة صفة، لا بينونة عزلة»، و هو على إجماله يناسب جميع الأقوال التي قيلت في بيان وحدة الوجود. و لعلّ الله تعالى يوفّقنا لتحقيق القول بأكثر من ذلك في مستقبل المقال.

***

بحث علمي:

قد جمع سبحانه و تعالى أُصول الشهوات التي يقوم بها نظام الدُّنيا في الآية المباركة المتقدّمة، و هي شهوات الجنس و المال و الزينة و التفاخر و الرياسة، و جمعها بوجه آخر في آية أُخرى، فقال عزّ و جلّ: **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾**[٣]، و الإنسان قرين

---

١. سورة الأنفال: الآية ٧١.

٢. سورة طه: الآية ٤٦.

٣. سورة الحديد: الآية ٢٠.

هذه الشهوات و الغرائز، و قد يجتمع بعضها في سائر الحيوانات، إلّا أنّ الفرق بين الإنسان و غيره، أن الله تعالى خلق الإنسان حيواناً عاقلاً درّاكاً مريداً، و هذه من مختصّاته و لا توجد في غيره إلّا على درجات ضعيفة، فهو الذي يقدر على جمع القوى المتخالفة المتواجدة فيه، و يجعلها تحت زمام العقل و الإرادة المنبعثة من التعقّل و التفهّم و الدرك الصحيح، و لأجل ذلك صار الإنسان محور التكاليف الشرعيّة و منشأ لإرسال الرسل و إنزال الكتب الإلهيّة، و كلّ ما كانت القوّة العاقلة هي الحاكمة في أفعال الإنسان و إحساساته و شؤونه، كلّ ما كان أقرب إلى الكمال و أبعد عن الرذائل و الفساد، و أمّا إذا تغلّبت عليه إحدى القوى العاملة فيه، كان أقرب إلى الفساد و أبعد عن الصلاح، و للتكاليف الإلهيّة شأن كبير في تهذيب النفس و تأمير القوّة العاقلة على جميع الشهوات و استيلائها على غيرها، و لذا كان لهذه القوّة شأن كبير في سلوك الإنسان و تهذيبه و إصلاحه، سواء السلوك الفردي أم السلوك الجماعي، و لكن ليست لسائر القوى المتواجدة في الإنسان السيطرة على سلوكه لوحدها، و إن كان لها الأثر الكبير إن لم يقم الفرد في تهذيبها و إصلاحها بما يراه الله تعالى.

و هذه الآية الشريفة ردّ على مَن زعم من أصحاب المدارس في علم النفس أنّ للجنس الأثر الكبير في سلوك الإنسان فرداً أو جماعة، و أنّ كبت تلك الشهوة توجب الأمراض النفسيّة و الحرمان عن الملذّات، و دعا إلى الإباحيّة في الجنس للتخلّص من هذه الأمراض، و أعلن الحرب على التقاليد و الأعراف المتوارثة و الأحكام الشرعيّة التي تقيّد الجنس و تهذّبه، و ذهب إلى أنّ جميعها تورث العقد النفسيّة التي يصعب معالجتها و برؤها، إلى غير ذلك ممّا ينكره العقل و التجربة.

و قد أثبت علماء النفس بطلان كثير ممّا ذهب إليه، فالجنس كسائر الغرائز

الموجودة في الإنسان إن لم تستعمل على الوجه الصحيح توجب الحرمان و الكبت و سائر الأمراض الخلقيّة و النفسيّة، و هذا هو الذي دعا إليه الإسلام.

و الآية الشريفة من تلك الآيات الدالّة على ما ذكرناه، فهي تقرّر أمراً عقليّاً، و هو أنّ حبّ الشهوات و الاهتمام بتزيينها، يوجب بعد الإنسان عن الكمال المعدّ له في الدُّنيا و الآخرة، و هذا ما نراه في المدنية الحاضرة التي بلغت شأواً بعيداً في الملذّات، و لكنّها عادت إلى الجاهلية الأُولى، و هي و إن كادت تصل إلى أوج الكمال المادّي و تهيئة وسائل الراحة و العيش الهنيء، إلّا أنّها أبعد دوراً من أدوار حياة الإنسان على وجه هذه البسيطة من الكمال المعنوي و الاطمئنان النفسي و راحة الضمير.

فالآية الشريفة لا تعدّ نفس هذه الشهوات من موجبات انحطاط الإنسان، بل أن حبّها و تزيينها و إهمال الجانب العقلي و تعاطي هذه الشهوات و كثرة إعمالها يوجب الحرمان و الانحطاط، فهي صريحة في المطلوب، و بعد ذلك لا ينبغي للفرد المسلم التغافل و التغاضي عن الإسلام و تلك القوانين التي نزلت لسعادة الإنسان و الحياة في الدُّنيا حياة هنيئة آمنة سعيدة، و الاستعداد لما بعد هذه الحياة لنيل رضوان الله تعالى و البقاء فيه.

***

الآية ١٨ ـ ٢٠

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه و تعالى في الآيات السابقة جملة من أحوال الكفّار الذين اغترّوا بمظاهر الدُّنيا، و اعتزّوا بما عندهم من الأموال و البنين و العدّة، و اعتبروها مغنية عن أمر الله تعالى، فقد أخبرهم عزّ و جلّ أنّها لا تغني من الله شيئاً، و أن ما ركنوا إليه من الدُّنيا إنّما هو زائل لا يبقى، و عند الله نعيم باق لا يناله إلّا الذين اتّقوا و كان في قلوبهم خوفه تعالى، فإذا كان متاعهم في الدُّنيا حرثا مخصبا، ففي الآخرة جنّات كاملة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ما دامت السماوات و الأرض.

و إذا كان متاعهم في الدُّنيا نساء و بنين، ففي الآخرة أزواج مطهّرة، و أمّا غيرها من الخيل المسوّمة و الأنعام و القناطير المقنطرة من أسباب اللذائذ في الدُّنيا، فهناك ما هو أكبر من كلّ لذّة و شهوة، و هو رضوان الله الذي لا يعدله. فلا

يبقى للكفّار إلّا ما كسبته أيديهم من الشقاء و الحرمان.

ثمّ ذكر جملة من أحوال المتّقين الذين آمنوا بالله و أنابوا إليه و عملوا الصالحات و عدّ صفاتهم، و في كلّ صفة منها تتحقّق سِمة من سمات الحياة الرفيعة الواقعيّة، ﴿**الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾، و أنّ لهم الرضوان و حسن المآب.

ذكر في هذه الآيات وجه الإيمان و أقام الشهادة على أحقيّة ما ذكره في الآيات السابقة، فشهد أوّلاً على نفسه بالوحدانيّة، و من أعظم منه شهيداً؟ وكذلك شهدت الملائكة و أُولوا العلم الذين ملأ قلوبهم نور الإيمان به، و بيّن ثانياً قيامه بالعدل، ثمّ بيَّن ثالثاً الدستور في حياة الإنسان، و أنّه الإسلام الذي هو دين الحقّ و الحقيقة، و أمر نبيّه ﷺ أن يدعو الذين أوتوا الكتاب جميعا إلى هذا الدِّين الواحد، و يترك الجدل معهم بعد إقامة الحجج القويمة و البراهين الساطعة على الإسلام، و أنذرهم على المخالفة و أوعدهم الحساب و العذاب.

فكانت الآيات المباركة ذا نسق واحد مشتملة على ما تقدّم من البراهين و الشهادة و البيّنة عليها، لتكون ثابتة و قويمة لا يقدر على إنكارها منكر، وإلّا استحقّ العذاب بعد إقامة الحجّة و البرهان.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾.

مادّة (شهد): تدلّ على الحضور و المشاهدة بالبصر و البصيرة، و لا حضور أقوى من حضور ما سواه تعالى لديه عزّ و جلّ، فهو حاضر بذاته لذاته، و ما هو عين ذاته من صفاته، التي منها وحدانيّته و معبوديّته المطلقة.

و من أسمائه تعالى (الشهيد)، أي هو الذي لا يغيب عنه شيء، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

و شهادة الحقّ جلّ جلاله، هو ظهور ذاته بذاته لذاته، و جميع أسماء الجمال و الجلال تنطوي في تلك المرتبة، و هي محيطة بها فوق ما يدرك من معنى الإحاطة، فالهوية المطلقة و المعبوديّة الحقّة منحصرة به جلّت عظمته، و هذا معنى ما في جملة من الدعوات المعتبرة: «يا من هو، يا من ليس هو إلّا هو»، و قوله عليه السلام: «يا مَن دلَّ على ذاته بذاته». و هذا معنى ما أثبتوه في الفلسفة من أنّ الممكن من ذاته ليس، و من حيث الإضافة إلى علّته أيس (أي موجود).

و هذا المعنى ـ أي الجامعيّة لجميع صفات الجلال و الجمال، المسلوب عنه جميع النواقص الواقعيّة و الادراكيّة، من حيث قيوميّته الكبرى و ربوبيّته العظمى ـ محيط على جميع ما سواه بأنواعه و أفراده و أجزائه:

قال تعالى: ﴿وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[2].

و قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[3].

و قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[4].

و بهذا المعنى الإحاطي هو الله الواحد الأحد و المعبود الفرد، فالتوحيد ثابت في مرتبة الذات و الصفات و الفعل، و جملة (لا إله إلّا الله)، تدلّ على ذلك.

و بالجملة: أنّ شهادة الله تعالى بوحدانية ذاته المقدّسة:

تارةً: تكون تكوينيّة، و هي التي أسّسوها بالبراهين القطعيّة في الفلسفة من انتهاء جميع الممكنات إليه عزّ و جلّ.

---

١. سورة الحج: الآية ١٧.

٢. سورة الإسراء: الآية ٤٤.

٣. سورة الحديد: الآية ٤.

٤. سورة ق: الآية ١٦.

و **أُخرى**: قوليّة، و هي التي أثبتتها هذه الآية الشريفة و نظائرها، مثل قوله تعالى: **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾**[1]، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة.

و أمّا شهادة الخلق بالوحدانيّة، فالتكوينيّة ثابتة لهم، أقرّوا بها في اللسان أم لا، لحكاية المجعول عن الجاعل تكويناً، و أمّا الاختياريّة، فمنهم مَن آمن، و منهم مَن لم يؤمن.

و الشهادة يمكن أن تكون ذاتيّة لظهور الذات بالذات في الوحدانيّة، و أنّه لا إله غيره، فلا شريك له في الذات، و يمكن أن تكون فعليّة، فلا شريك له في الفعل، فتكون جميع أفعاله آيات دالّة على وحدانيّته، و أنّ تكون قوليّة كما تشهد بها جميع الكتب السماويّة. و إن كان ظاهر السياق بلحاظ إفهام المخاطبين هو الأخيرة، و إن كان بعضهم له أهليّة درك الشهادات الثلاثة.

ثمّ إنّ الشاهد ـ أي الحاضر كما تقدّم ـ إن اعتبر فيه العلم مطلقاً فهو العليم، و إذا أُضيف إلى الأُمور الباطنة فهو الخبير، و إذا أضيف إلى الأُمور الظاهرة فهو الشهيد. و حيث إنّ علمه تعالى عين ذاته، فتكون خبرويّته بالأشياء عين ذاته، و شهوده لها كذلك، فيرجع الكلّ إلى علمه الذاتي.

نعم، الشهادة القوليّة فيه تعالى لها خصوصية خاصّة، لا توجد تلك في مطلق العلم و الخبرويّة.

و أمّا في الممكنات، فيمكن أن ترجع الشهادة إلى القوى الجسمانيّة، أي إلى البصر و السمع و العلم و الخبرة، و إلى بعض القوى النفسانيّة.

قوله تعالى: **﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾**.

أي: أنّ الملائكة و أولي العلم يشهدون بأن لا إله إلّا هو. و يصحّ أن تكون

---

١. سورة محمّد: الآية ١٩.

شهادة الملائكة من الشهادة الذاتيّة، لأنّ ذواتهم كاشفة عن الوحدانيّة المطلقة، فإنّهم ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1]، و إنّهم يسبّحون ربّهم و يهلّلونه.

و المراد بأُولي العلم الأنبياء و الرُّسل و من يتبعهم في العلم و العمل بالمعارف الإلهيّة و الأحكام الشرعيّة، و العرفاء الشامخون، و الفلاسفة المتألّهون، الذين أخبروا بوحدانيّته، و هم يشاهدونها من آياته و شهدوا بها شهادة علميّة و عمليّة.

و إنّما خصّ سبحانه و تعالى الملائكة و أُولي العلم بالذكر، لقصور أنظار جملة من الأنام عن درك ما وراء ذلك، فألقى الخطاب بحسب دركهم و فهمهم.

قوله تعالى: ﴿قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾.

القسط هو النصيب و العدل، و من أسمائه تعالى «المقسط»، و في الحديث: «إنّ الله لا ينام و لا ينبغي له أن ينام، يخفض بالقسط و يرفعه»، و هو بمعنى الميزان سُمّي به لأنّه من العدل أيضاً، و معنى الحديث أنّ الله يخفض و يرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه و أرزاقهم النازلة إليهم، و هو تمثيل لما يقدره الله تعالى و ينزله، و يطلق على غيره بالقرينة.

و القيام بمعنى المحافظة على الشيء و الملازمة له، و في حديث الدُّعاء: «لك الحمد أنت قيام السماوات و الأرض»، أي القائم بأُمور الخلق و مدبِّر العالم و حافظه في جميع أحواله.

و الجملة ـ لها معنى الوصفيّة و الحاليّة ـ حال من فاعل شهد، الراجع إلى الثلاثة المذكورة في الآية الشريفة. أي أنّ شهادتهم بالحقّ، و هم يحافظون عليها

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٢٦ ـ ٢٧.

قولاً و فعلاً.

و العدل فيه عزّ و جلّ ثابت و دال على وحدانيّته، كما أنّ انحصار الأُلوهيّة و الوحدانيّة فيه تبارك و تعالى يثبت عدله و قيامه بالقسط، فهما فيه عزّ و جلّ متلازمان، كما يشهد بذلك جملة من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[١]، و قوّام السماوات و الأرض بالعدل أعظم آية لوحدانيّته، و هذا دليل على ما قلناه من تعميم الشهادة إلى الذاتيّة و الفعليّة و القوليّة.

و من ذلك يظهر الوجه في تقديم التوحيد على القيام بالقسط، لأنّ الأخير ملازم للوحدانيّة المطلقة و محفوف بها حدوثاً و بقاءً، فالتوحيد و الشرك مختلفان مفهوماً و اعتقاداً و أثراً في الدُّنيا و الآخرة، كما هو صريح الأدلّة النقليّة و العقليّة.

و ممّا ذكرنا يعلم أنّ قوله تعالى: ﴿قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾، راجع إلى جميع الثلاثة، كما هو ثابت في العلوم الأدبية من أنّ الموصوف يتكرّر مع جميع قيود الصفة، فيصير المعنى في المقام: شهد الله بأنّه لا إله إلّا هو قائماً بالقسط، و الملائكة تشهد كذلك قائماً بالقسط، و أُولوا العلم أيضاً يشهدون بأنّه لا إله إلّا هو قائماً بالقسط، و قد أشرنا إلى أنّ التوحيد المطلق للكمال المطلق يستلزم ذلك، وأنّ القيام بالشيء لا يصدق إلّا بعد الاستيلاء المطلق عليه، بلا تخلّل خلاف في البين.

قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الآية في موضع التعليل لما سبق ذكره، أي من كان في كمال القدرة و العلم و الحكمة البالغة، يقتضي أن يكون واحدا في ذاته و في معبوديّته و في تشريع

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

القوانين، و أنّ العدالة تقتضي أن يكون قهّاراً عزيزاً عليماً حكيماً، فهو تعالى حقيق بالوحدانيّة، لأنّه المتفرّد بالعزّة، وأنّ ما سواه تحت سلطته وقهّاريته، وهو المتفرّد في حكمته، عالم بأسرار خلقه المطّلع على المصالح، ولاينتقض حكمه ولا يردّ أمره، ويستفاد من الآية المباركة تمام الثناء وكمال التعظيم له عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلَامُ﴾.

الدِّين هو الطاعة و الانقياد للشريعة، و يُطلق على نفس الشريعة أيضاً، كما يطلق على الملّة و الجزاء، و هو من إطلاق اللازم على الملزوم، الذي هو من المحسّنات البلاغيّة، و يستفاد الفرق من الاعتبار و القرائن، و في الحديث: «أنّ الله ليدين للجماء من ذات القرن»، أي يقتصّ و يجزي.

و من أسمائه تعالى: (الديّان)، و هو فعال، يعني: قهر خلقه على الطاعة، يقال: «دنتهم فدانوا»، أي قهرتهم فأطاعوا، و منه قولهم للنبيّ ﷺ: «يا سيِّد الناس و ديّان العرب»، و في الحديث: «كان عليّ ديّان هذه الأُمّة».

و مادّة «سلم» من المواد المحبوبة الممدوحة في أيّة هيئة استُعملت، و تأتي بمعنى التعرّي عن العيوب و الآفات الظاهريّة و الباطنيّة، و يقال للجنّة: «دار السلام»، لأنّها دار الإسلام عن العيوب و الآفات، و من أسمائه سبحانه وتعالى: «السلام»، لأنّه لا يتّصف بما يتّصف به الخلق من العيب و الفناء أو الحوادث.

و تأتي بمعنى الانقياد و الطاعة و العبوديّة التي تكون حقيقتها الخضوع و الانقياد للمعبود، فتكون كلّ عبوديّة و طاعة لله عزّ و جلّ إسلاماً، و كلّ إسلام له عزّ و جلّ عبوديّة له، سواء كانت في القول و اللسان، أم في القلب، أم في العمل، أم في الجميع، و في الحديث: «ما من آدمي إلّا و معه شيطان، قيل: و معك؟ قال:

نعم، و لكن الله أعانني عليه فأسلم»، أي انقاد لي و خضع و قد كفّ عني، و يمكن أن يكون المراد بإسلام الشيطان في الحديث الشريف تسليمه من كلّ جهة للنبيّ الأعظم ﷺ، لفرض انقطاعه ﷺ من كلّ جهة إلى الله تبارك و تعالى، و استيلاء عقله المقدّس على جميع ما سوى الله تبارك و تعالى، لأنّه العقل الكلّي، و هو أوّل ما خلقه الله تبارك و تعالى.

و قد اختصّ لفظ (الإسلام) بالغلبة في رسالة خاتم النبيين ﷺ و شريعته التي تناسب جميع ما ذكر في معنى الإسلام، لا سيما بعد قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من يده و لسانه»، و عنه ﷺ أيضاً: «مَن غشَّ مسلماً فليس بمسلم»، و قوله ﷺ: «لا ضرر و لا ضرار في الإسلام»، و قوله ﷺ: «مَن بات شبعاناً و جاره جائع فليس بمسلم»، فيكون من استعمال العام في الخاص، و هو كثير في اللغة و العرف.

والمعنى: أنّ كلّ دين سماوي تكون فيه العبوديّة لله تعالى يكون إسلاماً له عزّ و جلّ، و هو واحد لا اختلاف فيه، و أنّ حقيقة الطاعة لله عزّ و جلّ و الانقياد له تعالى، و هي روح جميع الأديان الإلهيّة و الشرائع السماويّة التي نزلت على الأنبياء، فيكون الإسلام الحقيقي هو الإذعان و الانقياد المساوق للإيمان بالقلب و العمل بالجوارح و الأركان، فيكون العمل بالدِّين إبقاءً للدين و إعلاءً لكلمة التوحيد، و جهاداً مع الملحدين.

و الآية الشريفة ترشد إلى قضية عقليّة حقيقيّة، و هي بيان حقيقة الدين التي هي الفطرة السليمة المقرّرة في شرع السماء، و أنّ الدِّين هو الدستور الإلهي و الشريعة المتكفّلة لتصحيح نظام الدُّنيا و الآخرة، و أنَّ العمل به يجلب السعادة للإنسان في الدارين، لأنّه نزل من مشرّع و جاعل حكيم في أفعاله، عليم بجميع خصوصيّات عباده، مهيمن على دينه و تشريعه، و هو منحصر في الله

تعالى، فلابدّ أن يكون الدين واحداً من حين وجود الإنسان على هذه البسيطة إلى انقراضه عنها، و هذا هو مقتضى العدل و العلم و الحكمة، فلا موضوع للتعدّد في سلسلة العلل و المقتضيات، كما لا تعدّد في مرحلة الجزاء و الحساب.

و الاختلاف في الأديان الإلهيّة إنّما هو في بعض التشريعات التي يرجع سببها إلى الاختلاف في مقتضيات الظروف و استعداد الأُمم، و يدلّ على ذلك جملة من الآيات الشريفة، منها:

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾[1].

و قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ**﴾[2].

هذا إذا عمّمنا الدين ليشمل مجموع الاعتقاد و العمل ـ كما هو الصحيح ـ، وإن جعلناه عبارة عن خصوص الاعتقاد والتوحيد في مقابل الشرك، فالأمر أوضح.

و يستفاد من سياق الآية المباركة الحصر، فتدلّ على أنّ كلّ دين من الله واحد لا اختلاف فيه، و أنّه حقّ و أنّ غيره باطل، و أنّ فيه الاختلاف ـ كما تقدّم ـ و هو يشمل جميع الشرائع و الأديان أصلاً و عكساً، و قد دلّت على ذلك الأدلّة العقليّة و النقليّة، قال تعالى: ﴿**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً**﴾[3].

و الآية الشريفة دستور إلٰهي، تدلّ على تصحيح الاعتقاد و العمل حسب ما يرتضيه الله تعالى، كما تدلّ بالملازمة على نفي الشرك بجميع أنواعه، و أنّ غير

---

١. سورة النحل: الآية ١٢٣.

٢. سورة المائدة: الآية ١١١.

٣. سورة الحج: الآية ٧٨.

الإسلام و الطاعة له عزّ و جلّ باطل غير مرضيّ له تعالى و لا أثر له، و هو لا ينفع الناس في دنياهم و آخرتهم.

ثمّ إنّ هذه الآية الشريفة كالتوطئة لما سيأتي من الآيات اللاحقة، التي يذكر فيها المعاندون و المشركون و الكافرون، فإنّ كلّ أمر يكون مخالفاً لما شهد به الحقّ بالحقّ و الملائكة و أُولوا العلم، يكون باطلاً، سواء كان في نظام التكوين أم التشريع، و يكون مغالطة و لجاجاً و زخرفاً.

قوله تعالى: **﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾**.

بغياً: منصوب إمّا على أنّه مفعول لأجله، أو على الحال من الذين، و المراد من الذين أُوتوا الكتاب هم اليهود و النصارى، أي و ما كان اختلاف أهل الكتاب في دينهم الحقّ ـ الذي بيّنه الله تعالى لهم على لسان أنبيائه و رسله ـ إلى مذاهب و أهواء ـ مع أنّ دين الله واحد لا اختلاف فيه ـ إلّا بعد علمهم بحقيقة الدّين و الحقّ المبين من بعد ما رأوا الآيات الواضحة و الدلائل الجليّة.

و هذا الاختلاف لم يكن عن عذر، بل كان عن بغي و ظلم بينهم، فتمرّدوا على الحقّ و حرّفوا الكتاب و أوّلوه، فكان أن بغى المنحرفون على المؤمنين الموحدين و تجاوز الرؤساء الحدود و نصروا مذهبا على مذهب، و ضلّلوا من خالفهم، فأوقعوا الفتنة، فكفروا بآيات الله و أنكروا رسالة الرسل.

و يحدّثنا التأريخ ما وقع من الاختلاف الكبير في اليهود و النصارى بعدما علموا الحقّ و آمنوا به، ممّا حمل الكثير من اليهود على إنكار التوحيد و تقبّلهم الشرك و الوثنيّة، و حرّفوا التوراة، كما ذهب النصارى إلى التثليث و تأليه المسيح و إنكار الشريعة.

و في الآية الشريفة توبيخ شديد لأهل الكتاب و تهديد لهم بما وقع بينهم من البغي الموجب للانتقام، كما أن الآية المباركة تخبر عن بعض الحقائق التاريخيّة التي وقعت بين أهل الكتاب، و قد وردت جملة منها في آيات أُخرى من القرآن الكريم، كعبادة العجل، و قتل الأنبياء، و تأليه المسيح أو جعله ابناً له تعالى، و غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

المراد من آيات الله الدلائل الواضحة الجليّة، سواء كانت في الكتاب التشريعي النازل على الأنبياء و الرسل أم المعجزات الباهرات الدالّة على توحيد الله تعالى و صدق نبوّات الأنبياء و الأحكام الإلهيّة التي نزلت لتهذيب الإنسان و استكماله، فإنّ كفرها و جحودها يستلزم إنكار أصل الدين، و من جحد تلك الآيات البيّنات الدالّة على توحيد الله و وحدة الدين و أحكامه التكليفيّة الشرعيّة، فإنّ الله محاسبهم و معاقبهم، و الله سريع الحساب في الدُّنيا باستيلاء الأعداء عليهم و تفريق كلمتهم، أو في الآخرة بأشدّ العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

الضمير في حاجّوك راجع إلى ما تقدّم ذكره، و هم الذين أُوتوا الكتاب. و محاجّتهم مع رسول الله ﷺ أنّهم كانوا يدّعون أنّ الاختلاف معه لم يكن جدلاً و بغياً، بل كان عن استدلال و اجتهاد و طلباً للواقع، و ما يدّعيه الرسول ﷺ أيضاً من الاجتهاد، فلا ملزم لقبوله، و قد كان الجواب عنهم بما يقطع المخاصمة و المجادلة بالتسليم لله تعالى من دون الإعراض عنهم.

و تدلّ الآية الشريفة على أنّ الاستدلالات مطلقاً عقيمة، لا أثر لها ما لم تنته إلى الضروريات، التي هي مبدأ كلّ النظريات، و هي ستّة: الأوّليّات،

و المشاهدات ـ سواء كانت حسيّات أم وجدانيّات ـ و الفطريات و التجربيات، و المتواترات، و الحدسيات، و قال بعض الأكابر:

إنّ ضروورياتنا ست وذي مرجع كلّ النظريات خذي

و مع عدم تحقّق تلك تكون من المغالطة المذمومة، التي لا يكون للعقل إليها سبيل، و محاجّة أهل الكتاب مع الرسول، بل محاجّة الأُمم مع أنبيائهم تكون من هذا القبيل، فهي تنبئ عن الانحراف و عدم الاستقامة، و في مثل ذلك لابدّ لأنبياء الله يستقيم البرهان و لا الواجدان مع اعترافهم بالواقع، بل يكون من اللجاجة التي هي مذمومة، و في الحديث: «اللجاجة تمل الرأي»، أي تذهب به و تزيله.

و تدلّ الآية الشريفة على أدب المحاجّة، حيث لم يقل سبحانه و تعالى: «فان حاجوك فأعرض عنهم»، لأنّ الدعوة عظيمة و لا يليق بها الإعراض أصلاً، فلابدّ من التثبّت حتّى تحصل النتيجة، و هي إعلان التوحيد الذي هو أساس التربية الإنسانيّة الكاملة، فهي محور نظام الدُّنيا و الآخرة.

كما أنّها تدلّ على أن التوحيد و التسليم لله تعالى لا يمكن إبطاله، و لا يمكن نقضه بالمجادلة و المحاجّة، و لذا أمر سبحانه و تعالى نبيّه و المؤمنين بالتسليم، فإنّ الحافظ هو الله تعالى القدير القهّار.

و من ذلك يظهر وجه الارتباط مع الآية السابقة، فإنّه بعد أن بيّن سبحانه أنّ الدّين واحد، و هو التسليم لله عزّ و جلّ الذي لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، و أنّ جميع الكتب الإلهيّة ترشد إليه، فلا وجه للمحاجّة فيه و لا حجّة في ما وراء ذلك.

و إنّما خصّ سبحانه و تعالى الوجه من بين سائر الأعضاء بالذكر، لأنّ التسليم بالوجه يقتضي الإقبال على الله تعالى و الخضوع لديه و الإخلاص له،

و أنّ إسلام الوجه يستلزم إسلام سائر الأعضاء. و يمكن أن يُراد بالوجه الذات و الحقيقة من حيث صدور الأفعال الاختياريّة، فيشمل القلب و جميع الجوارح.

كما أنّه تعالى شرك مَن اتبعه بالإيمان تشريفاً للنبيّ ﷺ و إعظاماً لإيمانهم و تنويهاً لمقام التبعيّة، أي و مَن اتبعني في الإسلام و الإخلاص لله تعالى و الإقبال عليه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾.

الأُمّي مَن لا يقرأ و لا يكتب، فهو على ما ولدته أُمّه من الجهل، و المراد من الأُمّيين هم مشركو العرب، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً﴾[١]، و قد سمّوا بذلك في مقابل أهل الكتاب، كما أنّ أهل الكتاب كانوا يسمّونهم بذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[٢]، و وجه الجمع بين أهل الكتاب و المشركين إمّا لأجل كون الدِّين مشتركاً بينهم و الجميع مطالبون بالإيمان به، أو لأجل أنّ الأميين كانوا معترفين بالله وإلهيّته، أو لأجل أنّ دين أهل الكتاب في عصر النزول كان لا يخلو عن الشرك، ممّا أوجب اشتراكهم مع المشركين.

و الاستفهام في الآية المباركة للتقرير، و فيه الأمر بالإسلام.

والمعنى: قل يا رسول الله لليهود و النصارى و مشركي العرب: أسلموا و ادخلوا في سلم الله تعالى، و لا تحاربوه بعد ما جاءكم من البيّنات. و في الآية الشريفة توبيخ لهم على العناد و اللجاج، و الكفّ عن الإلحاح في المحاجّة مع منكر الضرورة، كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾.

---

١. سورة الجمعة: الآية ٢.

٢. سورة آل عمران: الآية ٧٥.

أي: فإن دخلوا في السلم و آمنوا بالإسلام فقد خرجوا من الضلال و دخلوا في هداية الله تعالى، و هذا هو الفوز العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

أي: و إن أعرضوا عن الإسلام و حادّوا الله و رسوله، فإنّما عليك التبليغ للدين الحقّ و الدعوة إلى الله تعالى، و قد حصل منه البلاغ و أدّاه بأحسن وجه.

و الآية الشريفة تدلّ على أنّ الرسول مبلّغ للدعوة الإلهيّة، و ليس له من الأمر في الإيمان و الكفر شيء، بل الحكم في ذلك منحصر في الله تعالى، قال عزّ و جلّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: أنّ الله يعلم ما في الضمائر و مكنونات الصدور، فهو عالم بمن هو قابل الهداية و التوفيق، و مَن هو غير قابل لذلك، فيحكم بما تقتضيه حالهم، و في ذلك دلالة على إيكال الأمر إليه عزّ و جلّ، فيكون تأكيدا لما سبق.

و لعلّ ختم الكلام بهذه الجملة للإرشاد إلى أنّ المقام ليس مقام التخويف و التوعيد، بل مقام الجلب و التأليف و لو بالتأكيد، و يدلّ على ذلك إتيان لفظ (العباد) الذي يشعر بالرأفة بهم، فإنّ عنوان العبوديّة يقتضي كونهم مربوبين له جلّت عظمته.

***

١. سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

بحوث المقام

بحث أدبي:

المشهور بين الأدباء أنّه إذا ورد قيد في الكلام وكانت قبله أُمور تصلح لرجوع القيد إلى كلّ واحد منها، فالقيد للجميع إلّا إذا دلّت قرينة على الخلاف، سواء كانت داخليّة أم خارجيّة أو مقاليّة، لفرض صحّة انحلال القيد في الواقع بعدد تلك الأمور، و هذا من إحدى محسّنات الكلام و من الأُمور البلاغيّة، ففي الآية الشريفة أنّ قوله تعالى: ﴿**قَائِماً بِالْقِسْطِ**﴾ له معنى الوصفيّة و الحاليّة من اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللّهُ**﴾ أو من الضمير «هو» في: ﴿**لَا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ**﴾، فيرجع إلى المشهود به في شهادة الملائكة و أُولي العلم. و يصحّ أن يتعلّق بوجوده الانبساطي إلى الجميع، و لا محذور فيه، و له نظائر كثيرة في اللغة الفصحى.

و تقدّم وجه نصب (بغياً) في قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾.

و الموصول في قوله تعالى: ﴿**وَمَنِ اتَّبَعَنِ**﴾ معطوف على الضمير المرفوع المتّصل في: ﴿**أَسْلَمْتُ**﴾، من غير احتياج إلى التأكيد، لوجود الفصل بينهما. و يجوز أن يكون مبتدأ و الخبر محذوف تقديره: «و مَن اتبعن أسلم وجهه الله».

و إنّما جاء قوله تعالى: «فَقَدِ اهْتَدَوْا» على الماضي مبالغة في الإخبار لوقوع الهدى لهم و حصوله.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: أنّ في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، اتّحاد الشاهد و المشهود به و الشهادة، و في ذلك ظهرت الوحدة في الكثرة، و الكثرة في الوحدة، و لا حدّ لمثل هذه الشهادة في العظمة و البهاء و الجلالة، تخرّ لها الكائنات خضّعاً سجّداً، و لا يمكن للعقل أن يدركها و يحدّها بحدّ، و ليس له إلّا الاعتراف بالخضوع و التسليم، و فيها من الجذبة الروحانيّة و ابتهاج الذات ما لا يخفى، و هي أعظم آية تدلّ على التوحيد، و بها صارت هذه السورة الحدّ الفاصل بين التوحيد و الشرك، و قد اختصّت هذه الآية بمزية لا توجد في غيرها. و سيأتي في البحث الروائي ما يتعلّق بذلك.

الثاني: يستفاد من إطلاق الآية الشريفة أنّ الشهادة إنّما تكون بالقول و بالفعل و بالذات في التوحيد ثابت في مرحلة الذات و الصفات و الأفعال، فإنّ أفعاله المقدّسة تدلّ على أنّه لا إله إلّا هو، كما تقدّم.

و من ذلك يظهر بطلان القول أنّ الشهادة في المقام إنّما تحمل على المعنى الاستعاري، و هو أنّ وحدة الحاجة في جميع خلقه و جمال النظام يدلّان على وحدة الصانع، فتكون هذه الوحدة بمنزلة نطقه و إخباره تعالى. و استند في ذلك على أنّ حمل الشهادة على الشهادة القوليّة يستلزم الدور، لأنّ إثبات التوحيد بهذه الشهادة يقتضي أن يكون أمره مستنداً إلى النقل دون العقل، و هو يتوقّف على صحّة وحي القرآن وحياً إلهياً، و هو متوقّف على التوحيد، و هو دور.

وجه البطلان أنّ وحدته تبارك و تعالى ثبتت بالأدلّة العقليّة و البراهين القطعيّة، لا بمجرّد القرآن. فنقول: وحدته تعالى ثبتت بجميع الكتب الإلهيّة، مع أنّ النقل إرشاد محض إلى حكم العقل في جميع المعارف الإلهيّة، و النقل لا يفيد حكماً مستقلّاً في نفسه و إنّما يقرّر حكم العقل.

و إذا ثبتت صحّة الشهادة من الله تعالى، لأنّه لا يتصوّر في حقّه الكذب

و الزور ، بل هو منزّه عن كلّ باطل و نقص ، فتكون شهادته حقّا بحقّ و أنّ إخباره عن الملائكة و أُولي العلم حقّ و تثبت شهادتهم.

و يظهر من سياق الآية الشريفة أنّ التوحيد و هو المقصد الأسنى ، و له من الأهمّية العظمى ، و هو حصن الله الأكبر ، فمَن دخله كان آمناً ، على ما تواتر عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله ، حيث قال : قال تعالى : «كلمة لا إله إلّا الله حصني ، فمَن دخل حصني أمن من عذابي».

و مقتضى الجمع بينه و بين القيام بالقسط ، أنّ الإيمان بالتوحيد لابدّ أن يكون مع الإيمان بالعدل ، و الإيمان بأحدهما دون الآخر يكون إيماناً ناقصاً ، فالآية تدلّ على أنّ العدل من أُصول الدِّين ، فهي تؤيّد مذهب العدليّة ، القائلين بأنّ العدل أصل من أُصول الدِّين.

الثالث : يستفاد من إخباره تعالى عن الملائكة و أُولي العلم أنّ هؤلاء يشهدون بالتوحيد لعلمهم بعدم شريك له تعالى ، فلو كان له شريك لعلمه هؤلاء ، إذ الملائكة هم وسائط الفيض ، و لهم الأمر في الخلق و التدبير ، و أنّ أُولي العلم بما أنّهم يشاهدون الآيات و يستفيدون منها ، يعلمون بأنّه تعالى واحد ليس له شريك.

الرابع : إطلاق قوله تعالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يشمل الجميع كجبرائيل و إسرافيل و عزرائيل الذين هم سادات الملائكة و مدبّرو التكوين بأمر من ربّ العالمين ، كما يشمل الكروبيين و حملة العرش الذين يكون علمهم بالوحدانيّة من الإفاضة الغيبيّة إليهم ، و من تجلي الوحدة المطلقة لديهم.

الخامس : تدلّ الآية الشريفة على فضل العلم و أهله ، و أنّهم أُمناء الله تعالى في خلقه ، إذ جعل شهادتهم قرين شهادته و يا لها من عظمة و بهاء و كبرياء.

السادس : تكرار قوله تعالى : ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يدلّ على أنّ الأوّل لأجل

توحيد الذات، و الثاني لأجل بيان توحيده في الأفعال و قيامه بالعدل في مخلوقاته، و هو توطئة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلَامُ﴾، من أنّ الدِّين واحد لا اختلاف فيه.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾ على بطلان الجبر و التفويض، لكونهما خلاف القيام بالقسط الذي هو الأمر بين الأمرين، كما أنّه يدلّ على عدم جواز الظلم بالنسبة إليه تبارك و تعالى، كما هو مذهب العدليّة.

و إنّما عبّر بالقسط لأنّه العدل الظاهر الذي لا يمكن جهله، بخلاف العدل فإنّه قد يخفىٰ، و لذا سُمّي الميزان قسطاً، لأنّه يظهر العدل في الوزن.

فالقسط النصيب، فإذا أعطى كان إنصافاً و عدلاً، و إذا منع كان جوراً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[1].

الثامن: يظهر من سياق الآية الشريفة أن منشأ القيام بالقسط هو الشهادة بالوحدانيّة، ولابدّ أن تكون كذلك، لأنّ في الوحدانيّة الحقّة تنطوي جميع المعارف الحقّة.

التاسع: يدلّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلَامُ﴾ على أنّه لابدّ للإنسان من منهج في حياته، و هو الذي يتكفّل جميع جهاته التكوينيّة و التشريعيّة و لا يمكن التخطّي و الإعراض عنه، و أنه لابدّ من الخضوع و الانقياد لله تعالى الذي هو رأس كلّ كمال.

كما أنّه يدلّ على أنّ أساس النظام هو الدِّين، و أنّ الانقياد بدونه فاسد و مخل بالنظام، فهذه الآية الشريفة من أعظم الآيات الدالّة على أن لابدّ للإنسان من منهج يقوّمه و دستور ينظم به شؤون حياته، و هذا هو مقتضى الفطرة أيضاً، و لذا كانت القضايا الواردة في هذه الآية من القضايا الفطريّة الحقيقيّة.

---

١. سورة الجن: الآية ١٥.

العاشر: يستفاد من الآية الشريفة أنّ المشركين في الذات كالثنويّين، أو في المعبود كالوثنيّين أو في العبادة كالمرائين، لا حظّ لهم من هذه الآية الكريمة.

الحادي عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾ على أنّ الإنسان لابدّ له من الإذعان بما تبيّن له من المعارف الإلهيّة، و العمل بها و الوقوف عند ما لا يعلمه، وقوف تسليم، و أنّ خلاف ذلك يكون من البغي. كما يستفاد أنّ كلّ خلاف و اختلاف إنّما يكون لطلب الاستيلاء و الظلم على كتاب الله و المعارف الحقّة.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ**﴾ على النهي عن اللجاج و المراء مع منكر الضرورة، و أنّه لا ثمرة فيه إلّا الجدال و الخصام، كما أنه يدلّ على أنّ الرسول ليس له في أمر الهداية و الضلالة شيء، بل هو مبلّغ كما ذكرنا.

***

بحث روائي:

فضل الآية:

قد عرفت أنّ قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ**﴾، يشتمل على أعظم شهادة تدلّ على وحدانيّته وكماله في خلقه و أفعاله، و لعظم ما تضمّنته الآية الشريفة صارت من أعاظم الآيات، و قد ورد في فضلها بعض الروايات.

روى يعقوب بن شعيب عن الصادق عليه السلام: «لمّا أمر الله هذه الآيات أن يهبطن إلى الأرض تعلّقن بالعرش، و قلن: يا رب أين تهبطنا إلى أهل الخطايا و الذنوب؟! فأوحى الله تعالى اهبطن ... و هي أمّ الكتاب، و شهد الله أنّه لا إله إلّا هو و الملائكة، و أُولوا العلم، و آية الكرسي، و آية الملك.

أقول: تقدّم ذكرها في آية الكرسي، و رواها الديلمي عن أبي أيوب

الأنصاري، مرفوعاً باختلاف يسير.

و روى ابن عدي و الطبراني و الخطيب و ابن النجّار، عن غالب بن قطان، عن الأعمش، عن أبي وائل بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحب هذه الآية يوم القيامة فيقول الله تعالى: عبدي عهد إلي عهداً و أنا أحقّ مَن وفّى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنّة».

و في «المجمع»، عن الزبير بن العوّام: «قلت: لأدنونّ هذه العشية من رسول الله ﷺ ـ و هي عشية عرفة ـ حتّى اسمع ما يقوله، فحبست ناقتي بين ناقة رسول الله و ناقة رجل كان إلى جنبه، فسمعته يقول: **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ـ الآية ـ فما زال يردّدها حتّى رفع».

تفسير الآيات:

في «تفسير العياشي»، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾**، قال أبو جعفر عليه السلام: «شهد الله أنّه لا إله إلّا هو، فإنّ الله تبارك و تعالى يشهد بها لنفسه، و هو كما قال. فأمّا قوله: و الملائكة، فإنّه أكرم الملائكة بالتسليم لربّهم و صدقوا و شهدوا كما شهد لنفسه، و أمّا قوله تعالى: **﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾**، فإنّ أُولي العلم الأنبياء و الأوصياء، و هم قيام بالقسط، و القسط هو العدل».

أقول: أمّا جهة إكرام الملائكة، لأنّه تعالى ذكرهم بعد نفسه الأقدس، و أمّا التسليم لربّهم، فلا ريب في أنّ المجرّدات مطلقاً خاضعة خضوعاً تكوينيّا لله جلّ جلاله، لذاته و لجميع صفاته، خصوصاً لوحدانيّته تعالى، و قد تقدّم أنّه جلّت عظمته يتجلّى لهم بوحدانيّته، فتكون شهادة الملائكة بالتوحيد بتجلّيه تبارك و تعالى لهم بتلك الصفة، و لو لوحظ مراعاة الاصطلاح تكون شهادتهم من

عين اليقين، فضلاً عن حقّ اليقين.

و أمّا قوله عليه السلام: «و هم قيام بالقسط»، فهو من ذكر المصدر من باب المبالغة في التعبير، و الاختصاص للقيام بالقسط بخصوص أُولي العلم، بل يشمل الملائكة أيضاً، و قد أثبتوا في العلوم الأدبيّة أنّ الوصف لا مفهوم له. و أنّ ذكر الأنبياء و الأوصياء من باب ذكر أهمّ المصاديق البشريّة.

في «تفسير العياشي» ـ أيضاً ـ: عن محمّد بن مسلم، قال: «سألته عن قوله تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلَامُ﴾**، فقال: الدِّين فيه الإيمان».

أقول: لا ريب أنّ للإسلام مراتب كثيرة، قال سبحانه و تعالى: **﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾**[1]، و معلوم أنّ مجرّد الذكر اللفظي لكلمة التوحيد مع عدم الاعتقاد القلبي به، و عدم العمل بمقتضياته، يصحّ سلب الإيمان و الإسلام و التوحيد عنه، كما هو ظاهر كثير من السنّة المباركة.

نعم، لذلك أثر خاصّ و هو حفظ الدماء و العرض و المال صوناً للجامعة الإسلامية.

عن ابن شهر آشوب، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلَامُ﴾**، قال عليه السلام: «التسليم لعلي بن أبي طالب بالولاية».

أقول: هذا من باب بيان أحد المصاديق، و المراد العمل بما أتى به عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

في «تفسير القمّي» عن علي عليه السلام: «لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي و لا ينسبها أحد بعدي، الإسلام هو التسليم، و التسليم هو اليقين، و اليقين هو التصديق، و التصديق هو الإقرار، و الإقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل،

---

١. سورة الحجرات: الآية ١٤.

و المؤمن من أخذ دينه عن ربّه، إن المؤمن يعرف إيمانه في عمله، و إنّ الكافر يعرف كفره بإنكاره، يا أيُّها الناس دينكم دينكم، فإن السيّئة فيه خير من الحسنة في غيره، إنّ السيّئة فيه تغفر و أنّ الحسنة في غيره لا تقبل».

أقول: أمّا قوله عليه السلام: «لأنسبن الإسلام»، يعني أُبيّن نسبة الإسلام، و أنّه منسوب إلى الله تبارك و تعالى بمبدئه و منتهاه، و لا يمكن أن ينسب الإسلام بغير هذا أحد من الناس.

و أمّا قوله عليه السلام: «الإسلام هو التسليم»، هذا من باب بيان معناه الاشتقاقي، و في ذلك تنطوي أُمور كثيرة، أي: التسليم باللسان و الجنان و العمل بالأركان.

و أمّا قوله عليه السلام: «و التسليم هو اليقين»، هذا من باب تفسير الملزوم و إرادة اللازم، لأنّه لو لم يتيقّن الشخص بشيء لا يسلم نفسه إليه.

و أمّا قوله عليه السلام: «و اليقين هو التصديق»، هذا من باب ذكر أحد المتساويين بالآخر، توضيحاً للمقصود، لأن كلّ تصديق بقضية يوجب اليقين بمفادها، و كلّ يقين في قضية يستلزم التصديق بها، كما هو معلوم.

و أمّا قوله عليه السلام: «و التصديق هو الإقرار»، هذا مثل سابقه يكون من باب تفسير أحد المتساويين بالآخر، توضيحاً و تأكيداً.

و أمّا قوله عليه السلام: «و الإقرار هو الأداء»، المراد بالأداء الالتزام القلبي بالعمل بما أقرّ به، بحيث يترتّب عليه العمل، فيكون تمام قوله عليه السلام شرحا لحقيقة الإسلام بمراتبها القوليّة و الاعتقاديّة و العمليّة.

و أمّا قوله عليه السلام: «و المؤمن مَن أخذ دينه عن ربّه»، فهو كالنتيجة للبيان السابق، لأنّ ما كان من الله سبحانه و تعالى مبدءاً و مسيراً و ينتهي إليه، لابدّ لأن يؤخذ منه فقط، لأنّ غيره لا يمكنه ذلك عقلاً.

و أمّا قوله عليه السلام: «إنّ المؤمن يعرف إيمانه في عمله، و إنّ الكافر يعرف كفره

بإنكاره» ، فهو قضية عقليّة دليلها يستفاد من نفس تصوّرها ، لأنّه لو لم يكن العمل و القول مطابقين للمعتقد ، فلا أثر لهما أبداً ، فكلّ من نظر إلى عمله و سرّته حسنته و ساءته سيّئته ، فهو مؤمن كما تطابق عليه الكتاب و السنّة .

و إنّ الكافر يعرف كفره بإنكاره ، لأنّ منشأ الكفر ـ مطلقاً ـ لابدّ أن يرجع إلى إنكار التوحيد و جحده .

و أمّا قوله عليه‌السلام : «يا أيُّها الناس دينكم دينكم» ، يعني الزموا دينكم ثمّ التزموا به . و هذه الجملة يؤتى بها في مقام التأكيد و التثبيت و الترغيب .

و أمّا قوله عليه‌السلام : «إنّ السيّئة فيه خير من الحسنة في غيره ... إلى آخر الرواية» ، لأنّ شرط قبول الحسنة الدين و التقوى ، و المفروض عدم تحقّقهما في الكافر .

في «أسباب النزول» للواحدي : «لمّا ظهر رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام ، فأبصروا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله الذي يخرج في آخر الزمان ، فلمّا دخلا على النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله عرفاه بالصفة و النعت ، فقالا له : أنت محمّد؟ قال : نعم ، قالا : و أنت أحمد ، قال : نعم ، قالا : إنّا نسألك عن شهادة ، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك و صدّقناك ، فقال لهما رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : سلاني ، فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله ، فأنزل الله تعالى على نبيّه : «شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَالْمَلاٰئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ» ، فأسلم الرجلان و صدقا برسول الله» .

أقول : هذا من أحد أسباب نزول الآية الشريفة ، و يمكن أن يكون لها أسباب أُخرى .

***

بحث علمي:

من صفات الله تعالى القائم بالقسط ، و هي عين ذاته المقدّسة التي لا حدّ

لجلالها وكمالها، وأنّها تدلّ على كماله تعالى في أفعاله، وتستلزم كثيراً من الصفات العليا، كالرأفة والرحمة والعدل. والقسط ـ كما مرّ ـ هو العدل مع زيادة فيه، وهي أنّ القسط يستعمل في موارد العدل الظاهر والحقّ المعروف، فهو أبلغ من العدل، كما أنّ الجور أبلغ في العدوان من الظلم، فيكون للقسط خصوصية لم تكن في العدل ـ كما تقدّم ـ وإن كانا يتقاربان في المعنى، كما فسّروه به في كثير من الموارد، ولكن القسط يستعمل في مورد لا يستعمل العدل فيه، كما أنّ الأوّل يعدّى بـ «إلى» ولا يعدّى العدل به، قال تعالى: **﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾**[1]، وممّا يدلّ على ما ذكرناه قوله تعالى: **﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾**[2]، ولا يصحّ أن يكون أحدهما عين الآخر، إذ التأسيس خير من التأكيد. وفي حديث المهدي عليه السلام المروي من الفريقين: «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً». فيكون القسط أنسب بالشهادة في المقام من العدل. والقائم بالشيء هو المتصدّر والمراعي له ومحقّقه ومجريه. أي المجري، وأقومها وأنفعها للنظام التكويني والتشريعي والجزائي، وبها يتحقّق الترابط بين الربّ وعبيده، وبين أفراد العباد بعضهم مع بعض، وبه يقع التآلف، والتحابب بينهم، كما أنّ به يضمن المظلوم حقّه ويجازى الظالم لظلمه، وبه ينتظم النظام، ولأجل ذلك كان النبيّ صلى الله عليه وآله يكرّر هذه الآية في أفضل الأوقات وفي أفضل الأماكن، فقد ورد أنّ نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله كان يردّدها في عشية عرفة كما مرّ.

***

١ . سورة الممتحنة: الآية ٨.

٢ . سورة الحجرات: الآية ٩.

الآية ٢١ ـ ٢٢

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

بعدما بيّن سبحانه و تعالى أعظم شهادة منه جلّت عظمته، و هي الشهادة بالوحدانيّة، و ذكر جلّ شأنه حقيقة الدين، و أنه واحد لا اختلاف فيه، و هو الجامع بين أفراد الإنسان في هدف واحد بالتسليم لوجهه تعالى، و أنّ هذا الدِّين من الفطرة و لا يجهلها أحد، و الاختلاف فيه من البغي و الظلم الذي يذكرها كلّ ذي وجدان، ثمّ ذكر سبحانه و تعالى محاجّة النبيّ ﷺ مع الكفّار و مشركي العرب، و أمره بالتسليم له تعالى، و إنّما عليه البلاغ، فلا يضرّه من يكفر، و في ذلك تسليةً له ﷺ.

و في هاتين الآيتين يذكر اليهود وكفرهم بآيات الله و محاجّتهم مع آياته سبحانه و تعالى، و قتلهم أنبياء الله و المؤمنين الموحّدين، و قد أوعدهم الله بالعذاب الأليم بعد ما أسدلوا على أنفسهم حجباً ظلمانيّة، تستر الضمائر و البصائر و تظلم القلوب و السرائر فحقّت عليهم الخيبة، و ما لهم من ناصرين ينقذونهم من هذا المصير و يرفعون عنهم العذاب الأليم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

مادّة كفر تأتي بمعنى الستر، قال لبيد: في ليلةٍ كَفَر النجوم غمامها

و هي من المواد الكثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، و ذلك لأنّ من أهمّ مقاصد القرآن العظيم هي الدعوة إلى التوحيد و نبذ الشرك و الاختلاف، و توجيه الإنسان إلى الكمال المنشود له، و إزالة العقبات التي تصدّه عن ذلك، و من أعظمها الكفر و جحود الحقّ، و لأجل ذلك تكرّر ذكرها لإرشاد الناس و تثبيت الحجّة عليهم.

و يطلق الكافر على الزارع، لأنّه يستر البذر تحت الأرض، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[1]، كما أنّ ستر النِّعم كفران لها.

و في عرف الكتاب و السنّة تستعمل الكلمة في ستر العقائد الحقّة و عدم الاعتقاد بها و جحودها مطلقاً، فإن أظهر الإيمان و الاعتقاد و أخفى الجحود فهو (المنافق)، و إن أظهر كفره بعد إظهار الاعتقاد أو الإيمان فهو (المرتدّ)، فإن قال بالشرك في الألوهية فهو (المشرك)، و إن تديّن أو أعتقد ببعض الأديان الإلهيّة المنسوخة فهو (الكتابي)، و إن ذهب إلى قدم الدهر و إسناد الحوادث إليه فهو (الدهري)، و إن كان لا يعتقد بالمبدأ و الباري فهو (المعطل) أو الملحد.

و المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هم اليهود، بقرينة ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن الثاني يضاف إلى الله تعالى،

---

١. سورة الحديد: الآية ٢٠.

و الأوّل يُضاف إلى الفاعل فكلّ قتل موت و لا عكس ، فالاختلاف بينهما بالاعتبار لا بالذات ، و لفظ (**بغير حقّ**) قيد توضيحي ، لا أن يكون احترازيّاً ، لأنّ قتل النبيّين لا يكون إلّا بغير الحقّ ، نظير قوله تعالى : **﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾**[1] ، فإنّ الشرك مع الله سبحانه و تعالى لا يعقل أن يكون مع البرهان .

و ذكر هذا الوصف لبيان قبح أعمالهم و بشاعتها و انقطاع العذر عنهم ، بعد عرفان الحقّ و ظهوره .

و الفعل في المواضع الثلاثة : يكفرون ، و يقتلون في الموضعين ، يدلّ على الاستمرار و الثبوت ، أي أنّ عادتهم و دأبهم جرت على الكفر بآيات الله تعالى بعد البيان ، و قتلهم الأنبياء و الأولياء و الصلحاء و الداعين إلى الحقّ و العدل ، و لو بحسب القصد و النيّة ، و ليس لهم شأن إلّا ذلك ، و على هذا لا نحتاج إلى تخصيص الجملات الثلاث بالآباء فقط ، بل كلّ من فيه منشئيّة الصراع مع الحقّ يكون داخلاً في معنى الآية المباركة ، و هذا ما نعلمه من تاريخ أعداء الإسلام و دين الحقّ ، فإنّهم قتلوا الأنبياء و دعاة الحقّ الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر ، و قد جرت العادة على أخذ الخلف بما فعل السلف ، و قد تقدّم في سورة البقرة ما يرتبط بالمقام ، فراجع .

قوله تعالى : **﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾** .

تعميم بعد التخصيص ، لأنّ الأنبياء أيضاً يأمرون بالقسط ، لبيان أنّ هؤلاء لا شأن لهم إلّا الدعوة إلى الحقّ و إقامة العدل اللذين تدعو إليهما الفطرة ، و فيه تشنيع فعلهم و تهييج الفطرة الإنسانيّة و استفزاز الضمير عليهم ، لأنّهم فعلوا ما لا يرتضيه الضمير و لا العاقل البصير .

---

١ . سورة المؤمنون : الآية ١١٧.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

مادّة (بشّر) في حاق الواقع بمعنى الإخبار بما يظهر أثره في بشرة الوجه، كما يشاهد فيمن أخبر بموجب السرور، فإنّه يظهر أثر الفرح في ظاهر الوجه. وفي الإخبار بالشرّ يظهر الهمّ والغمّ في ظاهره أيضاً. فيصحّ استعمال هذه المادّة بحسب واقعها في كلّ من الأخبار بموجب السرور والغمّ، من دون مجاز واستعارة.

نعم، إذا أُطلقت اختصّت بما يوجب السرور.

ولو قيل: باختصاص البشارة بالإخبار بموجب السرور، فيصحّ استعمال البشارة في الغمّ والحزن أيضاً من باب الوصف بحال المتعلّق، لأنّ الإخبار يوجب سرور المؤمنين بلا إشكال، ولم يقم دليل على أنّه لابدّ أن تكون جميع جهات الإخبار منحصرة في الوصف بحال ذات المخبر عنه فقط، بل الكلام الفصيح ما كان متكفّلاً لجهات شتى ونواح مختلفة من الدلالة والإفادة، فيكون كالبحر الذي فيضه عميم وأمواجه لا تستقيم، ويتضمّن الكلام الاستعارة التي تشتمل على الحسن والبلاغة، كما لا يخفى.

والفاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ للجواب، لتضمّن الجملة معنى الجزاء المتفرّع على الجملة السابقة المتضمّنة لمعنى الشرط، وهو الكفر وقتل النبيّين.

والعذاب: كلّ ما شقّ على الإنسان ومنعه عن مراده، وكلّ عذاب في القرآن فهو التعذيب، أي الايجاع، سواء كان دنيويّاً أم أُخرويّاً، روحيّاً أم جسميّاً.

والعذاب في الآية المباركة مطلق، يشمل الدنيوي منه والأُخروي، وفيه من الدلالة على شمول الغضب لهم واحتوائهم السخط والعذاب، وهذا قرينة

على ما ذكرناه آنفا من تهييج الفطرة عليهم، و قد أخزاهم الله تعالى في الدُّنيا فكتب عليهم القتل و الجلاء و التفريق و عداء النفوس لهم، و لهم في الآخرة أشدّ العذاب و أليمه، كما نطقت به الآيات الكريمة في مواضع متعدّدة.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

الحبط: بطلان العمل و عدم الأجر له، أي: الّذين كفروا بآيات الله و قتلوا الأنبياء و دعاة الحقّ و العدل، بطلت أعمالهم في الدُّنيا و الآخرة، أمّا بطلان عملهم في الدُّنيا فلأنّهم فعلوا ذلك لإزالة الحقّ و إثبات الباطل، و الله تعالى فعل بهم خلاف ما أرادوه، فأثبت الحقّ و أزال الباطل و أذاقهم العذاب الأليم، و أمّا في الآخرة فلأنهم لا يؤجرون على أعمالهم بشيء، بل يعذّبون عليها و هم وقود النار.

و الآية المباركة تدلّ على أن قتل الأنبياء و الأولياء و الأوصياء و دُعاة الحقّ ممّا يحبط الأعمال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

أي: من شافعين، و هذا يدلّ على عدم شمول الشفاعة لهم، كما تقدّم في بحث الشفاعة في سورة البقرة، فراجع.

***

بحوث المقام

بحث علمي:

النصرة إمّا واقعيّة معنويّة حقيقيّة، أو وهميّة خياليّة، و الأُولى مبنيّة على الدوام و البقاء و الثبات، و لا تزول بخلاف الثانية، و الآثار الحقيقيّة تترتّب على الأُولى.

و النصرة المنفية في أمثال هذه الآية إنّما هي الأُولى، و أمّا النصرة الوهميّة الخياليّة فليست من الله تعالى في شيء، كما لا أثر لها عند ذوي العقول، بل إطلاق النصرة عليها إنّما يكون بالمجاز و العناية.

***

بحث روائي:

في «الكافي»: عن يونس بن ظبيان، قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله عزّ و جلّ يقول: ويلٌ للذين يختلسون الدّنيا بالدِّين، و ويلٌ للذين يقتلون الّذين يأمرون بالقسط من الناس، و ويلٌ للذين يسير المؤمن فيهم بالتقيّة، أبي يغترون أم عليَّ يجترءون؟ فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تترك الحكيم منهم حيران».

أقول: قد ظهر حقيقة ما حلفه تبارك و تعالى في هذه الأعصار لكلّ ذي شعور.

و في «المجمع»: عن أبي عبيدة الجراح، قال:

«قلت: يا رسول الله، أي الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة؟ قال صلى الله عليه وآله: رجل قتل نبيّاً، أو رجلاً أمر بمعروف أو نهى عن منكر، ثمّ قرأ صلى الله عليه وآله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ

حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾، ثمّ قال عليه السلام : يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبيّاً أوّل النهار في ساعة واحدة، فقام مائة رجل و اثنا عشر رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فقتلوا من أمروهم بالمعروف و نهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم، و هو الذي ذكره الله».

أقول: ما ورد في هذه الرواية من باب بيان بعض المصاديق، و إلّا فحكم الآية الشريفة عام إلى يوم القيامة، و قتل الأنبياء و الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر يشمل كلّاً من المباشر و المسبّب بالأسباب المختلفة في كلّ عصر و زمان.

***

الآية ٢٣ ـ ٢٥

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه و تعالى أن أهل الكتاب إنّما يختلفون في الدِّين، و لا يؤمنون به عن بغي و ظلم بعد ما علموا الحقّ، و ذكر جملة من قبائح أعمالهم من الكفر و قتل الأنبياء و الآمرين بالقسط، بين ما يوجب تشهيرهم من أنّ هؤلاء الّذين أُوتوا نصيباً من الكتاب هم أولى الناس بأن يستجيبوا إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم من الأُمّيين الّذين لا يعلمون من الدِّين شيئاً، فأعرضوا عن ذلك و اتخذوا الخلاف، و ليس ذلك إلّا لأجل أنّهم ادّعوا اتصال النسب مع أنبيائه تعالى، فهو الذي يمنعهم من البقاء في العذاب. فكان ذلك سببا للافتراء على الله تعالى و اقتراف الآثام و تجرؤهم على الله سبحانه، و قد أثبت سبحانه و تعالى أنّ الجزاء إنّما يكون على الأعمال دون الأنساب، و أوعدهم الخزي و العذاب في يوم يتجلّى العدل الإلهي و يجزي كلّ نفس ما كسبت و هم لا يظلمون.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾.

الاستفهام للتشهير و التعجيب، أو لبيان الحقيقة المستورة عن عامّة الناس.

مادّة (نصب) تأتي بمعنى الوضع و التعب و الحصة التي تضاف إلى الشخص أو العلامة، قال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾[1]، و النصب هو حجر كانوا ينصبونه في الجاهلية فيعبدونه و يذبحون له، بل كلّ ما عبد من دون الله فهو نصب، و في الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «فاطمة بضعة منّي، ينصبني ما أنصبها»، أي يتعبني ما أتعبها.

و يمكن إرجاع الجميع إلى شيء واحد، و هو الوضع، لكنّه يختلف باختلاف الخصوصيّات. و قد استعملت هذه الكلمة في موارد من القرآن الكريم، و غالب استعمالها فيه إنّما هو في الذمّ.

و النصيب من المفاهيم القابلة للشدّة و الضعف و القلّة و الكثرة، فهو من المفاهيم التشكيكيّة جدّاً، فإنّ من فهم آية من آيات القرآن الكريم بحسب اعتقاده، يكون له نصيب منه، و فهم حقيقة نفس الآية بحسب الواقع نصيب منه أيضاً، و فهم أسرارها و دقائقها نصيب منه، و هكذا في جملة من الآيات الشريفة. و إطلاق النصيب على بعض هذه الأنصباء، من باب مجرّد الإطلاق اللفظي فقط إذا لو حظ بملاحظة بعض مراتبها الأُخرى.

و المراد من الكتاب جنسه الذي يشمل التوراة و الإنجيل، و إيتاء النصيب من الكتاب عبارة عن تطبيق الكتاب حسب آرائهم و معتقداتهم، أي أخذوا من كتاب الله خصوص ما ينفعهم، و تركوا ما سواه، و هذا هو عادة أهل الدُّنيا الّذين لا

---

١. سورة المائدة: الآية ٣.

همَّ لهم إلّا قضاء الحاجة الفعلية و هذا هو حظهم ممّا أُوتوه من الكـتاب، و ليس من حظهم في الواقع، لأنـّه لابدّ من أن يؤخذ بكلّ جزء منه مع مراعاة جميع ما فيه، لأنّ الإيمان بالبعض لا ينفك عن الإيمان بالكلّ و بالعكس.

و يستفاد من الآية الشريفة وقوع التحريف في الكـتاب، و أنّ الذي بـين أيديهم ليس إلّا نصيباً منه، فإن التحريف الذي أوقعوه فيه و تغييرهم له ما أوجب إذهاب كثير منه، و إنّما بقي جزء منه، كما يدلّ على أنّهم لا يحسنون فـهمه و لا يلتزمون العمل به، فهم فقدوا الأهليّة لتحمّله بسبب تحريفهم له.

و الآية الشريفة تدلّ عـلى العـجب مـن حـالهم و أفـعالهم، و الاسـتفهام تقريري، أي انظر إلى أحوالهم تراهم كذلك، فيتطابق المخبر به مع المحسوس. و هذا أحسن وجه لبيان فساد طريقتهم و سوء عقيدتهم و نفاق سريرتهم.

و هذه الآية الشريفة و نظائرها تبيّن فساد عادة من عـادات النـاس التـي جرت على أنّ من اطلّع على شيء من كتاب ما، يدّعي الاطّلاع على جميع مـا ورد فيه و الإحاطة به، مع أنّه ربما لم يصل إلّا إلى جزء منه، و لم يدرك مفاهيمه العرفيّة فضلاً عن دقائقه العلميّة، هذا في الكتب المؤلّفة فضلاً عن الكتب الإلهيّة النازلة من السماء على الرسل و الأنبياء، التي قال فيها: **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾**، و قد وعد الله تعالى أن يعلمها المتّقين مـن عـباده، قـال تعالى: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾**[١].

قوله تعالى: **﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾**.

مادّة (دعو) تأتي بمعنى استدعاء الشيء سواء كان بالخير أم الأمر أم بنحو آخر و هو كالنداء، و قد يستعمل كلّ منهما في موضع الآخر، و هي من المواد التي

---

١. سورة المائدة: الآية ٣.

كثر استعمالها في القرآن الكريم، و لعلّ من ألطفها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[١]، و من أشدّها هيبة و تسخيراً قوله تعالى: ﴿**خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**﴾[٢]، و في الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأُمم كما تداعى الأكلة على قصعتها»، و عنه ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم و تراحمهم و تعاطفهم، مثل الجسد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى».

و الكلمة مستعملة في جميع العوالم الإمكانيّة و النشآت الربوبيّة، فالله تعالى هو مبدأ الدعوة إلى الحقّ في تمام النشئات، و إليه ختمها في جميعها، فهو الحقّ المحض و مظهره و مظهره.

و كتاب الله هو القرآن العظيم المشتمل على حقائق واقعيّة و تشريعيّة، التي جعلها عزّ و جلّ لتنظيم النظام الأحسن في الدُّنيا و الآخرة، و قد قامت الحجج الكثيرة على أنّه منزل من الله تعالى.

و دعوتهم إلى كتاب الله باعتبار أنّه جامع لكثير ما ورد في الكتب الإلهيّة المهيمن عليها، و قد بشّرت به، فلم يكن مجهولا عندهم، يعرفه أهل الكتاب بأنّه يحكم بالحقّ و يزيل كلّ لبس و جهالة و يمنعهم عن البغي و التعدّي، فيكون حكمه نافذاً و يجب اتّباعه، و الداعي إلى الكتاب هو الله تعالى بلسان نبيّه. و لو نظرنا إلى حاق الواقع يكون الداعي إلى كتاب الله والمدعو إليه والمدعو به واحد، والفرق إنّما هو بالاعتبار، ولعلّه تعالى إنّما أجمل الدعوة لأجل هذه الجهة.

---

١ . سورة الأنفال: الآية ٢٤.

٢ . سورة القمر: الآية ٧ ـ ٨.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: أنّهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب يتولّى كثير منهم، اغتراراً بما عندهم و ما حرّفوه و وضعوه من عند أنفسهم، و استغناء به، و هم قد أعرضوا عن الحقّ و دلائله الواضحة.

و فيها دلالة على أن التولّي لا يكون إلّا عن البغي و الجحود بعد معرفتهم الحقّ و علمهم بالحجّة، فلا يرجى زواله إلّا من ثبت إيمانه في قلبه فدعى إلى إجابة الدعوة التي دعا إليها دينهم و أمرت به عقيدتهم، من الخضوع لأحكام الله تعالى و الإيمان بالدين الجديد، فالآية الشريفة تثبت جهتين من المذمّة عليهم:

الأولى: إدبارهم عن استماع الحقّ و عدم اجتماعهم على الحقّ، مع أنّه واجب عقلاً، و قد دعا إليه دينهم.

الثانية: إعراضهم عن الحقّ بقلوبهم و ضمائرهم، بعد ظهور الحجّة عليهم، و هذا هو الشقاق و النفاق و من أخبث الرذائل.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾.

أي: أنّ تولّيهم عن الحقّ بأبدانهم و إعراضهم عنه بقلوبهم، و عنادهم لما عرفوه من الحقّ، إنّما هو لأجل زعمهم الفاسد و وهمهم الكاسد و افترائهم على الله بأنّهم عباد الله الأخيار، و هذه الفريّة إنّما كانت معتقد عامّة بني إسرائيل في التأريخ و قد استحكمت هذه الفريّة في أنفسهم على مرّ الدهور، بحيث سلبتهم الفكر عن البحث حولها فمنعتهم عن التسليم للحقيقة و الواقع و الخضوع للحق.

قوله تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

مادّة (غ ر ر) تدلّ على الأثر الحاصل للإنسان، سواء كان سببه الغفلة أم شيء آخر، و في الحديث: «غرٌّ محجّلون من آثار الوضوء».

و الافتراء هو الكذب على الغير، و في حديث بيعة النساء: «و لا يأتين ببهتان يفترينه»، و الافتراء على الله تعالى هو نسبة ما ليس بمأذون منه تعالى إليه، و بهذا المعنى يستعمل في غيره تعالى أيضاً، كالافتراء على الأنبياء و سائر الناس، كما مرّ في الحديث، و هو قبيح عقلاً و شرعاً، لأنّه ظلم، كما أنّه من المعاصي الكبيرة. و هو أخصّ من الكذب، لأنّه إخبار غير مطابق للواقع مطلقاً، فيصدق في ما إذا كذب لنفسه أو على نفسه، بخلاف الافتراء فإنّه الكذب على الغير فقط.

و الافتراء على الله تعالى من أقبح القبائح و أعظم الكبائر، تدلّ على ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[1].

و يمكن أن يقام الدليل الاعتباري على حرمته أيضاً، و هو أنّ القوانين مطلقاً ـ سواء كانت سماويّة أم وضعيّة ـ لابدّ أن تكون محدودة و تحت سلطة المقنّن، و لا تتغيّر و لا تتبدّل إلّا بالسير التكاملي، و ما هو الأصلح للإنسان، و حيث إنّه لا يعقل التكامل بعد قوانين القرآن، فلا وجه لجعل شيء فيه أبداً إلّا بالوحي المبين، وكلّما يكون من غيره، فإن كان بعنوان التعبّد و الدين فهو بدعة و ضلال، بلا فرق بين الأُصول و الفروع بجميع أنواعهما، و السنّة المقدّسة بحكم القرآن، لأنّها شارحة و مبيّنة له.

والمعنى: كان سبب غرورهم و بغيهم في دينهم الذي كان يأمرهم باطاعة الحقّ و نبذ المعصية و الكبر و البغي، إنّما هو افتراؤهم في دينهم بأنّهم شعب الله المختار، و أنّ عذابهم محدود بسبب اتّصال نسبهم إلى أنبياء الله تعالى، فكان ذلك سبب كفرهم بدين الله و إعراضهم عن كتابه، فضلّوا عن الصراط المستقيم.

---

١. سورة الحاقة: الآية ٤٤ ـ ٤٧.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

برهان عقلي على بطلان جميع المزاعم الفاسدة و الأوهام الباطلة، و دليل قاطع على بطلان كلّ افتراء و قول لا يستند إلى حقيقة، و هو ظهور الأعمال و الأقوال و المعتقدات في السير الاستكمالي الإنساني في عالم محيط بهذا العالم، تبدو الضمائر فيه و تنكشف السرائر، فيرى الإنسان بنفسه جميع أعماله و أقواله و معتقداته بنفسه حاضرة لديه بلا مرية و ارتياب، و حينئذٍ يغني العيان عن البرهان، و هذا من أقوم الأدلّة العقليّة التي قرّرتها الشرائع السماويّة.

و في الآية الشريفة روعة الأسلوب و بديع الفصاحة، و فيها التوعيد و الإيعاد، و إنّما ذكر الجمع دون الإحياء و البعث، لأنّ الجمع يدلّ عليهما بالملازمة، و لأنّ اجتماعهم على الافتراء، و الخلاف في الدُّنيا لا يغني عنهم جمعهم في الآخرة و لا يعجزه تعالى جمعهم، و فيها من التهويل ما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: و توفّى كلّ نفس ما كسبت و عملت، و هم لا يظلمون في ذلك من دون أن ينقص من عملهم شيء.

و تدلّ الآية الشريفة على أنّ الجزاء معلول نفس العمل، بلا مدخلية شيء آخر فيه، و يصحّ أن يعبّر عن ذلك بظهور الأعمال بصورها المناسبة لذلك اليوم، فإنّ الحقيقة واحدة و المظاهر مختلفة باختلاف العوالم، و لذلك أتى بالفعل المجهول المنسوب إلى ذاتهم.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

التولّي عن الشيء يفيد معنى الإعراض عنه ـ و يصحّ العكس أيضاً ـ بالقرائن، و إنّما جمع سبحانه و تعالى بينهما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ﴾[1]، لبيان كثرة جحودهم للحقّ و جمودهم على الباطل بأبدانهم و قلوبهم، أو لأجل بيان أنّ ذلك صار مَلَكة في أنفسهم لكثرة المداومة عليه، فبناء على الأوّل يكون قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ جملة حالية للضمير في «منهم»، أو من «فريق» المنعوت، فهي إمّا مؤكّدة أو مبيّنة لاختلاف متعلّق التولّي و الإعراض، و الواو حالية، و على الثاني تكون الجملة في موضع النعت لـ«فريق»، و الواو للعطف، فيكون إخباراً عن حالهم و سجيّتهم.

و مدخول كيف في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ مقدّر يدلّ عليه الكلام، أي فكيف حالهم أو كيف يصنعون و نحو ذلك.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾ أنّ ما عندهم ليس من الله تعالى، بل هو من أهوائهم الفاسدة.

كما أنّه يستفاد أنّ المعتبر في نسبة أهل الكتاب إليه إنّما هي النسبة العمليّة

---

١ . سورة آل عمران: الآية ٢٣.

مضافاً إلى النسبة الاعتقاديّة، فلا تكفي النسبة القوليّة، و لعلّ التعبير بـ(أُوتوا الكتاب) إشارة إلى هذه الجهة، حيث إنّهم فقدوا النسبة العمليّة و الاعتقاديّة لوقوع التحريف عنهم في الكتاب، فعبّر عنهم بـ(أوتوا) دون أهل الكتاب.

الثاني: أنّ الآية الشريفة: ﴿**أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ**﴾، تشمل كلّ مَن يدعى إلى كتاب الله ليحكم بذلك في ما بينهم ثمّ يتولّى عن ذلك، سواءً كان من اليهود أم النصارى أم من غيرهم، فلا تختصّ بملّة دون أُخرى، و يكون إظهار الحقّ واجباً عقليّاً، و الإعراض عنه قبيحاً كذلك، فضلا عن جحوده و تلبيس الأمر على الناس، كما أنّ عموم الآية المباركة يشمل الدعوة إلى أُصول الدِّين و فروعه.

الثالث: تشير الآيات الشريفة إلى حقيقة اجتماعيّة، و هي أنّ العصبية و الأهواء الباطلة توجبان البُعد عن الحقيقة و الإعراض عن الحقّ، فلا تنفع المواعظ و الزواجر، بل تزداد بُعداً و استكباراً و إعراضاً حتّى تتمكّن في قلوبهم، فيكون من الجهل المركّب، الذي هو داء ليس له دواء.

الرابع: إنّما أجمل سبحانه الداعي إلى كتاب الله لبيان أنّ الداعي إلى كتاب الله و المدعو إليه و المدعو به واحد، و الفرق إنّما هو بالاعتبار، كلحاظ مرتبة إنشائه و الاعتقاد به و العمل به أو غير ذلك، و ليشمل جميع من يدعو إلى كتاب الله علماً و عملاً على مرّ العصور.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَ هُمْ مُعْرِضُونَ**﴾، أنّ سبب التولّي عن الحقّ و عدم الإيمان به إنّما هو الإعراض المتمكّن في نفوسهم، الذي صار عادة لهم في نبذ كلّ دعوة إلى الحقّ، و أنّ سبب هذا الإعراض إنّما هو الجهل المركّب الناشئ من اختلال الطريقة و فساد العقيدة و العصبية و الافتراء على الله تبارك و تعالى، كما تقدّم في الآيات المباركة السابقة.

السادس: إنّما أضاف سبحانه و تعالى الجمع إلى نفسه في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ لانحصاره به عزّ و جلّ فقط، و أنّ ذلك تحت قدرته تعالى.

كما أنّه أتى بالمجهول في قوله تعالى: ﴿وَ وُفِّيَتْ﴾، لبيان أنّ الجزاء إنّما هو نتيجة أعمالهم الحاصلة من كسبهم، و أنّه معلول نفس العمل بلا مدخليّة شيء آخر.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أهمّية ذلك اليوم و التهويل فيه من جهات:

منها: نفس الجمع الذي تدهش منه العقول و استيلاء الحيرة على الناس و الذهول.

و منها: أنّ ذلك اليوم لا ريب فيه، فهو من الأُمور التكوينيّة الذي لابدّ من المصير إليه و يعمّ الجميع.

و منها: إضافة الجمع إليه سبحانه و تعالى، التي يستفاد منها كمال هيمنته عليه الدالّة على عظم الفعل و الصنع.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، كمال العدل في ذلك اليوم، فهم مع ظلمهم لا يظلمون في النقص من الأعمال و الجزاء، فلا ينقص من إحسان المسيء و لا يزاد على إساءته، و هو يدلّ على نفي الظلم عنه عزّ و جلّ، و يدلّ عليه البرهان العقلي أيضاً، و سيأتي في الموضع المناسب التفصيل إن شاء الله تعالى.

التاسع: تدلّ هذه الآية و أمثالها ـ مع اختصارها ـ على ثبوت المعاد، و على كيفيّة الجزاء، و قد دلّت على كلّ واحد منهما الأدلّة العقليّة.

***

بحث روائي:

في «أسباب النزول»: عن السدي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا

نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾: «دعا النبيّ ﷺ اليهود إلى الإسلام، فقال له النعمان بن أدفى: هلم يا محمّد نخاصمك إلى الأحبار، فقال رسول الله ﷺ: بل إلى كتاب الله تعالى، فقال: بل إلى الأحبار، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

و في «الدرّ المنثور»، عن ابن عبّاس، قال: «دخل رسول الله ﷺ بيت المدارس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو و الحارث بن زيد: على أيّ دين أنت يا محمّد؟ فقال: على ملّة إبراهيم، قالا: إنّ إبراهيم كان يهوديّاً، فقال رسول الله ﷺ: فهلمّوا إلى التوراة فهي بيننا و بينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

و عن الكلبي: أنّ الآية نزلت في قضية اللذين زنيا من خيبر، و سؤال اليهود النبيّ ﷺ عن حدّ الزانيين.

أقول: هذه الروايات قاصرة الدلالة، مضافا إلى ضعف إسنادها، و سيأتي الكلام في الرواية الأخيرة في قوله تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ﴾**[1].

***

بحث أخلاقي:

الغرور: هو استعظام النفس أو عمل من أعمالها أو صفة من صفاتها، بحيث يوجب قصر النظر و انحصاره في ذلك و قطعه عن خالقه و مدبره و مديره، و هو من مبادئ الشرك، بل نفسه لدى النفوس القدسية، قال تعالى: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾**[2].

---

١. سورة المائدة: الآية ١٥.

٢. سورة يوسف: الآية ١٠٦.

و الغرور رذيلة من الرذائل الخُلقيّة، بل يمكن أن يسمّى بأُمّ الرذائل و الخبائث، و قد استعملت مادّة (غرر) في القرآن الكريم في موارد شتّى مقرونة بالذمّ:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾[١].

و قال تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾[٢].

و يكفي في ذمّ الغرور أنّ الدُّنيا تسمّى بمتاع الغرور، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٣]؛ لأنّها من مراتع الشيطان، و هو يوجب الحرمان عن جملة من مكارم الأخلاق و البُعد عن ساحة الرحمٰن.

و إذا لاحظ المغرور نفسه رأى أنّه ممكن من الممكنات، و حقيقة الممكن هي العدم المحض بالنسبة إلى ذاته، و إنّما يكون له حظ من الوجود من حيث الإضافة إلى جاعله و خالقه بحسب ما قدّر له، فهو الربّ المدبّر لأحواله و جميع شؤونه و إضافاته و خصوصيّاته، و أنّ ما يحصل له يكون في معرض الزوال، فهو لا حول له و لا قوّة له إلّا بالله العليّ المدبّر العظيم، فلا يبقى موضوع للغرور، و ما يعتقده المغرور إنّما هو وهم و خيال، و من نشأ في عالم الأضداد و دار الكون و الفساد و تزاحم الآراء و اختلاف الأهواء مع غلبة مشيئة العزيز الجبّار، كيف يصلح له أن يغترّ بشيء؟ و كيف يرى شأناً لنفسه من نفسه، فإنّه من أعظم أنواع كفران المنعم و نسيان النعمة و الانهيار في الهاوية، و هذه من المقامات التي تحط دونها الرحال و تزلّ فيها أقدام الرجال.

و ينحصر علاج هذا الداء العظيم المهلك بالتفكّر في عظمة الله تعالى و فناء

---

١. سورة الإسراء: الآية ٦٤.

٢. سورة الملك: الآية ٢٠.

٣. سورة الحديد: الآية ٢٠.

الدُّنيا و ما فيها، و التفكّر في الحوادث الواقعة بين أيدينا، و بعد التأمّل في جميع ذلك يزول الغرور لا محالة، كما نرى في حالات الأنبياء و الأولياء و عباد الله المخلصين، فإنّهم لا يرون لأنفسهم شأناً إلّا بإضافة أنفسهم إلى الله تعالى، قال علي عليه السلام:

«كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بي عزّاً أن تكون لي ربّاً».

و قد سأل شخص مولانا الباقر عليه السلام: «أنت من علماء أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام: لستُ من جهّالها»، و في الصحيفة الملكوتيّة السجاديّة: «اللّهُمَّ لا ترفع لي درجة عند الناس إلّا حططتني عند نفسي مثلها»، و سيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام في الغرور و نواحيه إن شاء الله تعالى.

***

الآية ٢٦ ـ ٢٧

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

الآيتان من جلائل الآيات القرآنيّة تبيِّن عظمة الباري جلّ شأنه و هيمنته و جبروته، و سيطرته على جميع الموجودات سيطرة ملكوتيّة، عمّت تمام المخلوقات بجواهرها و أعراضها و جميع إضافاتها و تبدّلاتها و حالاتها. و هما تبعثان في نفس المخاطب عظمة الله سبحانه و تعالى و كبرياؤه و تمام قدرته. فهو القائم على شؤون خلقه و المالك الذي يتصرف في ملكه كيف يشاء، لا يعجزه شيء و هو العليم بأسرار خلقه و المدبّر لهم تدبير حكمة.

و الآية المباركة تبيّن سرّ الوحدة الحقيقيّة التي ظهرت في أعيان التكثّرات، و أنّها بدت من الواحد بالذات و الصفات.

و فيها تلقين للعباد كيفيّة التمجيد و الثناء و الابتهال، يتّحد فيه الداعي و المدعو و الدُّعاء فهو الله بالتحقيق و الركن الوثيق و الجار اللصيق، كلّ ذلك بأُسلوب رفيع و نظم بديع و نسق لطيف.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾.

خطاب (قل) موجّه إلى سيد الأنبياء باعتبار وجوده الجمعي و واسطة الفيض و غاية الإفاضة، ليشمل جميع ذوي العقول و الروحانيين، بل يصحّ الشمول للجمادات أيضاً، لأنّ خطابات الله المقدّسة بالنسبة إلى الحقائق التكوينيّة شاملة للجميع، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1]، مع أنّ الخطاب عدم لجميع الممكنات، يصحّ أن يكون لفظه أيضاً كذلك.

اللَّهُمَّ: أصله «يا الله»، و الميم المشدّدة عوض عن حرف النداء (يا)، و لا يجتمعان إلّا شاذاً كما في قول الراجز:

إنّي إذا ما حدث ألما أقول يا اللهم يا اللهما

و قال آخر:

و ما عليك أن تقولي كلّما صلّيت أو سبّحت يا اللهم ما

و مادّة (ملك) تأتي بمعنى الاستيلاء و السلطنة، و هما قد يكونان حقيقيتان، و هي عبارة: عن الاستيلاء على الشيء من كلّ جهة إيجاداً و إبقاءً و افناءً و ربوبيّة، و تصويره بكلّ صورة شاء و أراد. و هذا القسم مختصّ بالله سبحانه و تعالى، فإنّه مالك لجميع خلقه ملكيّة حقيقيّة من كلّ جهة يفرض فيها.

و أُخرى: اعتباريّة تدور مدار اعتبار العقلاء، نحو ملكية الإنسان للأشياء التي تقع تحت استيلائه، و في الحديث: «أملك عليك لسانك»، أي لا تجرّه إلّا بما يكون ذلك لا عليك، و هذه الملكيّة الاعتباريّة تدور مدار اعتبار المعتبر،

---

١. سورة فصلت: الآية ١١.

و قابلة للتغيير و التبديل و الزوال.

و هذا القسم يلازم القسم الأوّل دون العكس. فيصحّ اعتبار هذه الملكيّة بالنسبة إلى الله عزّ و جلّ بالأولى، لأنّ كلّ وصف ممكن لا يستلزم من إطلاقه النقص بالنسبة إليه عزّ و جلّ، فيصحّ وصفه به، قال تعالى: ﴿**وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾[1]، و قال تعالى: ﴿**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ**﴾[2]، و يصحّ انتزاع هذه الملكيّة الاعتباريّة عن الملكية الحقيقيّة. و بها تنظيم الأغراض العقلائيّة الفرديّة و الاجتماعيّة.

ثمّ إنّ الملكيّة الاعتباريّة:

تارةً: تكون بوضع من الله تعالى، كملكيّة الإنسان لنفسه و أجزائه و تصرّفاته السائغة في بدنه، بحسب التكوين و التشريع.

و أُخرى: تكون بوضع و اعتبار من العقلاء كما ذكرنا، و أمّا بالنسبة إلى ملكيّة المولى للعبد، فإنّه لا ريب في كونها من الملك (بالكسر) الاعتباري، لصحّة هذا الاعتبار عند الجميع، و أمّا كونها من الملك (بالضم) ففيه منع، إذ لا يعتبر العقلاء بين المولى و العبد الملوكيّة و الرعيّة.

و الملك (بالضم) اسم لما يملك و يتصرّف، و إنّه على قسمين أيضاً:

ملك حقيقي و هو التصرّف في شؤون الرعية تصرفًا حقيقيًا بكلّ ما يريد من غير مزاحمة و لا معارضة، و هو مختصّ بالله تعالى أو ما يمنحه الله عزّ و جلّ لبعض أنبيائه و أوليائه، فهو جلّت عظمته خالق كلّ شيء و مالكه، و له الربوبيّة العظمى العامّة و القيوميّة المطلقة، قال تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ**

---

١. سورة النور: الآية ٣٣.

٢. سورة التغابن: الآية ١.

﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[١]، فيرجع إلى الملك (بالكسر) الحقيقي و ملازم له، و يصحّ أن يعبّر عنه بأنّه ملك في ملك.

و أُخرى: ملك (بالضم) اعتباري اعتبره الاجتماع، مثل ملوك أهل الأرض الّذين يتسلّطون على جماعة من الناس و يتصرّفون فيهم تصرّفا يصلح بها شؤونهم. و بعد فرض أنّه تعالى خالق لجميع الممكنات و موجدها من العدم و مبقيها و مفنيها، و بيده تدبيرها و تربيتها، و هو الربّ على الإطلاق و القيوم كذلك، فهو مالك و ملك و مليك، و جميع هذه الإطلاقات من لوازم الفرض الذي فرضناه.

وقد ورد جميع ذلك في القرآن الكريم أيضاً:

قال تعالى: **﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ﴾**[٢]، فقد أثبت الملكية لنفسه.

و قال تعالى: **﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾**[٣]، الذي أثبت الملوكيّة لنفسه.

وقال تعالى: **﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾**[٤]، حيث أثبت المالكيّة والملوكيّة لنفسه الأقدس.

فثبت قول جمع من الفلاسفة المتألّهين من أنّ بسيط الحقيقة من كلّ جهة يتّصف بكلّ شيء لا يستلزم النقص فيه، وتقدّم بعض الكلام في سورة الحمد[٥]، فراجع.

و من ذلك يظهر أنّ الملك في الآية الشريفة هو الأعمّ من الحقيقي

---

١. سورة فاطر: الآية ١٣.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

٣. سورة الناس: الآية ٢.

٤. سورة القمر: الآية ٥٥.

٥. سورة الحمد: الآية ٤.

و الاعتباري في الملك (بالكسر) و الملك (بالضم)، و يبيّن ذلك بقيّة الآية الشريفة، أي قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾، لأنّ مالكيّته تعالى للملك تستلزم مالكيّته لما يتسلّط عليه كلّ مالك و ملك.

كما أنّه يمكن أن يكون المراد بالملك طبيعته و ذاته، أي ما يصحّ أن يقع تحت الاستيلاء، فيشمل جميع ما سواه عزّ و جلّ وجوداً أو عدماً، فإنّ قسماً من الأعدام أيضاً داخلة تحت ملكه و سلطنته، فهو مسلّط على إيجاد المعدوم و إعدام الموجود، و يبيّنه ما بعده أيضاً، فتكون هذه الآية الشريفة شارحة لقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾[1]، و قوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[2]، و نحو ذلك.

و إنّما عبّر سبحانه و تعالى بلفظ الملك دون غيره لإظهار معنى التسخير، فكما أنّ المملوك مسخّر تحت إرادة المولى، كذلك تكون جميع الممكنات بالنسبة إليه عزّ و جلّ، و هذا المعنى ظاهر من سائر الآيات الشريفة.

قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾.

مادّة (نزع) تأتي بمعنى إخراج الشيء و قلعه عن محلّه و مقرّه، كنزع الثوب عن البدن:

قال تعالى: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾[3].

و قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[4].

---

١ . سورة التغابن: الآية ١.

٢ . سورة الملك: الآية ١.

٣ . سورة الأعراف: الآية ٢٧.

٤ . سورة الحجر: الآية ٤٧.

و قال تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾[١].

و قال تعالى: ﴿وَ النَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾[٢].

و الملك في المقام هو مطلق السلطنة و الاستيلاء، و قد ذكرنا أنّ المراد به طبيعته و ذاته، و هو ما يصحّ أن يقع تحت الاستيلاء و السلطنة، ليشمل جميع الممكنات القابلة للوجود و الإيجاد، فيشمل الملك (بالضم) و الملك (بالكسر)، و النبوّة، إذ هي ملك ايضا، قال تعالى: ﴿وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[٣]، فإنّ جميع ذلك واقع تحت سلطان الله تعالى و إرادته المقدّسة، و هي من مواهبه و عطاياه التي يمنُّ بها على من يشاء من خلقه و يمنعها عمَّن يشاء منهم، و قد بنى الله تعالى النظام التكويني و التشريعي و الاجتماعي على الملك، و هو محبوب لدى المجتمع الإنساني تستقيم به حياتهم في النشأتين.

و أمّا ما يترتّب عليه من الآثار السيّئة، فهي ترجع إلى كيفيّة إعماله و الاستفادة منه، دون أصله الذي هو محبوب كما ذكرنا، و به يقع الامتحان و الابتلاء، قال تعالى حكاية عن سليمان: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٤].

وإنّما علّق سبحانه و تعالى الإيتاء و النزع على المشيئة، لبيان أنّ العباد غير مجبورين على ذلك على نحو الحتم و القضاء المبرم، بل لإرادة العباد و أعمالهم المدخلية فيهما، فجميع أعمال العباد الصادرة منهم منسوبة إليهم، كما

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٠٨.

٢. سورة النازعات: الآية ١.

٣. سورة النساء: الآية ٥٤.

٤. سورة النمل: الآية ٤٠.

أنها منسوبة إلى الله تعالى، كلّ منهما على نحو الاقتضاء لا العلّيّة التامّة.

نعم، له عزّ و جلّ ألطاف و توفيقات خاصّة بالنسبة إلى المستفيض إن كان من أهل الصلاح و التقوى و إقامة العدل، فيعطيه الله الملك لإقامة العدل و الإصلاح بين العباد، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾**[1]، و ليس لغير أهل التقوى هذا التوفيق و اللطف الخاصّ، و لكنّه تعالى يقدّر الملك لمثل هؤلاء تنظيما للنظام و الامتحان و الاختبار و إتماماً للحجّة:

قال تعالى: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾**[2].

و قال تعالى: **﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[3].

كما أنّ في التعليق على المشيئة إشارة إلى أنّه تعالى غير مجبور في أفعاله، و إن كانت تجري وفق المصلحة و الحكمة التامّة.

قوله تعالى: **﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾**.

مادّة (عزز) تأتي بمعنى المنيع الذي لا ينال و لا يغالب و لا يعجزه شيء،

---

١. سورة الحج: الآية ٤١.

٢. سورة الأنعام: الآية ٦.

٣. سورة يونس: الآية ٨٨ و ٨٩.

فيكون صعب المنال. و بهذه العناية يطلق على الشيء النادر الوجود أنّه عـزيز، و في المأثور: «إذ أعزّ أخوك فهن»، أي إذا غلبك و لم تقاومه، فَلِنْ له.

و من أسمائه تعالى (العزيز)، أي الغالب القوي الذي لا يغلب و لا يـعجزه شيء، كما أنّ مـن أسـمائه تـعالى (المُـعزّ)، أي واهب العـزّة لمـن يشـاء مـن عباده.

و قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾[١]، أي صعب و شديد عليه.

و قال تعالى: ﴿وَ عَزَّنِي﴾[٢]، أي غلبني.

و العزّة و الذلّة متقابلان، فالذليل هو الذي يغلب عليه و يعجزه كلّ شيء، سواء كان بالقهر و بلا اختيار، كقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ و الْمَسْكَنَةُ﴾[٣]، و قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَـذْلِيلاً﴾[٤]، و فـي الحـديث: «اللّـهُمَّ أسـقنا ذلل السحاب»، أي ما لا رعد فيه و لا برق.

أم بالاختيار، قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾[٥]، و قـال تـعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦]، و قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[٧].

و من أسمائه تعالى: «المذل»، أي هو الذي يلحق الذلّ بـمن يشـاء مـن عباده و ينفي عنه أنواع العزّة.

---

١. سورة التوبة: الآية ١٢٨.

٢. سورة ص: الآية ٢٣.

٣. سورة البقرة: الآية ٦١.

٤. سورة الإنسان: الآية ١٤.

٥. سورة الإسراء: الآية ٢٤.

٦. سورة المائدة: الآية ٥٤.

٧. سورة النمل: الآية ٣٤.

و هما من الأُمور التشكيكيّة التي لها مراتب كثيرة ، و هما إمّا دنيوية أو أُخروية أو هما معاً ، و العزّة أعمّ من الملك ، و هي قد تكون حقيقيّة ، و هي التي يمنحها الله تعالى لعباده المخلصين و أوليائه المقرّبين ، قال تعالى : **﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾**[١].

و قد تكون وهميّة خياليّة تابعة للملك و السلطنة ، و هي إن كانت عزّة ظاهراً و لكنّها ذلّة في الحقيقة و الواقع ، قال تعالى : **﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾**[٢].

و يستفاد من الآية المباركة تلازم العزّة و الذلّة خارجاً ، لأنّ عزّة كلّ فرد تلازم ذلّة آخر ، كالعكس أيضاً كما نراه بالعيان .

ثمّ إنّ العزّة و الذلّة لا تختصّان بمورد واحد ، فقد تكون العزّة في أشياء كثيرة و الذلّة كذلك ، فربّ عزيز من جهة ذليل من جهة أُخرى ، و ربّ ذليل من ناحية هو عزيز من ناحية أُخرى ، و إعطاء العزّة و الذلّة لعباده من شؤون ربوبيّته العظمى ، و كذا بالنسبة إلى جهاتها غير المحدودة بحدّ .

و يصحّ أن يقال : إنّ الممكن في حدّ ذاته الإمكانية ذليل ، أي ليس فيه أي حظّ من الخير إلّا ما يمنحه الله تعالى . و الكلام في تعليق العزّة و الذلّة على المشيئة ما تقدّم في صدر الآية .

قوله تعالى : **﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾**.

اليد تأتي بمعنى الاستيلاء . و المراد بها في المقام القدرة الكاملة و التدبير الكامل الموافق للحكمة البالغة المتعالية ، و بها تقوم جميع الممكنات في النظام

---

١ . سورة المنافقون : الآية ٨ .

٢ . سورة النساء : الآية ١٣٩ .

الأحسن و ينتظم شؤونها، و هي القوّة القاهرة التي لابدّ من انبعاث جميع قوى الموجودات عنها.

و الخير ضدّ الشرّ، و معناه كلفظه مرغوب و مطلوب، و المراد به في المقام حقائق الممكنات بجميع شؤونها و أطوارها، حدوثاً و بقاءً، و هو من الحقائق الواقعيّة التي لها مراتب كثيرة، متفاوتة جوهراً و عرضاً، اشتداداً و تضعّفاً، هذا بالنسبة إليه تعالى.

و أمّا بالنسبة إلى الإنسان، فهو خير اعتقادي بحسب ما يختاره و يقيسه بالنسبة إلى شيء آخر، أو ما يتحقّق فيه رغبته و مطلوبه، فقد يكون مطابقاً للواقع، كما في الحديث: «رأيت الجنّة و النار فلم أرَ مثل الخير و الشرّ»، أي لم أرَ مثلهما لا يميّز بينهما، فيبالغ في طلب الجنّة (الخير) و الهرب من الشرّ (النار)، و قد يكون مخالفاً، قال تعالى: **﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**[١].

و تدلّ الآية الشريفة على انحصار الخير فيه تعالى، فيستفاد منها و من أمثالها أمران:

الأوّل: أنّ ذاته تبارك و تعالى خير محض، لقاعدة: «إنّ معطي الشيء لا يمكن أن يكون فاقداً له»، فهو تعالى خير على الإطلاق، و لكن لم يرد في الكتاب و السنّة إطلاق الخير بنحو الاسمية، وإنّما ورد في القرآن الكريم على نحو التوصيف:

قال تعالى: **﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى﴾**[٢].

١. سورة البقرة: الآية ٢١٦.

٢. سورة طه: الآية ٧٣.

و قوله تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[١].

و لعلّ عدم إطلاق لفظ الخير عليه تعالى لتنزيهه عمّا يتبادر في أذهان الناس من نسبته إلى غيره.

نعم أُطلق عليه بنحو الإضافة في موارد متعدّدة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[٢]، و قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[٣]، و قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[٤]، و نحو ذلك و إطلاقه في جميع الآيات الشريفة من باب إضافة الصفة إلى الاسم الذي ورد التوقيف فيه، و هو لا محذور فيه.

الأمر الثاني: أنّها تدلّ على أصالة الماهيّة في الجعل، كما عليها أغلب المتكلّمين و جمع كثير من الفلاسفة، لأنّ الخير المطلق و ملكوت الأشياء ليس إلّا حقائقها، فإذا لاحظنا الحقائق باعتبار إضافتها الإيجادية الإشراقية إليه تعالى تشمل الحقائق بوجوداتها و ماهياتها، و ليس ذلك تعدّداً في الجعل حتّى يلزم عليه مناقشات و محذورات، لأنّه بعد فرض كون أحدهما تبعاً محضاً للآخر، كالماهيّة إن قلنا بأصالة الوجود، فالوجود إن قلنا بأصالة الماهيّة، فأين التعدّد الخارجي حتّى يلزم المحذور، و لا ينافي ذلك ما اشتهر بين الفلاسفة من أنّ الوجود خيرٌ محض، لاتّفاق الكلّ على أنّ الخيريّة المحضة إنّما تكون بعد جعل الحقائق.

بل يمكن أن يستفاد من مثل هذه الآية الشريفة الجعل المركّب بالنسبة إلى الحقائق، فهو الذي جعل النار ناراً و الماء ماءً، كما عليه بعض محقّقي

---

١. سورة يوسف: الآية ٣٩.

٢. سورة الحج: الآية ٥٨.

٣. سورة المؤمنون: الآية ٢٩.

٤. سورة يونس: الآية ١٠٩.

مشايخنا ﷺ، و في الحديث: «أنّ الله مجسّم الجسم و خالقه»، و في الحديث الآخر: «و هو الذي أيّن الأين و كيّف الكيف».

و هذه الآية في موضع التعليل لما تقدّمها و ذكر العام بعد الخاص، أي أنّ الله تعالى يؤتي الملك و العزّة لمن يشاء و يمنعهما عمّن يشاء، لأنّ بيده الخير الذي هو أعمّ منهما.

إن قيل: انتزاع الملك و الذلّة ليسا من الخير، فكيف يشملهما قوله تعالى: **﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾**؟

يُقال: بعد أن كانت الذلّة و انتزاع الملك مطابقين للحكمة الواقعيّة التامّة يكونان خيراً محضاً، و إن كانتا بحسب اعتقاد الناس من عدم الخير.

وإنّما قال تعالى: **﴿بِيَدِكَ﴾**، لبيان أنّ جميع ما يفعله تعالى من إيتاء الملك و نزعه و نحو ذلك، كلّه خير محض بحسب الواقع، فهو عبارة أُخرى عن الرحمة الرحمانيّة و الرحمة الرحيميّة التي تعمّ الجميع.

و أمّا ما فرق به بعض أعلام المفسّرين بين الخير التكويني و الخير التشريعي، فهو في نفسه حقّ، لأنّ الخير التشريعي منوط بإرادة الناس للطاعة، بخلاف الخير التكويني، فإنّه منوط بإرادة الله تعالى فقط.

لكن، لا وجه له في المقام، لأنّ الخير التشريعي يرجع إلى الخير التكويني، كما قرّره بعض مشايخنا في الأُصول، و خلاصة كلامه أنّ إثارة دقائق العقول و ما في الفطرة من أهمّ و جهات نظام التكوين، و لا يمكن ذلك إلّا بالتشريع، فكما أنّ التكوين بلا تشريع باطل في النظام الأحسن، كذلك التشريع بلا تكوين باطل أيضاً و لا وجه له.

هذا موجز الكلام و سيأتي التفصيل في الموضع المناسب إن شاء الله، هذا كلّه في الخير.

و أمّا الشرّ، سواء كان تكوينيّاً، كنزع الملك و الذلّة، أم تشريعيّاً و هو أقسام المعاصي و الذنوب، فإن رجع إلى عدم الخير و عدم التوفيق، فيمكن انتسابه إلى الله تعالى، و إن رجع إلى فعل المعاصي و الذنوب و القبائح و أمثال ذلك فلا يمكن انتسابه إلّا إلى اختيار الإنسان، و أمّا نسبته إلى الله تعالى المنزّه عن النواقص و القبائح فلا تصحّ.

قوله تعالى: **﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

الجملة في مقام التعليل لجميع ما تقدّم، أي: أنّ جميع ما سواه تحت قدرته و إرادته، فكلّ ما يطلق عليه الشيئيّة جوهراً أو عرضاً خارجاً أو ذهناً أو في أي عالم من العوالم، يكون تحت قدرته.

أي: أنّ الله تعالى قادر على إيتاء الملك و نزعه و إيتاء العزّة و الذلّة، بل كلّ ما هو خير مفروض يكون تحت إرادته و سلطانه، و قدرة العبد على شيء من ذلك إنّما هي مستندة إلى إيجاد القدرة فيه و مستندة إلى قدرته عزّ و جلّ، قال تعالى: **﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾**[1].

قوله تعالى: **﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾**.

الولوج هو دخول شيء في شيء بحيث يستره، و سمّي السباع و الحيات الوالجة لأنّها تلج في كهف أو شعب أو جُحر أو غيرها، و في المأثور: «إيّاك و المناخ على ظهر الطريق، فإنّه منزل للولجة»، يعني السباع و الحيات، و سمّيت بالولجة لاستتارها في النهار بالاولاج.

و إيلاج الليل في النهار و بالعكس معلوم لكلّ مَن يقع في طيّ الزمان

---

١. سورة النساء: الآية ٧٨.

و توارد الحدثان، و هو المشاهد من اختلاف الليل و النهار في طول السنة و دخول أحدهما في الآخر، بحيث يطول طرف و يقصر الطرف الآخر حسب سير دقيق و منظم، و هذا يختلف باختلاف الفصول و البُعد عن خط الاستواء، فيتساوى الليل و النهار على خط الاستواء في جميع بقاع الأرض بحسب الحسّ، و إن كان التغيير فيهما واقعا أيضاً حقيقة و يختلفان باختلاف ميل الشمس عنه و سيرها في منطقة البروج، فيتفاوتان بالزيادة و النقصان بحسب مواقع الأرض و الزمان، فنشاهد من أوّل الشتاء إلى أوّل الصيف يأخذ الليل بالزيادة و النهار بالنقيصة على حساب منظم، و هذا هو ولوج النهار في الليل، ثم تأخذ الليالي بالنقيصة و النهار بالزيادة من أوّل الصيف إلى أوّل الشتاء، و هذا هو ولوج الليل في النهار، و يختلف ذلك على سبيل التعاكس في المدارات الشماليّة و المدارات الجنوبيّة، كلّ ذلك على تفصيل مذكور في علم الفلك ليس ها هنا محل ذكره.

و عموم الآية الشريفة يشمل كلّ ليل و نهار يفرض، سواءً كانا على وجه هذه البسيطة أم في كرات سماويّة اُخرى، كما قرّر في علوم الفلك.

و في اختلاف الليل و النهار من الحكمة الباهرة و عموم الرحمة و النظام الدقيق و الحكمة العظيمة ما تبهر منه العقول، و تظهر فيه آثار القدرة الكاملة و الحكمة العالية، و هذا من أعظم مجالي قدرته تعالى و سلطته على الزمان، التي تحيّر فيها عقول الحكماء، حتى ذهب جمع إلى وجوب وجوده و قدمه، و جمع آخر إلى خلاف ذلك، حتّى حدا بعضهم على إنكار الزمان و القول بأنّه مجرّد امتداد وهمي.

و في هذه الآية و أمثالها يبيّن سبحانه و تعالى أنّ الزمان ممكن و واقع تحت قدرته و مجعول له تعالى، و يقع التغيير و التبديل فيه فلا يمكن قدمه

الذاتي ، كما ذهب إليه بعض ، و لا يصحّ القول بوهميّته ، لأنه خلاف ما هو المنساق من هذه الآيات و الوجدان ، و بيّن سبحانه و تعالى في آيات أُخرى المنافع و الحكم العظيمة في ذلك ، و قد تقدّم في أحد مباحثنا الكلام في ذلك .

قوله تعالى : ﴿**وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ .

الموت و الحياة متقابلان و معلومان لكلّ ذي حياة ، و لا يختصّان بخصوص الحيوان فقط ، بل لكلّ شيء حياة و موت حسب استعداده و قابليّته ، كما أثبته العلم الحديث ، و لكن لكلّ شيء حياة خاصّة به ، وكذلك الموت ، لا يمكن إدراكهما لغيره تعالى ، قال جلّ شأنه : ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾[١] .

و خروج الحيّ من الميّت و بالعكس لهما مظاهر مختلفة ، لا يمكن إدراكها إلّا لله تعالى . .

منها : خروج النباتات التي لها حياة نباتيّة من الأرض الميتة .

و **منها** : خروج الإنسان من النطفة ثمّ موته بعد مدّة .

و **منها** : خروج المؤمن من صلب الكافر ، و خروج الكافر من صلب المؤمن ، فإنّ الإيمان أعظم أقسام الحياة المعنويّة ، قال تعالى : ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٢] .

و عموم هذه الآية الشريفة يشمل جميع ما سواه تعالى ممّن له استعداد

---

١ . سورة الإسراء : الآية ٤٤ .

٢ . سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

الحياة و الموت بأيّ وجه يتصوّر، و ما ذكره المفسّرون في تفسير الآية المباركة من باب ذكر المصاديق.

قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الجملة في مقام التعليل أيضاً، أي أنّ إعطاءه الملك و العزّة و الخير من صغريات رزقه الذي يرزق به من يشاء بغير حساب في الكميّة أو الكيفيّة و عدم المداقة، بل من كلّ جهة.

و الرزق هو العطاء المستمرّ، و من أسمائه تعالى «الرازق»، و هو الذي خلق الأرزاق و أعطاها الخلائق و أوصلها إليهم.

و الرزق نوعان ظاهري للأبدان كالأقوات، و باطني للقلوب و النفوس كالمعارف و العلوم، فكما أنّه يشمل المال و الجمال و الكمال، و كلّ ما هو دائر في الاجتماع من الخير، فهو رزق منه جلّ شأنه.

و لا يختصّ الرزق بالإنسان، بل يشمل الحيوان و النبات و الجماد، فإنّ الرزق يعمّ جميع ذلك بما لها من الأفراد و الأنواع غير المتناهيّة، فلا يكون الرزق متناهيا لا من حيث الإضافة إلى الله تعالى، و لا من حيث الإضافة إلى المرزوق، بل يستحيل ذلك لعدم التناهي بقاء و إن كان متناهيّا حدوثا، و إذا لوحظ بالإضافة إلى كونه في غير حساب يصير من غير المتناهي في غير المتناهي.

و يستفاد من الآية الشريفة أنّ الرزق إنّما هو فضل منه عزّ و جلّ يعطيه بلا مقابل و عوض، و أنّ عمومه يشمل المؤمن و غيره، و إن كان في نسبة الرزق إليه تعالى بالنسبة إلى الأخير كلام نتعرّض له مفصّلا إن شاء الله تعالى.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

اختلف الأدباء في صيغة «اللّهُمَّ»، فقيل إنّ أصله «يـا الله»، فـلمّا حـذف حرف النداء جعلوا بدله الميم المشدّدة، و الضمّة في الهاء ضمّة الاسم المـنادى المفرد. و لا يجتمع العوض و المعوض في الكلمة إلّا شاذاً كما مرّ.

وقيل: إنّ أصله: «اللهم آمنا بخير»، فحذف و خلط الكلمتان، و أنّ الضمّة التي في الهاء هي الضمّة التي كانت في (أمنا) لما حذفت انتقلت الحركة إلى مـا قبلها.

و الحقّ: أنّ الكلمة هي واردة بهذه الهيئة كسائر الكلمات من دون احتياج إلى التماس الأصل فيها، و استعمالها مع حرف النداء ـ كما مرّ ـ شـاذ لا يـقاس عليه.

و قوله تعالى: ﴿مَالِكَ الْـمُلْكِ﴾، منصوب على أنّه منادى آخر مـضاف أو على أنّه صفة لاسم الله تعالى.

و قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَـاءُ﴾، إمّا في موضع الحال من المـضمر فـي مالك، أو أنّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: «أنت تؤتي الملك من تشاء»، وكذلك الحال في «تنزع» و «تعز» و «تذل».

و قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾، قيل إنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي «أنت بيدك الخير».

و الصحيح: أنّه جملة مؤلّفة من خبر مقدّم و مبتدأ مؤخّر تفيد الحصر.

وقيل: إنّ في قوله تعالى إيجاز بالحذف، أي «بيدك الخير و الشرّ»، نـظير

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾[1]، أي و البرد.

و لكن الحذف خلاف القاعدة، و لا نحتاج إلى التقدير مع أنّ الجملة وافية بالمقصود من دون تقدير، و كأنّ السبب في الحذف و التقدير هو ما يرتبط بآراء المعتزلة بعدم استناد الشرور إليه تعالى، و لكن المبنى و البناء كليهما باطل، كما عرفت، و يأتي له مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يصحّ أن يكون المخاطب في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّـهُمَّ﴾، هو سيّد الأنبياء، لأنّه واسطة الفيض و غاية الإفاضة و أكمل الممكنات من الاستفاضة، كما يصحّ أن يكون الخطاب الأعمّ من التشريع و التكوين، نظير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2].

و عظمة مضمون الخطاب في المقام تشمل كلّاً منهما، لشهادة جميع الموجودات بلسان الحال بمضمون المقال.

و ربما يُقال: إنّ الآية الثانية قول الله تعالى مباشرة، و في المقام أمر بالقول، فلا وجه لتعليقه بالتكوينيّات.

يُقال: إنّه إذا كان الأمر من الله عزّ و جلّ، فلا فرق بين أن يتعلّق بالقول أو بشيء آخر، أنّ المناط كلّه إرادة المنشئ (بالكسر)، إلّا أنّ في التشريعيّات يصدر الفعل عن اختيار العبد تصحيحاً للثواب و العقاب، و في التكوينيّات لا اختيار في

١. سورة النحل: الآية ٨١.

٢. سورة فصلت: الآية ١١.

البين بحسب إدراكاتنا القاصرة .

الثاني : تقديم اسم الجلالة في الآية الشريفة لبيان السبب ، أي أنّ مالكيّته تعالى للملك وكون العزّة و الخير و القدرة و الرزق بيده ، لأنّه الله المستجمع لجميع صفات الجمال و الكمال .

الثالث : في الآية الشريفة من أسرار البلاغة و لطائفها ما تبهر العقول منها ، فإنّه تعالى جمع بين أنحاء من أفعاله المتقابلة ، فجمع بين إيتاء الملك و نزعه ، و هما ممّا يقوم به نظام الاجتماع ، كما جمع بين النهار و الليل و إيلاج أحدهما في الآخر ، و هما من أتمّ ما يقوّم نظام العالم ، و المناسبة بين هذين الأمرين ، فإنّ إيتاء الملك نحو كمال و حياة و تسليط لبعض الأفراد على بعض ، فيكون من قبيل إيلاج النهار في الليل ، حيث يتسلّط الضوء و تذهب الظلمة ، و نزع الملك نحو حزازة و منقصة بالنسبة إلى من ينزع عنه ، فيكون من قبيل تسليط الليل على النهار و إذهاب الضوء .

و في الآية الثانية ذكر إيتاء العزّة لمن يشاء ، و قال جلّ شأنه ﴿تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ ، و هو نوع من الحياة ، فإنّ العزيز له نحو حياة عند المجتمع ، و الإذلال نحو من الموت عندهم ، و هذا ممّا يناسب قوله تعالى : ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ .

الرابع : جمع سبحانه و تعالى في هذه الآيات بين أربعة من الأُمور التكوينيّة ، و هي : إيلاج الليل في النهار و بالعكس ، و الموت و الحياة ، و أربعة من الأُمور الاجتماعيّة ، و هي : إيتاء الملك و نزعه و العزّة ، و الذلّة ، و هذه الأُمور الثمانية يناسب أحدها الآخر ، فإنّ إيتاء الملك و نزعه يناسبان الليل و النهار ، و العزّة و الذلّة تناسبان الحياة و الموت .

و ذكر : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ ، لبيان تسلّطه على هذه الأُمور الاجتماعية ، ﴿و تَرْزُقُ

مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، لبيان تسلّطه على الأُمور التكوينيّة، فكانت المقابلة بين هذين الأمرين أيضاً من هذه الجهة. و يجتمع الجميع في الحياة بالمعنى الأعمّ، أي الحياة الفردي و الاجتماعي، و يستلزم ذلك الاقتدار على مقابلها و هو الموت، لأنّ القدرة على شيء يستلزم القدرة على نقيضه أيضاً، و إلّا لا معنى للقدرة.

الخامس: إنّما عبّر سبحانه و تعالى في هذه الآيات المباركة بالمشيئة دون الإرادة، لأنّ إرادته المقدّسة من صفات فعله، و المشيئة مقدَّمة على الإرادة، فبيّن تعالى أنّ إيتاء الملك و نزعه و العزّة و الذلّة داخلة تحت مشيئته، و الأسباب الظاهريّة التي تبذل في طلبها ليست علّة تامّة لحصولها.

السادس: إنّما ذكر تعالى العزّة و الذلّة دون غيرهما من الأُمور الدائرة في الاجتماع، كالغنى و الفقر و نحوهما، لأن لهما مصاديق كثيرة، تشملان جميع شؤون الدُّنيا، و فيه ردّ على مزاعم أهل الكتاب من طلب العزّة بغير الله تعالى.

السابع: إنّما اقتصر سبحانه و تعالى على ذكر الخير فقط، لأنّ المقام مقام تعليم الدُّعاء و الثناء عليه و التعريض بالبشرى به، و لا معنى لذكر الشرّ، مع أنّنا ذكرنا سابقاً أنّ الشرّ داخل تحت قضائه و قدره، و إن لم يكن مرضيّاً له، مضافاً إلى أنّه يمكن استفادته من ذكر الذلّة و نزع الملك.

و لا يستفاد من عدم ذكر الشرّ قول المعتزلة من نفي استناد الشرور إليه تعالى، فإنّهم إن أرادوا نفي رضاه تعالى به فهو مسلّم و لا يقول به أحد، و إن أرادوا نفي قضائه له و عدم قدرته تعالى عليه، فهو خلاف صريح الآية الشريفة و الأدلّة العقليّة و النقليّة.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: **﴿تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾**، أنّ أهمّ مقاصد الإنسان الذي هو العزّة، لابدّ و أن ترجع إليه تعالى، كما أنّ أهمّ ما يبتعد

عنه و هو الذلّة ترجع إليه أيضاً، فجميع ما ينفع في هذا العالم و ما يضرّ ترجع إليه عزّ و جلّ، و قد دلّت الأدلّة العقليّة و النقليّة عليه، لأن جميع الممكنات لابدّ أن يرجع إلى الواجب بالذات. قال تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً**﴾[1]، فالآية المباركة ترشد إلى أمر عقلي و هو استيلاء الله جلّت عظمته على هذا العالم.

التاسع: الآية الشريفة جامعة للتوحيد الذاتي في قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ**﴾، و التوحيد الفعلي في بقية الآية المباركة في نظم بديع و نسق لطيف.

العاشر: الآية الشريفة من القضايا التي تشتمل على العلّة و المعلول، فيصحّ أن يقال إنّه مالك الملك، لأنّه على كلّ شيء قدير، كما يصحّ أن يُقال إنّه على كلّ شيء قدير، لأنّه مالك الملك، وكذلك بالنسبة إلى سائر جملاتها، و يصحّ اجتماع العلّيّة و المعلوليّة في شيء واحد باختلاف الاعتبار و تعدّد الجهات.

***

بحث روائي:

فضل الآية:

وردت روايات تدلّ على فضل آيات شريفة كآية الكرسي، و آية ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾[2]، و هذه الآية المباركة: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ**﴾ و غيرها من الآيات، فقد وردت في فضل هذه الآية المباركة روايات:

منها: ما تقدّم في آية الكرسي، و آية ١٨ من سورة آل عمران.

و منها: ما عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه و آله، قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي أجاب في هذه الآية».

---

١. سورة النساء: الآية ٧٨.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٨ و ١٩.

أقول: المراد من كون الاسم الأعظم في هذه الآية الشريفة إمّا الاسم الأعظم الحالي لمن حصل له حالة خاصّة، أو المقالي، لكن مع شروط خاصّة لابدّ منها.

و منها: ما عن بعض الأعاظم أنّ مَن قرأ هذه الآية و بعد تمامها قال: «يا رحمٰن الدُّنيا و الآخرة و رحيمهما تعطي منهما ما تشاء و تمنع منهما ما تشاء، اقضِ عنِّي ديني»، يُقضى عنه دينه.

أقول: و قد جرّب ذلك بعض، و الله العالم.

تفسير الآية:

في «الكافي»: عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قلت له: **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**، أليس قد آتى الله بني أُميّة المُلك؟ قال عليه السلام: ليس حيث تذهب!! إنّ الله عزّ و جلّ آتانا الملك و أخذته بنو أُميّة، بمنزلة الرجل يكون له الثوب فيأخذه الآخر فليس هو الذي أخذه».

أقول: المراد بذلك بعض بطون الآية، و إلّا فالآية المباركة عامّة شاملة لكلّ ملك، حقيقيّاً كان ـ و هو الإحاطة على حقائق الموجودات بحسب الاستعداد ـ أو ظاهريّاً واقعيّاً كان أم تشريعيّاً، و قد يقع الخلط بينها كما وقع لراوي الحديث، لأنّ الملك الحقيقي و الواقعي كان لهم عليهم السلام.

و في «المجمع»: روي عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام في قوله تعالى: **﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾**، قيل: معناه و تخرج المؤمن من الكافر، و تخرج الكافر من المؤمن».

و في «الدرّ المنثور» : عن ابن مسعود و عن سلمان عن النبيّ ﷺ : في قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قال ﷺ : «المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن».

أقول : هذا من باب ذكر بعض المصاديق ، لأنّ الحياة و الموت كما مرّ في التفسير تشملان الحياة الحقيقيّة و الجسمانيّة .

و في «الدرّ المنثور» أيضاً : عن سلمان الفارسي : «قال رسول الله ﷺ : لمّا خلق الله آدم عليه السلام أخرج ذرّيته فقبض قبضة بيمينه ، فقال : هؤلاء أهل الجنّة و لا أُبالي ، و قبض بالأُخرى قبضة فجاء فيها كلّ رديء ، فقال : هؤلاء أهل النار و لا أُبالي ، فخلط بعضهم ببعض فيخرج الكافر من المؤمن و يخرج المؤمن من الكافر ، فذلك قوله تعالى : ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾».

أقول : تقدّم وجهه و أنّ ذلك من باب بيان بعض المصاديق ، و أمثال هذه الرواية كثير وردت في أبواب الطينة و سنتعرّض لها إن شاء الله تعالى في الآيات المناسبة .

و فيه أيضاً : أنّ رسول الله ﷺ لمّا خطّ الخندق عام الأحزاب ، و قطع لكلّ عشرة أربعين ذراعاً و أخذوا يحفرون ، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول ، فوجّهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره ، فأخذ المعول من سلمان فضربها ضربة صدعتها و برق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكأنّ مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبّر وكبّر المسلمون ، و قال : أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنّها أنياب الكلاب ، ثمّ ضرب الثانية فقال : أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثمّ ضرب الثالثة فقال : أضاءت لي قصور صنعاء و أخبرني جبرائيل عليه السلام أنّ أُمّتي ظاهرة على كلّها فابشروا ، فقال المنافقون : ألا تعجبون يُمنّيكم و يعدكم الباطل و يخبركم أنّه يُبصر من يثرب قصور الحيرة

و مدائن كسرى، و أنـّها تُفتح لكم و أنتم تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزلت: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أقول: أبطل الله مزاعمهم المحصورة على خصوص المحسوسات التي يرونها بأعينهم في وقت خاص، و لا يطّلعون على المستقبل و ما يظهره الله بقدراته على يد نبيّه أو على يد اُمّته صلى الله عليه و آله.

و في «أسباب النزول» للواحدي: عن ابن عبّاس و أنس بن مالك: «لمّا فتح رسول الله صلى الله عليه و آله مكّة و وعد اُمّته ملك فارس و الروم، قال المنافقون و اليهود: هيهات هيهات؟!! من أين لمحمّد ملك فارس و الروم؟ هم أعزّ و أمنع من ذلك، ألم يكف محمّداً مكّة و المدينة حتّى طمع في ملك فارس و الروم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ ـ الآية ـ﴾».

أقول: تقدّم ممّا ذكر وجهه.

و فيه أيضاً: عن قتادة: «ذكر لنا أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله سأل ربّه أن يجعل ملك فارس و الروم في اُمّته، فأنزل الله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾».

أقول: يمكن أن تكون الرواية من باب تعدّد المورد، مع أنـّها لا تنافي ما تقدّمتها من الروايات.

***

بحث فلسفي:

تدلّ الآيات الشريفة على قواعد فلسفيّة لها الشأن الكبير في كلّ من الفلسفة الإلهيّة و الطبيعيّة.

منها: أن قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، يدلّ على أنّ الله تعالى

صفات جماليّة هي عين ذاته ، لا يمكن التفكيك بينهما ، فمنها الملك ، و هي صفة جماليّة ليست داخلة تحت أيّة مقولة من المقولات العشر التي أثبتها الفلاسفة و الحكماء ، و يمكن إرجاع ملكه و مالكيّته إلى الإحاطة القيوميّة على جميع مخلوقاته ، إيجاداً و إبقاءً ، و تدبيراً و إفناءً ، و إيجاداً بعد الافناء ، و يشهد لذلك ما ورد في بعض الدعوات المعتبرة : «اللّهُمَّ إنّي أسألك باسمك الذي تبلي به كلّ جديد ، و تجدّد به كلّ بال» .

و منها : أنّه يمكن أن يستفاد من قوله تعالى : **﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾** و نظائرها من الآيات المباركة ، القاعدة التي نقلت عن بعض قدماء فلاسفة اليونان ، و هي : «أنّ كلّ شيء في كلّ شيء» ، و أثبتوها بالبراهين و أطالوا القول في النقض و الإبرام حولها ، و المراد منها أنّ جميع ما في هذا الكون من العناصر و المواد و الآثار و الصور تكمن في كلّ شيء كموناً هيولائيّاً ، فيمكن أن يستخرج أحد الضدّين من الآخر ، كما يستخرج في هذه الأعصار من مادّة النفط ـ مثلاً ـ كثير من الأُمور التي ربما يكون أحدها مضاداً للآخر .

و لعلّ نظرية الفلسفة الديالكتيكيّة القائلة بأنّ كلّ شيء يحمل ضدّه ، مأخوذة من هذه القاعدة ، و كذا نظرية داروين القائلة بالتنازع في البقاء و بقاء الأصلح ، و إن كان لنا كلام في هاتين النظريتين يأتي في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى .

و كيف كان ، فإن كانت الأشياء حاملة لكلّ شيء ، فهي لا تخرج عن قدرته ، بل هي داخلة تحت قدرته و ربوبيّته العظمى و قهّاريته التامّة ، كما يدلّ عليه ذيل هذه الآية الشريفة : **﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** .

و منها : أنّه يمكن أن يستدلّ بقوله تعالى : **﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ**

الْمَيِّتَ﴾، و أمثال هذه الآيات الشريفة على الحركة الجوهريّة الثابتة في ذوات الأشياء و حقائقها، بدعوى أنّ تلك الحركة إمّا بذاتها لذاتها من ذاتها، أو بذاتها من غيرها، و الأوّل باطل مع فرض الإمكان و إجماع الشرائع الإلهيّة على حدوث الأشياء، فيتعيّن الثاني، و المحرك الأوّل هو القديم الأزلي، و قد أثبت جمع من الفلاسفة وجود الله تبارك و تعالى بالحركة، فتكون الحركة الجوهرية ثابتة في الحقائق من محرّك غيبي، و هو الله تعالى، و لا محذور فيه من عقل أو نقل.

و هذه الآية الشريفة تدلّ على وجود الحركة في جميع الأشياء من النقص إلى الكمال، و منه إلى الأكمل حدوثاً و بقاءً، لكن هذه الحركة مستمرّة مع جميع جهاتها تحت إرادة مدبّر فيها، و الحركة بما شاء و أراد، فهو من جميع ذرّات الكون معيّة قيوميّة مدبّر لها بالربوبيّة العظمى، التي لا يعزب عنه شيء في السماوات و الأرض.

و هذه الحركة بهذا المعنى عامّة لجميع مخلوقاته، و هي صحيحة، و ممّا اتّفقت عليه الكتب السماويّة وكلمة الأنبياء وكلمات جمع من الفلاسفة المتألّهين.

و أمّا الحركة التي ذكرها بعض الفلاسفة الطبيعيّين، و هي الحركة في الطبيعة و المادّة فحسب، و قالوا إنّها ذاتيّة لها و الذاتي لا يعلل، فإن أرادوا أنّها واجبة بالذات فهو باطل بالضرورة، و إن أرادوا أنّها تحت قدرة الله تعالى فهي قسم من تلك الحركة التي ذكرناها آنفاً.

***

بحث قرآني:

لا ريب في أنّ نظام هذا العالم يتقوّم بترتب العلل و المعلولات المتتالية

و غيرها ، و هذه السلسلة لابدّ أن تنتهي إلى الله تعالى ، الذي تكون أزمّة الأُمور تحت إرادته ، و الإنسان مسخّر و مقهور تحت قوى فعّالة ، منها قدرة الله تعالى و إرادته التامّة ، فهو يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد . و منها قوى الطبيعة التي قلّ ما يسلم أحد من آفاتها و عاهاتها . و منها النفس الأمّارة بالسوء و الشيطان الرجيم الذي لا يسلم منه أحد . فالإنسان قرين هذه القوى و إن كانت جميعها مقهورة تحت قدرة العزيز الجبّار ، و هذه الآية الشريفة و نظائرها شاهدة على ذلك ، فإن قوله تعالى : **﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾** ، يدلّ على انتهاء الوسائط إليه عزّ و جلّ ، و لكن ذلك لا ينافي أن تكون المسبّبات و النتائج مترتبة على الأسباب ، و قد جرت عادته عزّ و جلّ على إجراء الأُمور بأسبابها التي لها دخل في تحقّقها ، و على الإنسان أن يعد الأسباب الظاهريّة التي تكون دخيلة في حصول المسبب ، ثمّ تفويض الأمر إليه في الجهات التي تقصر عقولنا عن الإحاطة بها ، و قد دلّت على ذلك آيات كثيرة ، قال تعالى : **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعى﴾**[1] ، و قال تعالى : **﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**[2] ، و هذا هو التوكّل الذي أمرنا به و حثَّ عليه القرآن الكريم ، و لكن التماس الأسباب على قسمين :

الأوّل : أن تلحظ مستقلة مع قطع النظر عنه عزّ و جلّ بالمرّة ، و هذا مذموم بل هو الشرك بعينه ، و تكون قرينة الخيبة غالباً .

الثاني : أن ينظر إليها من حيث إنّها من قبيل المعدات قد أفاضها الله عزّ و جلّ ، و هذا القسم ممدوح بل هو التوحيد الخالص ، و لكن ترتّب النتيجة منوط بإرادة الله تعالى ، فإن اعتقاد الخير في نظر الفاعل لا يغيّر الواقع عمّا عليه ، قال تعالى : **﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**

---

١ . سورة النجم : الآية ٣٩.

٢ . سورة القصص : الآية ٧٧.

وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

و بالجملة: أنّ كون الخير بيده عزّ و جلّ، و أن بيده ملكوت كلّ شيء، لا ينافي تسبّب الأسباب الظاهريّة و إيكال الأُمور الخارجة عن علم الإنسان إليه عزّ و جلّ، بل لابدّ من ذلك.

***

بحث عرفاني:

الإنسان قرين الحاجة و الفقر، و هو يحتاج في حدوثه و بقائه إلى الله جلّ جلاله، و بعد كون الخير بيده تعالى فلابدّ من الرجوع إليه عزّ و جلّ و التماس الخير منه و الإعراض عمّا سواه ليتمّ له التوحيد الفعلي، كما يتمّ بذلك تفويض الأمر إليه عزّ و جلّ و تتجلّى في قلبه هذه الآية الشريفة، و يكون من مظاهر: «لا حول و لا قوّة إلّا بالله»، فتسهل عليه جملة من الصعاب التي عاقت أهل الدُّنيا عن الوصول إلى مقاصدهم، فإنّ من شاهد القيوميّة المطلقة منه تعالى في وجوده و بقائه و جميع شؤونه، لا يرى لنفسه شيئاً إلّا مثل قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾**[٢]، و تتمّ بذلك نشأة الآخرة، حيث تكون من مظاهر قوله تعالى: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾**[٣] و لا معنى للعبوديّة الحقيقيّة إلّا ذلك، و يتّحد المبدأ و المآب حينئذٍ من كلّ جهة، بل إن وصل إلى مرتبة التفاني في مرضاة الله يتّحد السائر و السير و المسير إليه.

فهذه الآية الشريفة من أجلّ موارد تجلّيات الله تعالى لعباده، و لأن خرَّ

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٦.

٢. سورة الانشقاق: الآية ٦.

٣. سورة الفجر: الآية ٢٧ ـ ٣٠.

موسى بن عمران عليه السلام صعقاً في تجلّ واحد منه تعالى للجبل، لكن صار الكروبيون والروحانيون وعقول ذوي الألباب صرعى في مثل هذه التجلّيات الإلهيّة القرآنية.

ولأن كان للاسم الأعظم الذي هو أُمّ الأسماء الحسنى مظاهر كثيرة، يكون العالم واحداً منها، فيصحّ أن تكون هذه الآية من بعض مظاهره، وصحّ ما نسب إلى سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله حين سئل عن الاسم الأعظم فقرأ هذه الآية الشريفة، كما مرّ، فإنّ فيها اجتمع كمال الذات والصفات.

***

الآية ٢٨ ـ ٣٢

﴿لَا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه و تعالى كيفيّة الثناء عليه و تمجيده و الابتهال إليه جلّ شأنه، و بيّن الوجه في ارتباط الخلق مع الخالق، و أنه لابدّ من الالتجاء إلى الله عزّ و جلّ و الاعتراف بربوبيّته و سلطانه.

في هذه الآيات يبيّن سبحانه و تعالى تنظيم العبوديّة بين العبد و المعبود، فأرشد عباده إلى اللجوء إليه عزّ و جلّ و نبذ الاغترار بغيره تعالى، بحيث ترفع التفرقة و التخالف بين أهل الإسلام، و الاختلاف بين الأديان و المعتقدات، و نهى المؤمنين عن الامتزاج الروحي و المخالطة القلبيّة مع أعدائه تعالى، و حذّرهم عن ذلك، و أمرهم بحبّ الله تعالى و طاعته و طاعة الرسول و التحابب بينهم،

و وعدهم بالرأفة و الغفران، و لا تخلو الآيات عن ارتباط بالآيات السابقة من التعريض بالكافرين و أهل الكتاب.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الاتّخاذ هو الأخذ مع الاعتماد و الثقة و المشي على الطريقة و العمل بالسيرة، يقال: «لو كنت منّا لاتّخذت بأخذنا»، أي على طريقتنا و شكلنا. و المراد بالمؤمنين كلّ من أسلم و دخل في دين الإسلام، كما أنّ المراد من الكافرين كلّ من أنكر الإسلام، فيشمل أهل الكتاب و المشركين و غيرهم.

و الأولياء جمع الولي كالأذكياء جمع ذكي، و المراد بالولي في المقام و نظائره هو الخليل و المحبوب، بحيث يتقرّب أحد إلى آخر و يمتزج معه امتزاجاً روحيّاً يوجب التأثير عليه، فيكون أحدهما تابعاً و الآخر متبوعاً في العمل و المودّة و المحبّة و سائر شؤون الحياة، فإن دلّت قرينة معتبرة خارجيّة على التخصيص بشيء معيّن تتبع، و إلّا فيؤخذ بالإطلاق.

و الآية تنهى عن اتّخاذ الكافرين أولياء و الركون إليهم و الاتّصال معهم مع الانفصال عن المؤمنين و الابتعاد عنهم، و هي عامّة تشمل جميع أسباب الاتّصال و الركون إليهم في الأخلاق و التصرّفات و الموادّة، فضلا عن إيثار محبّتهم على محبّة المؤمنين:

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾[1].

---

١. سورة النساء: الآية ١٣٨ ـ ١٣٨.

و قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾[١].

و قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

و يشهد لتعميم الولاية قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن تشبّه بقوم فهو منهم»، و في الحديث القدسي: «لا تسكنوا مساكن أعدائي، و لا تلبسوا ملابس أعدائي فتكونوا أعدائي»، و في الحديث: «ليخرجن ناس من قبورهم على صورة القردة بما داهنوا أهل المعاصي ثمّ وكفوا عن علمهم و هم يستطيعون»، أي قصّروا و نقصوا عن علمهم.

و (من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ للابتداء، و مادّة (دون) من الدنو، و هو إمّا في المحل، أو في الحال، أو في العمل، و قد اشتهر استعمالها في ظرف المكان، و تتضمّن معنى الغيريّة مع الإشعار بأنّ المورد الذي أُضيف إليه (دون) فيه نحو دناءة و سفالة بالنسبة إلى غيره. قال تعالى: ﴿قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣]، و قال تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[٤]، و لا ريب في دناءة كلّ ذلك بالنسبة إلى الله تعالى. و قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[٥]، أي ما سوى ذلك الذي ممّا هو أدون

١. سورة النساء: الآية ١٤٤.

٢. سورة المائدة: الآية ٥١.

٣. سورة المائدة: الآية ٧٦.

٤. سورة المائدة: الآية ١١٦.

٥. سورة النساء: الآية ١١٦.

حزازة من الشرك و الكفر.

والمعنى: لا يعدل المؤمنون بولايتهم عن المؤمنين إلى الكافرين و يتّخذوهم أولياء في المحبّة و النصرة و العمل، فإنّ الكافرين أدون مكاناً و أسفل درجة من المؤمنين، الّذين هم أعلى مكاناً و أشرف رتبة و درجة.

و يستفاد من الآية الشريفة أنّ سبب النهي عن اتّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين هو الإيمان و الكفر، اللذين بينهما غاية التباعد و التنافر و البينونة، بحيث أنّ كلّ مَن يقترب إلى أحدهما يبتعد عن الآخر بمقدار ما اقترب من الأوّل، بل قد يوجب الاتّحاد و فساد الآخر، لما عرفت أنّ الولاية قد توجب الاتّحاد و الاعتماد، فإذا تولّى المؤمن الكافر أوجب ذلك فساد إيمانه و الابتعاد عن الله تعالى، كما نبّه على ذلك في ذيل الآية المباركة: ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ**﴾.

فالآية الشريفة كما تشتمل على الحكم و هو النهي عن تولّي الكافرين، تبيّن سببه أيضاً، و ذلك من أعلى درجات البلاغة و الفصاحة.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ**﴾.

أي: و من يتّخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من ولاية الله في شيء، و لا نسبة له مع الله تعالى لزوال تلك النسبة و المحبّة بينه و بين الله تعالى بالموالاة مع الكافرين، و قد قال سبحانه و تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾[1].

و قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ**﴾ يفيد العموم، أي

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

ليس عمله مرضياً لله تعالى، و لا يكون جزاؤه جزاء من أحسن عملاً، و لا تشمله العنايات الخاصّة و التوفيقات الإلهيّة، و لا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[١]، بل يكون حينئذٍ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[٢].

وإنّما أتى عزّ و جلّ بلفظ عام ـ أي (من) ـ و لم يشخّص، و ذكر لفظ (يفعل) و لم يذكر المؤمنين، للإشارة إلى أنّه أمر قبيح لابدّ للمؤمن الإعراض عنه و أن يستنكره و يتنزّه عنه، كما يتنزّه عن القبائح الظاهريّة، و لذا كنّى عنها في الخطاب كما يكنّى عن القبائح، و تنزيها للمؤمنين من أن ينسب إليهم هذا الأمر القبيح و الفعل الشنيع.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

استثناء عن الولاية الحقيقيّة و استدراك عمّا يتوهّم أنّ النهي إنّما يكون عن الولاية الصورية، أو النهي إنّما يكون في جميع الأحوال حتّى لو استلزم الضرر على المؤمن، أو كان في الموالاة المصلحة.

و تتّقوا: و التقاة من الوقاية، و هي المنع عمّا يوجب الأذية و الحفظ عنها، و هذه المادّة كثيرة الاستعمال في القرآن بهيئات مختلفة:

قال تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٣].

و قال عزّ شأنه: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[٤].

---

١. سورة المائدة: الآية ٥٦.

٢. سورة الحشر: الآية ١٩.

٣. سورة التحريم: الآية ٦.

٤. سورة الرعد: الآية ٣٧.

و قال تعالى: **﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾**[١].

و عن علي عليه السلام: «كنّا إذا أحمرّ البأس اتّقينا برسول الله صلى الله عليه و آله»، أي جعلناه وقاية لنا من العدو و قمنا خلفه و استقبلنا العدوّ به، و في الحديث: «من عصى الله لم تقه من الله واقية».

و من هذه المادّة التقوى التي هي أساس دعوة القرآن و أصل المدارج المعنويّة للإنسان، لأنّها تحفظه عن الوقوع في المحارم، و توقفه على الحدود الإلهيّة حتّى يصل إلى أعلى المقامات المعنويّة.

كما أنّ منها التقيّة، التي هي من الأُصول النظاميّة التي شرّعها الإسلام حفظاً للنظام و تأليفاً بين الأنام. و سيأتي أنّها ترجع إلى القاعدة العقليّة التي قرّرتها الشرائع السماويّة، و هي: «تقديم الأهمّ على المهمّ»، فتكون التقيّة من القواعد العقليّة الشرعيّة.

و لا ريب في جواز التقيّة، بل أنّها من القواعد المسلّمة لدى الجميع، و المرتكزة في الأذهان و لا تحتاج إلى إقامة البرهان، لأنّها كما عرفت من صغريات قاعدة: «تقديم الأهمّ على المهمّ»، التي هي من القواعد الفطريّة، و قد قرّرتها السنّة بأساليب مختلفة، و يكفي في مشروعيّتها بل أهمّيتها، ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من أنّها من الدّين و التحريض على العمل بها و أنّ تاركها مخالف لأوامر الله سبحانه و تعالى، ففي الحديث: «التقيّة تسعة أعشار الدِّين»، و قد ورد في تفسير قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[٢]، أي أعملكم بالتقية. و غير ذلك، و لعلّ الجميع مأخوذ من عموم قوله تعالى: **﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ**

---

١. سورة الطور: الآية ١٨.

٢. سورة الحجرات: الآية ١٣.

إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(١).

و معنى التقيّة هو إتيان الشيء على غير الوجه المأمور به الأوّلي، لغرض مهمّ شرعي يترتب عليه، و هذا المعنى يرجع إلى القاعدة العقليّة الفطريّة كما ذكرنا، فلا يسع لأحد إنكارها أو تخصيصها بوقت دون آخر، فإنّ التقيّة بشرائطها المقرّرة في الفقه جارية إلى يوم ظهور الحقّ، كما عليه القرآن و السنّة الشريفة.

و تُقاة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ مصدر، و هي مفعول مطلق لتتقوا، و أصلها وقية على فعلة على وزن تهمة، قلبت الواو تاء و الياء ألفاً. و التاء تفيد الوحدة، و هي تحدّد الاتّقاء، أي تتّقوا منهم تقاة محدودة بأن تظهروا المودّة الصورية ما تدفعوا بها شرورهم حتّى تتحقّق المندوحة في ذلك، لما فيها من المصلحة لكم و لدينكم.

و من جميع ذلك يظهر أنّ الاستثناء منقطع إن كان المستثنى منه المودّة الحقيقيّة، و أمّا إذا كان المراد منه مطلق الموادّة و لو كان صورياً ظاهرياً مع المخالفة في الحقيقة و الاعتقاد، فحينئذٍ يصير الاستثناء متصلا و به يمكن الجمع بين القولين.

و ما عن بعض المفسّرين في توجيه كون الاستثناء منقطعاً، من أنّ إظهار آثار التولّي ظاهراً من غير عقد القلب على الحبّ و الولاية ليس من التولّي بمعنى الحبّ، لأنّ الخوف من الغير و الحبّ له أمران قلبيان متباينان لا يمكن اجتماعهما، فيكون الاستثناء منقطعاً.

مخدوش: لصحّة اجتماعهما في مورد واحد باعتبارين و جهتين، فيتولّى الغير ظاهراً للتحرّز عن ظلمه و كيده، و يحبّ الله واقعاً مع عقد القلب عليه.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ﴾.

التحذير من الحذر و هو الاحتراز عن أمر مخوف و الابتعاد عنه، و قد استعملت هذه المادّة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة بالنسبة إلى الدُّنيا و الآخرة، قال تعالى تحذيراً عن المنافقين و فتنتهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللّهُ﴾[١]، و قال تعالى تحذيراً عن مخالفة أوامره و أحكامه التي تعتبر من ملاحم القرآن الكريم: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

و المراد بالنفس هي الذات، و قد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في أكثر من عشرين مورداً، و في الجميع يُراد منها الذات دون ما يرادف الروح التي ترتبط بالبدن:

قال تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٣].

و قال تعالى: ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٤].

و قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[٥].

و لا ريب في صدق الذات بالمعنى الكلّي بالنسبة إليه جلّ جلاله، للقاعدة التي أثبتها الفلاسفة و قرّرتها الشريعة أنّ كلّ شيء لا يستلزم ثبوته النقص بالنسبة إليه تبارك و تعالى يصحّ اتصافه به، و لا ريب أنّ الذات كذلك.

نعم، لابدّ أن نقول في المقام ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من أنّه: «ذات لا

---

١ . سورة المنافقون: الآية ٤.

٢ . سورة النور: الآية ٦٣.

٣ . سورة التحريم: الآية ٦.

٤ . سورة البقرة: الآية ٥٧.

٥ . سورة التوبة: الآية ٤١.

كالذوات، و شيء لا كالأشياء».

و لكن لم يرد إطلاق الذات عليه تعالى في القرآن الكريم بخلاف النفس، و لعلّ ذلك لأنّ النفس أقرب إلى فهم المخاطبين من لفظ الذات، و لأنّ النفس لوحظ فيها الإدراك و الشعور، بخلاف الذات، فإنّها أعمّ من ذلك، و لا ريب في تحقّق الحذر و التحذير من لفظ النفس في المقام، إذ ليس المراد من النفس مفهومها من حيث هو، بل الذات القهّارة و الجبّارة فوق ما يتعقلّ من معنى ذلك.

و قد حذّر سبحانه و تعالى مَن يتولّى الكافرين ذاته الأقدس في هذا المورد، لأنّه هو الله تعالى العزيز الجبّار شديد العقاب، الذي لا يعجزه شيء، و لا عاصم عنه، فلا ناصر و لا شفيع غيره.

و من تعليق التحذير على نفسه يستفاد أنّ التحذير إنّما يكون عن نفسه القادر على إنفاذ ما أوعده، و الذي لا يعجزه شيء، و أنّه يكفي نفس الذات في ذلك من دون استعانة بشيء.

و فيه نهاية التهديد و عظيم التوعيد، فإنّ شدّة العقاب تتبع قوّة المعاقب و قدرته على تنفيذه، و لبيان أنّه ليس هناك من يدفع عنه العقاب و العذاب، فهو قضاء حتمي، لابدّ أن يقع عند تحقّق المخالفة، و هذا من ملاحم القرآن الكريم الذي أخبر عزّ و جلّ به قبل وقوعه، كما نراه بالوجدان.

و ما ورد في هذه الآية الشريفة قضية عقليّة من أوضح القضايا بعد التأمّل فيها، لأنّ من بيده الإيجاد و الإفناء، و الحياة و الموت، و الحدوث و البقاء، لابدّ و أن يتحذّر عن مخالفته و يحذّر عن التعرّض لسخطه و عقابه، فالآية المباركة تتضمّن الحكم و الدليل بوجه لطيف.

و من ذلك يعلم أنّه لا يحتاج إلى التقدير في الكلام، كما عليه جمهور المفسّرين، أي يحذّركم الله عقاب نفسه، فإن عذابه و إن كان لابدّ ممّا يحترز

عنه، كما أكّد عليه سبحانه و تعالى في آيات أُخرى، قال عزّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾[١]، و لكن ظاهر الآية أشدّ تحذيراً من التقدير.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

تأكيد للتحذير، لأنّ من كان مصيره إلى الله تعالى و لا مفرّ منه و لا صارف له، لابدّ من التحذير عن الوقوع في مخالفته و التحذير عن سخطه و عقابه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

خطاب إلى الرسول الكريم بإبلاغ أعظم حقيقة، و هي علم الله تعالى بالمضمرات في النفوس و ما هو الظاهر، و أنّه تعالى الذات المحيطة بجميع ما سواه إحاطة حقيقيّة واقعيّة فوق ما نتعقّله من معنى الإحاطة، لأنّ العلم و كشف الواقع عين الذات، فلابدّ أن تكون لهذه الذات الإحاطة العلميّة بجميع ما سواها و انكشاف الحقائق لديها.

و بحث العلم الربوبي من أهمّ البحوث في الفلسفة الإلهيّة، و يمكن إقامة البرهان على ذلك بوجه مختصر سديد، و هو أنّ الذات المسلوب عنها جميع النواقص الواقعيّة و الادراكيّة موجودة، ولابدّ أن يكون عالما بما في الضمائر و ما يبدو منها، و إلّا يلزم الخلف، و هو محال، فيكون فرض إحاطة الذات و إحاطة الربوبيّة، و إحاطة الحكمة و التدبير، ليس إلّا فرض إحاطة علمه تعالى بجميع مخلوقاته، كلّياتها و جزئياتها، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٢].

مع أنّ العلم بالكلّي يستلزم العلم بالفرد و الجزئي، خصوصا في العلم

---

١. سورة الإسراء: الآية ٥٧.

٢. سورة الملك: الآية ١٣ ـ ١٤.

الواقعي الإحاطي الحقيقي الفعلي، فلو كانت الشمس ذات قوّة درّاكة فعليّة، لكانت مدركة لجميع أشعّتها الجزئية المنبسطة على ذرات الأشياء، فمَن ذهب من الفلاسفة إلى نفي العلم بالجزئيّات عنه تبارك و تعالى، لأنّها لا تدرك إلّا بالمدارك الجزئيّة، و هو تعالى منزّه عنها. فهو و إن أراد التنزيه، لكنّه وقع في التعطيل، و لعلّ هذا من أحد معاني قول علي عليه السلام: «من أراد ما ثم هلك»، و في سياقه أحاديث كثيرة، و الأدلّة العقليّة شاهدة على أنّ المحدود لا يعقل أن يحيط بغير المحدود.

و هذه الآية الكريمة مكرّرة بأساليب مختلفة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾[1]، و الاختلاف في تقديم المخفي و البادي في الآيتين باعتبار مناسبة الحساب للبادي، و مناسبة العلم بالمخفي، فقدّم سبحانه المخفي في المقام، بخلاف الآية الواردة في سورة البقرة. أو الحمل على مراتب الإخفاء و الإبداء، فبعض مراتبهما تستحقّ المحاسبة، و البعض الآخر يعفى عنه، و إن تعلّق العلم بالجميع. و نظير المقام قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[2].

و ربما يكون الوجه في التكرار هو الاعلام بأنّ علمه تعالى ليس حصوليّاً مستلهماً من ظواهر الممكنات و صور الموجودات، كما هو المعلوم في علم الإنسان، و لذا قيل: «من فقد حسّاً قد فقد علماً»، بل علمه عزّ و جلّ حضوري إحاطي فوق ما نتعقّله من معنى الحضور و الإحاطة، و فقر الممكن إلى الله عزّ و جلّ ـ حدوثاً و بقاءً ـ يستلزم هذا النحو من الحضور، و كيف يخفى عليه ما هو أوجده؟!! أم كيف يغيب عنه ما هو يدبّره؟!!

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٤.

٢. سورة النمل: الآية ٢٥.

و في جملة من الدعوات المأثورة : «سبحانك تعلم خطرات القلوب و لمحات العيون و ضجيج الوحوش في الفلوات و أنين الحيتان في البحار الغامرات» ، و لا عجب في ذلك بالنسبة إلى القيوميّة المطلقة ، و من يكون ما سواه كذرّة مُلقاة بين يديه .

كما أنّه يمكن أن يكون الوجه في التكرار هو استحضار الإنسان جلال ربّ العزّة ، فتستولّي عليه خشية هذا الربّ العظيم ، و يسعى كمال السعي لأن يتقرّب إلى وجهه الكريم ، فقد جمعت هذه الآيات الكريمة التحريض و الترغيب إلى الكمال المطلق ، و التخويف عن سطوة العليم الخبير الحقّ المبين .

و في الآية الشريفة التحذير عن النفاق و الموادّة مع مَن حاد الله تعالى ، و عن ولاية الكفّار فإنّه لا تخفى عليه ضمائركم و إليه المصير ، و هو محاسبكم على كلّ ذلك .

قوله تعالى : ﴿**وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ .

تأكيد لإحاطة علمه بما سواه من جميع الممكنات ، لأنّه خالق لها و هو يعلم ما خلق ، و تقدّم الكلام في تفسير هذه الآية في سورة البقرة ، الآية : ٢٨٤ .

قوله تعالى : ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ .

تأكيد لهيمنته على ما أحاط به علمه الأتم ، فإنّ إثبات القدرة بعد ثبوت العلم فيه عزّ و جلّ تأكيد بليغ على الإحاطة القيوميّة و الهيمنة و القهّارية . فإنّ كلّ مخالفة له ـ سواء كانت مخفيّة في الضمائر ، أم بادية على الظواهر ـ أنّ الله تعالى يعلمها و محاسبكم عليها و قادر على مجازاة فاعلها ، فإنّ مصيركم إليه تعالى .

و في الآية الشريفة تأكيد على عموم قدرته ، و أنّها تتعلّق بكلّ شيء ، فهي تشمل جميع ما سواه بكلّ ما هو ممكن إلّا ما كان مستحيلاً ذاتاً ، فإنّ القدرة

لا تتعلّق به لقصور المقدور حينئذٍ، لا ثبوت النقص في قدرته عزّ و جلّ، و لا فرق في الممكن بين الحقائق الواقعيّة ـ الجوهريّة أو العرضيّة ـ و الأُمور الاعتباريّة، كالملك و العزّة و الذلّة و الجزاء و نحو ذلك، فإنّ كلّ ممكن يقع تحت قدرته، سواء كان الوجود هو المعلول و المترشّح من وجود العلّة، أم كانت الماهيّة، فإنّ جميع ذلك مفتقر إليه تعالى.

نعم، بعض الأُمور له تأصّل في الواقع، و البعض الآخر ليس له كذلك، بل هو تابع لجعل الحقائق الواقعيّة، و لكن ذلك لا يستلزم الخروج عن تحت قدرته.

و إن شئت قلت: إنّ مقدورية الأشياء له تعالى أعمّ من أن تكون بدون الواسطة أو معها، لانتهاء الجميع إليه عزّ و جلّ، و أنّها مفتقرة إليه، كما هو كذلك في سلسلة العلل و المعلولات.

و من ذلك يعلم النظر في ما عن بعض المفسّرين من الإشكال في تعلّق القدرة بالأُمور الاعتبارية، لأنّها غير مستندة إليه عزّ و جلّ، إذ لا وجود حقيقي لها أصلاً، وإنّما وجودها اعتباري لا يتعدّى ظرف الاعتبار و الوضع، فاستشكل في انتساب ما في الشريعة من الأحكام التكليفيّة و الوضعيّة إليه تعالى، لأنّ كلّها أُمور اعتبارية. ولكنّه أجاب عن ذلك بأنها و إن كانت كذلك، إلّا أنّ آثارها أُمور حقيقيّة مقصودة تنسب إليه عزّ و جلّ و تتعلّق بها القدرة.

و ما ذكره ﷺ تطويل بلا طائل تحته، فإنّ تعلّق القدرة بالأثر عين تعلّقها بمنشإ الأثر، فإنّه إذا تعلّقت بأحدهما تتعلّق بالآخر، وكونها أمراً اعتبارياً لا يوجب عدم الانتساب، و ما سواه يفتقر إليه تعالى و منسوب إليه عزّ و جلّ إمّا بواسطة أو بغيرها، كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾.

بيان لما تقدّم في الآيات الشريفة و شرح إجمالي لبعض خصوصيّات

المصير إليه، و إعلام بكشف الحقائق، و ظهور الأعمال و بروز الأسرار و ما تطويه الضمائر و الأحوال، و إرشاد للتحذّر عمّن خضعت له الأملاك و الأفلاك، و التعريض للعباد بالرأفة بهم في أشدّ حالات احتياجهم إليها يوم التناد، فيكون ما في الآية الشريفة برهاناً و دليلاً على ما تقدّم في الآيات بأتمّ برهان و هو الوجدان.

و تجد من الوجدان و هو حضور الشيء لدى النفس، و هو إمّا في الدُّنيا، و ذلك إمّا أن يكون عين الواقع كالإحساس بحرارة النار أو برودة الماء و نحو ذلك، أو تكون من الأُمور الوجدانيّة المستعملة في العلوم التي تكون مشوبة بالتخيّلات و الأوهام حتى تعدّ بعض المعتقدات من الوجدانيّات.

و أمّا في الآخرة و هو كشف الواقع بما هو عليه في نفس الأمر بلا مدخلية شيء من الوهم و الخيال فيه، و هو الوجدان الحقيقي.

و الظرف «يوم» متعلّق بالمصير في قوله تعالى: **﴿وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾**، الذي هو كالمرآة لجميع التكاليف الإلهيّة و جزاء لها و لا يضرّ الفصل الطويل.

و قيل وجوه أُخرى سيأتي في البحث الأدبي نقلها.

و (ما) في قوله تعالى: **﴿مَا عَمِلَتْ﴾** موصولة تشمل جميع الأعمال، و العائد محذوف مقدّر.

و (من) في قوله تعالى: **﴿مِنْ خَيْرٍ﴾** بيانيّة، و التنكير في «خير» للتعميم و الشمول للجميع، أي كلّ خير و هو يشمل جميع أنواع الخير من الاعتقاد، أو الأقوال، أو الأفعال، حركةً أو سكوناً، حتّى الأعدام، مثل كفّ الأذى و إماطتها عن الطريق، و تحمّل الأذى و نحو ذلك، نظير قوله تعالى: **﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّهِ﴾**[1]، و أمثالها من الآيات الشريفة.

---

١. سورة البقرة: الآية ١١٠.

وكلّ نفس تشمل جميع الخلائق و العباد، سواء كانوا من المؤمنين أم غيرهم، إذا صدر منهم الخير و لم يصدر منهم ما يمحقه و يحبطه، فهو محفوظ عند الله، كما يدلّ قوله تعالى: ﴿وَ رَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[١].

وإنّما عبّر سبحانه و تعالى بقوله: ﴿مُحْضَراً﴾ دون حاضراً و نحوه، لبيان أنّ جميع الأعمال موجودة عنده محفوظة لديه، ولكنّه يعدّها الله تعالى و يحضّرها لخلقه المحسنين تكريماً و تبجيلاً لهم، فهو تعالى يعلمها و يحفظها و يحضرها لئلا يكونوا في تسويف و بعد منال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾.

الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾، أي و تجد كل نفس من العباد ما عملت من سوء و ما يترتّب عليه من الجزاء، فتتمنّى النفس من شدّة الأهوال و ما يتبعها من الآلام و الأحزان لو أنّ بينها و بين هذا السوء بُعداً كبيراً.

و الأمد هو الغاية ينتهي ما ينتهي إليها، و جمعه آماد، و لم يذكر هذا اللفظ في القرآن الكريم إلّا في مواضع أربعة:

قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢].

و قال عزّ شأنه: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾[٣].

و قال تعالى: ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾[٤].

---

١ سورة سبأ: الآية ٢١.

٢ . سورة الحديد: الآية ١٦.

٣ . سورة الجن: الآية ٢٥.

٤ . سورة الكهف: الآية ١٢.

و المراد منه في المقام البعد، و الفرق بينه و بين الأبد بعد تقاربهما، أنّ الأبد ليس له حدّ محدود و لا يمكن تقييده، بخلاف الثاني، فإنّه يمكن تقييده، فيُقال: أمد كذا، أو يقال: للإنسان أمدان، مولده و موته، كما أنّ الفرق بينه و بين الزمان أنّ الثاني عام يستعمل في المبدأ و الغاية، بخلاف الأمد، فإنّه باعتبار الغاية، كما عرفت.

و الآية المباركة تخبر عن حال كلّ نفس مع عملها، و تدلّ على تجسّم الأعمال، و أنّها تحضر بالحال التي تسرّ النفس بها إن كانت خيراً، و تسوؤها إن كانت سيّئة، بحيث تودّ البُعد بينه و بينها من شدّة الهول و المكاره.

وإنّما تمنّى النفس البعد عنها دون أن تتمنّى عدمها، لما كانت تعلم أنّها محفوظة بحفظ الله تعالى و باقية بمشيئته عزّ و جلّ، فلم يكن بوسعها إلّا عدم حضورها في أشدّ الأحوال و أشقّ الأهوال، كما تتمنّى في القرين السوء في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾[1]، و يستفاد من الآية المباركة الأخيرة أن تمنّي النفس بُعدها عن المكاره إنّما يكون في الدارين.

وإنّما أكّد الأمد بكونه بعيدا لشدّة الهول و الموقف المروع، و هيهات ذلك مع حصول اليقين و شهود الحقائق.

قوله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ**﴾.

تأكيد جديد لأهمّية الموضوع، و بيان نهاية التحذير، و من لطيف الأُسلوب أنّه جميع بين الإنذار و التبشير، و يمكن أن يكون تكرار التحذير من

---

١. سورة الزخرف: الآية ٣٦ ـ ٣٨.

رأفته أيضاً، فإنّه من إحدى سُبل النجاة و الهداية، و من سياق العبارة يستفاد أنّه تعالى في مقام الترأف بعباده، لا يريد لهم إلّا الخير و الصلاح مع إعلامهم بعدم التعرّض لسخطه، فلا ينافي التحذّر عن نفسه تعالى مع سبق رحمته غضبه، فإنّ من رحمته إنزال الأحكام الإلهيّة، و النهي عن المعاصي التي لها الآثار المهلكة و الواقعة قريباً، و التي لا تنفع في رفعها شفاعة الشافعين، فإذا تعرّض لها أحد من عباده فإنّها تصيبه و يقع في سخطه و خذلانه.

و المراد من النفس: الذات الداركة بمراتبها المختلفة غير المتناهيّة، فيطلق عليه تعالى و على غيره حقيقة حسب المرتبة، و لا حاجة فيها إلى تعدّد المعاني و الاستعارة كما تقدّم.

وإنّما أضاف التحذير إلى نفسه الأقدس، لأنّ العلم و الحكمة عين ذاته المقدّسة، و الذات هي المنشأ لجميع الحوادث في الدُّنيا، التي هي جنود الله تعالى فيها، و هي مسخّرات تحت أمره، وكذلك في العقبى التي لا حدّ لها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1]، فالتحذير من مثل هذه الذات موافق للعقل و الفطرة إذا توجّه الناس إليه في الجملة، و قال علي عليه السلام:

«احذر الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك حيث نهاك».

و يستفاد من الآية الشريفة أهمّية التحذّر من الله تعالى، كما أنّها ترشد إلى حكم عقلي، لأنّه واجب في النظام الأحسن، فإنّ إرشاد الناس إلى المهلكات و تحذيرهم عنها واجب على الحكيم العلّام تعالىٰ.

و التحذير منه تعالى تترتّب عليه آثار كثيرة متعدّدة الجوانب، فإنّ من الآثار التي تترتّب عليه إنّما هو استقامة الإنسان، التي هي أشرف غاية و أعظم كمال، بل هي منتهى الكمالات، و هي قرّة عين الأنبياء و مطلوب كلّ عبد صالح،

---

١. سورة الفتح: الآية ٧.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[1].

و من الآثار المترتّبة عليهم تنظيم الروابط بأحسن وجه بين العبد و بين الله تعالى و بين أفراد الإنسان بعضهم مع بعض.

و منها: أنّه يوجب استشعار العبد عظمة الله تعالى، فيكون خائفاً منه عزّ و جلّ مراقباً لنفسه.

و منها: أنه يوجب التحلّي ببعض مكارم الأخلاق، كالرضا به تعالى لانحصار الأسباب فيه عزّ و جلّ، و التوكّل عليه، فإنّ القدرة إذا انحصرت في واحد انقطع الرجاء عن غيره.

و منها: أنّه يوجب التخلّي عن جملة من الأخلاق الذميمة، كالحرص في طلب الدُّنيا ـ بل يطلبها من حيث ما أمره الله تعالى ـ و الحسد على الأمثال و الأقران، لفرض استناد الكلّ إلى المدبّر الحكيم، و غير ذلك من محاسن الأخلاق، و لعلّ ذلك من أحد أسباب تكرار هذه الجملة المباركة.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾.

الآية الشريفة من روائع الآيات التي تخاطب الضمير الإنساني بأُسلوب لطيف، فقد بدأت بالخطاب مع أشرف خلقه، واسطة الفيض و مظهر الحبّ الإلهي و من تجلّت فيه المعارف الربوبيّة، و من هو قطب رحى الوجود و مكارم الأخلاق، تستمدّ منه الأرواح.

ثمّ في تقديم حبّ الله تعالى و الوعد بالغفران و إثبات الرحمة و المبالغة في المغفرة و الوعد بأكمل الكمالات الإنسانيّة، و هو محبّته تعالى التي بلغت في

---

١. سورة فصلت: الآية ٣٠.

الجمال و الجلال ما لا يمكن دركها بأي مشعر من المشاعر، بل لا يدانيها من الجذبة الأحدية للذات المحمّديّة حتّى يظهر الحال.

فالآية الشريفة جذبة روحانيّة تدفع الغفلة عن الإنسان، و ترفع عنه الضلالة و الخسران، و من عجيب الأمر دعوة الحنّان القدير القهّار المقتدر الفعّال لعبده الضعيف إلى محبّته، و إخراجه من الظلمات إلى النور، و هو مع ذلك يمتنع عنه، فسبحان من كان خيره إلينا نازلاً، و شرّنا إليه صاعداً، و هو مالك قادر على يشاء، فعال لما يريد.

و تقدّم معنى الحبّ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[1]، و ذكرنا أنّه لا يختصّ بالإنسان، بل يتحقّق في جميع الموجودات، الواجب منها و الممكن، و هو من المعاني الوجدانيّة التي يدركها كلّ أحد، و إن قصرت الأفهام عن درك حقيقته، فهو الترابط الوثيق الذي يربط بين الموجودات بعضها مع بعض و الجميع مع الخالق.

و القول بأنّ الحبّ يختصّ بغيره لأنّه نوع من الإرادة، و هي لا تتعلّق إلّا بالمعاني و المنافع، فيستحيل تعلّقها بذاته و صفاته.

غير صحيح: لأنّه إخراج للحبّ عن معناه الحقيقي مع أنّه أُطلق عليه سبحانه و تعالى في كثير من الآيات الشريفة، قال عزّ شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2]، و قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

و الحبّ من المعاني القلبيّة التي لابدّ أن يظهر أثرها على الجوارح، و هو الداعي إلى نيل المطلوب عمّا يحبّه، فالإنسان يحبّ الغذاء ليرفع به الجوع،

---

١. سورة البقرة: الآية ١٦٥.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

٣. سورة البقرة: الآية ١٩٥.

و النكاح ليدفع ما عليه من الغريزة الجنسيّة ، فهو لابدّ أن يقترن بالأثر وإلّا فهو مجرّد و هم و خيال .

و الحبّ يتعلّق بكلّ شيء ، فقد يتعلّق بالله تعالى و يسمّى بالحبّ الإلهي ، و هو وليد كمال معرفة الله جلّت عظمته ، و الناشئ عن الجمال المطلق و لا يحصل إلّا بالتخلية عن الرذائل و التطهير عن كلّ ما يشغل القلب عن الله تعالى و التحلية بالفضائل ، و قد أمر الله تعالى عباده بالإخلاص له :

قال تعالى : **﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[1] .

و قال تعالى : **﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**[2] .

ولا ريب في أنّ الإخلاص لا يتحقّق إلّا بحبّه عزّ و جلّ ، و لا يحصل مع تعلّق القلب بما سواه و لو كان أمراً أُخروياً ، إلّا إذا رجع إلى الله تعالى ، فالعبد المخلص لا يحبّ إلّا الله و لا يشغل قلبه أمر من الأُمور إلّا ما يرجع إلى محبوبه و هو الله تعالى ، و هو يقضي التديّن بدينه بالايتمار بأوامره و الانتهاء عن نواهيه ، فهو علامة محبّة العبد لله تعالى ، و يدلّ على ذلك سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله الذي بيّن سلوكه في محبّته لله تعالى ، حيث حكى عنه عزّ و جلّ : **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**[3] ، فإنّ سبيله الدعوة إلى الله عن بصيرة و علم ، و الإخلاص له و نبذ كلّ ما يشغله عنه عزّ و جلّ ، و من كان متّبعاً له صلى الله عليه وآله ، لابدّ أن يكون كذلك . و هذا هو أفضل مراتب الحبّ و كلّ ما أزداد الشخص عرفاناً بالله العظيم ، ازداد محبّة له عزّ و جلّ .

---

١ . سورة المؤمن : الآية ٦٥ .

٢ . سورة المؤمن : الآية ١٤ .

٣ . سورة يوسف : الآية ١٠٨ .

وهو ذو مراتب متفاوتة، آخرها الفناء فيه ثمّ البقاء به، ولا يحصل إلّا بمتابعة سيّد الأنبياء ﷺ، والجامع بين جميع تلك المراتب هو الحبّ لله، وفي الله، وكلّ ما كان الحبّ أشدّ كانت السعادة أتمّ وأعظم. وهذا هو الدين الخالص الذي أُمرنا به، وهو الدين الذي يندب إليه الأنبياء العظام، وقد وصفه تعالى بالخضوع والتسليم والإخلاص في كتابه المجيد، فقال جلّت عظمته: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾[2]، وهو الذي تدعو إليه الفطرة، قال تعالى: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[3]، ولأجل ذلك عقّب سبحانه وتعالى بأنّ محبّة العبد لله لا تتحقّق إلّا باتباع هذه الشريعة التي تضمّنت جميع أسباب المحبّة له عزّ وجلّ.

ومن ذلك يظهر أن ذكر الآية الشريفة بعد نهي الله سبحانه وتعالى موادّة الكفّار والمشركين أنّ الاتباع لهذه الشريعة لا يحصل إلّا بنبذ تولّي الكفّار، وأنّه مع محبّة الله أمران متضادّان لا يجتمعان في قلب امرئ، وممّا يؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾[4]، فإنّ المستفاد منه أنّ ولاية الله إنّما تثبت للمتّقين المطيعين لله والرسول والمتّبعين شريعته، وغيرهم خارجون عن ولايته تعالى، التي لا تحصل إلّا بحبّ الله عزّ وجلّ ونبذ كلّ ما يوجب الخروج عنه.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٩.

٢. سورة الزمر: الآية ٣.

٣. سورة الروم: الآية ٣٠.

٤. سورة الجاثية: الآية ١٨ ـ ١٩.

قوله تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

أي: أنّ اتباع الله سبحانه و تعالى و الدخول في ولايته عزّ و جلّ باتباع الرسول الكريم الذي هو الكتاب الناطق، فإنّه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾[1] يستدعي محبّة الله تعالى له، وكفى بذلك فخراً و سعادة. و هو المقام السامي الذي يقصده كلّ مخلوق.

و يستفاد من الآية الشريفة أن محبّة الله تعالى للعبد تترتّب على محبّة العبد لله تعالى، و عند التخلّف لا يكون إلّا ادّعاءً، بل هي محبّة الهوى لا محبّة الله تعالى، و لكن لكلّ منهما مراتب متفاوتة.

و علامة محبّة الله تعالى للعبد هي التوفيق للطاعة و الهداية و البُعد عن المعصية، و الانقلاع عن دار الغرور، و الانقطاع إلى دار الخلود، و هذا هو الفوز المبين.

وإنّما ذكر سبحانه محبّته للعبد دون ولايته، فإنّ الحبّ هو الأصل الذي تبتني عليه الولاية، و به يصل العبد إلى مقام الولاية.

قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

عطف اللازم على الملزوم، أي: إذا تحقّقت محبّة الله تعالى لعبده، يتحقّق غفرانه لا محالة. و الذنوب هي التي تمنع من أن يحظى العبد مقام القرب من الله تعالى، كما أنّها هي التي توجب ستر الحقائق عنه و حجبه عن ربّه، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[2].

---

١. سورة النجم: الآية ٣ـ ٤.

٢. سورة المطففين: الآية ١٤ـ ١٥.

والمحبّة هي الجذبة الروحانيّة بين الحبيب والمحبوب، وهي لا تتحقّق مع الذنوب، فكما أنّ محبّة العبد لله تعالى توجب الإخلاص له، كذلك محبّة الله العبد تستدعي قربه تعالى له وإزالة الحجب التي حصلت من الذنوب عنه، فالحبّ يقتضي غفران الذنوب وما يتبعه من الإفاضات المعنويّة والظاهريّة والمقامات التي تقصر العقول عن دركها، فإن إفاضاته غير محدودة إلّا ما كان من جهة المستفيض، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إعلان عامّ لسعة غفرانه ورحمته مع قابلية الموضوع، وهو في مقام التعليل لصدر الآية الشريفة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

تأكيد لما تقدّم، وبيان لحقيقة متابعة الرسول، وشرح لمعنى محبّة الله تعالى، فإنّ الآية السابقة تدعو إلى محبّة الله ومتابعة الرسول، وهما لا تحصلان إلّا بإطاعة الله والرسول، وهي لا تحصل إلّا باتباع الشريعة التي أنزلها الله تعالى على نبيّه بإخلاص، وبه تتحقّق طاعة الله ورسوله، فتكون إطاعة الله وإطاعة الرسول واحدة. ويدلّ على ذلك عدم تكرار الأمر، فلو كانت الإطاعتان مختلفتين لقال عزّ وجلّ: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[2].

نعم، يكفي صدق إطاعة الله ورسوله بإتيان العبادات تقرّباً إلى الله تعالى، وإتيان غيرها على حسب الوظيفة الشرعيّة التي أرادها الله تعالى، وبه تتحقّق

---

١. سورة الإسراء: الآية ٢٠.

٢. سورة النساء: الآية ٥٩.

متابعة الرسول ﷺ، سواء قصدها حين العمل أم لا، لأنّ هذا القيد يحتاج إلى دليل و هو مفقود.

و ظاهر الأمر إرشاد إلى إتيان نفس التكاليف كلّها، كما في أوامر (أطيعوا الرسول) في كلّ ما ورد في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾.

أي: أن التولّي من إطاعة الله و الرسول كفر، و الله لا يحبّ الكافرين، و التولّي إمّا أن يكون اعتقاداً و عملاً فهو الكفر، و إن كان عملاً فقط مع بقاء الاعتقاد ـ لو فرض ـ فهو الفسق، و قد يوجب الكفر، و لعلّ إجمال قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾، لأجل هذه الجهة.

و في الآية المباركة إشعار بأنّ الحبّ المنفي إنّما يكون في التولّي عن طاعة الله و الرسول، كما أنّ صدر الآية الشريفة يثبت أنّ الحبّ إنّما يكون في متابعة الله و الرسول، و لا يخلو ذلك من اللطف كما لا يخفى.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

قوله تعالى: ﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ**﴾، لا ناهية، و الفعل مجزوم بها، و هو متعدّ لمفعولين.

و قوله تعالى: ﴿**مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، (من) لابتداء الغاية، و الجملة حال من الفاعل، أي متجاوزين عن ولاية المؤمنين إلى الكافرين.

وقيل: الجملة في حيز الصفة لأولياء، **وقيل**: متعلّق بالاتّخاذ.

و (تقاة) في قوله تعالى: ﴿**إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾، مفعول مطلق وزنها فعلة و أصلها وقية، ثمّ أبدل الواو تاء كنجاة و تكاة، فصارت تقيّة، ثمّ قلبت الياء ألفاً لتحرّكها و انفتاح ما قبلها، فصارت تقاة. و (منهم) متعلّق بـ(تتّقوا)، و الفعل تعدّى بمن، لأنّه بمعنى خاف و هو يتعدّى بها.

و الظرف في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ**﴾، قيل إنّه منصوب بـ(يحذركم)، أي يحذّركم الله نفسه في يوم تجد.

و أورد عليه: بأنّه لا يكون (يوم) مفعولاً ليحذّركم، لأنّ يحذركم لا تتعدّى إلّا إلى مفعولين، و قد استوفاهما، و لا بدلا من أحدهما كما لا يخفى.

و قيل: إنّه ظرف للتحذير.

و فيه: أنّ التحذير و فائدته إنّما هما في الدّنيا، كما أنّه لا يمكن أن يكون ظرفاً للحذر ـ لو صحّ في نظائره ـ لأنّ الحذر في ذلك اليوم لا فائدة فيه و لا غاية.

و قيل: إنّه معمول فعل مضمر، أي: اذكر ـ يا محمّد ـ يوم تجد، فتكون الجملة منقطعة.

و أورد عليه شيخنا البلاغي أنّه لا دليل يدلّ على ذلك ، و لا يقاس على تقدير ذلك عند قوله تعالى : (و إذ) في موارد متعدّدة من القرآن الكريم ، أي واذكر إذ لأنّ السياق هناك يشير إلى ذلك، وقد تكرّر ذكره صريحاً في عدّة آيات ، منها:

قوله تعالى : **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ﴾**[١] .

و قوله تعالى : **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادى﴾**[٢] .

و قوله تعالى : **﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ﴾**[٣] .

و قيل : إنّ العامل فيه قدير في قوله تعالى : **﴿وَاللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** .

و قيل : إنّه متعلّق بقوله تعالى : **﴿يَعْلَمْهُ اللّٰهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾** ، و يصحّ تعلّق علمه بـ(اليوم) ، لأنّه ظرف لعلمه بالنسبة إلى ظهور الأمر لنا ، لا بالنسبة إلى تحقّقه منه تعالى ، كظهور ملكه و قدرته و قوّته في ذلك اليوم ، مع أنّها دائمة له تعالى ، وإنّما اختصّ بذلك اليوم لظهور الحقيقة بالنسبة إلى خلقه .

و قيل : إنه متعلّق بـ(المصير) ، أي و إليه المصير في يوم تجد ، و الفاصل ليس بأجنبي ، و اختاره شيخنا البلاغي و اعتبره من أكمل الصلاحية و المناسبة ، و قال الزمخشري : إنّ يوم معمول لـ(تود) ، و الضمير في (بينه) يعود إلى ذلك اليوم .

و فيه : أنّ الآية المباركة إخبار عن حال كلّ نفس و هي تودّ أنّها لو عملت من خير محضراً أن يتعجّل يوم القيامة لكي تفوز بسعادته .

و (ما) في قوله تعالى : **﴿مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾** موصولة و العائد محذوف ، و (من) بيانيّة ، و (محضراً) حال من العائد المحذوف تقديره ما عملته

---

١ . سورة مريم : الآية ١٦.

٢ . سورة ص : الآية ٤١.

٣ . سورة الأحقاف : الآية ٢١.

من خير محضراً.

و قيل: إنّه مفعول ثان لـ(تجد)، إن جعلت بمعنى تعلم.

و (تود) في قوله تعالى: **﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ﴾** في موضع الحال من الضمير المرفوع في عملت، أي (ما عملت من سوء). و إذا قطعتها ممّا قبلها و جعلتها للشرط جزمت تودّ جواباً للشرط و خبراً لما.

وقيل: إنّ (ما) في **(ما عملت من سوء)** في موضع رفع بالابتداء، وتود الخبر.

و (تحبّون) في قوله تعالى: **﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾** من حب، كما أنّ (يحببكم) من أحب، و يرد الأوّل على (فعل) و منه الحبيب، و يرد الثاني على (فعل) و منه المحبوب، و لم يرد اسم الفاعل من حبّ المتعدّي، فلا يقال: أنا حاب، كما أنّه لم يرد اسم المفعول من (أحب) إلّا قليلا كقول الشاعر:

و لقد نزلت فلا تظنّي غيره مـنّي بمنزلة المحبّ المكرم

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: إنّما عبّر سبحانه بالاتّخاذ في قوله تعالى: **﴿لَايَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ﴾**، لأنّ الاتّخاذ أبلغ في المطلوب، و ليشمل جميع العلائق الروحيّة منها و الماديّة، وكلّ ما يوجب التقرّب إلى الكافر و الامتزاج معه، و قد ورد هذا اللفظ بالنسبة إلى المشركين و عبّاد الأوثان:

قال تعالى: **﴿لَاتَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**[١].

و قال تعالى: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللّهِ﴾**[٢].

---

١. سورة النحل: الآية ٥١.

٢. سورة التوبة: الآية ٣١.

إلى غير ذلك من الآيات الشريفة.

ومن ذلك يظهر السرّ في تكرار النهي في آيات أُخرى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾[١].

و الآية الشريفة ترشد إلى أعظم دستور إلهي ينظّم علاقات المؤمنين بعضهم مع بعض، و العلاقات بينهم و بين أعدائهم، الّذين لم يضمروا في أنفسهم سوى الكراهة من أعدائهم ممّا كان السبب في مشاكلهم و متاعبهم، و قد شدّد الله سبحانه على ترك هذا الأمر الإلهي و الحكم الاجتماعي بما لم يذكره في غيره، إذ فيه حياتهم و سعادتهم، و كلّ ما كان المؤمنون أبعد من الامتزاج مع أعدائهم، كلّ ما كانت سعادتهم أعظم و سيادتهم أكثر و مشاكلهم أقل، فهلموا أيُّها المسلمون إلى العمل بالقرآن الكريم و جعل إرشاداته و أحكامه نصب أعينكم، و لا يسبقنّكم إلى العمل بالقرآن غيركم، فإنّ فيه هلاككم و تشتّت جمعكم، و هذا من ملاحم القرآن الكريم.

الثاني: إنّما ذكر سبحانه (المؤمنون) و (الكافرين) في الآية الشريفة للدلالة على أنّ سبب هذا الحكم هو الإيمان و الكفر، فإنّ بينهما أقصى التباعد و التنافر، و هو يسري إلى جميع الفروع و الجهات، بل يسري حتّى إلى الصور الذهنيّة، و كذلك تكون بين مَن يتلبّس بهما، فإنّ بينهم غاية الاختلاف و التباعد في جميع الأُمور، من المعارف و سائر شؤون الحياة، فيكون الامتزاج مع الكافرين يوجب فساد العقيدة و إذهاب خواص الإيمان و آثاره، و إبطال أصل الدين، و لأجل ذلك عقّبه سبحانه و تعالى بقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ على انقطاع العلاقة بين الله جلّ جلاله و بين من يتّخذ الكافرين أولياء، و البُعد عنه عزّ و جلّ و إيكال

---

١ . سورة المائدة: الآية ٥١.

الأمر إلى أنفسهم و سلب التوفيق عنهم، و هو ما نشاهده بـالحسّ و الوجـدان، و هو يدلّ على كفر من تولّى الكافرين.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُـقَاةً**﴾، على مشـروعيّة التـقية والرخصة فيها في موارد محدودة، و هي تتقدّر بقدر الضرورة، و لذا ذكر سبحانه وتعالى (تقاة)، الدال على مقدار التقية ـ و خصوصياتها و يـختلف حكـم التـقيّة حسب اختلاف المورد ـ إلى الأحكام الخمسة التكليفيّة، فقد تكون التقيّة واجبة كما لو استلزمت جلب قلب الكافر و إدخاله في الإسلام و نشر أحكـام الديـن الحنيف، و نحو ذلك ممّا ترجع فائدته إلى أصل الدِّين و المتديّنين به، و كـذا إذا استلزم ترك التقية الضرر و الفساد على المسلمين، و لكن في جميع ذلك لابدّ من الاهتمام على حفظ العقيدة و التحذّر عن فسادها و تزلزلها.

و بالجملة: أنّ مورد التقية من الكفّار هو دفع الضرر عن النفس أو المال أو العرض، أو جلب النفع النوعي، بحيث لا يكون محذور شرعي في البـين، و لا فرق في النقع بين النوعي منه و الشخصي، إذا انطبق عليه عنوان الضـرر، و قـد فصّل ذلك في الفقه.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللّـهُ نَـفْسَهُ**﴾ أنّ النـهي مـن التولّي من أعظم المناهي﴾، و أنّ معصية التولّي قد بلغت غاية القبح و تناهت فيه، بحيث حذّر الله سبحانه و تعالى في هذا المورد عن نفسه، و هو ينذر عن عـظيم العقاب و شدّة العذاب و أنواع الحرمان، و هو كذلك لكثرة المفاسد المترتّبة عليه كما هو معلوم، فيكون التولّي و ترك التحذّر من الله نفسه مـن أعـظم مـصاديق الطغيان على الله تعالى، لأنـه يتبع إبطال الدين و فساد العقيدة، و أنّهم قد أُمـروا بالاستقامة في عدّة آيات:

قال الله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**

بَصِيرٌ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[١].

فكأنّ هذه الآية الشريفة شارحة للآية التي تقدّم تفسيرها و مبيّنة للتحذير، فإن التولّي و الركون إلى الظالمين يوجب الطغيان، و هو يستتبع أشدّ العذاب و حرمان الأنصار، و لأجل ذلك كانت هذه الآية شديدة الوقع على رسول الله ﷺ، فقد ورد أنّها شيّبته.

السادس: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾**، منضما إلى تكرار التحذير من الله، شدّة التهديد، حيث إنّه لا مفرّ منه عزّ و جلّ و لا صارف عن بلائه، و يدلّ أيضاً أنّه من القضاء الحتم الذي لا مبدّل له.

السابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** على إحاطة علمه عزّ و جلّ و شموليّته لجميع الموجودات، وسعته الشاملة للأُمور الموجودة و التي ستوجد بعد ذلك. و هذه الآية من الأدلّة الدالّة على علمه بالجزئيات، وردّ على من قال بعدم علمه بها.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَاللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ﴾**، تأكيد التهديد و التخويف، فإنّ مثل هذا التعبير إذا أتي به في مقام التخوّف و التحذير يكون لتثبيته و إشعار المخاطب بأنّ المتكلّم إنّما هو ناصح شفيق، و لا يريد إلّا الخير و الصلاح، فلا ينبغي التعرّض لسخطه، فيكون إخباره بذلك رأفة به.

و يمكن أن يكون ذلك لأجل أنّ مَن فعل ذلك و ارتكب هذه المعصية العظيمة، إن رجع عنها و أراد الإصلاح فإنّ الله تعالى يقبل منه توبته رأفةً به، و إن

---

١. سورة هود: الآية ١١٢ ـ ١١٣.

كان وبالها عظيماً.

التاسع: إنّما بدأ سبحانه و تعالى بحبّ الله، لأنّه أصل الدّين و أساس الكمالات الحقيقيّة الإنسانيّة، و ما عداه باطل زائل، و هذا مفاد جملة من الآيات الشريفة و عدّة من الروايات، ففي بعضها: «و ليس الدّين إلّا الحبّ في الله و البغض في الله»، و في البعض الآخر: «و هل الدّين إلّا الحبّ و البغض»، و لذلك ذكر الحبّ دون الولاية.

العاشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ على أنّ الاتّباع في الآية السابقة الموجب لمحبّة الله للتابع، إنّما يتحقّق في إطاعة الله و إطاعة الرسول، و هما متقوّمتان بالإخلاص، فيكون حبّ الله متمثّلاً في الإخلاص له عزّ و جلّ و يرجع بالآخرة إلى أنّ دين الله إنّما يكون في الإخلاص له عزّ و جلّ، و هو جعل العبد نفسه و جميع شؤونه في مرضاة الله تعالى، و هو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[1]، فإنّ الإسلام من التسليم، و هو يتجلّى في الإخلاص، و هو ينتهي إلى الحبّ.

الحادي عشر: إنّما كرّر تبارك و تعالى لفظ (قل) في الآيات الشريفة، إمّا لأجل أنّ خطاب الملك مع رعيّته إنّما يكون بواسطة أخصّ وزرائه المطّلع على الخصوصيّات، أو لأجل انطواء العقول في الرسول الأعظم ﷺ انطواء الجزء في الكلّ، فإنّه سيد الأنبياء و العقل الكلّ، و كلّ العقول، فيكون الخطاب إليه خطاباً إلى الكلّ، فهو مظهر جميع التشريعات السماويّة، بل جميع الخطابات التكوينيّة. و مقام خاتم النبوّة ﷺ إنّما هو مرتبة سرّ الوجود و الإيجاد و منتهى الكمالات، فهو سابق السائرين إلى الله تعالى و قائدهم إليه عزّ و جلّ، و قد ورد في بعض الأخبار أنّ الشمس جزء من سبعين جزء من نور العرش، فإذا كانت الشمس

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٩.

الجسمانيّة تستضيء من العرش و تضيء لما سواها ، فالشمس المحمديّة الأحمديّة تستضيء من الأحديّة المطلقة ، و تضيء لما سواها .

و يمكن أن يكون التكرار في هذه السورة الشريفة لأجل أنّ المقام مقام الاحتجاج مع أهل الكتاب و المشركين ، و في التكرار تثبيت لرسالته ﷺ و كمال الخلّة بينهما .

***

بحث عرفاني:

يستفاد من الآيات المباركة المتقدّمة مباحث عرفانيّة مهمّة :

الأوّل : أنّه يدعو الله تعالى في الآيات المتقدّمة إلى العقل السليم و الفطرة المستقيمة ، و هما محجوبان بحجب كثيرة ، و من أغلظها الحجب الشهوانيّة التي تكفي في استفزازها النفس الأمّارة بعدما يدعو إليها الشيطان و يهيء لها جميع السبل التي تثيرها ، لا سيما بعد قوله : ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1] ، فاجتمع على إثارة الشهوات داعيان ، هما النفس الأمّارة و الشيطان ، و لذا كان داعي الشيطان أكثر إجابة من داعي الرحمن .

وإنّما يأمن الإنسان من كيد الشيطان و قهر النفس الأمّارة بالإيمان بالله عزّ و جلّ و متابعته و طاعته في جميع ما أنزله الله تعالى ، و يرتقي إلى درجة الخلّة و الحجب ، و بذلك تنجلي تلك الحجب و تنخرق على قدر مراتب الإيمان .

و ممّا لا يمكن اجتماعهما في قلب الحبيب هو تولّي الله تعالى و تولّي أعدائه ، فإنّهما أمران متنافيان في أي مرتبة كانا ، و من المعلوم أنّه بتولّي الكفّار لا تزال الحجب تغلظ حتّى تستولي على إيمانه فيزول رأسا ، و لأجل ذلك ورد النهي عن تولّي الكافرين و المنافقين و الجائرين الظالمين في القرآن الكريم

---

١ . سورة ص : الآية ٨٢ ـ ٨٣ .

و السنّة المقدّسة، و قالوا: «لا عدو أعدى من قرين السوء»، و الشواهد العقليّة تدلّ على ذلك، لأنّ سرّ العبوديّة بين المعبود الحقيقي و العابد من أفضل الموجودات في عالم الممكنات، و بهذه الإضافة يصل العبد إلى أقصى درجات القرب و أعلى المقامات، و هذه الرابطة فعّالة لكلّ ما تشاء، و خلّاقة لما تريد، و لا يجوّز العقل أن تدنس هذه الإضافة المباركة بتولّي الكفّار و الايتلاف مع الفجّار الأشرار، و ليس ذلك إلّا كمن أغفل عن الجوهرة الكريمة التي لا تقدر بثمن و أوقعها في الكنيف.

الثاني: يمكن أن يكون المراد من قوله تعالى: **﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾**، الواردات القلبيّة، التي ترد على قلوب أوليائه تعالى، فيكون المراد بالإخفاء عدم إذنه تعالى في إنشائه و إظهاره كجملة من أسرار القضاء و القدر، و المراد من الإبداء إذنه في ذلك، فإن الله سبحانه و تعالى يحول بين المرء و قلبه، قال عزّ شأنه: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾**[1]، فتكون جميع تلك الخاطرات و الواردات مورد علمه و مشيئته و إرادته بنحو الاقتضاء لا بنحو العلّيّة التامّة حتّى يلزم المحذور من الجبر و أمثاله، فإن قلوب الأولياء من أجلّ مشارق أنوار الغيب، و في القدسيات: «لا تسعني أرضي و لا سمائي، بل يسعني قلب عبدي المؤمن»، لأنّ إيمان المؤمن بالله تعالى يجعل قلبه متّصلاً بما لا يتناهى له من كلّ جهة، فيخرق حجب الإمكان إلى أن يصل إلى مرتبة لا يمكن تحديدها.

و في الحديث سأل موسى عليه السلام ربّه فقال: «أين أجدك يا رب؟ فقال تعالى: إنّي عند القلوب المنكسرة»، أي كسرها حبّ الله جلّ جلاله، و جبرها تجلّي المحبوب فيها، فكسرت الهيبة الإيمانيّة جميع الحجب الظلمانيّة، بل الجهات

---

١ . سورة الأنفال: الآية ٢٤.

الإمكانيّة، فاتّصلت إلى معدن النور و منبع الخير و السرور، فاستعدّت للإشراق فأشرقت عليها المعارف الحقّة و العلوم الغيبيّة، ممّا لا يعقل تحديدها بالكلام و لا يمكن تحصيلها بالجهد و الإلمام، و هو على كلّ شيء قدير. و للكلام تتمّة تأتي في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى، فحينئذٍ الآية المباركة تختصّ بالمؤمنين الّذين لهم الدرجات العليا في الإيمان.

الثالث: أن محبّته تعالى لخلقه إن كانت من المحبّة التكوينيّة فهي من صفات الذات الأقدس، لرجوعها إلى العلم و الحكمة، و هما عين الذات، و لا يعقل فيها الاشتداد و التضعّف، و إن كانت من المحبّة الفعليّة فهي من صفات الفعل، لرجوعها إلى الرضا و التوفيق و التسديد، و كلّ ذلك من صفات الفعل، و لا يعقل أن تكون في مرتبة الذات لقابليّتها للتغيّر و التبديل.

و هذه المحبّة الاختياريّة من العبد لله عزّ و جلّ هي موضوع السير و السلوك و الوصول إلى مقامات العارفين، و بعضهم سمّى أهل هذا السير و السلوك بـ: القافلة الإلهيّة. و خلاصة ما قالوه فيها: إنّها قافلة تسير من الله تعالى إلى الله مع الله، و قال جلّت عظمته في شأنهم: **﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾**[1] و قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾**[2]، و رائد هذه القافلة و رئيسها محمّد حبيب الله، و إبراهيم خليل الرحمٰن، و يد الله فوق رؤوسهم ترفرف بأنحاء اللطف و الرحمة، و تجذبهم روحانيّة خليل الرحمٰن إلى خليله، و معنويّة حبيب الله إلى حبيبه، و أنّ سعيهم الوصول إلى أقصى الكمال، و هذا أكمل سير في الممكنات.

الرابع: أنّ التحذّر عن الله جلّ جلاله له مصاديق كثيرة، من أعظمها الإيذاء

---

١. سورة النور: الآية ٣٧.

٢. سورة فصلت: الآية ٣٠.

و الاستخفاف بعباد الله تعالى الّذين مدحهم في آيات كثيرة و ذكر صفاتهم، فقال عزّ شأنه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾[1]، و ذكر علي عليه السلام صفاتهم في جملة من كلامه، فقال:

«نطقوا فكان نطقهم صواباً، و سكتوا فكان سكوتهم حكمة و نظرهم عبرة، صحبوا الدّنيا بأبدان، أرواحهم معلّقة بالملأ الأعلى، أنفسهم منهم في تعب و الناس منهم في راحة، شعارهم الخضوع و مأكلهم و ملبسهم القنوع».

وقد ورد في السنّة المقدّسة في مدحهم ما لا يحصى، حتّى أنّه ورد فيها أنّ الله جلّت عظمته قال: «من آذى وليّي فقد بارزني بالمحاربة»، و قوله عليه السلام: «و لو لاهم لساخت الأرض بأهلها»، إلى غير ذلك ممّا ورد في مدحهم و ثنائهم، ولا بدّ أن يكون كذلك، لأنّهم أعظم مظهر لمكارم أخلاق الله تعالى، و أنّ قلوبهم المقدّسة لا تزال مستشرقة بشوارق من عالم الغيب، فتزيل عنها كلّ شكّ و دنس، فهم الأنوار التي تخرج بهم الناس من الظلمات إلى النور، و هم الصراط المستقيم.

***

بحث فلسفي:

أثبتت الفلاسفة الإلهيّون و الطبيعيّون أنّ كلّ ممكن زوج تركيبي، له ماهية و وجود، و قد فصّلوا البحث في كلّ منهما من جميع الجهات بما لا مزيد عليه.

كما أثبتوا أنّ كلّ مركب ممكن، و استدلّوا عليه ببراهين كثيرة، و أهمّها الافتقار كما تقرّر ذلك في محله.

---

١. سورة الفرقان: الآية ٦٣ ـ ٦٥.

و أثبتوا أنّ الماهيّة (الذات) قبل الوجود لا أثر لها، بل تكون ليسا محضاً، أي عدماً. و هذه الأمور الثلاثة من المتسالم عليها بينهم.

وإنّما اختلفوا في أنّ المجعول و متعلّق الجعل هل هو الوجود أو الماهيّة (الذات)، أو الاتّصاف بنهما؟ و هذه من المسائل العويصة بينهم، و أي منها كان مجعولاً يلزمه جعل الآخرين بالعرض، ليتمّ الجعل التركيبي و يترتّب الأثر لا محالة.

كما أنّ أيّاً منها كان مجعولاً للجاعل تكون لوازمه مجعولة له بنحو الاقتضاء، فإذا كان الله جلّ جلاله خالق الإنسان و جاعله، يكون جاعلاً لعلمه و إرادته و مشيئته، فقوله تعالى: **﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾** من علم العلّة بالمعلول، و هو أتقن أنحاء العلوم كما ثبت في محلّه.

و للفلاسفة الإلهيّين أصلان مهمان يتفرّع عليهما مسائل كثيرة ذكرت في محلّها:

أحدهما: أصالة التحقّق، فيبحثون في أنّ الأصل في التحقّق هل هو الوجود أو الماهيّة (الذات)؟ على اختلاف بينهم، فيثبت كلّ منهما دعواه بأدلّة كثيرة مذكورة في محلّها.

ثانيهما: أنّ الأصل في الجعل هو الوجود أو الماهيّة.

و المراد من الأوّل أنّها تلحظ بالنسبة إلى نفس المجعول، كما أنّ المراد من الثاني أنّها تلحظ بالنسبة إلى نفس الجاعل، و لكن بعد اتفاق جميع الفلاسفة على أنّه لا أثر للجعل و المجعول إلّا بعد تحقّق الوجود، يرتفع هذا النزاع في البين، و أنّه لا يمكن التفكيك بين الوجود و الماهيّة مطلقا، فالآثار مترتّبة على الوجود، سواء قلنا بالأُولى أم الثانية.

و هناك نظرية أُخرى قرّرها بعض أعاظم مشائخ مشايخنا، و هي جعل

نفس الذات جعلاً مركّباً، أي قد وجدت الذات و تجوهرت الجواهر. فالأشياء بما لها من الصفات و الذات تعلق بها الجعل، و استدلّ بآيات كثيرة و بجملة من الروايات.

و يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** و غيره من الآيات الشريفة، أنّ تمام الأشياء بذواتها و وجوداتها و صفاتها، مجعولة و مخلوقة له تبارك و تعالى.

و ما يقال: من عدم إمكان الجعل التركيبي بين الشيء و نفسه، إنّما هو في قدرة الممكن و القوى الممكنة، لا القدرة القهّارة التي هي فوق الكلّ. و على هذا فيكون الأمر أوضح كما هو معلوم.

ثمّ إنّ العلل و المعلولات كما أنّها مترتّبة في سلسلة نظام التكوين، فلو تخلل في البين نقصان في بعضها لا تحصل الغاية المطلوبة و الغرض المقصود، فكذلك في نظام التشريع، من غير فرق بينهما من هذه الجهة.

بل التشريع هو الأصل في بناء التكوين إذ لولا نظام التشريع لم يكن للتكوين أثر، لا في الدُّنيا و لا في العقبى.

و منه يظهر الوجه في خطاب الله تعالى مع حبيبه محمّد ﷺ: «لولاك لما خلقت الأفلاك»، فالعلّة الغائيّة لأصل التكوين و بنائه مطلقاً هي التشريع، و قد أثبتت الفلاسفة أنّ العلّة الغائيّة إنما هي علّة فاعليّة الفاعل، فهي و إن كانت مؤخّرة وجوداً لكنّها مقدَّمة علماً، فلابدّ و أن يكون نظام التشريع في جميع جهاته أرفع و أجلّ من نظام التكوين، فلا سبيل للوصول إليه إلّا بواسطة الرسول، فهو يسدِّد العقل الكلّي، و أنّ العقل يستمدّ منه فلا مناص لأحدهما بدون الآخر في مقام الإطاعة و العصيان في امتثال تكاليف الرحمن، ممّا ضبطته السنّة و القرآن.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

و قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، يدلّ أنّ متابعته صلى الله عليه وآله هو الأصل في تنظيم نظام التشريع الذي يترتّب عليه نظام التكوين بما شاء الله تعالى.

كما أنّهم أثبتوا أنه لابدّ من تحقّق العلاقة و الربط بين الجاعل و المجعول، و إن لم نقل باعتبار السنخيّة بينهما، كما في الجاعل المطلق و خالق الخلق، حيث دلّت الأدلّة على عدم السنخيّة بينه و بين خلقه، و أنّها بينونة صفة لا بينونة عزلة، و لكن أصل الربط و العلقة ممّا لابدّ منه بينه تعالى و بين خلقه، و في القرآن و السنّة المقدّسة شواهد كثيرة تدلّ على هذه العلقة و الربط، و لها مراتب كثيرة جدّاً، فيصحّ أن يقال إنّ محبّته تعالى سارية في جميع الموجودات من علوياتها و سفلياتها، و لكن هذه المحبّة التكوينيّة يمكن أن تكون غير ملتفت إليها أصلاً، فالمحبّة التي وردت في هذه الآية الشريفة هي الاختياريّة منها ـ كما تقدّم ـ لأنّها ملازمة لمتابعة النبيّ المختار و عليها يدور الثواب، و على تركها العقاب، و يمكن أن يجمع في بعض عباد الله تعالى قسمان من المحبّة، فإنّ لهم المحبّة التكوينيّة و المحبّة الاختياريّة، و يأتي في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾[٢]، تتمّة الكلام إن شاء الله تعالى.

***

بحث روائي:

في «أسباب النزول» و «الدرّ المنثور»: «عن ابن عبّاس في قوله تعالى:

---

١. سورة الأعراف: الآية ٩٦.

٢. سورة طه: الآية ٣٩.

« ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾، كان الحجّاج بن عمرو و كهمس ابن أبي الحقيق و قيس بن زيد ـ و هؤلاء كانوا من اليهود ـ يباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال: رفاعة بن المنذر و عبد الله بن جبير و سعيد بن خيثم لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، و احذروا لزومهم و مباطنتهم، لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلّا مباطنتهم و ملازمتهم، فأنزل الله هذه الآية».

أقول: هذا كلّه من باب بيان بعض المصاديق.

و في «أسباب النزول» و غيره: عن الضحاك عن ابن عبّاس: «نزلت الآية في عبادة بن الصامت الأنصاري وكان بدريّاً نقيباً، وكان له حلفاء من اليهود، فلمّا خرج النبيّ ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبيّ الله، إنّ معي خمسمائة رجل من اليهود، و قد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم على العدو، فأنزل الله لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء».

أقول: تقدّم أنّ هذا و أمثاله من باب بيان تعدّد المصاديق.

و في «تفسير العياشي»: عن الصادق عليه السلام، قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: لا إيمان لمن لا تقيّة له، و يقول: قال الله: إلّا أن تتّقوا منهم تقاة».

أقول: بعد أن كانت التقيّة مقتضاة الحكمة الشرعيّة و تطابقت عليها قوانينها، فتارك التقية يكون حينئذٍ ممّن لا دين له، فالرواية الشريفة إرشاد إلى حكم عقلي.

و في «الكافي»: عن الصادق عليه السلام: «التقية ترس الله بينه و بين خلقه».

أقول: كما أنّ الترس «بالضم» يحفظ عن مفسدة هجوم الأعادي، كذلك التقية تحفظ صاحبها عن الآفات و الشرور.

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «التقيّة في كلّ شيء يضطرّ إليه ابن آدم، و قد أحلّ الله له».

أقول: هذه الرواية أيضاً مطابقة للقواعد العقليّة، و الروايات في ذلك متواترة و كثيرة، و لها شروط و أحكام مفصّلة ذكرناها في كتابنا «مهذب الأحكام».

و في «تفسير العياشي» و «معاني الأخبار» و غيرهما، عن الصادق عليه السلام: «هل الدِّين إلّا الحبّ، إنّ الله عزّ و جلّ يقول: **﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾**».

أقول: الروايات في أنّ الدِّين هو الحبّ كثيرة، و أنّها موافقة للقانون العقلي أيضاً، إذ من أحبّ شيئاً تبعثه نفسه إلى متابعته و تزجره نفسه عن مخالفته.

و في «المعاني» أيضاً، عن الصادق عليه السلام قال: «ما أحبّ الله مَن عصاه، ثمّ:

تعصي الإله و أنت تظهر حبّه ... هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إن المحبّ لمَن يحبّ يطيع».

أقول: ظهر ممّا تقدّم وجه هذه الرواية.

و في «الدرّ المنثور»: أخرج عبد بن حميد عن الحسن، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَن رغب عن سنّتي فليس منّي، ثمّ تلا هذه الآية: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾**».

أقول: متابعة سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله لا تتحقّق إلّا بامتثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه، و ذلك لا يتمّ إلّا بمتابعة العلماء العاملين بسنّته، القائمين مقامه.

و في «الدرّ المنثور» ـ أيضاً ـ: أخرج ابن أبي حاتم و أبو نعيم في «الحلية» و الحاكم عن عائشة، قالت: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الشرك أخفىٰ من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء، و أدنىٰ ذلك أن يحبّ على شيء من الجور، و يبغض على شيء من العدل، و هل الدِّين إلّا الحبّ في الله و البغض في الله؟ قال الله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾**».

أقول: أمّا قوله ﷺ: «الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا .. إلخ» فيأتي شرحه في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(١)، و في جملة من الأخبار الواردة: «أنّ قول الرجل لأخيه: لولا فلان لهلكت، هذا نحو شرك، فقيل له: يا رسول‌الله كيف نقول؟ قال: قولوا لولا أن مَنَّ الله عليَّ بفلان لهلكت».

و أمّا قوله ﷺ: «هل الدّين إلّا الحبّ و البغض في الله» فمعناه أنّ محبّة ما يحبّه الله تعالى و بغض ما يبغضه الله تعالى هما الدّين، و لا معنى للدّين إلّا ذلك، سواء لوحظ من الوجه الكلّي أم الوجه الفردي الشخصي.

في «الدرّ المنثور» أيضاً: أخرج أبو أحمد، و أبو داود، و الترمذي و ابن ماجة، و ابن حيان و الحاكم، عن أبي رافع عن النبيّ ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري ممّا أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري؛ ما وجدناه في كتاب الله اتّبعناه».

أقول: قد صار مفاد هذه الرواية شائعاً بين الناس، كلّ ما قيل لهم حكم من أحكام الشريعة يقولون: أين محلّه من كتاب الله، مع أنّ كتاب الله تعالى من دون سنّته المتّبعة لا ينفع العالم و غيره.

و في «أسباب النزول»، عن ابن عبّاس: «أنّ اليهود لمّا قالوا نحن أبناء الله و أحبّاؤه، أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، فلمّا نزلت عرضها رسول‌الله ﷺ على اليهود فأبوا أن يقبلوها».

أقول: لأنّ منشأ إظهار مودّتهم للمسلمين و تعزيز أنفسهم لهم حيث كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(٢)، و هذه من مزاعمهم الفاسدة، و أنّ الآية

---

١. سورة يوسف: الآية ١٠٦.

٢. سورة المائدة: الآية ١٨.

الشريفة تفنّد جميعها .

و فيه أيضاً : عن محمّد بن إسحاق بن يسار ، عن محمّد بن جعفر بن الزبير ، قال: «نزلت في نصارى نجران، وذلك أنـّهم قالوا: إنّما نعظِّم المسيح ونعبده حبّاً لله وتعظيماً له ، فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم» .

أقول : مرّ أن هذا من باب بيان بعض المصاديق ، فلا منافاة بين الجميع .

***

الآية ٣٣ ـ ٤١

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا
مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي
مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا
أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا
زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ
قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ
قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنْ اللهِ وَسَيِّداً
وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ
وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ
تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾.

الآيات الشريفة فاتحة قصص عيسى بن مريم والاحتجاج على أهل الكتاب، وبدأ فيها بالإخبار عمّن أحبّهم واصطفاهم وجعل منهم الرسل والأوصياء، وهم آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، وأثبت فيها أنّ الاصطفاء

هو اختيار الله تعالى من تلك الذرّية الطيبة التي أحبّهم تعالى.

و ذكر فيها بعض ما دار بينه عزّ و جلّ و بين هذه الذرّية الطيبة، و يظهر فيه كمال الخلّة و المحبّة.

و الآيات الشريفة لا تخلو عن الارتباط بما قبلها من الآيات الدالّة على وحدة الدين و الآمرة بحبّ الله و اتباعه، فإنّ بهما يستعدّ المرء أن يكون من أصفيائه و أحبّائه.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً﴾.

الاصطفاء، و الاختيار، و الاجتباء نظائر، و أصل الكلمة من الصفاء، و هو النقاوة من الدنس و الفساد، و الطاء في اصطفى بدل من تاء الافتعال، مثل الاختيار، فيكون الاصطفاء هو أخذ الشيء صافيا من كلّ ما يكدّره و يختلط معه. و يختلف باختلاف الجهات التي تكون سببا للصفاء، فقد يكون الاصطفاء من حيث الاختلاف مع الغير و الاندماج معه، فيكون بمعنى الاختيار للرسالة، كما في قوله تعالى في شأن موسى ﷺ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾[1]، أو يكون الاصطفاء للملك و السلطة، كقوله تعالى في شأن طالوت: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾[2]، أو يكون باعتبار الانتساب إلى التوحيد و نبذ الأوثان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾[3]، أو يكون الاصطفاء باعتبار صنف على آخر، كما في قوله تعالى:

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

٣. سورة فاطر: الآية ٣٢.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾[١]، أو من حيث التخلّص من الشرك وكونه جامعاً للكمالات، كما في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾**[٢]، أو باعتبار التخلّص من الشركاء في الملك، كما في المأثور:

«إن أعطيتم الخمس و سهم النبيّ ﷺ و الصفي، فأنتم آمنون».

و الصفي: ما كان يأخذه النبيّ ﷺ و يختاره لنفسه قبل القسمة، و يقال له الصفية.

و قد تكون جهة واحدة في الاصطفاء، و ربما تجتمع أكثر من جهة، كما في شأن إبراهيم عليه السلام: **﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾**[٣]، فإنّ اختياره كان بسبب النبوّة و الملك و التقدّم في الإيمان و الدعوة إليه و الإخلاص لله تعالى.

و في المقام الأنسب هو الاصطفاء للرسالة و الولاية و العبوديّة المحضة، التي هي أساس الكمالات الإنسانيّة، و يدلّ على ذلك قوله تعالى: **﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**، فلو كان الاصطفاء بمعنى الانتخاب منهم، لكان الأنسب أن يقول: (من العالمين)، فهو نوع اختيار لهم و تقديم على العالمين باعتبار أمر خاص فوق مقام النبوة و الصلاح لا يشاركهم غيرهم فيه، و هو العبوديّة و الزعامة و الإمامة على الناس.

و قد ذكر سبحانه و تعالى أربعة ممّن اصطفاهم على العالمين، و هم آدم، و نوح، و آل إبراهيم، و آل عمران، و لم يذكر غيرهم، لا سيما الذي بين آدم و نوح من الأنبياء و الرسل و الأوصياء، كهبة الله شيث و إدريس و غيرهم عليهم السلام،

---

١. سورة الصافات: الآية ١٥٣.

٢. سورة البقرة: الآية ١٣٢.

٣. سورة البقرة: الآية ١٣٠.

و هذه قرينة اُخرى أيضاً على أنّ الاصطفاء فيهم خاص، كما ذكرنا.

و أوّل من ذكره سبحانه هو آدم عليه السلام، و قد ورد ذكره في القرآن الكريم في ما يقارب من خمسة و عشرين مورداً، و قد اعتنى به الجليل عزّ و جلّ اعتناء بليغاً باعتبار كونه أبا للبشر، و أوّل الخليقة، و أوّل خليفته في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، و هو أوّل نبي من أنبياء الله تعالى، و أوّل من شرّع له الدين، و أوّل من اجتباه و تاب عليه، قال تعالى في شأنه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدى﴾[2]، و هو الذي خلقه الله تعالى بيده و أمر الملائكة أن يسجدوا له، وكان من ذرّيته النبيّون و المرسلون و غير ذلك من المناقب التي لم يشاركه فيها غيره، وكفى بذلك منقبة، فهو مرآة الكمالات المعنويّة الإنسانيّة المتمثّلة في شخص خليل الرحمن و حبيب الله و آدم أبيهما.

وكم أب قد علا بابن له شرف كما علا برسول‌الله عدنان

و أمّا نوح: الأب الثاني للبشر، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم أكثر من أربعين مورداً، و هو أحد الأنبياء الخمسة و اُولي العزم، بل أوّلهم، و صاحب الكتاب و الشريعة، و هو شيخ المرسلين، و ممّن سلّم عليه ربّ العالمين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[3].

و نوح: اسم أعجمي إلّا أنّه ينصرف، لأنّه على ثلاثة أحرف ساكن الوسط. **وقيل**: إنّه مشتقّ من ناح ينوح، أي صاح، لأنّه كان يصيح في قومه

---

١. سورة البقرة: الآية ٣٠.

٢. سورة طه: الآية ١٢٢.

٣. سورة الصافات: الآية ٧٧ ـ ٧٩.

و يدعوهم إلى الإيمان، قال تعالى على لسانه: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾**[1].

قوله تعالى: **﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**.

الآل و الأهل سواء، إلّا أنّ الأوّل يستعمل في خاصّة الإنسان و الملحقين به، و من يؤول إليه أمره، و يختصّ بالأشراف من أعلام الناطقين دون النكرات و الأزمنة و الأمكنة، بخلاف الأهل، فيقال أهل الخياط، و أهل زمن كذا، و أهل بلد كذا، و قد تقدّم الكلام فيه.

و كيف كان، فالمراد بآل إبراهيم و آل عمران هم خاصّتهما و الملحقون بهما، فيختصّ ببعض الذرّية الطيّبة الطاهرة لا جميعها.

أمّا آل إبراهيم فهم الطاهرون من آله، الطيبون من ذرّيته، لأنّ إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء جميعاً بعد نوح، حيث لا نبيّ منذ إبراهيم إلّا من نسله الخاص، كإسماعيل و إسحاق و يعقوب، و سائر الأنبياء من بني إسحاق، و سيّدهم و أعلاهم قدراً و أنبههم ذكراً محمّد خاتم النبيّين، الذي هو المصطفى بالقول المطلق و مظهر لكمال الحقّ و آله الطاهرون الذين يؤول أمرهم إليه صلى الله عليه و آله في الجهات التشريعيّة و الكمالات الإنسانيّة، و مكارم الأخلاق، و الملحقون به في الولاية، و يشهد لذلك قوله تعالى في ذيل الآية الشريفة: **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾**[2]، فإنّه ظاهر في أنّ المناط في مفهوم الآل هو المتابعة في الاعتقاد و العمل، و بهذا الاعتبار يشمل النبيّ صلى الله عليه و آله و ذرّيته الطاهرين و الذين آمنوا به.

---

١. سورة نوح: الآية ٥ ـ ٦.

٢. سورة آل عمران: الآية ٦٨.

و يمكن الاستيناس له أيضاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، فإنّ محبّة الله تعالى لمتابع النبيّ الأعظم ﷺ تكون من مقتضيات الاصطفاء له أيضاً، و في الحديث عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[1]، أنا دعوة أبي إبراهيم».

و الآية المباركة ليست في مقام تعداد المصطفين واحداً بعد واحد و الحصر فيهم، فلا يضرّ عدم تعرّضها لاصطفاء نفس إبراهيم و موسى و غيرهما عليهم السلام، الذين ورد ذكرهم في غير موضع من القرآن الكريم، الدالّ على سمو قدرهم و علوّ شأنهم، و قد ذكر سبحانه و تعالى في آية أُخرى اصطفاء إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

و أمّا موسى بن عمران و غيره عليهم السلام، فقد ورد ذكرهم في آيات أُخرى:

قال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[3].

و قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[4].

وقد شرح سبحانه وتعالى هذه الآية في موضع آخر بما يرفع إجمالها:

فقال سبحانه عزّ شأنه في سياق كلامه في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ

---

١ . سورة إبراهيم: الآية ٤٠.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٣٠.

٣ . سورة الأعراف: الآية ١٤٤.

٤ . سورة الحج: الآية ٧٥.

وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

مع أنّه لو كانت الفروع و الأغصان من المصطفين، فأصل الشجرة تكون كذلك بالأولى.

و من مجموع الآيات الشريفة يستفاد أنّه ليس جميع ذرّية إبراهيم عليه السلام هم من المصطفين، و لا جميع ذرّية بني إسرائيل كذلك، و إن كان الله عزّ و جلّ فضّلهم على العالمين، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[2]، فإن تفضيلهم على العالمين من جهة لا ينافي تفضيل غيرهم من جهات أُخرى.

و أمّا آل عمران فهم من آل إبراهيم أيضاً، و الظاهر أنّ المراد بهم هم ذرّية عمران أبي مريم أُم عيسى، الذي ينتهي نسبه إلى إبراهيم عليه السلام أيضاً من ناحية اُمّه. و يدلّ على ذلك ..

أوّلاً: اقتضاء المقام التصريح به، لأنّ هذه الآيات و ما بعدها نزلت في مقام الاحتجاج مع أهل الكتاب، اليهود و النصارى.

و ثانياً: خفاء الإشارة إلى عيسى بعموم آل إبراهيم.

و ثالثاً: عدم ورود ذكر عمران أبي موسى في القرآن الكريم مع تكرار ذكر عمران أبي مريم.

و رابعاً: تعقيب هذه الآية الشريفة بالآيات الذي يذكر فيها قصّة امرأة

---

١. سورة الأنعام: الآية ٨٤ ـ ٨٧.

٢. سورة الجاثية: الآية ١٦.

عمران و مريم ابنته، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فإنّه قرينة على المراد من هاتين الآيتين، فهما كالمقدّمة لبيان حال مريم ابنة عمران و ابنها عيسى، فيكون آل عمران هم عمران و زوجته و مريم و عيسى.

و أمّا موسى بن عمران، فهو داخل في عموم آل إبراهيم و لا خفاء فيه، كما هو موجود بالنسبة إلى دخول عيسى عليه السلام، كما عرفت.

ثمّ إنّ الحصر في الآية الشريفة ليس حقيقيّاً و لا مفهوم لها حتّى تدلّ على نفي الاصطفاء في غيرهم، و قد ورد في القرآن الكريم موارد اصطفاء الله تعالى، كما يأتي، مضافاً إلى ما ورد في السنّة الشريفة من أنّ أهل التقوى أهل الاصطفاء.

نعم، للاصطفاء مراتب كثيرة تبعاً لاختلاف سبب التفاضل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

الذرّية من الألفاظ الكثيرة الاستعمال في القرآن الكريم، و أصلها من الذر بمعنى النشر و الانتشار، و استعملت في مطلق الأولاد و النسل لانتشارهم من مصدر واحد، و يطلق على الواحد و الكثير، و قد يأتي الذراري في الجمع، و تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[2]، بعض الكلام.

و الجملة عطف بيان، و نصب «ذرّية» على الحال.

---

١. سورة الإسراء: الآية ٥٥.

٢. سورة البقرة: الآية ١٢٤.

و معنى (**بعضها من بعض**)، أنّ هذه الذرّية مضافاً إلى أنّها متداخلة متشعّبة بعضها من بعض، فكلّ بعض يفرض فهو مبتدئ لبعض آخر و منتهى بعض آخر، هي متشابهة الأطراف في الصفات و الخيرات و الحالات.

و الآية الشريفة تدلّ على أنّ هذه الذرّية متّفقة في الصفات التي اقتضت اصطفاءها على العالمين، فلم يكن جزافاً و لا عبثاً، فالجملة في موضع التعليل لتعميم الاصطفاء، أي لأنّهم متّفقون في الصفات و متشابهو الأفراد اصطفاهم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾.

أي: و الله سميع لأقوال الذين اصطفاهم، و سميع لدعاء الداعين و رجاء الراجين، مستجيب لهم، عليم بمواقع اللطف و ضمائر الناس و ما في قلوبهم.

و الجملة في موضع التعليل لجهة الاصطفاء، أي أنّه تعالى سميع يسمع الأقوال و يستجيب الدُّعاء، و يعلم ما في القلوب و الضمائر، فهو أعلم حيث يجعل رسالته و يصطفي من عباده.

و يمكن أن يكون ذكر (عليم) للإشارة إلى أن الاصطفاء من القضايا العقليّة التي يكون دليلها معها، أي حيث إنّهم كانوا واجدين لشرائط الاصطفاء و فاقدين لموانعه، اصطفاهم الله تعالى، و لا يعلم وجدان الشرائط و فقدان الموانع إلّا العليم بالضمائر و ما في القلوب.

و الآية الشريفة على إجمالها لا تبيّن سبب الاصطفاء، و لكن يمكن استفادة ذلك من آيات أُخرى، فإنّ أسبابه كثيرة، بعضها اختياريّة و بعضها الآخر غير اختياريّة، و أهمّ تلك الأسباب كمال الإيمان بالله تعالى، الذي هو جذبة معنوية غيبيّة، يجذب به الله تعالى عباده إلى الكمال المطلق، و آخر مقامات

الجذبة الإلهيّة هو الاصطفاء، و من العجيب أنّ كلّ اصطفاء تحقّق في فرد وقع ضدّه في فرد آخر الذي هو مظهر الفساد و الشرّ، كآدم و إبليس، و إبراهيم ونمرود، وموسى وفرعون إلىٰ غير ذلك، وبهذا التزاحم والتنافر يتحقّق الاختيار.

و من أسباب الاصطفاء أيضاً المجاهدات في سبيل تكميل النفوس الإنسانيّة و التخلّق بأخلاق الله تعالى و التحلّي بالإنسانيّة الكاملة، حتّى يصل إلى مقام الاصطفاء، فهو آخر مقامات الإنسانيّة الكاملة.

و من أسبابه الصدق و الخلوص في العبوديّة و الإخلاص لله تعالى و نهاية الانقطاع إليه، بحيث يصير الإنسان كالمرآة الأتم لجلال الله و جماله، و غاية الصبر في الدعوة إليه عزّ و جلّ بما يتحمّله من المصائب و المتاعب في سبيل تلك الدعوة، فيكون الاصطفاء مقارناً للابتلاء و الصبر.

و من الأسباب الدخول في مرتبة حبّ الله تعالى له بالعمل بما أنزله عزّ و جلّ و الصبر في جنبه و الإحسان إليه و التّقوى و الجهاد في سبيله و غير ذلك، فإنّ اصطفاء الله تعالى فرع محبّته عزّ و جلّ.

و من آثار الاصطفاء هو تشريع الشريعة على يديه و تأسيس الدين الإلهي و اقتداء سائر الأنبياء به، كما في إبراهيم ﷺ، فإنّه مبدأ التشريع و آخره.

و بالجملة: فإنّ الاصطفاء لبعض العباد يرجع إلى أمر غيبي، لا يعلمه غيره عزّ و جلّ، و لكن ذلك لا يكون على نحو العليّة التامّة المنحصرة، بل الاتّصاف بالصفات الكاملة الحقيقيّة له دخل في الاصطفاء، فهو مركّب من أمرين اختياري و غيره، و مع فقد كلّ واحد منهما لا منشأ له.

ثمّ إنّ الاصطفاء لا يختصّ بالإنسان، بل قد يقع بالنسبة إلى غيره أيضاً، و إن كنا لا نعلم ذلك. و يشهد لذلك بعض الأحاديث بأنّ العقل هو أوّل من اصطفاه الله تعالى، حيث قال: «بك أُثيب و بك أُعاقب»، فهو أوّل من اصطفاه الله تعالى

و آخره في قوسي الصعود و النزول، فيكون المصطفى (بالفتح) حقيقة واحدة لها مراتب متفاوتة.

نعم، بناءً على ما نسب إلى بعض أعاظم الفلاسفة المتألّهين و بعض أكابر العرفاء الشامخين من وحدة الوجود و الموجود، فالمصطفي (بالكسر) و المصطفى (بالفتح) واحد لكنّهما مختلفان بالاعتبار، و لهم في ذلك كلمات نظماً و نثراً، و التفصيل يطلب من محلّه.

و كيف كان، فالاصطفاء منشأ الخيرات و البركات في هذا العالم، و يكون شأن من اصطفاه الله تعالى في هذه الدُّنيا شأن ربان السفينة في البحر المتلاطم المحفوف بالمخاطر، و الناس في هذه السفينة حيارى قد أدهشهم الخوف، فلابدّ لهذا الربّان من علم إلهي بكيفيّة السير و السلوك، كما هو معلوم في السفر من الخلق إلى الحقّ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾.

بيان لأحد أسباب الاصطفاء و تقرير لكيفيّته. و النذر هو إيجاب شيء على النفس و الالتزام به، و الإنذار الإخبار بالتخويف، و يمكن فرض الجامع بينهما و هو إعلان التخويف على المخالفة، سواء كان المنشأ حاصلاً من نفس الإنسان على نفسه أم من الله تعالى ابتداءً.

و محرّراً من التحرير، و هو الخلوص و التخلّص عن الوثائق، كتحرير العبد، أي خلوصه عن الرقيّة، و تحرير الكتاب هو تخليصه عن الفساد و الاضطراب، أو إطلاق المعاني عن قيد الذهن و الفكر، و يقال لكلّ ما خلص أنّه حرّ:

تــــمسَّك إن ظــفرت بــودّ حــرٍّ فــإن الحــرّ فــي الدُّنــيا قــليل

و تحرير الولد لله تعالى أو للأمكنة المقدّسة ، أو النفوس المـحترمة ، هـو التفرّغ للعبادة و العمل للآخرة ، قد كان متعارفاً في الأُمم القديمة ، وكانوا يعتبرون ذلك وسيلة لحفظ الولد عن الضياع و التربية الحسنة و عبادة الله الواحد القـهّار ، فلا يتزوّج و لا يعمل للدنيا .

و معنى التحرير في تلك الأزمنة كان هو تحرير الولد من قبل الأبوين ، أي تحريره عن التبعيّة لهما و الولاية عليه ، فليس لهما بعد التحرير السـلطنة عـلى الولد في استخدامه لاغراضهما ، بل هو داخل بالنذر تحت ولاية الله تعالى ، فلابدّ من صرف خدمته في سبيله عزّ و جلّ ، إمّا في التفريغ لعبادته تـعالى أو خـدمة الأماكن المقدّسة و النفوس المحترمة ، و هذا العمل كان جائزا في الشرائع الإلهيّة السابقة ، و يعتبرون ذلك من نذر الأبرار .

و اللام في «لك» للتعليل ، أي لعبادتك و خدمتك ، و يدلّ قوله تعالى : **﴿مَا فِي بَطْنِي﴾** ، على أنـّها كانت حاملاً حين ما قالت هذا القول ، وكان الحـمل مـن عمران ، كما تدلّ الآية على أنـّها كانت تعتقد أنّ ما في بطنها ذكراً لا أُنثىٰ ، فـإنّ كلامها على نحو البتّ و الجزم ، لا نحو التعليق .

و تذكير (محرّراً) لا يدلّ على كونها نذرت ما في بطنها كائناً من كان ـ ذكراً أو أُنثى ـ وإلّا لما كان وجه لتحسّرها و حزنها كما حكى عنها عزّ و جلّ : **﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾** ، و لما كان معنى لقوله تعالى : **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾** .

و حكاية الله تعالى هذه المناجاة عنها تدلّ على أنـّها لم تكن من غير فكر و جزافاً ، أو كان لأجل الظنّ الحاصل عن العادة المتّبعة في تلك الأعـصار ، بـل أنـّها تدلّ على أنـّها تنتهي إمّا إلى إلهام من الله تـعالى إليـها ، أو غـاية العـبوديّة

و الإخلاص منها لله تعالى و نهاية الانقطاع له عزّ و جلّ، و على كلّ منهما، فهي تدلّ على كون هذه المرأة كاملة وأنـّها من الأبرار الصالحات، و في ذلك سرّ إلهي يدلّ على تحقّق العبوديّة لله تعالى في جدّة عيسى و اُمّه و نفسه، فـتفخر الجـدّة بأنّها نذرت ما في بطنها محرّراً لخدمة البيت الشـريف، و تـفتخر مـريم بـذلك، و عيسى عليه السلام لم يصل إلى ما وصل إليه إلّا بالانقطاع إلى الله عزّ و جلّ و العبوديّة له، قال تعالى حكاية عنه: **﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾**[١]، و مَن كان كذلك نفساً و اُمّاً و جدّة، لا يصحّ توهّم الغلو فيه، و لعلّ ذكر كلمة (البـطن) فـي الآيـة الشريفة و الفرج في قوله تعالى: **﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾**[٢]، و أكل الطعام في قوله تعالى: **﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾**[٣]، للدلالة على أنّ التلبّس بهذه الاُمور لا يليق بمرتبة روح القدس، فضلاً عن مقام الملك القدوس، إلّا بناءً على الحلول و وحدة الوجود و الموجود، و هما باطلان بالأدلّة العقليّة و النقليّة، و سيأتي التفصيل في مستقبل الكلام.

وكيف كان، فاستناد هذا النذر إلى الهام إلهي لا يدلّ عـلى أنـّـها اُلهـمت بكون ما في بطنها ذكر أيضاً.

نعم، لو اُريد بالذكوريّة الأعمّ من المنذور و ابنها فله وجه، و يشهد لذلك قولها: **﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** حيث أثبتت لها ذرية.

و لم يذكر سبحانه اسم هذه المرأة الصالحة تعظيماً لها و عناية بشأنها، كما أنـّها لم يذكر اسمها في الكتب المقدّسة و تكلّف النصارى في كتبهم في إثـبات

---

١. سورة مريم: الآية ٣٠ ـ ٣٠.

٢. سورة التحريم: الآية ١٢.

٣. سورة المائدة: الآية ٧٥.

نسب مريم و أبيها ، إلّا أنّه ورد في بعض الروايات أنّ اسمها كانت حنة بنت قاقوذ بن قنبل الإسرائيلي ، وكانت له بنتان أحدهما هي و قد تزوّجها عمران ، و هو إسرائيلي أيضاً و أولدها مريم ، و اسم الثانية ايشاع و تزوّجها زكريا و ولدت منه يحيى ، فيحيى بن زكريا و مريم اُمّ عيسى هما ابنا خالة .

و مات عمران و حنة حامل منه فنذرت حملها لخدمة البيت المقدّس ، كما عرفت .

قوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ .

التقبّل هو أخذ الشيء على وجه الرضا ، و يمكن فرض الجامع القريب بينه و بين القبول و هو أصل الرضا ، و لكن هيئة التقبّل تدلّ على عناية خاصّة فيها ، و هي لا توجد في القبول ، و تشهد الآيات اللاحقة لهذه العناية ، و للمقام نظائر كثيرة في القرآن الكريم ، و قد اشتهر في علم اللغة : «أنّ زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني» ، و هي قاعدة متّبعة خصوصاً في لغة العرب التي بنيت على الدقّة و الفصاحة و البلاغة . و لكن يمكن أن يرجع ذلك إلى تعدّد الدال و المدلول .

و القبول الحسن هو السرّ المطوي في التقبّل ، و قد ورد التقبّل في القرآن الكريم في عدّة موارد تبلغ العشرة . و في جميعها يدلّ على أن في المورد سرّاً خاصّاً إمّا في الحال ، أو العمل ، أو الانقطاع إلى الله تعالى اقتضى ذكر التقبّل و وقوع الاستجابة مطابقة له .

و المفعول من قوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ و إن كان محذوفاً ، إلّا أنّه معلوم إمّا هو النذر ، أي تقبّل نذري هذا ، لأنّه عمل صالح أرادت منه التقرّب إلى الله تعالى ، أو هو الولد المحرّر ، و يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

ثناء منها عليه تعالى، لجعل الدُّعاء و المناجاة أقرب إلى القبول و رجاء الإجابة و التفضّل، أي أنّك أنت السميع للدعاء، العليم بنيّتي و صحّتها و إخلاصها.

و التأكيد في هذه الجملة للدلالة على انقطاع رجائها عن غيره تعالى، وأنّها على يقين في استجابة دعائها، و فيه نهاية التضرّع و الابتهال إليها عزّ و جلّ. و تقديم السميع على العليم لأجل أنّ المقام مقام استدعاء الإجابة و القبول.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾.

الضمير في قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ راجع إلى ما في بطنها، و فيه إيجاز لطيف، وإنّما أنّث الضمير باعتبار علم المتكلّم بأن المرجع مؤنّث و أنّ المولود أُنثى.

و جملة: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ خبريّة، يُراد بها التحسّر و التحزّن ممّا داهمها من خيبة الرجاء، فليس الغرض هو الإخبار فقط.

وإنّما أنّث الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾، باعتبار الواقع الخارجي،وفيه من الخيبة وانقطاع الأمل والمسارعة إلى إظهار التحسّر ما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

الجملة معترضة مقولة له عزّ و جلّ: و (ما) ترجع إلى المولود الذي جهلت الأُمّ السرّ الإلهي فيه، والمراد من الجملة تعظيم شأن المولود، أي أنّ الله تعالى هو الذي خلقها وصوّرها، وهو أعلم بها بما تحمل من الأسرار وعظائم الأُمور، التي ربما لاتكون تلك ممكنة في المولود الذكر التي كانت ترجوه، و الأُمّ غافلة عن

جميع ذلك، فلو كانت عالمة بذلك لما أظهرت التحزّن والتحسّر في وضعها أنثى.

و قيل: إنّ الجملة مقولة قولها، وإنّما قالتها اعتذاراً إلى الله تعالى ممّا كانت ترجوه في المولود الذي لا يصلح لذلك الغرض.

و لكن الاحتمال الأوّل أولى، و قد وردت فيه رواية أيضاً.

قوله تعالى: ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ**﴾.

جملة معترضة أُخرى، لبيان ما اشتملت الجملة السابقة على علمه بالمولود. و اللام في الذكر و الأُنثى للعهد، أي ذلك الذكر الذي كانت امرأة عمران ترجوه و تتمنّاه، لأن يكون خادم البيت الشريف و رسولاً، ليس مثل الأُنثى التي وضعتها التي لا تقدر أن تقوم بما وقع النذر المحرّر لأجله، فالجملة من قول الله تعالى أيضاً، أي ليس الذكر الذي كانت تتمنّاه مثل الأُنثى التي فيها سرّ إلهي يظهر بعد ذلك، فإنّها خير من الذكر.

و قيل: إنّ الجملة مقوله قولها.

و لكن يردّ عليه: أنّه لو كان الأمر كذلك لكان الأنسب أن تقول: «و ليس الأُنثى كالذكر»، كما هو واضح.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**﴾.

عطف على ﴿**إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ**﴾، و ما بين الجملتين اعتراضية كما عرفت آنفاً، من ذلك يستفاد شدّة الأُنس و المحبّة بين الله تعالى و بين هذه المرأة الصالحة. و كمال الخلّة بينهما.

و (**مريم**) علم امرأة سريانيّة معناها خادمة الرب أو المرتفعة بالعبادة، و من مبادرتها بالتسمية يستفاد يأسها من كون الولد ذكراً تتحقّق فيه رغبتها، وإنّما رضيت بكون الأُنثى هي المنذورة المحرّرة و حوّلت النذر إليها، و أعدّتها للعبادة

بالتسمية، و يدلّ عليه قوله تعالى بعد ذلك: **﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾**.

قوله تعالى: **﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾**.

دعاء منها لحفظها و ذريتها دائما من جميع المساوئ و المكاره، و الحاصلة من دسائس الشيطان الرجيم. و قد استجاب الله دعاءها، فكانت صدّيقة عابدة صالحة و ذرّيتها أيضاً من الصدّيقين الصالحين، فتطابق الاسم و المسمّى فيها، لأنّ مريم في لغتهم العابدة الخادمة، كما عرفت.

و يستفاد من قولها: **(و ذريتها)** من دون شرط و قيد أنّها كانت تعلم بأنّها سترزق ولداً ذكراً من عمران، فلمّا لم يتحقّق في حملها، توقّعت أن يكون من ذرّيّتها، و هي منحصرة في فرد واحد، و هو عيسى ابن مريم.

قوله تعالى: **﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾**.

التقبّل هو الرضا بشيء مع عناية خاصّة به كما تقدّم آنفاً. و مادّة (حسن) من الألفاظ التي يكون لفظها و معناها مطلوبين مطلقاً، أعمّ من أن يكون الحسن اعتقادياً، كما في قوله تعالى: **﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾**[١].

و واقعيّاً حقيقيّاً، كما في قوله تعالى: **﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً﴾**[٢].

و قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾**[٣]، نظير الخير

---

١. سورة فاطر: الآية ٨.

٢. سورة الأنفال: الآية ١٧.

٣. سورة التوبة: الآية ٥٢.

و الصلح و الجمال و نحو ذلك .

و القبول الحسن هو القبول كما سألته أُمّها و زيادة عليه ، وإنّما أكّد سبحانه التقبّل الدال على القبول على الرضا بالقبول الحسن ، للدلالة على اصطفاء مريم ، لأنـّها هي التي وقعت مورد الرضا محرّرة للعبادة و التسليم لله تعالى و خدمة البيت ، مع صغرها و أنوثتها ، و هذا هو الاصطفاء الذي تقدّم معناه ، و لأجل ذلك دخلت في جملة المصطفين الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة .

و ممّا ذكرنا يظهر أنّ هذه الجملة وقعت استجابة لقولها : **﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾** ، أي مع كونها أُنثى و جعلتها محرّرة فتقبّلها ربّها بقبول حسن ، و لم تكن هذه الجملة واردة لقبول تقرّب امرأة عمران بالنذر و إعطاء الثواب الأُخروي ، لما عرفت من أنّ القبول نسب إلى مريم المنذورة المحرّرة ، و إن كانت تدلّ على قبول تقرّب امرأة عمران بالتبع و الملازمة .

وإنّما خصّ سبحانه الربّ بالذكر ، للدلالة على رعايتها آناً بعد آن ، و العطف عليها في كلّ حال و تربيته تعالى لها .

قوله تعالى : **﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾** .

الإنبات هو التربية بما يصلح الحال و حسن النشأة ، و تعهّدها حالاً بعد حال ، كما يتعهّد الزارع الزرع بالسقي و نموه .

و المراد من الآية الشريفة هو حسن نشأتها و تربيتها في صلاحها وكمالها ، و تطهيرها من الرذائل الخلقيّة و الخلقيّة ، و الإطلاق يشمل التربية الجسديّة و الروحيّة كلتيهما ، لها و لذرّيّتها .

و الجملتان متكاملتان ، إحداها تبيّن اصطفاءها ، و الثانية تبيّن طهارتها و زكاتها و حسن تربيتها بما تصلح أن تكون أُمّاً لكلمة الله المسيح المرفوع إلى

السماء، و تقدر على أن تؤدّي الأمانة التي وقعت على كاهلها، و تهيئتها لتحمّل المسؤولية المُلقاة على عاتقها، و قبول السرّ الإلهي، فأصبحت مريم العذراء الصدّيقة الطاهرة المطهّرة المصطفاة على نساء العالمين، و بذلك استعدّت أن تتلقّى الخطاب الملكوتي: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**﴾.

مادّة كفل تأتي بمعنى الضمان و التعهّد، و غلب استعمالها في ضمان الإنسان لمثله، و الكفيل من أسماء الله تعالى، لأنّه عزّ و جلّ مدير ما سواه و رازقه و مدبّره.

و زكريا هذا من بني إسرائيل من ولد سليمان بن داود، و هو الذي طلب من الله تعالى أن يرزقه ولداً و هو شيخ كبير وكانت امرأته عاقراً كما يحكي عزّ و جلّ عنه في الآيات اللاحقة. و إن كان يظهر من التواريخ أنّ المسمّى بزكريا متعدّد. و اللفظ ممنوع من الصرف للعلميّة و العجمة.

والمعنى: و صار زكريا كفيلها و قائماً بشؤونها، و الكفالة هذه إمّا أن كانت بحسب التقدير، أو بحسب القرعة التي أصابتها باسمه بعد أن كانت كفالتها مورد الاختصام ممّن هو قائم بشؤون البيت الشريف. كما حكى عنهم عزّ و جلّ في قوله: ﴿**وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾[١].

و يمكن الجمع بين الاحتمالين بأنّ المقدّر هو أن يكون الكفيل زكريا، و لكن الله تعالى هيّأ له ذلك عن طريق القرعة.

١. سورة آل عمران: الآية ٤٤.

وكيف كان، فهو كفيل صالح أمين رؤوف، فأكرم به من كفيل، والظاهر أنّ كفالتها إنّما كانت من أوّل أمرها فوقع الإنبات الحسن بمباشرة زكريا وتسبيب من الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ**﴾.

المحراب هو المكان العالي، وسُمّي محراب المسجد محراباً لأجل علوّه وشرفه بالنسبة إلى غيره من جهة قيام الإمام فيه.

وقيل: إنّ المراد بالمحراب هو المسمّى عند أهل الكتاب بالمذبح، وهو مقصورة في مقدّم المعبد، لها باب يصعد إليه بسلم ذي درج قليلة، يكون من فيه محجوباً عمّن في المعبد، ومنها المقصورات التي أحدثها بعض الخلفاء لنفسه في الإسلام.

وقيل: إنّه المسجد حيث كانت مساجدهم تسمّى بالمحاريب.

وكيف كان، فالجملة بيان لقبول زكريا لها بالكفالة وعنايته لها، ولهذا لم تعطف.

وإنّما قدّم الظرف ﴿**عَلَيْهَا**﴾ على الفاعل ﴿**زَكَرِيَّا**﴾ لإظهار كمال العناية والاهتمام بأمرها.

قوله تعالى: ﴿**وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً**﴾.

أي: أصاب في حضرتها رزقا وألوانا من الطعام، والتنكير للإعظام من كلّ جهة، وفيه الإيماء إلى كونه رزقاً غير معهود، ولعلّ ما ورد في الرواية ـ أنّه كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ـ مستفاد من نفس هذه الآية الشريفة، ويمكن أن يستشهد على ذلك من سؤال زكريا بـ(أنى) الدالّة على التعجّب، وجواب مريم له بأنّه من عند الله تعالى، فإنّه يكشف عن أنّه ليس

برزق عادي هيّئ في وقت خاص. كما أنّه يدلّ على ذلك دعاء زكريا ربّه أن يهب له ذرّية طيّبة بعد أن عرف أنّ هذا الرزق كرامة من الله سبحانه و تعالى لمريم الصدّيقة الطاهرة.

و يمكن أن يكون هذا الرزق من الله تعالى هو الذي أعدّه إعداداً حسناً لحمل عيسى عليه السلام، فقد تحقّق في مريم حالتا المنعقديّة و الانعقاديّة، فصارت أهلاً لأن يتمثّل روح الأمين لها، فتأثّرت بما هو ألطف من نسيم السحر و من ضياء الشمس و نور القمر، لتلد مريم العذراء رجلاً هو كلمة الله، يرفع إلى السماء و يبشّر الناس بمقدم خاتم الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

جملة استئنافيّة بيانيّة، و (أنى) كلمة استفهام بمعنى أين تدلّ على السؤال عن الوضع و الجهات، و فيها معنى التعجّب.

أي: من أين لك هذا الرزق. و السؤال إنما كان لعظمة هذا الرزق ـ كما عرفت ـ مع أنّها امرأة عاجزة عن تحصيله في هذا الموضع المعيّن و هذه الحال.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

جملة مستأنفة كالسابقة، أي أنّ الرزق الذي أوجب دهشة هذا النبيّ الكريم هو نازل من عند الله تعالى. و الإطلاق يشمل جمع الأنواع و الأصناف، فكان هذا الرزق خارقاً للعادة من حيث الكم و الكيف و سائر الجهات، فسيطر ما عند الله على الطبع و الطبيعة و المادّة، فكان ذلك كرامة لها. و قد قنع زكريا بهذا الجواب و لم يسألها عن شيء آخر.

و من ذلك يعرف الخدشة في ما ذكره بعض المفسّرين في المقام من أنّ الإضافة إلى الله تعالى إنّما هي عادة جرت من العرف بإضافة الرزق إليه تعالى،

وليس في هذه دلالة على أنّه من خوارق العادات،وبالآخرةفليس ذلك كرامة لها.

قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

تتمّة مقالة مريم ، أي أنّ الله تعالى يقدر على رزق مَن يشاء من عباده بغير تقدير بحدّ.

و من هذه الكلمة يستفاد أمران :

الأوّل : عظمة هذا الرزق ، حيث عبّر عنه بغير حساب .

الثاني : عظمة انقطاع القائل إلى الله تعالى ، حيث ظهر لها هذا التجلّي العظيم الإلهي .

قوله تعالى : ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ**﴾.

جملة مستأنفة ترتبط بما قبلها لتثبيت ما ذكر فيها ، و تقرير ما سيقت لأجله .

و (هنالك) نظير هناك من أسماء الإشارة ، إلّا أنّ اللام في الأوّل للبعد و الكاف للخطاب ، أي في ذلك المكان ، و المعروف بين الأدباء أنّ الموضوع له في أسماء الإشارة خاص ، وأنّها من المبنيّات لتقوّمها بالغير ، فأشبهت الحروف من هذه الجهة و انسلخت عن الإعراب فصارت مبنيّة .

و لكن الدعوى الأُولى باطلة لما أثبتناه في علم الأُصول ـ من أنّ الوضع منحصر في قسمين ، الوضع الخاصّ و الموضوع له الخاصّ ، كما في الأعلام . و الوضع العام و الموضوع له العام ، كما في البقيّة مطلقاً ، و لا معنى للوضع الخاص و الموضوع له الخاص ، أو الوضع الخاص و الموضوع له العام ، كما لا وقوع للوضع العام و الموضوع له الخاص ، راجع «تهذيب الأُصول» و يظهر من ابن مالك أيضاً ، قال في الألفية : بذ المفرد مذكر أشر .

حيث جعل الموضوع له عامّاً و جعل الخصوصيّة في نـاحية الإشـارة لا الموضوع له.

و أمّا الدعوى الثانية فتصويرها حسن، و لكن الحـقّ أن تـمييز الألفـاظ بالإعراب و البناء إمّا أن يكون من لوازم الألفاظ، أو من لوازم الماهيّة، فإنّ جميع الجواهر و الأعراض متميِّزات بعضها عن البعض، فلابدّ أن تكون الألفاظ ـ التي هي من أعظم ما أنعم الله تعالى به على خلقه، هكذا أيضاً.

و إذا دار الأمر بين التعليل بالذاتي أو التعليل بالعرضي، فالأوّل أولى بـلا ريب، و ربما يكون مرادهم ممّا ذكروه ذلك أيضاً، و إن قصرت عـباراتـهم عـن ذلك، و على هذا فيسقط قول بعض النحاة.

الاسـم مـنه مـعرب و مـبني لشـبه مـن الحـروف مـدني
كـالشبه الوضـعي فـي اسـمي جئتنا و المـعنوي فـي مـتى و فـي هـنا

هذا خلاصة ما يحقّ أن يقال في بناء الأسماء و إعرابها، كما أفاده بـعض محقّقي مشايخنا (أعلى الله درجاتهم) في أثناء بحثه في مباحث الألفاظ من علم الأُصول و قد بسط القول في ذلك.

و كيف كان، فإن زكريا بعدما رأى الكرامة التي جرت لمريم عليها السلام أقبل على الدُّعاء من غير تأخير، و يستفاد ذلك من تقديم الظرف، أي حين ما رأى زكريا أنّ رزق مريم خارق العادة و خلاف مجرى الطبيعة طمع في الدُّعاء و حمل نفسه على أن يسأل ربه ما هو خارق العادة و خلاف مجرى الطبيعة أيضاً، و هو حمل العاقر من الشيخ الكبير مع علم زكريا بأنّ الله تعالى لا يجري الأُمور إلّا بأسبابها الطبيعيّة، و لكن أنبياء الله تعالى و أوليـاءه يـعترفون بأنّـه لابـدّ أن يكـون فـي الممكنات أُمور خارقة للعادة و لنظام الطبيعة التي تكشف عن القـدرة القـهّارة، فسأل ربّه من تلك القدرة، فوقع السؤال مـوقع الإجـابة بـحسب تـلك القـدرة

الجبّارة لتسخير نواميس الطبيعة.

مع أنّنا ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة أنّ المعجزة لا تخرج عن نواميس الطبيعة و إن خفيت الأسباب عن الحواس الظاهرة.

و ممّا زاد في همّته قول مريم عليها السلام له: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾. و الطمع في الدُّعاء و طلب النعمة إذا شوهدت من الله تعالى على شخص يكون على أقسام ثلاثة:

الأوّل: أن يطلب النعمة لنفسه مع حبّ سلبها عن غيره.

الثاني: أن يطلب مثلها لنفسه أيضاً، فإنّ مواهب الله تفيض و خزائنه لا تغيض، و يسمّى بالغبطة.

الثالث: أن يستنسر بحصول النعمة له.

و الأوّل حسد مذموم، و الأخيران لا بأس بهما، بل هما ممدوحان. و سؤال زكريا من أحد الأخيرين.

قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**﴾.

بيان لكيفيّة الدُّعاء. و الهبة بمعنى العطية، و هي التمليك بلا عوض، و الذرّية هي النسل، تأتي واحدة و جمعاً، ذكراً و أُنثى، وإنّما أُنّثت (طيبة) لتأنيث لفظ الذرّية.

والطيب مايستطاب فعله وخلقهبالذات،أو بما يلائم صاحبه بماقرّره العقل و الشرع، و يقابله الخبيث، و يقال: عيش طيّب، أي ما تسكن النفس إليه ويكون ملائماً لها، كما يُقال: ماء طيب، أي عذب، قال تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ**﴾[1]، أي ما يكون البلد موافقاًلنفس أهل البلد من جميع الجهات.

---

١. سورة الأعراف: الآية ٥٨.

و الذرّية الطيّبة هي التي تسكن إليها النفس و يُستطاب أفعالها و صفاتها، فتكون صالحة مباركة، كما في مريم لما لها من الكرامة و الصفات الحسنة و الشخصية الكاملة.

و قد استعمل الداعي أدب الدُّعاء و ما يوجب ترغيب المدعو إلى الإجابة، كما في قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، و قوله في موضع آخر: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾[1]، و قوله في موضع ثالث: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

و قدَّم اسم الربّ لأنّه أقرب إلى الإجابة، و أدّى الطلب بالهبة، لأنّها إحسان محض لا يكون في مقابله شيء، فيناسب المقام، حيث اعتبر نفسه عاجزاً عن تحقيق رغبته إلّا بعناية منه عزّ و جلّ.

و قد استجاب الله تعالى دعاءه و وهب له يحيى الذي لم يجعل له من قبل سميّاً، و قد جمع الله فيه ما في مريم و عيسى عليهما السلام من الصفات و الكمال و الكرامة، فكان أشبه الناس بعيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

لفظ سميع يأتي بمعنى القبول و الاجابة، كما في قول: «سمع الله لمن حمده»، أي يقبل حمد من حمده و يثيب عليه، و ذكر السمع و إرادة القبول و الإجابة شائع في المخاطبات العرفيّة، يقال: فلان سمع حاجتي فقضاها، و في الحديث: «أي الساعات أسمع؟ قال: جوف الليل الآخر»، أي أوفق لاستماع الدُّعاء فيه و أولى بالاستجابة.

و السميع من أسمائه تعالى، و هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع و إن خفي، فهو يسمع بغير جارحة.

---

١ . سورة مريم: الآية ٤.

٢ . سورة الأنبياء: الآية ٨٩.

والمعنى: أنّك كثير الإجابة لدعاء الداعين، و الجملة في موضع التعليل.

قوله تعالى: **﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾**.

العطف بالفاء يدلّ على سرعة الإجابة، و أنّ جميع ذلك دعاء واحد متعقّب بالتبشير، و المنادي هو جنس الملائكة تمييزاً عن نداء البشر، و إن كان المنادي واحداً، و هو أعمّ من أن يكون بالإلهام في القلب، أو ظهور شخص الملائكة و التكلّم مباشرة مع المخاطب، و إن كان الظاهر هو الثاني، و الضمائر كلّها ترجع إلى زكريا، و المراد بالصلاة هي الأقوال و الأفعال المعهودة بين كلّ ملّة.

قوله تعالى: **﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾**.

البشارة و التبشير هو الإخبار بما يفرح الإنسان. و يحيى اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلميّة و العجمة.

وقيل: إنّه عربي منقول من الفعل، فيكون المنع من الصرف هو العلميّة و وزن الفعل، و قيل وجوه في تسميته بهذه الاسم:

فعن بعض أنّه لمّا علم الله تعالى أنّه يستشهد، و الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون فسُمّي به، و عن بعض آخر أنّه يحيا بالعلم و الحكمة، أو يحيي به الناس بالهداية، و قال القرطبي: إنّه كان اسمه حيّاً في الكتاب الأوّل، و جميع ذلك يحتاج إلى دليل. و الموجود في الأناجيل المعروفة أنّه يوحنا المعمدان.

و يستفاد من الآية المباركة أنّ التسمية كانت من الله تعالى، و يدلّ على ذلك قوله تعالى في موضع آخر: **﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾**[1]، كما يستفاد من مجموع قصتي امرأة عمران، و زكريا أنه لو لم

---

١. سورة مريم: الآية ٧.

تبادر امرأة عمران بالتسميّة لمولودها لأمكن أن تأتي التسمية من قبل الله تعالى، ولعلّ الحكمة في ذلك أنّ الله تعالى أراد أن ينفي جهات الغلوّ من مريم الصدّيقة الطاهرة، بأن تكون التسمية من ممكن محتاج لممكن آخر مثله.

وقد وصف الله تعالى هذا المولود المبشّر به بأوصاف تدلّ على عظمته وكرامته وجلالة قدره، ومن مجموع ذلك يستفاد التشابه الكبير بين هذا المولود ومريم العذراء وابنها عيسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿**مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللّهِ**﴾.

هذا هو الوصف الأوّل ليحيى، والجملة في موضع الحال من يحيى، والمراد بالكلمة هو عيسى بن مريم كما وصفه الله تعالى بها، قال عزّ وجلّ: ﴿**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾[١].

وهو إمّا لأجل أنّ أنبياء الله تعالى ـ لا سيما أُولي العزم منهم ـ أجلّ كلمات الله التامّات، أو لأجل وجوده بكلمة «كن» من دون توسط أب في البين، فهو مشابه للإبداعيات في عالم الأمر، قال تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[٢].

والتصديق به هو الإيمان به والدعوة إليه، وهو مدح كبير منه عزّ وجلّ له وتمجيد له بالخضوع والتسليم له عزّ وجلّ، مع أنّ الإيمان بعيسى من أصعب الأُمور في ذلك العصر.

ويستفاد من ذلك أنّ النبوّات السماويّة تتقوّم بأمرين:

أحدهما: الإخبار عن الله تعالى، أي الدعوة إلى التوحيد في العبوديّة والمعبوديّة.

---

١. سورة آل عمران: الآية ٤٥.

٢. سورة البقرة: الآية ١١٧.

الثاني: إخبار كلّ نبيّ سابق عن النبيّ اللّاحق، فإنّهم كلسان واحد في الدعوة إلى الواحد الأحد، و بدون ذلك لا يجب اتباع النبيّ، ففي المقام أن يحيى يدعو إلى عيسى، و هو يدعو إلى خاتم الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَسَيِّداً وَ حَصُوراً﴾.

السيّد من السواد، أي ساد يسود، فهو سيد فقلبت الواو ياء لأجل الياء الساكنة قبلها ثمّ أُدغمت، و هو الشخص المطاع، و السيادة هي تولي الأُمور و زعامة الناس، فالسيِّد هو الذي يسود غيره إمّا في الزعامة و تولّي أُموره، أو في الفضائل المحمودة و الأخلاق الكريمة، فيكون فائقاً على غيره، و في الحديث: «أنا سيِّد ولد آدم، و لا فخر»، فأخبر ﷺ عمّا أكرمه الله تعالى به من الفضل و السؤدد، تحدّثاً بنعمة الله تعالى عليه، و يطلق على الباري جلّ شأنه، لأنّه المتفرّد في جميع الكمالات و تحقّقت له السيادة الحقيقيّة المطلقة، ففي الحديث: «أنّه جاءه رجل، فقال: أنت سيِّد قريش؟ فقال: السيِّد الله»؛ و هي من الأُمور الإضافية فيما سواه تعالى، ففي الحديث: «كلّ بني آدم سيِّد، فالرجل سيِّد أهل بيته، و المرأة سيِّدة أهل بيتها»، و كذا سيِّد القوم و سيِّد العشيرة، و لعلّ المراد في المقام سيِّد قومه و عشيرته، و لا يطلق على المنافق سيِّد، كما في الحديث: «لا تقولوا للمنافق سيِّد، فإنّه إن كان سيِّدكم و هو منافق فحالكم دون حاله، و الله لا يرضى لكم ذلك».

و قد وصفه تعالى بهذه الصفة لأنّه ساد غيره في الكمال، وفاقَ الناس في الفضائل، فهو النبيّ الكريم المحمود الصفات.

و (حصوراً) عطف آخر و صفة أُخرى، و الحصور هو الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليه، و قد يطلق على الممتنع عن غيرها أيضاً، و هو صفة كمال تدلّ على عزوفه عن مشتهيات الدُّنيا و زهده عنها، لأنّ الممتنع عن الجماع:

تارةً: يكون لأجل آفة و نقصان فيه، و هو غير ممدوح.

و أُخرى: يكون لأجل تقديم الأهمّ من المعنويات عليه، و هو ممدوح في الجملة إذا وافقته الشريعة، كما في زمان يحيى عليه السلام، و أمّا إذا وصلت النفس إلى مرتبة من الكمال بحيث لا يشغلها المهمّ عن الأهمّ، فلا موضوع لهذا البحث فيه، كما في سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله.

قوله تعالى: ﴿**وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾.

صفة رابعة و خامسة تدلّان على علو مقامه وكمالاته المعنويّة، و أنّ الصفات السابقة ممهّدات لهاتين الصفتين، فإنّهما نهاية المقامات المعنويّة و الكمالات الإنسانيّة و هي النبوّة، وكونه من الصالحين، و قد طلب خليل الرحمن من الله تعالى أن يجعله من الصالحين، فقال تعالى حكاية عنه: ﴿**وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾[1].

و المراد به في الأنبياء صلاح الذات و الصفات و الأعمال، ليكونوا صالحين لاقتداء الأنام بهم.

و بعبارة أُخرى: الصلاح هو المرآة الأتمّ لأخلاق الله تعالى. و بهذه الصفات الجليلة اختار الله تعالى يحيى و جعله من الذرّية الطيبة التي طلبها زكريا منه عزّ و جلّ.

و يستفاد من مجموع ما ورد في شأن يحيى و ما ورد في شأن كلمة الله عيسى بن مريم عليهما السلام، الشبه الكثير بينهما، و هو ما كان يريده زكريا عند طلبه من الله تعالى أن يرزقه ولداً يكون له من الكرامة عند الله تعالى ما لمريم العذراء عنده، بعدما شاهد الآيات الباهرات منها، فأوّل الشبه بينهما أنّ مريم و ابنها آية من الله

---

١ . سورة الشعراء: الآية ٨٣.

تعالى، قال عزّ و جلّ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1] و أن تسمية عيسى من الله تعالى، قال عزّ و جلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[2]، و أنّ يحيى آية منه عزّ و جلّ أيضاً، حيث كانت تسميته من عند الله تعالى في بدء ما بشّر به زكريا، قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾[3].

الثاني: أنّ يحيى قد أُوتي الكتاب و الحكم و هو صبي، قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[4]، وكذلك أُوتي عيسى الحكم والنبوّة والكتاب في صباه، قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾[5].

الثالث: أنّهما اشتركا في الخصال الحميدة، كالبرّ بالوالدين و السيادة و الوجاهة، و أنّهما لم يكونا من الجبّارين، قال سبحانه و تعالى في شأن يحيى: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾[6] و قال عزّ من قائل في شأن عيسى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾[7].

الرابع: أنّهما اشتراكا في السّلام عليهما في المواطن الثلاثة المهمّة، الولادة و الموت و البعث، قال تعالى في شأن يحيى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٩١.

٢. سورة آل عمران: الآية ٤٥.

٣. سورة مريم: الآية ٧.

٤. سورة مريم: الآية ١٢.

٥. سورة مريم: الآية ٣٠ ـ ٣١.

٦. سورة مريم: الآية ١٣ ـ ١٤.

٧. سورة مريم: الآية ٣٢.

﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[١].

و قال عزّ و جلّ في شأن عيسى: **﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾**[٢].

و لكن يبقى الفرق بينهما أنّ عيسى عليه السلام نبي من أُولي العزم و صاحب شريعة، و أنّ يحيى عليه السلام كان أوّل المصدّقين به، و ذلك لأنّ عيسى عليه السلام كان أسبق من يحيى في التقدير، فإنّ زكريا بعدما شاهد من مريم الصدّيقة عليها السلام من عجائب الرزق و الكرامات طلب من الله أن يرزقه ذرّية طيّبة، يكون وليّاً مرضياً. هذا ما يقتضي التدبّر في مجموع الآيات النازلة في هذين النبيّين الصالحين عليهما السلام في المقام، و في سورة مريم.

قوله تعالى: قَالَ **﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾**.

جملة مستأنفة تدلّ على التعجّب، ففيها استفهام عن حقيقة الحال، و طلب لتفهّم خصوصيّات الإفاضة و الإنعام، مع الاشتياق إلى المناجاة مع الحبيب و التلذّذ بالحديث معه، و هو من أعظم الابتهاج للنفس، و ليس فيها دلالة على أنّ الاستفهام كان لأجل الاستعظام و الاستبعاد، كيف و هو المبشّر بما طلبه، و إنّ الله سيرزقه الغلام الذي تجتمع فيه جميع الصفات الحميدة التي شاهدها في مريم الصدّيقة، و هو على يقين بقدرة الله تعالى على ذلك.

و قد ذكر زكريا عليه السلام و صفين في المقام، هما المنشأ في التعجّب و الاستعلام، و كان لهما أبلغ الأثر في حزنه و تأثّره مع علمه بأنّ الأُمور لا تجري إلّا بأسبابها كما اقتضته الحكمة الإلهيّة، و هذا اعتراف من زكريا بحسن نظام هذا

---

١. سورة مريم: الآية ١٥.

٢. سورة مريم: الآية ٣٣.

العالم و ما عليه من التناسل بين بني آدم، و لكن مع ذلك يعترف بأنّ الإرادة القهّارة الربوبيّة فوق جميع ذلك، و الكلّ مسخّر تحت تلك الإرادة، فيرجع المعنى إلى أنّ طلب الولد خلاف النظم الطبيعي من مثله و عن زوجة عاقر، لو لا قدرتك و رحمتك و مشيئتك القاهرة، و هذان الوصفان قد ذكرهما في ضمن الدُّعاء في موضع آخر، فقال تعالى حكاية عنه:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾[١].

و الغلام الطار الشارب أو الابن في أوّل نبت شاربه. و مادّة (غلم) تدلّ على شدّة شهوة النكاح و هيجانها، كما يظهر من جملة استعمالاتها، ففي الحديث: «خير النساء الغلمة على زوجها العفيفة بفرجها»، و قد ورد هذا اللفظ في القرآن مفرداً و تثنية و جمعاً، و لعلّ ألطف ما ورد فيه هذا اللفظ جمعاً، قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾[٢]، خدمة لأهل الجنّة و هي لذّة للمخدوم و الخادم، و قال تعالى: ﴿يَا بُشْرى هَذَا غُلَامٌ﴾[٣]، وإنّما ذكر الغلام باعتبار أنّه قد بشّر به سابقاً، قال تعالى: ﴿أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً﴾، و قال تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيى﴾[٤].

وإنّما خاطب زكريا ربّه من دون واسطة في البين مبالغة في التضرّع، و إعلاماً لنهاية التأثّر و التحزّن.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾.

---

١. سورة مريم: الآية ٤ ـ ٥.

٢. سورة الطور: الآية ٢٤.

٣. سورة يوسف: الآية ١٩.

٤. سورة مريم: الآية ٧.

جملة حالية من ياء المتكلّم، و إسناد البلوغ إلى الكبر توسعاً، فكأنّ الكبر قد طلبه و هو مطلوب له. و الجملة كناية عن عدم القدرة على الجماع و ممارسة الشهوة لبلوغه الكبر و طعنه في السن، وكانت له تسع و تسعون أو مائة و عشرون سنة، و لامرأته ثمان و تسعون، حين قال ذلك على ما قالوا، و إن كان ذلك كلّه رجما بالغيب. و فيه نهاية الأدب كما أن فيه تحريك المدعو إلى استجابة دعاء الشيخ العاجز.

قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

العقر بمعنى عدم الحمل، و يطلق على الرجل الأبتر الذي لا ولد له أيضاً، و لفظ (عاقر) هنا بمعنى ذات عقر، و حينئذٍ لا فرق بين المذكّر و المؤنّث.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

الجملة مقول قول الله تعالى، سواء كان بواسطة الملك الذي ناداه سابقاً بالبشارة، أم كان بغير وساطة، أي وحياً. و إن كان الظاهر هو الأوّل، و يدلّ عليه ـ مضافاً إلى ظاهر السياق ـ قوله تعالى في موضع آخر من هذه القصة: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً﴾[1].

و (كذلك) في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر و التقدير كذلك، و هو ظاهر في كونه من القضاء الحتم الذي لا يعتريه التغيير و التبديل، و يدلّ عليه قوله تعالى في هذه القضية: ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[2]، كما يشهد له قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾، حيث جعل خلق يحيى مقدّرا من حين خلقه لزكريا.

---

١. سورة مريم: الآية ٩.

٢. سورة مريم: الآية ٢١.

و جملة ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ في موضع التعليل، أي: لأنّ الله تعالى يفعل ما يشاء من الأفعال الخارقة للعادة، يخلق الولد في تلك الحالة التي يستبعدها الناس عادة، فإن إرادته و مشيئته فوق الطبيعة، و هي مسخّرة تحت تلك الإرادة.

وإنّما أتى بلفظ الجلالة للتعظيم، و لبيان أنه الجامع لجميع الصفات الجمالية و الكمالية، القادر على كلّ شيء، إليه تنتهي جميع العلل و الأسباب.

ثمّ إنّ الولادة ـ بخلاف الأسباب الظاهريّة ـ قد ذكرت في القرآن الكريم بالنسبة إلى أنبياء الله تعالى في موارد ثلاثة:

الأوّل: إبراهيم خليل الرحمٰن، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[١].

الثاني: عيسى روح الله، قال عزّ و جلّ حكاية عن مريم العذراء: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيّاً قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[٢].

الثالث: زكريا الذي دعا الله أن يرزقه ذرّية طيبة: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾[٣]، و جميع مَن ولد في هذه الموارد الثلاثة هم من الأنبياء الذي وهبوا أنفسهم لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾.

---

١. سورة هود: الآية ٧١ ـ ٧٣.

٢. سورة مريم: الآية ٢٠ ـ ٢١.

٣. سورة مريم: الآية ٨.

الآية العلامة الدالّة على شيء، ولهذه الكلمة أهمّية عظمى في القرآن الكريم، فقد وردت فيه بأطوار مختلفة ـ مفردةً وتثنيةً وجمعاً ـ في ما يقرب من خمسمائة مورد، ولعلّ الوجه في ذلك هو إثبات أنّ جميع ما سوى الله تعالى آيات جماله وجلاله وشواهد أقواله وأفعاله، وهي إمّا آيات يستدلّ بها الخالق على الخلق، أو يستدلّ بها المخلوق على وجود الخالق ومعبوديّته المطلقة، وقهّاريته التامّة، ورحمته الواسعة وجميع العوالم ـ الطولية والعرضية ـ آياته تبارك وتعالى، ولكنّها مختلفة في جهة كونها آية، كاختلافها في مراتب الوجود.

والجامع القريب العلامة التي تدلّ على ارتباط الممكن بالذات مع الحيّ القيوم، كما هي علامة عناية العزيز الجبّار الغني بالذات مع الفقير المحتاج، أو هما معاً.

والآية في قوله تعالى: ﴿**اجْعَلْ لِي آيَةً**﴾، أي علامة يعرف الناس والبيئة البشريّة، بأنّي مرتبط معك، ودلالة ملموسة بها تطمئن نفسي، وتكون أنت المعين في أُموري، لأدفع بها دعاوي المبطلين وتشكيك المنافقين، واعترف بها عجزي وخضوعي وتسليمي لأمرك، وأُبدي شكري على جميع نعمائك، وهذا ما تقتضيه هذه المحاورة بين زكريا النبيّ العظيم وبين الله تعالى الربّ الجليل، فإنّها تدلّ على كمال الخلّة ونهاية التبتّل والخضوع له عزّ وجلّ، ويشهد لذلك سنخيّة الآية مع المورد، فإنّ الآية التي جعلها الله تعالى له هي أمره بعدم التكلّم وقطع المحاجّة مع الكفّار والمنافقين، وإيكالهم إلى الأُمور البديهيّة كالحسّ والوجدان، كما ستعرف.

ومن ذلك يعلم أنّ ما ذكره المفسّرون في المقام في حكمة جعل الآية غير صحيح، فقد ذكر بعض المفسّرين أن جعل الآية له إنّما كان لأجل أن يستدلّ بها

على حمل امرأته و يعلم وقت الحمل.

و فيه: أنّه بعد معرفته بأنّه سيرزق ولدا، و إنّ الله تعالى بشّره بذلك، وكان على يقين فيه، لا معنى لطلب آية تكون علامة على حمل امرأته، بل هو لغو من عاقل فضلاً عن الأنبياء.

و قيل: إنّ الحكمة في جعل الآية هو الاستدلال بها على أنّ البشارة كانت من الله تعالى لا من الشيطان.

و هو مردود أيضاً، فإنّه إن كان باعتبار نفس مقام نبوّة زكريا عليه السلام فهو باطل، لأنّه بعد أن علم يقيناً بخطاب الملائكة، و أنّ المحاورة المتقدّمة لا تدع مجالاً للشكّ في أنّها لم تكن من الشيطان، خصوصاً مع ملاحظة مقام زكريا و نبوّته المرتبطة مع الملائكة ارتباطاً تامّاً. و إن كان باعتبار تعريف غيره، فهو باطل أيضاً، فإنّه لم يعرف شيئاً من هذه المحاورة حتّى يشكّ فيها، بل هي من جملة الأسرار بين زكريا عليه السلام و بين الله تعالى، كما في استجابة الدعوات بالنسبة إلى كلّ مؤمن مستجاب الدعوة، و سيأتي في البحث الكلامي الفرق بين خطاب الرحمن وكلام الملك و همسات الشياطين.

قوله تعالى: ﴿**قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ**﴾.

أي: قال الله تعالى لزكريا آيتك التي طلبتها هي أن لا تتكلّم مع الناس، وإنّما خصّ الناس بالذكر لبيان أنّه لم يكن ممنوعاً من التكلّم بذكر الله و الدُّعاء، فيستفاد أنّ الممنوع منه إنّما هو التكلّم مع الناس في شؤون الدُّنيا، لا عدم التكلّم المطلق، حتّى التكلّم بالحقّ مع الحقّ، كالمناجاة و الدُّعاء و نحو ذلك، بقرينة ذكر الناس و التكلّم بالرمز.

و المشهور بين المفسّرين أنّ عدم التكلّم كان اضطرارياً بالنسبة إليه، لأنّ

الله عزّ و جلّ قد سلب قدرته على ذلك، إمّا باعتقال لسانه من غير آفة أو معها، و هي أنّه ربّا لسانه و زاد في فيه حتى ملأه فمنعه الكلام، و إن كان قادراً على التسبيح و الصلاة و المناجاة معه عزّ و جلّ، و هذه آية كانت من قبل الله تعالى في نفس النبيّ لا يقدر عليها غيره، لمكان العصمة فيه.

و عن بعض المفسّرين أنّ حبس لسانه كان من باب العقوبة له، لأنّه طلب الآية بعد المشافهة مع الملائكة و البشارة له، و السبب في ذلك تشكيك الشيطان له في كون البشارة من الله تعالى. و يقرب هذا ممّا ورد في إنجيل لوقا:

(أنّ جبرئيل قال لزكريا: و ها أنت تكون صامتاً و لا تقدر أن تتكلّم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا، لأنّك لم تصدّق كلامي الذي سيتمّ في وقته)[١].

و الحقّ أن يقال: إنّ الآية الشريفة لا تدلّ على شيء ممّا ذكروه، أمّا ما ذكره بعض المفسّرين فهو مردود من جهات كثيرة لا تخفى على من تأمّل فيه، و يكفي في وهنه أنّه من الإسرائيليات، و لا وجه لكون ذلك عقوبة له بعدما ذكرنا من أنّه كان على يقين من أمره، و أنّه إنما طلب الآية لدفع شبه المنافقين و إنكار المنكرين، و لإظهار الخضوع و الخشوع و التبتل إليه عزّ و جلّ، و بيان النعمة، فلا معنى لأن يكون عدم التكلّم عقوبة له.

إلّا أن يقال: إنّ عدم تكلّمه مع الناس لأجل ما حصل منه من ترك الأولى بقوله: ﴿**أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**﴾، الظاهر في التعجّب من البشارة الإلهيّة، فإنّ مثل ذلك من أنبياء الله تعالى مع علمهم بكمال قدرته جلّت عظمته حتى على الممتنعات العادية، ممّا لا ينبغي، فأخذ بقوله هذا بعدم تكلّمه مع الناس ثلاثة أيّام، فيكون هذا نحو توبة لما صدر منه، بقرينة قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾ و بهذا و إن أمكن الجمع بين

---

١. إنجيل لوقا: ٢٠ ـ ٢١.

جميع أقوال المفسّرين في المقام، و لكن مع ذلك أنّه مجرّد احتمال.

و أمّا قول المشهور، فظاهر الآية الشريفة ينفي ذلك أيضاً، لأنّ نسبة الفعل إلى الفاعل في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾، و نفيه عنه ظاهر في كونه اختيارياً، فهي تدلّ على أن عدم التكلّم كان اختيارياً له، فإنّه بعد أن طلب من الله تعالى الآية التي تكون علامة لصدقه أمام الناس، ليتمكّن أن يدفع بها شبه الملحدين، و إظهار كرامته عند الله تعالى، و منزلة المولود الجديد لديه عزّ و جلّ، لا معنى لكونها آية اضطراريّة له، و نظير هذه الآية في ولادة يحيى عليه السلام ما وقع عند ولادة عيسى، قال تعالى في مريم العذراء: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾[1]، و لم يقل أحد إنّ صوم مريم عليها السلام كان اضطرارياً لها.

و قد ذكرنا أنّ هذه الآية الشريفة إنّما جاءت موافقة و مناسبة لموردها ممّا قد يواجهه من الناس، و ليست كلّ آية تناسب موردها، و في المقام يتطلّب المورد أن تكون الآية لدفع إنكار المعاندين و شبه المنافقين و إظهار المنزلة و الكرامة للنبيّ و المولود الجديد، و أحسن شيء يتحقّق فيه هو الإرجاع إلى البديهيّة و الحسّ و الوجدان، و السكوت على تلك الشبهات التي لا يكون ردّها و التعرّض لها إلّا من المغالطة و المحاجّة، التي يجلّ عنها مقام العقلاء فضلاً عن الأنبياء، و هذا ظاهر لمن تأمّل في هذه الآية التي تحقّقت بالنسبة إلى عيسى و أُمّه مريم العذراء عليهما السلام من شبهات لم تتورّع اليهود أن يلصقوها بمريم الصدّيقة، و يمكن أن يستفاد ذلك من اضافة الآية إلى النبيّ صلّى الله عليه و آله، قال تعالى: ﴿آيَتُكَ﴾، أي الآية التي تناسب حالك و مقامك.

---

١. سورة مريم: الآية ٢٦.

قوله تعالى: ﴿ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً﴾.

مادّة (رمز) تأتي بمعنى التحرّك، و الرمز هو الافهام بتحرّك شيء، سواء كان بالرأس أم اليد أو العين أو غيرها، و قيل هو مختصّ بالشفة، و لم يدلّ دليل على التخصيص. و الاستثناء منقطع.

و المراد بثلاثة أيام مع لياليها، بقرينة قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا﴾[1]، و كلتا الآيتين قرينة على استمرار مدّة الرمز و تواليها.

والمعنى: أنه لا تتكلّم مع الناس في ردّ مقالاتهم في هذا الموضوع إلّا إشارة باليد أو الرأس أو نحو ذلك، و هذا أعظم شيء لتسكيت خطاب الجاهلين عند تعرّضهم للمخاطبة.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ﴾.

(العشي و الإبكار) طرفا النهار، أي و اذكر ربك باللسان و القول كثيراً، و أدم على صلواتك في أطراف النهار.

***

١. سورة مريم: الآية ١٠.

بحوث المقام

بحث أدبي:

قوله تعالى: ﴿**ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**﴾، نصب على الحال من الأسماء التي وردت من قبل بمعنى ذرّية في حال كونهم متناسبين، و قيل إنّها نصبت على البدلية من الآلين. و لو استؤنفت فرفعت كان له وجه أيضاً لبيان الأهمّية.

و (من) في قوله تعالى: ﴿**بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**﴾ اتّصالية.

و الظرف (إذ) في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ**﴾، قيل فيه وجوه، فعن بعض أنّه زائد، و هو غلط.

و عن آخر أنّه منصوب على الظرفيّة لما قبله، ولكنّه لا يناسب مجيئه بعنوان الصفة الدالّة على الثبوت الدائم المطلق.

و **قيل**: إنّه منصوب بفعل مقدّر، أي اذكر و هو بعيد عن السياق.

و **قيل**: إنّه ظرف لاصطفى المذكور في أوّل الآية المتقدّمة.

و **يرد عليه**: أنّه لا يصحّ أن يكون ظرفاً لاصطفاء آدم و نوح.

و الوجه أنّه معمول لفعل مقدّر يدلّ عليه الكلام، و هو استجابة لها إذ قالت.

و (محرراً) في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً**﴾ منصوب على الحالية من (ما).

و أُنثى في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى**﴾، إمّا حال مؤكّد من الضمير، أو بدل منه، أو مفعول ثان لوضعت.

وإنّما أتى عزّ و جلّ بـ(ما) الموصولة في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا**

وَضَعَتْ﴾ دون (من) لأنّ الأُولى يؤتى بها لما يحصل به، فهي تلازم الجهالة غالباً.

و (نباتا) في قوله تعالى: **﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾**، إمّا اسم مصدر، أو مفعول مطلق لأنبتها بدل عن مصدره.

و (كلّما) في قوله تعالى: **﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾** منصوب بـ(وجد)، أي وجد كلّ دخلة، و نصب المحراب على التوسع، إذ حقّ الفعل أن يتعدّى بـ(في)، أو (إلى) و إظهار الفاعل.

و (هنالك) في قوله تعالى: **﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾** منصوب على الظرفيّة، لأنّه ظرف يستعمل للزمان والمكان، وإن كان أصله للمكان، وقد تجر بـ(من) وإلى.

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾**، وهو قائم مبتدأ وخبر، والجملة حاليّة من مفعول النداء. و(يصلي) حال من الضمير في (قائم)، والظرف (في المحراب) متعلّق إمّا بـ(يصلّي) أو بـ(قائم)؛ لأنّ أحدهما يلازم الآخر في المقام.

وإنّما اختلفت الجملتان في قوله تعالى: **﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾**، فكانت الأُولى فعليّة، و الثانية اسميّة، لأنّ الكبر مترقّب الحدوث، يحدث شيئاً فشيئاً، فلم يكن وصفاً لازماً، بخلاف الثانية، فإنّ العقر وصف لازم ثابت، و لذلك صارت الجملة اسميّة.

و قوله تعالى: **﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾** يمكن إعرابه على وجهين:

الأوّل: أن يكون المراد بالجعل التغيير، فيتعدّى إلى مفعولين، أحدهما (آية) و الثاني (لي).

الثاني: أن يكون الجعل بمعنى الخلق و الإيجاد، فيتعدّى إلى مفعول واحد، و هو (آية)، و يكون (لي) في موضع النصب على الحال من (آية)، و صفة النكرة إذا تقدّمت عليها أعربت حالا منها.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً**﴾، على أنّ الاصطفاء إنّما يكون بإرادة من الله تعالى و اختياره، و ليس للإنسان إرادة فيه، فإنّه جلّت عظمته أعلم حيث يجعل رسالته، نعم إنّ للاصطفاء أسباباً كثيرة، بعضها اختياري للعبد المصطفى ـ كما تقدّم ـ و لكن نفس الاصطفاء و النبوّة و الولاية و نحوها لابدّ أن تكون بإذن من الله تعالى و تعيين منه عزّ و جلّ، و لا يمكن أن تكون تحت اختيار البشر لعدم إحاطة العقول بذلك، فيلزم الخلاف أو الفساد.

الثاني: لم يذكر سبحانه و تعالى خاتم الأنبياء في آية الاصطفاء صريحاً، و لكن قد ذكره في قوله تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ**﴾، و يستفاد من ذلك أن مقامه ﷺ فوق مقام الاصطفاء، حيث جعل متابعته ﷺ سبباً لمحبّته تعالى، التي هي من مقتضيات الاصطفاء كما عرفت.

الثالث: يستفاد من آية الاصطفاء أنّ اصطفاء الله تعالى لبعض عباده يدلّ على الامتياز، و أنّ المصطفين ممتازون عن سائر الخلق، لتحقّق الإنسانيّة الكاملة فيهم، و أنّ لهم نفوساً قدسية هي المرآة الأتمّ لأخلاق الله تعالى و العبوديّة المحضة، و هي مظهر أسمائه و صفاته و محل تجلّيه عزّ و جلّ، فهم آيات الله التكوينيّة و التشريعيّة.

الرابع: لعلّ الغرض الأهمّ من آية الاصطفاء و آية المحبّة هو سوق الناس إلى المكارم و إيقاظ من هو غافل عن الحقيقة و الكمال، فإنّ محبّة الله تعالى و اصطفاء لمحبّيه لا يمكن أن تحصلا إلّا بالإيمان بالله تعالى إيماناً حقيقيّاً، و التوجّه إليه تعالى و العمل بما أنزله عزّ و جلّ بجد و إخلاص، فيشمله حينئذٍ ما شمل أولياء الله تعالى المصطفين من التوفيقات و نزول البركات، و يستعد لتلقّي

فيوضات الله تعالى، و يصلح أن يكون وليّاً يصلح به نظام الدُّنيا و الآخرة، فالآية الشريفة ترشد الناس إلى طريق هؤلاء الذين اصطفاهم الله تعالى على العالمين، و أن يكون سيرهم و سلوكهم كسيرهم و سلوكهم، فتكون الآية من الكناية التي هي أبلغ من التصريح.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾**، أنّ هذه الذرّية المصطفاة من الخلق هي محفوظة من لدن آدم عليه السلام إلى نوح إلى آل إبراهيم إلى آل عمران، و أن ذكر الأفراد قبل ذلك إنّما هو لبيان اتّصال السلسلة و الاتّحاد بين تلك الأفراد، وأنّها محفوظة إلى آخر الدهر و فناء الدُّنيا، لا يمكن أن تنقطع هذه السلسلة و إن تقادم عليها الدهر و مرّت عليها السنون و الأعوام، و أنّ لهذه الذرّية أفراداً في كلّ زمان، بهم تحفظ الشريعة و يستقرّ النظام.

و من ذلك يعلم أنّ محمّداً و آله و إن لم يذكروا صريحاً في هذه الآية الشريفة، و لكنّهم داخلون فيها، بمقتضى التعليل في آخرها، و يدلّ على ذلك قول الإمام الباقر عليه السلام: «نحن منهم، و نحن بقيّة تلك العترة»، و أنّ صاحب الأمر (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) يحتجّ عند ظهوره بالآية المباركة، و أنّه أولى الناس بنوح و إبراهيم، و قد ورد عن أهل البيت أنّهم كانوا يقرؤون الآية الشريفة (و آل إبراهيم و آل عمران و آل محمّد على العالمين)، كما في «تفسير القمّي» و «أمالي» الشيخ الطوسي و «تفسير العياشي»، و في «تفسير الثعلبي» مسنداً عن الأعمش عن أبي وائل:

قال: «قرأت في مصحف ابن مسعود: (إنّ الله اصطفى آدم و نوحاً و آل إبراهيم و آل محمّد على العالمين)، فأبدل اسماً مكان اسم».

و روى مثله هشام بن سالم، قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً﴾**،

فقال عليه‌السلام : هو آل إبراهيم و آل محمّد على العالمين» .

و يمكن أن يكون الوجه في ذلك أنّه من باب التنزيل ، و أنّ أهل البيت أهمّ المقصودين من إبراهيم و آله بمقتضى الوحي على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ، فيكون ما ورد في مصحف ابن مسعود و غيره بعنوان التأويل ، و مثل ذلك كثير في القرآن الكريم كما ذكرنا مراراً ، فلا يستفاد من الروايات المتقدّمة التحريف بعد صحّة حملها على بيان المصاديق و التنزيل ، و ما ورد من أنهّ «أبدل اسماً مكان اسم» ، يكون بحسب التنزيل لا أصل الوحي .

السادس : يدلّ قوله تعالى : ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً**﴾ ، على كمال انقطاع امرأة عمران إليه تعالى ، فإنّها حرّرت وليدها عن طاعتها إلى طاعته عزّ و جلّ ، و أعتقته لوجهه الكريم ، و الآية تدلّ على أنـّها طلبت الولد في ضمن نذرها ، لعدم لياقة الأُنثى لما تريده .

السابع : إنما ذكرت امرأة عمران (ما في بطني) ، حفظاً لأدب الدّعاء مع الكبير العظيم ، و تحفظاً لعدم ذكر ما يقرب من العورة مع إمكان إظهار المعنى بغيره بلفظ هو أشمل منه ، قال تعالى : ﴿**وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾[1] .

الثامن : يدلّ قوله تعالى : ﴿**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى**﴾ على كمال تحسّرها و تحزّنها عند وضعها الحمل أُنثى ، و أن هذا الكلام صدر عن قلب كسير و فؤاد حزين ، و مع ذلك فقد دعت للمولودة بقولها ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾ ، و عظّمت و فخّمت شأنها ، حيث أدخلتها في علم الله تعالى ، و طلبت رعايتها منه عزّ و جلّ بقولها : ﴿**إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ ، و اعترفت بالعجز أمام قدرته سبحانه و تعالى ، و أنّ إرادته فوق إرادة البشر ، يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد .

---

١ . سورة النجم : الآية ٣٢.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، أنّ التسمية كانت من حقوقها، و ليس لأحد غيرها هذا الحقّ، فقد مات أبوها و هي حامل بها، مع أنّه يمكن أن يستفاد من تبادرها بالتسمية أنّها كانت تعلم بها سابقاً، و أنّ لهذه المولودة شأناً كبيراً، و فيها الصلاحية لخدمة البيت، مضافاً إلى أنّ التسمية من المخلوق الممكن ينفي شبهة الغلو في مريم العذراء.

العاشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، على أنّها طلبت بقاءها صحيحة لا تعترضها صوارف الدهر و عاديات الزمان، حتّى تكبر و تتحقّق أُمنيتها، و هي الولد الذكر.

وإنّما قدّمت الاستعاذة و أدّت بالفعل المضارع، للدلالة على استمرار الاستعاذة و دوامها و الاهتمام بشأنها، و بذلك لم يبق للشيطان فيها و في ذرّيتها نصيب.

و الآية المباركة لا تدلّ بشيء من الدلالات على أنّ كلّ مولود يمسّه الشيطان إلّا من عصمه الله تعالى، و قد تكلّف جمهور المفسّرين في تأويل هذه الآية الشريفة بما لا محصل له، مع أنّ ما ذكروه في المقام لا يصلح للاعتماد عليه، فالآية ليست إلّا في مقام الإرشاد إلى أن الإنسان لابدّ له من الاستعاذة من عدو قد آلى على نفسه أن يغويه و يضلّه عن الطريق، فلابدّ من الالتجاء إلى الله تعالى في جميع الحالات، لا سيما من مثل امرأة عمران التي نذرت ابنتها لله عزّ و جلّ، و طمعت أن تكون عابدة مطيعة، و أن تكون لها ذرّية طيّبة، و قدر أن يكون لها شأن كبير في المستقبل.

الحادي عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾، على الجزاء العظيم الذي وعده الله تعالى لهذه المرأة المؤمنة المطيعة، جزاء إخلاصها في نذرها، فهو عزّ و جلّ قد رضي بالأنثى و تلقّاها بوجه حسن،

فهو الربّ الكريم الذي تعهّد تربيتها تربية حسنة في جميع شؤونها و حالاتها، فصارت امرأة عابدة لخالقها مطيعة لربّها، طهّرها عن الرذائل و اصطفاها على نساء العالمين، و جميع ذلك كان استجابة لدعاء أُمّها و تحقّقت جميع أمنياتها، و ممّا جعله الله تعالى وسيلة لتربيتها الحسنة أن دخلت مريم في كفالة زكريا النبيّ الكريم.

و يستفاد من ذلك أنّه لابدّ للإنسان من الدخول في كفالة من يقوم بتربيته تربية صالحة، و لا يتأتى ذلك لكلّ فرد و لا يقدر أن يقوم كلّ أحد لوحده في تربية نفسه، وكأنّ هذه الآية الشريفة تبيّن سبب اصطفاء الله تعالى مريم، و هو الإنبات الحسن و رضاه تعالى بها.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**، على أنّ العلّة في ارتزاق مريم عليها السلام هي أنّ جميع الأرزاق ـ سواء كانت مادّيّة أم معنويّة ـ بيد الله تعالى، و أنه يعلم بخصوصيات الرزق و المرزوق و كيفيّته و جهاته. و لذلك يمكن تطبيق هذه الآية في كلّ مورد علم من الأدلّة الصحيحة القويمة أنّه داخل تحت الآية الشريفة، كما ورد بالنسبة إلى فاطمة الزهراء عليها السلام، فإنّها أيضاً ممّن تقبّلها ربّها بقبول حسن، و قد أبان فضلها على سائر النساء و طهّرها من جميع الرذائل الخلقيّة و الخلقيّة، و تدلّ الأدلّة النقليّة و العقليّة على ذلك، فلئن كانت مريم العذراء مصطفاة على نساء العالمين في وقتها، و لكن الصدّيقة الطاهرة مصطفاة على جميع نساء العالمين، و لئن رزقت مريم عليها السلام من الرزق المخزون عند الله تعالى لوحدها إلّا أن فاطمة الزهراء عليها السلام قد رزقت هي و أولادها و آثرت رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسها، فقد روى أبو يعلى عن جابر:

«أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أقام أيّاماً لم يطعم طعاماً حتّى شقّ ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة، فقال: يا بُنية هل

عندك شيء آكله فإني جائع؟

فقالت: لا و الله، فلمّا خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين و قطعة لحم، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها، و قالت لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي و من عندي، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ، فرجع إليها، فقالت له: قد أتى الله تعالى بشيء قد خبأته لك.

قال: هلمّي يا بنية بالجفنة، فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً و لحماً، فلمّا نظرت إليها بهتت و عرفت أنّها بركة من الله، فحمدت الله تعالى و قدّمته إلى النبيّ ﷺ، فلمّا رآه حمد الله تعالى، و قال: من أين لك هذا يا بُنية؟

قالت: يا أبت هو من عند الله، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد الله سبحانه، ثمّ قال: الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيّدة نساء بني إسرائيل، فإنّها كانت إذا رزقها الله تعالى رزقاً فسئلت عنه قالت: ﴿**هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، ثمّ جمع عليّاً و الحسن و الحسين عليهما السلام و جميع أهل بيته حتّى شبعوا و بقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة عليها السلام على جيرانها».

الثالث عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ**﴾، أنّ أقرب ما يكون الإنسان إلى ربّه هي حالة الصلاة، فإنّها أفضل عبادة و أفضل القربات، كما تقدّم.

الرابع عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**﴾، على رجحان طلب الأولاد و حسنه، و هو سنّة الأنبياء و الصالحين و الصدّيقين، و قد دلّت عليه آيات أُخرى، منها:

قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[1].

---

١. سورة الصافات: الآية ١٠٠.

وكذا قوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[٢].

وفي السنّة المقدّسة الشيء الكثير من ذلك.

الخامس عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللّهِ﴾، على القاعدة المعروفة أنّ كلّ نبيّ لابدّ أن يخبر عن نبيّ آخر سابق أو لاحق و يصدقه، و هي من إحدى ركائز النبوّات الإلهيّة كما عرفت.

السادس عشر: يستفاد ممّا ورد في طلب زكريا الذرّية أنّ للكلام الصادر من الوالدين أثراً في تربية النطفة، سواء كانت في الصلب أم في الرحم، و هذا ليس ببعيد، فإنّ للغذاء و التغذية أثراً كبيراً في التربية، فلابدّ و أن يكون للتكلّم و الكلام أثر كذلك.

السابع عشر: لا يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ المقدار الذي بلغ إليه زكريا من العمر، و لكن ورد في موضع آخر في هذه القصّة: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[٣]، أنّه ﷺ قد بلغ ما بلغ من العمر بحيث يبست عظامه من شدّة الكبر.

الثامن عشر: لا يدلّ قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ على أنّ العقر عارض لأجل الكبر أو كان سابقاً، و لكن في سورة مريم حكاية عنه: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾[٤]، و هو يدلّ على أنّها كانت كذلك في مقتبل عمرها، و هي مضافاً إلى

---

١. سورة الشعراء: الآية ٨٤.

٢. سورة الفرقان: الآية ٧٤.

٣. سورة مريم: الآية ٨.

٤. سورة مريم: الآية ٨.

شيخوختها عاقرة أيضاً.

التاسع عشر: يستفاد من ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً﴾، أنّ عدم التكلّم كان تحت اختياره، و هو صحيح سليم الجوارح سوي الخلقة لا علّة فيه، ولكنّه منع من التكلّم إلّا رمزاً، و لا تدلّ الآية الشريفة على أنّ المانع هو البكم الطارئ عليه أو آفة تمنعه عن ذلك، كما ذكره جمهور المفسّرين.

***

بحث فقهي:

تحرير ما في البطن لله تعالى في المقدّسات الدينية ـ أمكنة كانت أم غيرها ـ يتصوّر على وجوه:

الأوّل: التحرير على نحو يوجب التضييع و الضياع و إهماله عن الكمالات، و هذا لا يجوز و لا يصحّ في أيّة شريعة من الشرائع الإلهيّة.

الثاني: التحرير على نحو يوجب سمو النفس و جمعها للكمالات المعنوية، و لكن بحيث يخرج عن مراقبة الوالدين بالكلّية و الخروج عن ولايتهما الشرعيّة و التكوينيّة، و هذا لا يجوز أيضاً.

الثالث: نفس القسم السابق مع ثبوت الولاية عليه بما ثبتت في الشريعة الإلهيّة، و هذا صحيح و لا محذور فيه و لم يرد ردع في الشريعة الاسلاميّة عنه، لفرض وجود المقتضي للصحّة و فقد المانع عنها، نظير دفع المولود للرضاعة إلى المرضعة مع بقاء سلطة الوالدين عليه، أو دفعه إلى معلّم خاص ليعلّمه بعض الكمالات.

الرابع: التحرير مع انقطاع سلطنة الأبوين عن الولد بحيث لم يكن لهما أمر و نهي بالنسبة إليه و لا يعمل الولد لهما، و إن ثبتت البنوّة التكوينيّة لهما. و هذا

أيضاً صحيح إذا أقدم الوالدان باختيارهما على ذلك و ألقيا وجوب إطاعتهما عنه، و أخلصوه لطاعة الله تعالى فقط. و يظهر من التواريخ أنّ التحرير في تلك الأعصار كان من هذا القسم.

ثمّ إنّ التبتّل و الانقطاع عن النكاح على أقسام:

الأوّل: أن يكون لأجل الرياضات غير المشروعة، و هذا غير جائز، و قد دلّت عليه الأدلّة الكثيرة، قال رسول‌الله ﷺ: «مَن رغب عن سنّتي فليس منّي»، و هذه هي الرهبانيّة التي ابتدعت في بعض الأديان، قال تعالى: **﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾**[1].

الثاني: أن يكون لأجل مانع في البين، كالعنة و أمثالها، و لا يتّصف ذلك بالحرمة لفرض عدم القدرة.

الثالث: ما إذا كان مع وجود المقتضي و القدرة على النكاح، لكن كان في البين أهمّ ديني يقتضي تقديمه على النكاح، و الحصر في يحيى من هذا القسم، و هو جائز بل راجح، و تشخيص ذلك لابدّ أن يكون من ناحيته تبارك و تعالى.

***

بحث عرفاني:

تقدّم أنّ حقيقة الإيمان بالله جلّت عظمته إنّما هي ارتباط خاص بين العبد و بين الله تعالى الذي له من الصفات الجماليّة و الكماليّة ما لا يمكن أن يحدّها حدّ، فله القدرة و الملك و التدبير و الربوبيّة و الرأفة و الكمال و الجلال، و العالم كلّه مظاهر جلاله و جماله و أسمائه و صفاته، و له التأثير التامّ في نظام العالم.

و الإيمان ارتباط بين عالم الشهادة و عالم الغيب ارتباطاً اختياريّاً، و هذا الارتباط الخاصّ الاختياري و إن كان في نظرنا أمراً عرضيّاً قائماً بالغير، لكنّه

---

١. سورة الحديد: الآية ٢٧.

في الواقع جوهر نوراني يضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض، و هو الركن الشديد الذي يعتمد عليه عند الشدائد و الأهوال و في مختلف الأحوال، و هذا الارتباط قد يقوى و قد يضعف، تبعا لدرجات الإيمان، و يمكن أن يصل إلى حدّ الجذبة، فيصل العبد إلى مقام الاصطفاء و هو التجاذب التامّ من الطرفين، فالجذبة من ناحية العبد هي العبوديّة المحضة و الانقطاع إلى ربّ العزّة بكلّ همة، و جذبة الله ما هو متناه من كلّ جهة، فإنّه يحظى من عطاء الله تعالى و لطفه غير المتناهي.

و في الاصطفاء يظهر سرّ العبوديّة و الامتحان الإلهي، و فيه تبدو الأخلاق الكاملة الربانيّة، و هو مظهر الكمالات و التحليات، و المصطفى (بالفتح) هو الإنسان الكامل الذي يكون قطب رحى الوجود، يتشرّف أهل الأرض بوجوده، و يترقّب أهل السماء لقاءه، فهو الأمان من كلّ شرّ، و به يدفع كلّ بلية و عظيمة، و هو الذي باهى الله تعالى الملائكة بخلقه و إيجاده، و هو عرش الرحمن، و هو واسطة الفيض الإلهي على سائر الخلق.

و تختلف درجات الاصطفاء حسب اختلاف درجات الفضل، و رأس كلّ مصطفى و رئيسهم أشرف الكائنات على الإطلاق و سيّد الخلائق، مجمع كلّ فضيلة و مكرمة، و مظهر كلّ فيض و رحمه، خاتم الأنبياء الذي وصل إلى ما لم يصل إليه أحد من العالمين في الأخلاق الساميّة و الكمالات الإنسانيّة، حتّى وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى بما لم يحظ به الأملاك و الأفلاك، و يلحق به أهل بيته الذين هم من البضعة الطاهرة الصدّيقة، التي تربّت في حجر رسول الله ﷺ، و وصلت إلى مقام الرضا لأبيها، و هو القائل فيها:

«فاطمة منّي يرضيني ما يرضيها و يغضبني ما يغضبها».

و هي مستودع علم رسول الله ﷺ و مظهر أخلاقه القدسية، و الذرّية الطيّبة

من نسلها، و هم المعصومون المطهّرون الممتازون عن سائر الخلق خلقاً و خُلقاً، و هم أسرار الله تعالى و مظهر أسمائه و صفاته و محالّ تجلّياته الخاصّة و مبلغ أمره و نهيه، و هي من تلك الذرّية المصطفاة، التي تبقى هذه الذرّية إلى آخر الدهر لتقيم العدل و تمحق الجور.

و من تلك الذّرّية المصطفاة مريم العذراء أُمّ المسيح كلمة الله التي اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين و مظهر تجليّات الله تعالى و أسمائه عزّ و جلّ، فهي البرّة التقية العابدة الزكية الطاهرة النقية محل إبداع الله عزّ و جلّ و مورد امتحانه تعالى و مستودعة سرّه، و هي المنذورة لله تعالى في الطاعة و الإخلاص من قبل أُمّها الطاهرة المصطفاة أيضاً المنقطعة إليه عزّ و جلّ كمال الانقطاع، حتّى أنّها ألقت عن نفسها أشدّ أنحاء العطف و الحنان بالنسبة إلى وليدتها، إخلاصاً لله و قدّمتها إليه عزّ و جلّ، من دون أن يكون في قلبها شيء سوى محبّة الله تعالى، فحظيت مقام المحبّة فيه عزّ و جلّ، و فتحت لها أبواب الاصطفاء فصارت بمنزلة جدّها الخليل، حيث قال: **﴿يَابُنَيَّ إِنِّي أرى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾**[1]، و لا بدع في ذلك فإنّ الذرّية بعضها من بعض، و أنّ الذرّية بمنزلة الروح لهذا العالم و هو بمنزلة الجسد لها.

***

بحث روائي:

عن ابن بابويه عن أبان بن الصلت، قال:

«حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون و قد اجتمع إليه في مجلسه جماعة من

١. سورة الصافات: الآية ١٠٢.

أهل العراق و خراسان ـ إلى أن قال ـ قال المأمون: هل فضّل الله العترة على سائر الناس؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: إنّ الله عزّ و جلّ أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه، فقال المأمون: و أين ذلك من كتاب الله؟ فقال له الرضا عليه السلام: في قوله عزّ و جلّ: **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾**، قال عليه السلام: يعني أنّ العترة داخلون في آل إبراهيم، لأنّ رسول الله صلى الله عليه و آله من ولد إبراهيم عليه السلام و هو دعوة إبراهيم و عترته منه صلى الله عليه و آله».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بهذه الرواية و أنّه (صلوات الله عليه) تمسّك بظاهر الآية الشريفة لشمول إطلاق الذرّية لجميع من ينسب إلى إبراهيم عليه السلام، و ليس ذلك من التأويل و لا من التفسير في شيء.

و في «تفسير العياشي»: عن أحمد بن محمّد، عن الرضا، عن أبي جعفر عليه السلام: «من زعم أنّه قد فرغ من الأمر، فقد كذب لأنّ المشيئة لله في خلقه يريد ما يشاء و يفعل ما يريد، قال الله: **﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**، آخرها من أوّلها، و أوّلها من آخرها، فإذا أخبرتم بشيء منها بعينه أنّه كائن و كان في غيره منه، فقد وقع الخبر على ما أخبرتم عنه».

أقول: أمّا قوله عليه السلام: «من زعم أنّه قد فرغ من الأمر فقد كذب»، موافق للأدلّة العقليّة و النقليّة.

أمّا النقليّة: مثل قوله تعالى: **﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾**[1]، و قوله تعالى: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾**[2]، و غيرهما من الآيات الشريفة و السنّة المقدّسة.

---

١ . سورة الرحمن: الآية ٢٩.

٢ . سورة المائدة: الآية ٦٤.

و أمّا العقليّة: فلما أثبته الفلاسفة الإلهيون على أنّ مناط الاحتياج إلى العلّة هو الإمكان، و هو مساوق للفقر و الحاجة، و هما دائمان فإفاضاته تعالى دائمة إلى الأبد.

نعم، مَن توهّم أنّ مناط الحاجة هو الحدوث، فإذا حدث شيء لا يحتاج إلى العلّة بعد ذلك يتم الوجه بناء على هذا القول، ولكنّه مجرّد وهم، و قد أبطلوه ببراهين كثيرة ذكرت في محلّها.

وأمّا قوله ﷺ: «آخرها من أوّلها، وأوّلها من آخرها» صحيح، وذلك لأنّ الزمان و الزمانيّات بالنسبة إليه كائن واحد ليس فيه تسلسل زماني، مع أنّا أثبتنا في علم الأُصول أنّ الزمان مطلقاً ليس مأخوذاً في الأفعال، و يدلّ عليه ذيل الرواية.

و في «تفسير القمّي»: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله ﷺ: «أوحى الله إلى عمران: إنّي واهب لك ذكراً مباركاً يبرئ الأكمه و الأبرص و يحيي الموتى بإذني، و جاعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فحدّث امرأته بذلك و هي أُمّ مريم، فلمّا حملت بها كان حملها عند نفسها غلاماً ذكراً، فلما وضعتها أُنثىٰ، قالت: ﴿**رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ... وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**﴾، لأنّ البنت لا تكون رسولاً، يقول الله: ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾، فلمّا وهب الله لمريم عيسى كان هو الذي بشّر الله به عمران، و وعده إيّاه، فإذا قلنا لكم في الرجل منّا شيئاً فكان في ولده أو ولد ولده، فلا تنكروا ذلك، فلما بلغت مريم صارت في المحراب و أرخت على نفسها ستراً وكان لا يراها أحد، وكان يدخل عليها زكريا المحراب فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء و فاكهة الشتاء في الصيف، فكان يقول: ﴿**أَنَّى لَكِ هَذَا**﴾، فتقول: ﴿**هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾».

أقول: يستفاد من الرواية أُمور:

الأوّل: أنّ عمران نبيّ، و يدلّ عليه أيضاً ما عن أبي بصير، عن أبي

جعفر عليه السلام، قال:

«سألته عن عمران أكان نبيّاً؟ فقال عليه السلام: نعم كان نبيّاً مرسلاً إلى قومه..».

و لا بأس بذلك لأنّ أنبياء بني إسرائيل كثيرون، فكان مثل نبيّ في بني إسرائيل مثل العلماء العاملين في أمّة محمّد صلى الله عليه وآله الموجودين في كلّ قرية، و يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وآله: «علماء أمّتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل».

الثاني: أنّ مقتضى سياق مثل هذه الآيات عدم اختصاص امتنان الله تعالى بمن أخبر به فقط، بل يمكن شموله لآخر من نسله قريباً كان أو بعيداً، و هذا هو صريح قوله عليه السلام: «إذا قلنا لكم في الرجل منّا شيئاً فكان في ولده، أو ولد ولده فلا تنكروا ذلك»، بل في بعض الروايات يمكن أن يوجد ذلك بعد سبعين بطناً.

الثالث: الرواية ظاهرة في أنّ قوله تعالى: ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**﴾ من كلام أمّ مريم لكونها ملتفتة إلى ما أوحي إلى زوجها.

و لكن يبقى هنا شيء و هو أنّ مقتضى القواعد الأدبيّة المتعارفة أنّ في مقام نفي التشبيه تدخل كلمة التشبيه على الأفضل لا المفضول، بخلاف المقام حيث ادخلت على الأنثى، و هي مفضولة بالنسبة إلى الذكر.

و لعلّ السرّ في ذلك كمال هذه المرأة و علوّ شأنها و منزلتها عند الله تعالى، بحيث إنّها تكون أفضل من كثير من الرجال.

الرابع: دلالة هذه الرواية و أمثالها على مقام مريم و نزول الفواكه المختلفة عليها، و هذا ليس ببعيد من قدرة الله تعالى بالنسبة إلى مريم و الصدّيقة الطاهرة، و إنكار مثل ذلك ليس إلّا مكابرة، بل هو قبيح ممّن يعترف بعالم الغيب.

و في «تفسير العياشي»: في الآية المباركة عن الصادق عليه السلام:

«أنّ المحرّر يكون في الكنيسة و لا يخرج منها، فلمّا وضعتها أنثى قالت:

ربِّ إنّي وضعتها أُنثى و ليس الذكر كـالأُنثى ، إنّ الأُنـثى تـحيض فـتخرج مـن المسجد ، و المحرّر لا يخرج من المسجد» .

أقول : قوله عليه السلام : «إنّ الأُنثى تحيض» ، لبيان الفرق بين الأُنثى و الذكر فـي الجملة ، لا من حيث تطبيقه على مريم عليها السلام ، فإنّها طاهرة مطهّرة بـالاتّفاق ، و أنّ «بنات الأنبياء لا يطمثن» ، كما في جملة من الروايات .

و في «تفسير العياشي» ـ أيضاً ـ : عن أحدهما عليهما السلام : «نذرت ما فـي بـطنها للكنيسة أن يخدم العباد ، و ليس الذكر كالأُنثى في الخدمة ، قال : فشبّت و كانت تخدمهم و تناولهم حتّى بلغت ، فأمر زكريا أن تتّخذ لها حجاباً دون العباد» .

أقول : ظهر وجهه ممّا تقدّم .

و في «تفسير العياشي» ، عن الصادق عليه السلام ، قال : «إنّ زكريا لمّا دعا ربّه أن يهب له ولداً ، فنادته الملائكة بما نادته به ، أحبّ أن يعلم أنّ ذلك الصوت من الله ، فأوحى إليه أنّ آية ذلك أن يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة أيّام ، فلمّا أمسك لسانه و لم يتكلّم علم أنّه لا يقدر على ذلك إلّا الله ، و ذلك قول الله : رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً» .

أقول : الرواية تدلّ على أنّ عدم التكلّم كان بإرادة منه عزّ و جلّ لا باختيار زكريا ، و تقدّم أنّ هذا من أحد معاني الآية الشريفة ، و لا بأس به في حدّ نفسه ، لأنّـه اعتبار حسن ، و أمّا عدم تيقّن زكريا من قول الملائكة بأنّـه مـن قـول الله تعالى ، فلأنّ قول الملائكة الموكلة بالإنسان المدبّرة لشؤونه على نحوين :

الأوّل : أن يكون نفس القول اوحي إليه من ربّ العالمين ، فهم من مـجرّد الواسطة .

الثاني : أن يكون ذلك القول ممّا فوّضه الله إليهم في تدبير شأن من وكّلوا به ، و لعلّ زكريا أراد تعيين أحد الاحتمالين .

***

الآية ٤٢ ـ ٥١

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه و تعالى جملة المصطفين الأبرار، و ذكر منهم مريم عليها السلام و بيّن نشأتها و تربيتها اللائقة التي أعدّتها لاصطفائها، و أتى بقصّة زكريا تأكيداً

للأُولى و تثبيتاً لما ورد فيها ، و تقريراً لصدق ما نزل ، أردفها سبحانه و تعالى بقصّة عيسى عليه السلام ، فذكر سبحانه أوّلاً اصطفاء مريم عليها السلام لما كانت عليه من التربية الصالحة و الإعداد الحسن ، و لأجل ذلك استعدّت لحمل عيسى كلمة الله من دون أب ، ثمّ ذكر جملة من حالات المسيح و الآيات الباهرات التي جرت على يديه .

***

التفسير

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ .

الجملة معطوفة على الجملة السابقة : «إذ قالت امرأة عمران» ، و الجملتان في مقام الشرح لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

و (إذ) منصوب ـ كما عرفت ـ بفعل مقدر و هو اذكر ، و المراد من الملائكة جنسها كما تقدّم سابقاً ، فلا ينافي أن يكون المتكلّم واحداً .

و قول الملائكة أعمّ من أن يكون بالإلهام في القلب ، أو بظهور الشخص خارجاً و التكلّم الشفهي معها ، و إن كان الظاهر هو الثاني ، و يدلّ عليه قوله تعالى في سورة مريم : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ ، و لا محذور فيه من عقل أو نقل ، كما أنّ ظاهر الآية المباركة في أنّ مريم كانت محدّثة تكلّمها الملائكة و هي تسمع كلامهم و قد ترى شخصهم .

و الاصطفاء الاختيار كما عرفت سابقاً ، و ذكرنا أنّ جهة الاصطفاء تعرف من القرائن الحافّة بالكلام ، فقد تكون متّحدة ، و قد تكون متعدّدة . .

فتارةً : تكون لأجل قداسة الذات .

و **أُخرى** : تكون لأجل جهات خارجيّة اختياريّة أو تكوينيّة .

و **ثالثة** : تكون لأجل الخلوص في العبادة و التقوى .

و رابعة: لجميع ذلك.

و المراد به في المقام أنّ الله اختارك بقبوله تعالى لك و رضائه بك، و تقبّلها لعبادته عزّ و جلّ حينما نذرت أُمّها تحريرها لله عزّ و جلّ، و قد تقدّم جميع ذلك في الآيات السابقة.

و ظاهر الآية الشريفة أنّ الطهارة في المقام أعمّ من الطهارة من الأدناس الظاهريّة و الأقذار المعنويّة، فهي معصومة بعصمة الله تعالى، و قد تحقّق فيها دعاء أُمّها من إعاذتها و ذرّيتها من الشيطان الرجيم.

و قيل: الطهارة مختصّة بالطهارة عن الأدناس التي تلحق بالنساء، مثل الحيض و النفاس، حتّى تكون صالحة لخدمة المسجد، و لكن الإطلاق يدفع ذلك.

قوله تعالى: **﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾**.

أي: و اختارك لتكوني أُمّاً للمسيح، فيكون الاصطفاء في المقام غير الاصطفاء في صدر الآية الشريفة، فإنّه يختصّ ببعض الجهات، و هو تقديم مريم عليها السلام على سائر النساء في الولادة من غير أب، و يشهد لذلك جملة من الآيات المباركة التي تدلّ على تكريمها بهذه المزيّة:

قال تعالى: **﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾**.

و قال تعالى: **﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾**[1].

و قال تعالى: **﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ**

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٩١.

رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ﴾[١].

و المستفاد من جميع ذلك أنـّها تقدّمت على نساء العالمين في خصوص هذه المزيّة، و إن كانت لها صفات أُخرى منها التطهير و التـصديق بكـلمات الله تعالى و كتبه، و القنوت، و تقبّلها ربّها، و أنبتها نباتاً حسناً و نحو ذلك، و لكن هذه الأُمور قد توجد في غيرها فلا تختصّ بها، و ربما تكون هذه الأُمور هي من تلك الجهات التي اقتضت اصطفاءها في المرّة الأُولى.

و من ذلك يظهر سرّ تكرار الاصطفاء في الآية الشريفة، فلا دلالة فيها مع هذه القرائن الكثيرة على اصطفائها عـلى جـميع نسـاء العـالمين مـن الأوّليـن و الآخرين، مع أنّ لفظ العالمين قابل للتوسعة و التضييق، و القرائن المذكورة في المقام و السنّة دلّت على سيادتها و تقدّمها على نساء العالمين في جهة خاصّة أو على نساء عالمها، فهي لا تدلّ على أفضليتها على فاطمة عليها السلام، التي اجتمعت فيها أُمور كثيرة لا تكون في غيرها، و سيأتي في البحث الروائي ما يتعلّق بذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

تكرار النداء لبيان عظمة المنادي، و للإشارة إلى تتابع النداء عـلى مـريم و حثّها على الاستماع و الإصغاء، و التحبّب إليها، و الاهتمام بشأنها.

و القـنوت: هو لزوم الطاعة و الخضوع، و تقدّم تـفصيل مـعناه فـي قـوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[٢]، و السجود و الركوع معروفان، و الجميع كناية عن لزوم الطاعة و الخضوع و الخشوع في العبادة و عدم تركها في حال، و مـراعـاة وظيفة العبوديّة.

---

١. سورة التحريم: الآية ١٢.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٣٨.

و يمكن أن يكون المراد من الركوع مع الراكعين هو لزوم الصلاة و المحافظة عليها، و لعلّ النكتة في التعبير بالركوع مع الراكعين هي الأمر باتّباع شريعة موسى، ومتابعة زكريا قبل ظهور شريعة ابنها عيسى عليه السلام، حيث إنّها كانت في كفالته، مع أنّ الظاهر أنّ الصلاة كانت واحدة في الشريعتين، فإنّها أوّل ما نطق به عيسى عليه السلام حينما وضعته اُمّه، قال تعالى حكايةً عنه: ﴿**وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**﴾[1].

وكيف كان، فهي تابعة في جهات عبادتها لشخص آخر، و هو إبراهيم أو موسى أو زكريا، و لا استقلال لها بوجه حتّى يتوهّم أنـّها أصل من الاُصول، و لا ينافي ذلك نداءها من قبل الملائكة بلزوم الطاعة و العبادة و الخضوع، فإنّ كلّ نفس آمنت بالله تعالى إيماناً حقيقيّاً و اتّصفت بالتقوى و اليقين يمكن أن تحدّثها الملائكة، و قد ورد في جملة من الأخبار: «أنّ المؤمن محدّث»، و لا ريب أنّ حديث الملائكة كاشف عن كمال الإيمان، كما أنّ وحي الشيطان كاشف عن كمال الشقاء و الحرمان، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ**﴾[2].

و ربما يكون الوجه في الأمر بالركوع مع الراكعين هو لزوم الصلاة، التي هي معروفة عند الخواص، التي تكون خالصة عن الشوائب وكلّ ما هو خارج عنها عندهم.

و لا دلالة لهذه الجملة على كون المعنى منها لزوم صلاة الجماعة، كما ذكره بعض المفسّرين، بل المراد منها هو لزوم الموافقة مع المصلّين و الدخول في زمرتهم.

وإنّما ذكر سبحانه (الرب)، لأن ربوبيّته المطلقة تقتضي إيصال كلّ ممكن

---

١. سورة مريم: الآية ٣١.

٢. سورة الأنعام: الآية ١٢١.

لغايته، و غاية العبوديّة الحقيقيّة هي الوصول إلى مقام الاصطفاء، فتكون الجملة في مقام التعليل للجملة الأُولى، أي أنّ علّة الاصطفاء هي الخضوع للحي القيوم و السجود و الركوع له، و الانخلاع عن الرذائل و الانقطاع إلى الله تعالى.

وإنّما قدَّم سبحانه السجود قبل الركوع، لكمال أهمّية السجود من الركوع و غيره من العبادات، ففي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربّه و هو ساجد»، مع أنّه يمكن أن يُراد من الركوع مطلق الصلاة، و لم يعلم بوجه صحيح أنّ صلاتهم كانت مثل صلاة المسلمين بتقديم الركوع على السجود.

قوله تعالى: **﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾**.

(ذلك) إشارة إلى ما قصّه الله تعالى من شأن امرأة عمران و مريم و زكريا و يحيى، و ما تضمّنته من البلاغة و الغرابة.

و الأنباء: جمع نبأ، كالأخبار جمع خبر، و لكن النبأ أخصّ من مطلق الخبر، لأنّ النبأ يطلق على الخبر ذي الفائدة العظيمة، و الخبر أعمّ منه، و قد يطلق على مطلق الخبر مع القرينة، و يمكن أن يستفاد من موارد الاستعمالات القرآنيّة أنّ النبأ يستعمل غالباً في الموارد التي تستفاد فائدة الخبر من ناحية العلّة، و الخبر بالعكس.

و الغيب: كلّما غاب عن الحواس الظاهريّة و المعنويّة، سواءً كان من موجودات هذا العالم في ما مضى و يأتي، أم عالم آخر. و مادّة (غيب) كثيرة الاستعمال في القرآن مفرداً و جمعاً، و لعلّ من أعظم موارد استعمالها قوله تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾**[1].

و الوحي هنا إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفيّ، سواء كان بإرسال

---

١. سورة الجن: الآية ٢٦ ـ ٢٧.

الملك أم الإلهام، أو غير ذلك، و لا يختصّ بالنفوس الإنسانيّة، بل يعمّ غيرها، لأنّ جميع الممكنات مسخّرات تحت إرادته عزّ و جلّ و مستمدّة من مدده، قال تعالى: ﴿وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[1].

و يستفاد من الآية الشريفة أنّ ما أوحى الله تبارك و تعالى إلى رسول الله ﷺ هو الصحيح المكنون في علم الغيب، و لا يوجد عند أهل الكتاب، بل لا عبرة بما هو الموجود عندهم، لعدم سلامته من التحريف، و لا عند قوم الرسول ﷺ، لكونهم أُمّيين لا يعرفون هذه القصص بوجه من الوجوه.

و نظير هذا التعبير ورد في قصّة يوسف: ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[2]، و القصّتان متشابهتان من حيث أنّ يد التحريف نالتهما، و أنّهما لم تذكرا بهذه الخصوصيّات التي وردت في القرآن الكريم في كتب القوم.

قوله تعالى: ﴿وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ﴾.

أقلام جمع قلم، و مادّة (قلم) تأتي بمعنى القطع في أي هيئة استعملت، و قد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم مفردة و جمعاً:

قال تعالى: ﴿نَ وَالْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ﴾[3].

و قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾[4].

و يسمّى القدح قلماً لأنّه مقطوع في الجملة أيضاً، و قيل لا يُقال للقلم قلماً إلّا بعد البري و يسمّى قبله قصبة و يراعة.

---

١. سورة النحل: الآية ٦٧.

٢. سورة يوسف: الآية ١٠٢.

٣. سورة القلم: الآية ١.

٤. سورة لقمان: الآية ٢٧.

و ما روي أنّه صلى الله عليه و آله: «كان يأخذ الوحي عن جبرائيل، و جبرائيل عن ميكائيل و ميكائيل عن إسرائيل و إسرافيل عن اللوح المحفوظ و اللوح عن القلم»، فهي إشارة إلى معنى إلهي سيأتي تفسيره في موضعه إن شاء الله تعالى.

و إلقاء الأقلام نوع من القرعة التي قرّرتها الشريعة المقدّسة الإسلامية، فقد ورد فيها: «القرعة لكلّ أمر مشكل»، أو «كلّ أمرٍ مشكل ففيه القرعة»، و هي تختلف باختلاف الأعصار و الأمصار، فتشمل كلّما يسمّى قرعة كيف كانت، و يأتي في قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾[1] بعض الكلام.

و معنى يلقون أقلامهم، أي أنّ سدنة الهيكل كانوا يتسابقون في كفالتها، فيلقون أقلامهم و يرمونها و يضربون بها لأخذ النتيجة. و الآية المباركة تدلّ على أنّ القرعة لها دخل في تمييز الحقوق و تعيينها في الواقع.

قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

أي: أنّ النتيجة التي أرادوها من ضرب الأقلام هي تعيين مَن يكفل مريم، و الجملة تدلّ على أنّ التكفّل و الحنان للوليد كانا في مورد السباق من أوّل ولادة مريم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي: و ما كنت شاهدا نزاعهم و تنافسهم على كفالة مريم حين تراضوا بالقرعة، و ضرب السهام فخرجت باسم زكريا و كانت من نصيبه. و الظاهر أنّ هذا الاختصام و النزاع كان لكفالة مريم من ابتداء الأمر و حين ولادتها.

و قيل: إنّ هذا الاختصام و النزاع كان بعد كبر مريم عليها السلام و عجز زكريا عن

---

١. سورة الصافات: الآية ١٤١.

كفالتها ، لأنّ هذه الجملة ذكرت بعد تعيين الكفيل بالقرعة و تمام قصّتها ، فتكونان واقعتين مستقلّتين .

و لكن ظاهر الآية الشريفة يدفع ذلك ، و لا يضرّ إعادة بعض خصوصيّات القصّة بعد تمامها ، لفائدة خاصّة و هي التثبيت ، و نظير ذلك ما ورد في قصّة يوسف عليه السلام ، فإنّه بعد سرد القصّة قال تعالى : **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾**[1] .

و يستفاد من الآية الشريفة جواز الاختصام في المسارعة إلى الخير ، و المتيقّن منه ما إذا كان ذلك بمجرّد القول و الاحتجاج من دون أن تطرأ عناوين جانبيّة أُخرى ، كالهتك و التوهين و الإيذاء مثلاً .

و في تكرار : **﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾** للدلالة على أنّ كلّ واحد من الموردين له الاستقلال في الدلالة على صدق قول الرسول صلى الله عليه وآله و صحّة نبوّته ، مع أنّه رجل أُمّي لا يعلم هو و قومه من أخبارهم شيئاً ، و عدم ذكرهما في الكتب المتداولة في أهل الكتاب ، و فيها الدلالة على أنّ ذلك وحي من الله تعالى .

و إطلاق النفي يشمل نفي الحضور الجسماني و الروحاني ، و منه يظهر ضعف ما ذكره بعض من أنّ الأرواح خلقت قبل الأجساد ، وأنّها كانت عالمة بكلّ شيء قبل التعلّق بالأجساد ، فلما تعلّقت بها سلبت عنها علومها و انحصرت معرفتها بما يستفيده الإنسان بالجهد ، و يستندون في ذلك إلى بعض الأحاديث ، و سيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيه ، و نظير المقام قوله تعالى : **﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾**[2] ، و قوله تعالى : **﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾**[3] ، و الجميع يدلّ

---

١ . سورة يوسف : الآية ١٠٢ .

٢ . سورة القصص : الآية ٤٦ .

٣ . سورة القصص : الآية ٤٤ .

على انحصار علم رسول‌الله ﷺ بالأُمور الغيبيّة بالوحي السماوي فقط.

و الآية الشريفة تدلّ أيضاً على كمال العناية بشأن مريم و الاهتمام بها وكرامتها على الله تعالى و عظم منزلتها عند سدنة بيت المقدس، و لعلّ السرّ في ذلك أنّهم عرفوا بوجه من الوجوه أنّ لها شأناً من الشأن و تكون منشأ لحادثة عظيمة، و هي الولادة من غير أب.

وكيف كان، فالآية المباركة تدلّ على قداسة أُمّ المسيح و تبطل الشبهات التي لم تتورّع اليهود أن يلصقوها بمريم، كما أنّها تدلّ على إبطال مزاعم النصارى في مريم، ببيان كاف و شرح واف تقبله العقول السليمة و الأذهان المستقيمة، و إخراجها عن حدّ الإفراط و الغلو و منحها أرفع المقامات، و هو مقام التقوى و الخضوع لربّ العالمين و العبوديّة لله تعالى.

و من عجيب الأمر أنّ امراة عمران نذرت ما في بطنها محرّراً بخلوص، و حزنت عند ما وضعت المولود أُنثىٰ، لاحتياجها إلى رعاية الأُمّ أكثر من غيرها، و لكن الله تعالى تقبّلها و جعل قلوب سدنة بيت المقدس تهوى إليها، فتشاجر القوم و تنازعوا في كفالتها و حضانتها و حفظها و حراستها، ولابدّ من الاعتبار و التوكّل عليه تعالى، و جعل هذه القصة نصب الأعين، فكلّ مَن أخلص في عمله لله تعالى يراعي الله عزّ و جلّ شأنه و يوكل قوماً من عباده لحفظه و رعايته، أنّه على كلّ شيء قدير.

قوله تعالى: **﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾**.

شروع في قصّة عيسى ﷺ، و بشارة عظيمة من الرحمن لابنة عمران و تبجيل لها، و إعلان لجلالة مقام المسيح و رفعة مكانه، و (إذ) بدل من نظيرتها السابقة، أو عطف بيان، و ترك العطف لاتّحاد المخاطب فيهما، و للإشارة إلى

تقارب الزمانين، بحيث يمكن اعتبارهما حيناً واحداً و في قصّة واحدة، و الظاهر أنّ البشارة كانت في كبر مريم عليها السلام.

و المراد بالملائكة جنسها، فلا ينافي أن يكون واحداً، و هو في المقام جبرائيل عليه السلام الذي تمثّل لها بشراً سويّاً، كما قال تعالى في موضع آخر: **﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾**[1]، و يمكن أن تكون البشارة من جبرائيل و جنوده من الأملاك إجلالاً و اهتماماً بالموضوع، و الكلّ رسل من الله تعالى، و لذا ينسب تارة إلى نفسه و أُخرى إلى الملائكة.

قوله تعالى: **﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾**.

مادّة (كلم) تأتي بمعنى الظهور و البروز، و هذا هو الجامع بين جميع استعمالاتها، و على هذا تكون جميع الموجودات كلمات الله تعالى، لأنّها مظاهر قدرته و مبرزات مشيئته، كما أنّ أنبياء الله تعالى و أولياءه كلمات الله تعالى، لأنّهم مظاهر أخلاقه، و تشريعاته، وكما أنّ بين الكلمات الهجائيّة فرقاً واضحاً بين أفرادها، كذلك يكون بين كلمات الله تعالى التشريعيّة و التكوينيّة.

و الكلمة و الكلم كالتمرة و التمر جنس و مفرد، و تطلق الكلمة في العلوم الأدبية على اللفظ الدال على المعنى و على الجملة، سواءً كانت تامّة يصحّ السكوت عليها، أم ناقصة لا يصحّ.

وإنّما أتى الضمير في (اسمه) مذكّرا باعتبار المعنى.

و المسيح معرَّب، و أصله (مشيح) بالعبرانيّة، كما في كتب العهدين، و هو لقب عيسى بن مريم، و قد وقع في ضمن البشارة كما هو ظاهر الآية الشريفة،

---

١. سورة مريم: الآية ١٧ ـ ١٩.

فيكون مباركاً، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، و يصحّ أن يقع اسماً له توسعاً، فيُقال اسمه المسيح عيسى ابن مريم.

و كيف كان، فقد ذكر القوم في وجه تسمية عيسى بن مريم بهذا الاسم أو اللقب.

ومنها: أنّه مسح بالتطهير من الذنوب.

ومنها: أنّه مسح بدهن زيت بورك فيه، وكان الأنبياء يمسحون به.

ومنها: أنّه كان يمسح رؤوس اليتامى.

ومنها: أنّه كان يمسح عين الأعمى بيده فيبصر، و ذا عاهة فيبرأ.

ومنها: أنّ جبرائيل مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوذة من الشيطان.

ومنها: أنّ كتب العهدين كانت تبشّر بني إسرائيل بظهور ملك عليهم ينجيهم، فسمّي مشيحا بذلك، و قد تعلّل اليهود عن قبول نبوّته بأنّه لم ينل الملك أيّام دعوته و لم تتحقق البشارة في حياته، و وجّه بعض النصارى و المسلمين بأنّ المراد الملك المعنوي، دون الظاهري الصوري.

و لكن شيئاً ممّا ذكروه لم يقم عليه دليل، بل هو تطويل بلا طائل تحته، و الذي يظهر من الآية الشريفة أنّ هذا اللقب أو التسمية إنّما هي من الله تعالى من حين ولادته، و أنّه يلازم البركة و الخير اللذين عُرف بهما عيسى بن مريم، و لعلّ السرّ في ذلك كلّه هو نبذ العادة التي كانت متّبعة عند الإسرائيليّين في الزعيم الروحاني عند ما يمنحه للزعامة الروحانيّة من هو قبله، حتى صار لقباً للزعيم الروحاني و أصبح و ساماً للزعامة الروحانيّة، كالتتويج للملك، فالآية المباركة ترشد إلى الإعراض عن هذه العادة، و أنّ المسيح الذي يكون مباركاً هو عيسى ابن مريم الذي سمّاه الله تعالى به لا غيره.

و قد وقع الخلاف بين المفسّرين في المراد من الكلمة.

فقيل: إنّ المراد منها هو المسيح باعتبار أنّه تكون في رحم أُمّه من غير فحل، بل بكلمة (كن)، أي بتوجّه الإرادة الخلّاقة إلى إيجاده بدون أسباب ومعدّات ظاهريّة، وإلّا فإنّ جميع أفراد الإنسان يوجدون بكلمة الله تعالى وإرادته التكوينيّة، ولكنّهم يوجدون بالأسباب العاديّة، بخلاف عيسى فإنّه وجد من دون تلك الأسباب العادية، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**﴾[1].

وقوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾.

وهذا الوجه هو الصحيح وتؤيّده ظواهر الآيات الشريفة وبعض الأحاديث.

وقيل: إنّ المراد منها المسيح عليه السلام باعتبار أنّ الأنبياء السابقين بشّروا به بعنوان أنّه هو الذي ينجي بني إسرائيل، فيكون نظير قوله تعالى في ظهور موسى عليه السلام: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا**﴾[2]، وأيّد ذلك بما ورد في كتب العهدين في شأن المسيح عيسى بن مريم.

ويردّ عليه: أنّ ظاهر القرآن الكريم أنّ المسيح اسم للكلمة التي أوجدها تعالى، لا أن يكون اسماً للكلمة التي تقدّمت البشارة بها، مضافاً إلى أنّ ظاهر قوله تعالى في المقام ﴿**بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ أنّ عيسى ابن مريم هو بنفسه وقع مورد البشارة، لا أن يكون مبشّراً به.

وقيل: إنّ المراد بالكلمة نفس البشارة، والأخبار بحمل مريم بعيسى عليه السلام وولادته منها، أي ويبشّرك ببشارة هي ولادة عيسى من غير أب.

وفيه: أنّه خلاف ظاهر الآية الشريفة.

---

١. سورة النساء: الآية ١٧١.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

وقيل: أنّ المراد بها عيسى باعتبار كونه موضحا لمراد الله تعالى في التوراة، و مبيّناً لتحريفات اليهود و ما اختلفوا فيه، كما حكى عنه عزّ و جلّ: **﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾**(١).

وفيه: أنّه لا يلائم ظاهر الآية الشريفة.

قوله تعالى: **﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾**.

عيسى معرّب يسوع بالعبرانيّة، و في كتب العهدين «ايشوع»، و معناه السيِّد. و ذكر بعض المفسّرين أنّ تفسيره بيعيش هو الأنسب من جهة تسمية ابن زكريا بيحيى، لما بين هذين النبيّين من المشابهة التامّة، و هو وجه حسن، لكن إثبات المشابهة التامّة حتّى من هذه الجهة مشكل، لأنّه إذا ورد في القرآن الكريم وصف لنبيّ من الأنبياء، فإن استفيد من القرائن الداخليّة أو الخارجيّة اختصاص ذلك النبيّ بذلك الوصف فهو، وإلّا فيجري في جميع الأنبياء، فما اختصّ به عيسى بن مريم هو لقب المسيح و بعض الخصوصيّات، لا تجري في غيره، و إن كان يحيى الذي بينه و بين عيسى المشابهة الكبيرة، و الأنبياء يتشابهون في أغلب الصفات و العلامات، و لكن لا يلزم من ذلك التشابه التام.

وإنّما نسب سبحانه و تعالى عيسى إلى اُمّه مريم، للتنبيه على أنّه مخلوق من غير أب، و ردّاً على مَن يسمِّيه ابن الله، و للإعلام بأنّه و اُمّه شريكان في كونهما آية الله تعالى، قال عزّ و جلّ: **﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾**(٢).

قوله تعالى: **﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ﴾**.

الوجيه ذو الجاه و الكرامة و الشرف، و الوجاهة: هي المقبوليّة، أمّا

---

١. سورة الزخرف: الآية ٦٣.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٩١.

وجاهته في الدُّنيا فلما له من المكانة الرفيعة و الشرف العظيم و الرفعة المعنويّة الروحانيّة، التي طالما جعلت الملوك نير المذلّة في أعناقهم أمام عظمته و سؤدده، و أمّا وجاهته في الآخرة، فلها شأن لا يعلمه إلّا الله تعالى، و قد أطلق سبحانه و تعالى له هذا الوصف في الدُّنيا و الآخرة و لم يقيّده بجهة خاصّة، ليشمل الجميع و يذهب ذهن السامع كلّ مذهب أمكن.

و الظاهر أنّ الوجاهة في الدُّنيا و الآخرة لا تختصّ بعيسى عليه السلام، فإنّ جميع الأنبياء لهم هذه الوجاهة.

نعم، تختلف باختلاف الجهات الخارجيّة، و الآية الكريمة ليست في مقام بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

المقرّبون هم الّذين استقاموا على الطريقة و أصابوا الحقّ و الحقيقة، و مشوا على بساط القرب بإقدام حافية عن جميع الأوهام، و تخلّوا عن تمام الجهات الإمكانية، و طرحوا جميع إضافاتهم النفسانيّة، و لا يشاءون إلّا ما شاء الله تعالى، فأدركوا لذّة البقاء بالله تعالى في الفناء في مرضاة الله، طينتهم حبّ الواحد الأحد، و صورتهم الشوارق النازلة من الله الصمد، فقد وردوا الساحة الربوبيّة بهممهم العالية، و تصرّفوا في نظام التكوين بإذن من الحي القيوم الحكيم، و قد وصف الله تعالى الأنبياء بهذا الوصف لأنّهم سبقوا سائر أفراد الإنسان إلى هذه الحقيقة، كما يظهر من قوله تعالى في شأن المتقرّب إليه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1]، و المراد القرب إلى الله تعالى الذي هو غاية سعي الإنسان والتقرّب إلى المعبود، ولذا يكون قرين المعبوديّة لله تعالى.

---

١. سورة الواقعة: الآية ١١.

والقرب إمّا أن يحصل من فعل الفاعل المختار، كتقرّب الأنبياء والأولياء.

وإمّا أن يكون من مجرّد العطية المحضة و المنحة الإلهيّة، لمَن يشاء، كقرب بعض الملائكة، و قد جمعهما الله تعالى في قوله عزّ و جلّ: **﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾**[1].

ثمّ إنّ كلّ وجيه في الدُّنيا و الآخرة هو مقرّب عند الله تعالى، و كذا بالعكس إن لوحظ ذلك من حيث الوصف بحال الذات، و أمّا إذا لوحظ من حيث الوصف بحال المتعلّق، أي اعتقاد الناس، فالأمر ليس كذلك، فكم مَن مقرّب عند الله تعالى لا يعرفه أحد. و لكن المستفاد من سياق الآية الشريفة هو المعنى الأوّل، فيكون العطف تفسيريّاً.

قوله تعالى: **﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾**.

مادّة (مهد) تأتي بمعنى البساط و الفراش و الراحة، و يسمّى مضجع الطفل أو الموضع الذي يُهيّأ له مهداً لكونه محلّ ذلك كلّه للطفل، كما تسمّى الأرض مهاداً لذلك أيضاً بالنسبة إلى الإنسان و الحيوان، و مهّدت الأمر هيّأته و وطئته، قال تعالى: **﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾**[2].

و **الكهولة**: اسم لما بين الشباب و الشيخوخة، و الشاب مَن تجاوز البلوغ إلى ثلاثين سنة، و الشيخ مَن جاوز الأربعين، و فيه يكون الإنسان رجلاً كاملاً سويّاً، و قد سمّى العلماء كلّ سني العمر باسم خاص، كما يأتي في البحث الأدبي.

والمعنى: يكلّم الناس و يدعوهم إلى التوحيد من حين ولادته إلى حين

---

١. سورة النساء: الآية ١٧٢.

٢. سورة الروم: الآية ٤٤.

كهولته و رفعه إلى السماء، و قد حكى الله تعالى في موضع آخر تكلّمه حين ولادته، و قال عزّ و جلّ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[1].

و في الآية المباركة بشارة إلى مريم بأنّه يعيش إلى زمان الكهولة، فيكون رجلاً كاملاً قويّاً سويّاً، و فيها إشارة إلى أنّه لا يبلغ سنّ الشيخوخة.

و قد ذكر سبحانه و تعالى طرفي عمره لما وقع فيهما الآيتان، التكلّم ساعة ولادته ـ في المهد و هو صبي لم يبلغ سنّ الكلام ـ كلاماً يعتني به العقلاء كما يعتنون بكلام الرجال، و آية رفعه إلى السماء حين بلوغه سنّ الكهولة كما يأتي بعد ذلك.

و المعروف أنّه عليه السلام أُرسل إلى الناس و هو ابن ثلاثين سنة، و رفع إلى السماء بعد ثلاث سنين، و هذا ما تدلّ عليه الأناجيل المعروفة، و لكن ذكر جمهور المفسّرين أنّ تكليمه الناس إنّما هو بعد نزوله من السماء، فإنّه لم يمكث في الأرض ما يبلغ به سنّ الكهولة.

و الصحيح ما ذكرناه من أنّ الآية الشريفة في مقام بيان أنّ الزمانين مورد حدوث الآية فيهما، و النصارى تزعم مزاعم في حياة هذا الرجل العظيم، و الآية الشريفة تنفي تلك بأُسلوب جذاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: معدود منهم الّذين تعرفهم مريم و تعلم سيرتهم. و مادّة (صلح) تستعمل في المطابقة مع الواقع المطلوب من الشيء، فصلاح الإنسان مطابقة

---

١. سورة مريم: الآية ٣٠ ـ ٣٣.

أعماله الجوانحيّة و الجوارحيّة مع مرضاة الله تعالى.

وقد وقع هذا التوصيف لجمع من أنبياء الله تعالى:

منهم إبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

وإسحاق و يعقوب: قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[2].

و يحيى عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

و قال تعالى في شأن جمع من الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4].

و لوط: قال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5].

وإسماعيل و إدريس و ذو الكفل: قال تعالى في شأنهم: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[6].

و في طلب سليمان الذي استجابه الله تعالى قال جلّ شأنه حكاية عنه: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[7].

و يونس صاحب الحوت: قال تعالى في شأنه: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[8].

---

١. سورة النحل: الآية ١٢٢.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٧٢.

٣. سورة آل عمران: الآية ٣٩.

٤. سورة الأنعام: الآية ٨٥.

٥. سورة الأنبياء: الآية ٧٥.

٦. سورة الأنبياء: الآية ٨٦.

٧. سورة النمل: الآية ١٩.

٨. سورة القلم: الآية ٥٠.

و الآيات الشريفة ليست في مقام الحصر.

أوّلاً: لما ثبت في محلّه من أنّه لا مفهوم للوصف.

و ثانياً: أنّ كلمة (من) في بعضها تدلّ على عموميّة الصفة من الموصوف.

و ثالثاً: الأدلّة العقليّة و النقليّة الدالّة على أنّ أهل التقوى مطلقاً و لو لم يكونوا من الأنبياء هم من الصالحين.

و الصلاح و التقوى مع تحقّق الشرائط من أهمّ أسباب القرب إلى الله جلّ جلاله، و بهما يكون العبد من المقرّبين و يفوز بسعادة الدارين، و الصلاح آخر مقامات الأولياء، و هو الارتباط الكامل بين العبد و المعبود و يتحقّق بامتثال الأوامر و اجتناب المناهي سرّاً و علناً، بحيث ترتفع الاثنينيّة بين الباطن و الظاهر، و هو الإنسانيّة الكاملة التي دعا إليها القرآن الكريم و رغّب إليها غاية الترغيب، و فيه تجتمع سعادة الدارين و للصالحين درجات نورانيّة و مقامات روحانيّة لا حدّ لها، و لا يمكن درك هذه المنزلة العظيمة و لا تحديدها بكلام. و لمثل ذلك فليعمل العاملون و في ذلك فليتنافس المتنافسون.

قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾.

سؤال عن كيفيّة وقوع البشارة على خلاف مجاري الطبيعة، و قد جرت عادة الله سبحانه و تعالى و سنّته على أن يجري الأُمور عليها ما دامت في دار الأسباب و المسبّبات، و لكن إرادة الله تعالى فوق الطبيعة، و هي مسخّرة تحت القدرة التامّة الكاملة، إذا قال لشيء كُن، فيكون. و هذا هو السبب الأصيل و الأوّل للإيجاد مطلقاً، و أمّا جريان الأُمور على وفق الطبيعة من إحدى الطرق للإيجاد ربما يصل إلى المطلوب، و ربما يتخلّف عنه، لفرض أنّ التأثير تحت إرادة القادر الحكيم، و لا يمكن التخلّف فيها.

و السؤال منها إنّما هو في أنّ الولادة هل تكون وفق مجاري الطبيعة ، و هو التزويج و الولادة من أب ، و حينئذ من هو الزوج؟ أم بغير ذلك الذي هو أمر غريب عجيب لا يصدر إلّا من إرادة قاهرة له القدرة الكاملة ، و هي لا تنكر ذلك و تعلم أنّ الله تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ، فيكون السؤال استفساراً عن الواقع و الحقيقة .

و المسّ و المسيس كناية ظاهرة عن الوطي . و البشر يطلق على الواحد و الجمع ، و التنكير للعموم ، و الجملة تفيد عموم النفي لا نفي العموم .

و الخطاب مع الربّ لإظهار غاية التذلّل و الخضوع من أنّ المتكلّم معها هي الملائكة ، كما عرفت سابقاً ، و هي تعلم أنّها تخاطبها عن الله تعالى و كلامهم كلامه عزّ و جلّ .

قوله تعالى : **﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾** .

أي : أنّ الله تعالى قضى أن يفعل كذلك و يرزقك المولود خلاف العادة المقدّرة ، و هو أمرٌ محتوم لا يقبل التغيير و التبديل ، لا يعجزه شيء . و بهذا الكلام تحقّق المقصود و رفع التردّد و التعجّب الحاصلين لمريم عليها السلام .

وإنّما عبّر سبحانه و تعالى في المقام بالخلق ، و في قصّة زكريا بالفعل ، لأنّ المقام على خلاف العادة و لا ينطبق على الأسباب المعروفة ، لذا عبّر عزّ و جلّ بالخلق ، و هو الإبداع و الإيجاد ، فهو يشبه الأُمور المبتدأة ، و مثل هذا التعبير شائع في خلق الأُمور بغير الأسباب العادية ، قال تعالى : **﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾**[1]،بخلاف قصّة زكريا، فإنّإيجاد يحيىكان منالزوجين، كما في سائرالناس، ولكن فيهالآيةلهمابخلاف غيره كما عرفت، ولذا عبّر عنه بالفعل.

---

١ . سورة السجدة : الآية ٤ .

قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أي: إذا أراد شيئاً لا مرد له، فإنّما يقول له (كُن فيكون) من دون تخلّف بين الإرادة و المراد، و قد تقدّم الكلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]، و قلنا إنّ الجملة تدلّ على كمال قدرته و نفوذ مشيئته، كما أنّها تدلّ على سرعة نفوذ إرادته، و عدم وجود أي صعوبة و عسر في تنفيذها.

ثمّ إنّ هذه الجملة المباركة: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ مذكورة في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، و في بعضها: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]، و هي كناية عن كمال الإحاطة و القدرة التامّة من دون احتياج إلى سبب آخر غير قضائه تعالى و إرادته، و أنّه لا يعجزه شيء، و لا ينافي ذلك توقّف نظام التكوين على قانون الأسباب و المسبّبات ثمّ انتهاؤها إلى القدرة الأزليّة، لأنّ مقتضياتها إمّا أن تكون جارية على الأسباب و المسبّبات و هو الغالب، و إمّا أن تكون جارية بمجرّد القضاء الحتمي و على خلاف العادة و قانون الأسباب، نظير الأفعال الصادرة عن النفس الإنسانيّة، فإنّها تارةً تتوقّف على تهيئة أسباب خاصّة، و أُخرى لا تكون كذلك، كتصوّر الصور الذهنيّة. و اختلاف التعبير في الآيات الشريفة يرجع إلى شيء واحد، و الجميع من أسباب الفعل و بيان القدرة الكاملة.

و في المقام إنّما نفى سبحانه و تعالى السبب الظاهري دون السبب الواقعي كما أنّه لم ينف السبب رأسا، فتكون مجاري قضائه و أسباب الطبيعة مسخّرة تحت إرادته و إن لم تكونا متّحدتين من كلّ جهة، و لم تفارق إحداهما الأُخرى.

و الآية تدلّ على أنّ خلق عيسى عليه السلام كان إبداعياً من غير توسّط سبب

---

١. سورة البقرة: الآية ١١٧.

٢. سورة يس: الآية ٨٢.

ظاهري، و لذا كان على خلاف العادة، و لكن كلّ حادث محتاج إلى علّة توجده، بلا فرق بين أن يكون من العلويّات أو السفليّات أو المعجزات و خوارق العادات، لأنّ الموجود إمّا واجب بالذات، أو واجب بالغير، و لا ثالث في البين، و الثاني ممكن محتاج إلى العلّة لا محالة وإلّا لزم الخلف المحال. فجميع المعجزات و خوارق العادات لها أسباب لكنّها خفيّة عن عقولنا و إدراكاتنا، و ليس لأحد أن يحكم بأن كلّما لا يدرك فهو غير واقع، و هذا ممّا يختلّ به النظام و يبطل به الانتظام، فيكون حمل مريم العذراء بكلمة الله عيسى بن مريم لا يعقل أن يكون بغير سبب واقعي، بل عن بعض أكابر الفلاسفة إثبات أنّ له سبّباً ظاهريّاً أيضاً، و هو أنّ المرأة قد تصل من كمالها إلى حدّ تتحقّق فيها صفة العاقديّة، مضافا إلى صفة الانعقاديّة، فإذا حصلت مواجهة بين هذه المرأة و شاب جميل تنعقد النطفة من دون وقوع أي اتّصال جسمي و تماس خارجي بينهما، فإنّ الذي يقدر على أن يرسل الرياح لواقح لقادر على أن يجعل الهواء المجاور في بعض الموارد لقاحاً أيضاً، إظهاراً لتسخير الأشياء تحت إرادته و قدرته، و ما ذكره صحيح في الجملة، و سيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيه.

وكيف كان، فإنّ حمل مريم لعيسى لم يكن من دون سبب واقعي، و هذا هو ظاهر قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا**﴾[1]، و يشبه خلق عيسى خلق آدم ﷺ، فإنّه وجد مَن نفخ الله تعالى فيه، و سيأتي تفصيل الكلام في سورة مريم إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ**﴾.

عطف على (وجيها) كبقيّة الأحوال التي وردت لبيان المقامات المعنويّة

---

١. سورة مريم: الآية ١٧.

و الكمالات الحقيقيّة لعيسى بن مريم عليه السلام . و الكتاب يمكن أن يكون من قبيل ذكر العام قبل الخاص، و المجمل قبل المفصّل، إعلاماً بشأن الكتاب و تثبيتاً لدرجته، و بيان أهمّية الخاص. و يمكن أن يكون المراد به كلّيات أسرار القضاء و القدر الثابتة في العلم الأزلي مع إحاطته عزّ و جلّ بتمام الجزئيات إحاطة واقعيّة حقيقيّة.

و تقدّم معنى الحكمة، و ذكرنا أنّ المراد بها الحقائق التي تكون نافعة للإنسان اعتقاداً و عملاً و لها دخل في سعادته في الدارين.

و التوراة هي الكتاب الذي نزل على موسى بن عمران عليه السلام في الميقات، و هي تتضمّن التشريعات التي شرّعها الله تعالى لموسى عليه السلام.

و الإنجيل هو الكتاب المنزل على عيسى بن مريم، و معناه في اليونانيّة القديمة التعليم، و قيل معناه البشارة. وإنّما ذكر عزّ و جلّ الإنجيل لأنّه كان موعوداً به عند الأنبياء و معلوماً لديهم.

و أمّا الأناجيل الأربعة المعروفة عند النصارى، فقد كتبت بعد المسيح بعدّة قرون، و أمّا التوراة فقد تناولتها يد التحريف، كما تدلّ عليه آيات كثيرة من القرآن الكريم، و إن كان يصدقها في بعض الأحكام.

و يختلف التوراة عن الإنجيل في أنّ الأولى تشتمل على الأحكام الإلهيّة و الإنجيل يتضمّن على النواسخ و بعض الأحكام الإثباتية:

قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**﴾[1].

و قال تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ**

---

١ . سورة الزخرف: الآية ٦٣.

التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ﴾[١].

وقد تقدّم في أوّل هذه السورة بعض الكلام فيهما.

قوله تعالى: **﴿وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**.

مفعول مطلق لفعل مقدّر، أي أرسله الله، أو منصوب بفعل مضمر تقديره و نجعله رسولاً، أو معطوف على الأحوال السابقة.

و الرسول صفة و هي هنا بمعنى مفعل، و الرسالة هي السفارة الإلهيّة إلى البشر لإيصالهم إلى الكمال المنشود و الحكم بينهم بالحقّ و القضاء بالقسط. و يمكن أن يكون اختصاص بني إسرائيل بالذكر باعتبار كون ابتداء الرسالة و الدعوة فيهم، أو باعتبار أنّهم أقرب الناس إليه، فيكون نظير قوله تعالى: **﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾**[٢]، وإلّا فإنّ عيسى من أُولي العزم، كما هو صريح بعض الآيات الشريفة، و تقدّم الكلام في قوله تعالى: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾**[٣]، هذا بناءً على اتّحاد معنى النبوّة و الرسالة و الفرق بينهما بالاعتبار.

و أمّا إذا قلنا إنّ الرسول مطلقاً أخصّ من النبيّ، فالأمر أوضح، فهو من أنبياء أُولي العزم مع هذه الصفة الخاصّة له، أي الرسالة الإلهيّة.

و اختلف في زمان رسالته، و المشهور أنّه ثلاث و ثلاثين سنة.

قوله تعالى: **﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾**.

تثبيت لرسالته بالحجّة و البرهان، و الجملة معمولة قوله تعالى: **﴿وَرَسُولاً﴾** لما فيها معنى النطق، أي حال كونه ناطقاً حجّتي عليكم أنّي قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم.

---

١. سورة المائدة: الآية ٤٦ ـ ٤٧.

٢. سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

٣. سورة البقرة: الآية ٢١٣.

والمعنى: يرسله رسولاً حال كونه ناطقا، أني قد أتيتكم بعلامات واضحات تدلّ على صدق دعواي، و قد فسّرت هذه العلامات بما يأتي.

و التنوين في الآية المباركة للتفخيم، و المراد بها نوع الآية، فلا يضرّ تعداد ذكر الآيات بعد ذلك.

و ذكر الربّ و إضافته إلى المخاطبين لإيجاب الامتثال و تأكيده عليهم، أي لأنّه ربّكم يراعي مصالحكم و يسوقكم إلى الكمال بإرسال الرسل و بعث الأنبياء.

قوله تعالى: **﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾**.

الجملة بدل من الآية، أو خبر عن مبتدأ محذوف، تقديره: هو أنّي أخلق لكم.

و الخلق، هو الايجاد، سواء كان بلا سبق مادّة أصلاً، كخلق الأرواح، أم مع سبق المادّة، كخلق عيسى عليه السلام الطير، و يختصّ الأوّل بالله تعالى، و ليس في غيره عزّ و جلّ خلق بلا مادّة إلّا في الصور الذهنيّة غير المسبوقة بشبه أو نظير، و نظام هذا العالم يدور على تبدّل الصور من المواد المختلفة التي لا يمكن استقصاء جهاتها و خصوصيّاتها و الإحاطة بها إلّا الله تعالى.

و في المقام المراد من الخلق هو التصوير و جمع الأجزاء، أي أصوّر لكم من الطين ما يكون مثل الطير و هيئته.

و الهيئة: الشكل و الصورة، قيل: هي مصدر بمعنى المهيّأ، كالخلق بمعنى المخلوق.

و قيل: إنّها اسم الحال، و الهيئة و الوصف عرضان.

إلّا أنّ الأوّل يقال باعتبار حصولها، و العرض يقال باعتبار عروضه، و الوصف باعتبار لحاظ الذهن، بخلاف الهيئة فإنّها تستعمل باعتبار الخارج.

و لم يبيّن سبحانه عزّ و جلّ اسم هذا المخلوق ، و قد ذكر المفسّرون أسماء له ، و نحن في غنى عن تلك ، لصراحة الآية الشريفة في صدور هذه المعجزة عن عيسى عليه السلام و وقوعها في الخارج و دلالتها على صدق دعواه ، و أنّه حاجّهم بذلك ، فلا فرق بين تسميته بأيّ اسم .

قوله تعالى : ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ﴾ .

الضمير يرجع إلى الطين المهيّأ الذي يكون شبيه الطير .

و الآية تبيِّن سرّ الإعجاز ، لأنّ تصوير الطين طيراً مقدور لكلّ أحد ، و ليس في ذلك آية ، و لكن جعله طيراً حقيقيّاً ليس مقدوراً لأحد إلّا لله تعالى أو بإذن منه ، و قد صدرت هذه الآية من عيسى عليه السلام لتثبيت رسالته ، لكنّها مستندة إلى الله تعالى فلا استقلال له في ذلك ، كما هو شأن كلّ معجزة .

و في صدور هذه الآية من عيسى عليه السلام مناسبة لأصل خلقه عليه السلام ، فإنّه خلق من نفخ جبرائيل ، و الطير خلق من نفخه ، و هو بمنزلة الروح ، و كلّ منهما كان بإذن الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ .

الأكمه من الكمه و هو العمى مطلقاً ، سواء ولد كذلك أم عرض عليه بعد ذلك ، و قيل إنّ الأكمه هو الذي يولد مطموس العين .

و **الأبرص** هو الذي به داء البرص ، و هو مرض جلدي معروف تظهر فيه لمع بياض ، و لذا يُقال للقمر أبرص لبياضه ، و منه : «بت لا يؤنسني إلّا الأبرص» ، أي القمر .

وإنّما خصّهما تعالى بالذكر لأنّهما داءان معضلان ، أعيى الأطباء علاجهما و لم يتوصّلوا لحدّ الآن في إبرائهما و زوالهما مع تقدّم الطب و حذاقة الأطباء

وكثرة جهودهم الكبيرة المتواصلة على علاجهما، أو لأنّ هذين المرضين معروفان يشاهدهما كلّ أحد، فإذا برئ المريض بدعاء المسيح و بركته، لا يسع لأحد إنكاره، فيكون أتمّ في الاحتجاج.

و قد نسب الإبراء إلى عيسى عليه السلام، لأنّه المباشر في ذلك بدعائه و بركته. و السبب في ظهور المعجزة على يديه، و إن كان الجميع يستند إلى الله تعالى، كما يدلّ قوله جلّ شأنه ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، المذكور في الآية الشريفة، وإنّما لم يذكره سبحانه بعد هذه المعجزة لأنّ الاعتقاد بهما سهل المؤونة يحصل بمجرّد إخباره بأنّه معجزة و أنّه آية من الله تعالى، لا سيما إذا كان الخطاب مع قوم يدّعون الإيمان بالله تعالى، مع أنّ ما ذكره في ما بعد: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى﴾، صالح لأن يرجع إلى الثلاثة كلّها.

قوله تعالى: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

إحياء الموتى من المعجزات الباهرات و خارق عظيم، و قد أكّد سبحانه في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم أنّ الله تعالى هو الذي يقدر على إحياء الموتى، و أنّ غيره عاجز عنه:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾[1].

و قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ﴾[2].

و غيرهما من الآيات الشريفة، و لذا خصّ سبحانه هذه الآية بكونها بإذن الله تعالى و فعله عزّ و جلّ، دفعاً لتوهّم الألوهية في فاعلها.

و يستفاد من جمع (الموتى)، تعدّد صدور هذه المعجزة و كثرتها. وإنّما

---

١. سورة يس: الآية ١٢.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٥٦.

كرّر سبحانه ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾، لبيان أنّ هذه المعجزات التي صدرت عن عيسى عليه السلام مستندة إلى الله تعالى، ودفعاً لتوهّم الغلو فيه، باعتبار أنّ فاعلها ليس من جنس البشر.

و يستفاد من هذا التعبير عدم استقلال عيسى عليه السلام في شيء من ذلك، و أكّد سبحانه و تعالى ذلك بحكايته عزّ و جلّ عن قوله في آخر هذه الآيات: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، فلا مجال لإضلال الناس فيه.

قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

آية أُخرى فيها الأخبار بالمغيبات التي يختصّ علمها بالله تعالى، أو من علّمه عزّ و جلّ، و ظهور الآية فيه واضح، لأنّ الإنسان قد يهيء لنفسه أُموراً لا يطلع عليها غيره، فإذا أُخبر بها أحد غيره من دون وساطة و سبب ظاهري لايشكّ في أنّه إخبار بغيب مكنون، و إنّ المخبر بها على اتّصال بعالم الغيب.

وإنّما خصّ ما يأكله الإنسان و ما يدّخره باعتبار كونهما مألوفين عنده، و أنّهما يأخذان نصيباً وافراً من حياته، و في الإخبار بهما و إظهارهما للعيان لايسع لأحد إنكاره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي: أنّ تلك الخوارق و المعجزات كافية في الهداية و الرشاد، كما أنّها داعية بدلالتها الواضحة القاطعة إلى الإيمان برسالتي و صدقي فيها إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالله تعالى، فإنّه عليه السلام بعث إلى قوم يدّعون أنّهم مؤمنون.

و الإيمان بالله تعالى يدعو إلى الإذعان بأنّه عزّ و جلّ يرسل الرسل لتكميل النفوس و هداية العباد و إرشادهم إلى الصلاح، و لا يعقل أن تظهر المعجزة على

يد الكاذب، فهو يدعو إلى الاعتقاد بأنّ هذه المعجزات صدرت على يد نبيّ صادق في نبوّته، فلا تكونوا ممّن استحوذ عليهم الشيطان، و علم بالحقّ و أنكره، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

الجملة حالية، و هي معطوفة على قوله تعالى: ﴿بِآيَةٍ﴾، أي جئتكم حال كوني مصدّقاً.

و المراد بقوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، أي ما تقدّمني من التوراة، و اللام فيها للعهد، أي التوراة المعهودة بين الأنبياء، لا التوراة الموجودة في زمانه.

و تصديقه للتوراة هو الإيمان بأنّ التوراة كتاب إلهي، و إنّ ما فيها حكمة و صواب، و هي التي نزلت على موسى بن عمران، و نظير ذلك ما ورد بالنسبة إلى نبيّنا محمّد ﷺ، فلا دلالة لتصديقهما لما بين يديهما من التوراة على أنّها غير محرّفة.

و الآية الشريفة تدلّ على أنّه لم يأت ناسخاً لها، بل مصدّقاً و عاملاً بالتوراة إلّا في بعض الأحكام.

قوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: و جئتكم لأُحلّ بعض ما حرّمته شريعة موسى بن عمران على بني إسرائيل، فإنّها حرّمت عليهم بعض الطيّبات بظلمهم و كثرة سؤالهم:

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ

---

١. سورة النمل: الآية ١٤.

بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[١].

كما أنّه نسخ بعض الأحكام التي تغيّرت حسب تغيّر المقتضيات و تبدّلها.

و الآية الشريفة تدلّ على أن الإنجيل يشتمل على بعض الأحكام الإثباتيّة، و لكن لا دلالة فيها على أنّه يشتمل على شريعة، و إن وقع الخلاف بين العلماء في أنّ الإنجيل يشتمل على شريعة و أحكام تغيّر ما في التوراة، و قد نسخ الإنجيل بعض ما في التوراة، و لكن لا يقدح ذلك في كونه مصدّقا للتوراة.

وقال بعضهم: إنّ الإنجيل لم يشتمل على أحكام و لم يمح حلالاً و لا حراماً، بل هو رموز و أمثال، و مواعظ، و زواجر. و أمّا الشريعة و الأحكام فهي مأخوذة من التوراة.

و الحقّ ما ذكرناه من أن المستفاد من الآيات الشريفة الواردة في شأن الإنجيل هو أنّه يشتمل على إثبات بعض الأحكام، التي هي أوفق بالحكمة و المصلحة الفعليّة، و بعض المواعظ و الأمثال و الأحكام الأخلاقيّة الأدبيّة، و هي بمجموعها مصدّقة لشريعة موسى، و لذا كانت شريعة عيسى موافقة في الجملة و الإجمال لشريعة موسى عليه السلام، و إن كانت الأُولى أكمل من الثانية، و قد نسب إلى عيسى عليه السلام في الإنجيل: «ما جئت لأبطل التوراة، بل جئت لأُكملها».

قوله تعالى: ﴿**وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾.

تأكيد لما سبق و تثبيت للحجّة، و تمهيد لما سيأتي في قوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾. و في الآية الشريفة الدلالة على أنّ كلّ ما أتى به عيسى عليه السلام إنّما هو من عند الله دفعاً لتوهّم التضليل و الغلو فيه.

وإنّما خصّ الربّ بالذكر، لأنّه القائم بشؤون خلقه و المراعي مصالحهم،

---

١. سورة النساء: الآية ١٦٠ ـ ١٦١.

و هو الذي يسوقهم إلى الكمال.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِيعُونِ﴾.

أي: احذروا مخالفته و غضبه في الإعراض عن الإيمان بي و الإيمان بآيات الله و شهادتها برسالتي، و اتّقوه في الطاعة لي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

تصريح منه عليه السلام بأنّه عبد الله وأنّه مبعوث من قبله جلّ جلاله، وليس له شأن مستقلّ، وبذلك ينتفي موضوع الغلو والحلول والوحدة والتثليث ونحوها فيه.

قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

شرح لقول عيسى بن مريم: ﴿فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِيعُونِ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، و بمنزلة العلّة لذلك.

يعني: لابدّ للإنسان أن يرد الصراط المستقيم، و إنّي أبيّن لكم ذلك الصراط المستقيم، فالتعليل تعليل عقلي، و قضية حقيقيّة لجميع ما ادّعاه عيسى بن مريم، بل و كذا بالنسبة إلى سائر الأنبياء عليهم السلام.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

الضمير في (نوحيه) يرجع إلى (ذلك) في صدر الجملة كما عن المشهور، و يحتمل أن يعود إلى (الغيب) ليشمل ما قصّه عزّ و جلّ سابقاً و غيرها من القصص.

و صيغة الاستقبال في (نوحيه) تدلّ على استمرار الوحي و عدم انقطاعه.

و جملة: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ قيل: مبتدأ و خبر، و الجملة في موضع نصب بالفعل المضمر دلّ عليه الكلام، تقديره: (ينظرون أيّهم يكفل مريم).

وقيل: إنّ الجملة من تتمّة الكلام الأوّل، و لا حاجة إلى التقدير، أي يلقون أقلامهم لأخذ النتيجة، و هي أيّهم يكفل مريم.

و(إذ) في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ عطف بيان على (إذ) المتقدّمة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ أو بدل، و لا يضرّ الفصل الطويل، إذ الجملة جيئت لتثبيت ما ورد فيها، و قيل بدل من (يختصمون)، و هو بعيد لاختلاف الزمانين، فإنّ الاختصام ـ كما عرفت ـ كان في صغر مريم و البشرى كانت في كبرها.

و عيسى بن مريم بدل من المسيح. و عيسى اسم أعجمي لم ينصرف، و ابن يكتب بدون همزة لوقوعه صفة بين علمين، لأنّ القاعدة أنّه إذا وقع كذلك تحذف في الخط و الكتابة تبعاً لحذفها في اللفظ، لكثرة استعماله كذلك، و لكن إذا لم يقع بين علمين، سواء كان أحد الطرفين علماً و الآخر غير علم، أو لم يكن كلاهما علماً، ثبتت الهمزة و لم تحذف في جميع الصور، هذا في غير عيسى بن

مريم، و أمّا فيه فالهمزة ثابتة في القرآن مطلقاً و لعلّه إمّا لأجل أنّ خط القرآن لا يقاس عليه، و أمّا لتثبيت ابنيّته مهما أمكن.

قوله تعالى: ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ﴾، حال من عيسى كما قاله الأخفش، أو من (كلمة)، و هي و إن كانت نكرة لكنّها موصوفة بما بعدها، و التذكير باعتبار المعنى.

و كذا الحال في بقية الأوصاف المعطوفة: و من المقرّبين، و يكلّم، و من الصالحين، و يكلّمه، رسولاً. و لا يضرّ عطف الفعل على الاسم في بعض الأفراد منها.

و قوله تعالى: ﴿وَكَهْلاً﴾ عطف على الظرف في المهد، الذي هو حال من الضمير في الفعل، و الكهل ـ كما عرفت ـ من جاوز الثلاثين، و قد ذكر العلماء أنّ ابن آدم ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا ولد فهو وليد، و ما دام يرضع فهو رضيع، و إذا فطم فهو فطيم، و إذا دبّ فهو دارج، و إذا بلغ خمسة أشبار فهو خماس، و إذا سقطت رواضعه فهو مثغور، و إذا ثبتت أسنانه فهو مثغر، فإذا قارب عشر سنين أو جاوزها فهو مترعرع و ناشئ، و إذا بلغ الحلم أو كاد فهو يافع أو مراهق، و إذا احتلم فهو حرور، و اسمه في جميع هذه الأحوال غلام، و إذا اخضرّ شاربه و أخذ عذاره يسيل قيل قد بقل وجهه، و إذا صار ذا فتاء فهو فتى و شارخ، و إذا اجتمعت لحيته و بلغ شبابه فهو مجتمع، ثمّ ما دام بين الثلاثين و الأربعين فهو شاب، ثمّ كهل إلى أن يستوفى الستّين، هذا في الذكور. و أمّا في الإناث، فهي طفلة ثمّ وليدة، ثمّ كاعب إذا كعب ثدياها، ثمّ ناهد، ثمّ معصر إذا أدركت، ثمّ عانس إذا ارتفعت عن حدّ الإعصار، ثمّ خود إذا توسّطت الشباب، ثمّ مسلف إذا جاوزت الأربعين، ثمّ نصف إذا كانت بين الشباب و التعجيز، ثمّ شهلة و كهلة إذا وجدت من الكبر و فيها بقيّة و جلد، ثمّ شهربة إذا عجزت و فيها تماسك، ثمّ

حيزبون إذا صارت عالية السنّ ناقصّة العقل، ثمّ قلعم و لطلط إذا انحنى قدّها و سقطت أسنانها.

و آية في قوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ في موضع الحال، أي متلبّساً بآية، و الباء للملابسة، و التنوين للتفخيم دون الوحدة.

و الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ يرجع إلى الطير باعتبار المعنى، و في سورة المائدة أنّث الضمير، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾[1]، و الطير صالح للواحد و الجمع.

و قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، عطف على قوله ﴿بِآيَةٍ﴾، و الجملة حاليّة، أي وجئتكم حال كوني مصدقاً. و يمكن أن يكون عطفا على قوله: ﴿وَرَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، و اختلاف الجملتين في الغيبة و التكلّم غير ضائر بالعطف، لا سيّما بعد تفسير قوله: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بقوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾، فإنّه مخرج للكلام من الغيبة إلى الحضور.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ على أنّ مريم عليها السلام كانت محدّثة، تتكلّم مع الملائكة و تكلّمها و تسمع كلامها و قد تعاين شخصها، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا﴾[2]، و قد وردت روايات كثيرة على أنّ المحدّث هو الذي يسمع الصوت و لا يعاين الملك، ففي الحديث عن محمّد بن مسلم، قال:

١. سورة المائدة: الآية ١١٠.

٢. سورة مريم: الآية ١٧.

«ذكرت المحدّث عند أبي عبد الله عليه السلام فقال عليه السلام: إنّه يسمع الصوت و لا يرى الصورة.

فقلت: أصلحك الله، كيف يعلم أنّه كلام الملك؟ قال عليه السلام: إنّه يعطي السكينة و الوقار حتّى يعلم أنّه ملك».

و الأخبار بهذا المضمون كثيرة. و اختلاف الروايات في رؤية المحدّث للملك أو عدم رؤيته و سماع صوته فقط، محمول على مراتب كمال النفس، و سيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام في الرسول و النبيّ و المحدّث.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾، على تقدّم مريم على نساء العالمين من جهات عديدة قد ذكرها سبحانه في ما تقدّم من الآيات، كالإنبات الحسن، وكفالة زكريا لها، و تحريرها للعبادة، و الرزق من الله، و ما يأتي في الآيات اللاحقة، كلزوم الطاعة والقنوت والخشوع لله عزّ و جلّ، و بشارتها بكلمة من الله المسيح عيسى بن مريم، والحمل من غير فحل، و لعلّ تكرار الاصطفاء في الآية الشريفة لأجل اختلاف مورد الاصطفاء في الموضعين، فالأوّل بلحاظ ما سبق من الكمالات و الصفات الحسنة، و الثاني باعتبار ما يأتي، و الآية الشريفة في مقام بيان فضلها و تقدّمها على سائر النساء من الجهات التي ذكرها الله تعالى في القرآن، و أهمّها الحمل من غير أب، فيكون التقدّم على سائر النساء من هذه الجهة، و أمّا غيرها، فقد يشترك معها شخص آخر، و لا ينافي أن تكون امرأة أُخرى أفضل منها من جهة أُخرى، فقد وردت أحاديث متواترة بين المسلمين على أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام سيّدة نساء العالمين و سيّدة نساء أهل الجنّة، فهي بضعة النبيّ صلّى الله عليه و آله و هي الطاهرة المطهّرة المعصومة، و هي زوج علي بن أبي طالب، و أُمّ السبطين سيّدي شباب أهل الجنّة، و قد أخرج ابن عساكر عن ابن عبّاس، أنّه قال:

«قال رسول الله ﷺ : سيّدة نساء أهل الجنّة مريم بنت عمران ، ثمّ فاطمة ، ثمّ خديجة ، ثمّ آسية امرأة فرعون» .

و أخرج الشيخان عن أبي هريرة ، قال :

«قال رسول الله ﷺ : خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناهن على ولد في صغره ، و أرعاهن على بعل في ذات يده ، و لو علمت أنّ مريم ابنة عمران ركبت بعيراً ما فضّلت عليها أحداً» ، و المراد من نساء قريش بعضهن لا جميعهن .

و أخرج ابن حريز عن فاطمة عليها السلام قالت : «قال لي رسول الله ﷺ : أنت سيّدة نساء أهل الجنّة إلّا مريم البتول» .

و في «الدرّ المنثور» : أخرج أحمد و الترمذي و ابن المنذر و ابن حبان و الحاكم عن أنس : «أنّ رسول الله ﷺ قال : حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمّد، و آسية امرأة فرعون» .

و فيه : أخرج ابن عساكر عن طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عبّاس، عن النبيّ ﷺ قال :

«أربع نسوة سادات عالمهن مريم بنت عمران ، و آسية بنت مزاحم ، و خديجة بنت خويلد ، و فاطمة بنت محمّد ﷺ و أفضلهن عالماً فاطمة» .

و في «الخصال» ، بإسناده عن أبي الحسن الأوّل موسى بن جعفر عليه السلام ، قال :

«قال رسول الله ﷺ : إنّ الله عزّ و جلّ أختار من النساء أربعاً : مريم ، و آسية ، و خديجة ، و فاطمة» .

و الروايات في هذا المضمون من الفريقين كثيرة ، و بعضها و إن دلّت على تساويهن في الاصطفاء إلّا أنّه لا ينافي وجود التفاضل بينهن ، كما عرفت من أنّ فاطمة الزهراء تفضل سائر النساء من جهات عديدة .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ**

﴿الرَّاكِعِينَ﴾ أنّ هذه الأُمور الثلاثة مرتبة على قوله تعالى: **﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾** فاصطفاها للزوم الطاعة و القنوت، و طهّرها للسجود و الخضوع، و اصطفاها للخشوع و الركوع مع الراكعين، فكانت هذه الثلاثة مقتضيات للأُمور الثلاثة التي وردت في هذه الآية الشريفة.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾** أنّ أخبار مريم عيسى و زكريا و يحيى التي وردت في القرآن الكريم هي الأخبار الصحيحة، و ما سواها لم تسلم من يد التحريف، و قد حكى القرآن الكريم تلك الأخبار بأُسلوب جذّاب رقيق و بيان فائق أنيق، يلتذّ السامع من سماعها و يستنير المخاطب من شعاعها، مع أدب بارع لا يعقل فوقه أدب. و هذا ممّا تميّز به القرآن الكريم في قصصه عن غيره من سائر الكتب الإلهيّة، و مَن أراد الاطلاع على أكثر من ذلك فليقارن ما ورد في التوراة و الإنجيل في أخبار هؤلاء الأنبياء العظام مع ما ورد في القرآن الكريم فيهم، يرى الفرق واضحاً و يحكم بالإعجاز في القرآن الكريم.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: **﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾** على نبوّة رسول الله ﷺ و صدقه فيها، فقد أخبر ﷺ عن قصّة مريم و عيسى و يحيى و زكريا و هو أُمّي لم يقرأ و لم يكتب، و لم يعرفها أحد من قومه قبل الوحي.

السادس: يدلّ قوله تعالى: **﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾** على أنّ تسميته المسيح كانت من قبل الله تعالى الذي وضع هذا الاسم له، و يستفاد منه أنّ أسماء الأنبياء إنّما تكون من قبل الله تعالى، و لعلّ ما ورد في المأثور: «الأسماء تنزل من السماء»، تختصّ بأسماء الأنبياء، و قد ذكرنا أنّه ربما يكون الوجه في هذه التسمية (المسيح) هو الإشارة إلى نبذ العادة الإسرائيليّة في ما يفعله الزعماء و الروحانيون عندهم.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ على شدّة انقطاع هذه المرأة الصالحة إلى خالقها و إخلاصها له تعالى، ممّا أوجب تنازع القوم في حفظها و حراستها، و تشبه مريم عليها السلام أُمّ موسى عليها السلام في الحالات الانقطاعيّة إلى الله تعالى و إخلاصها في العبوديّة.

و قد ذكر سبحانه و تعالى حالات مريم العذراء و أطوار خلقها في القرآن الكريم بهذا الوجه اللطيف و الأُسلوب الجذّاب، و وصفها بأوصاف كثيرة تدلّ على جلالة قدرها و عظيم منزلتها عنده عزّ و جلّ، و هذا من أهمّ موجبات الأُلفة و الحنان بين المسلمين و النصارى.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**﴾ أنّ ما خلقه عيسى لم يكن له نظير في الخارج، وإنّما كانت صورته كصورة الطير.

التاسع: إنّما ذكر تعالى تكلّم عيسى في المهد و عند الكهولة و هي آخر قوّة نشاط الشباب وكمال القوى، للإعلام بأنّ تكلّمه في حال صباه كمثل تكلّمه في دور كمال قواه، و لم يكن كلامه في حال الصبا كتكلّم سائر الصبيان، فيكون عيسى المسيح في مهده حينما يقول بلسان فصيح: ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاًوَبَرّاً بِوَالِدَتِي**﴾[1]، هو حين كهولته، و حين رفعه إلى السماء يقولها كذلك، لأنّه خلق لإظهار الحقّ، و لا حقّ إلّا ذلك.

العاشر: إنّما ذكر تعالى أمثلة متعدّدة لآيات نبوّته و صدق دعوته، لأنّ كلّ واحد منها مثال لعالم من العوالم الخلقيّة.

الأوّل: إيجاد الروح الحيوانيّة التي هي أوسع العوالم الخلقيّة، وإنّما مثّل

---

١. سورة مريم: الآية ٣٠ ـ ٣٢.

بخلق الطير، لأنّه فيها من جهات الخلق و الإعجاب ما ليس في غيره.

الثاني: للروح الإنسانيّة بإبراء الأكمه و الأبرص اللذين هما من أشدّ الأمراض إزعاجاً، بل قد يكونان من أعظم المهلكات، فتكون كناية عن سلطنة الروح الإنسانيّة من كلّ جهة.

الثالث: إحياء الموتى الذي هو السلطة التامّة على الروح، وكونها تحت أمره بحيث يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

الرابع: عالم الغيب، بحيث يكون حاضراً لديه.

الحادي عشر: إنّما كرّر سبحانه و تعالى: ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾، لبيان أنّه لا شأن لعيسى و غيره من الأنبياء في صدور المعجزات عنهم، و المدار كلّه على إذنه تعالى و إرادته، قال جلّ شأنه: ﴿**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[1]، و بذلك تبطل دعوى الغلوّ و الألوهية فيهم.

و لم يذكره سبحانه و تعالى في آيتين من الآيات الأربعة ـ و هما إبراء الأكمه و الأبرص و الإنباء بالمغيّبات ـ إمّا لأجل استفادة الإذن فيهما من الآيتين الأخيرتين بالأولى، لأنّ ذلك بالنسبة إليهما يعدّ من العرضي، و الإذن في الذاتي يستلزم الإذن في العرضي. مع أنّه قد ذكر في سورة المائدة ﴿**وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي**﴾[2]، و إمّا لأجل أنّ هذين الأمرين من الإنباء و الإبراء ينبغي أن يكونا من مقامات الأولياء، لا أن ينسب أوّلاً و بالذات إلى الله تعالى، لأنّ مقام ولايتهم يقتضي تفويض مثل هذه الأمور إليهم، فلهم أن يفعلوا فيها بما يشاؤون، و لذا قال: ﴿**وَأُنَبِّئُكُمْ**﴾ فنسب ذلك إلى نفسه، فإنّ مقام الولاية مقام برزخي بين الألوهية الحقّة و الخلقيّة الصرفة.

---

١. سورة المؤمن: الآية ٧٨.

٢. سورة المائدة: الآية ١١٠.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، على أنّ الإنسانيّة الكاملة هي غاية التكوينات و التشريعات لما ذكرناه مراراً، و من أنّها هي الصراط المستقيم و الجسر الممدود بين المبدأ و المعاد، و هو و إن كان حادثاً ولكنّه بحسب البقاء أبدي كأزلية الله تعالى و أبديّته، فهذه الأُمور الثلاثة: المبدأ تبارك و تعالى، و الصراط المستقيم، و الدار الآخرة، متلازمة حقيقة، و إن كانت مختلفة مفهوماً.

***

بحث فلسفي:

ذكرنا مراراً أنّه قد جرت سنّة الله تعالى على إيجاد المسبّبات الماديّة بأسبابها الخاصة بها كلّ صنف بحسبه، كذلك جرت عادته سبحانه و تعالى في توجيه المسبّبات المعنويّة و الروحانيّة بأسبابها الخاصة كلّ صنف بحسبه، و من أهمّ تلك الأسباب أنبياء الله تعالى و أولياؤه، فيفاض بهم على النفوس المستعدّة ما ينتظم به نظام العالم بماديّاته و معنويّاته نظماً دقيقاً متقناً، و الكلّ مسخّرات تحت أمره تعالى و صادرة عن إرادته، و هي تحيط بهم و تخرج منهم، و لابدع في ذلك بالنسبة إلى مَن أفنى جميع شؤونه و حيثيّاته فيه عزّ و جلّ، و تشهد لذلك الأدلّة العقليّة و النقليّة.

ثمّ إنّ هذا العالم الذي نعيش فيه مركّب من أمرين، واقعي معنوي و ظاهري صوري، و لكلّ منهما مدبّر و ولي أمر قائم به.

والأوّل: عبارة عن تجلّيات الآخرة في هذا العالم بواسطة الكتب السماويّة و الأنبياء و المرسلين و الأولياء الصالحين و العلماء العاملين، و العقل المجرّد المقرّر بالكتب السماويّة.

والثاني: عبارة عن تجليّات الدُّنيا بنفسها لأهلها، و هي فانية زائلة و إن بلغت ما بلغت في الكمالات الوهميّة و المراتب الخياليّة، فلابدّ في طلب كلّ

متاع من الرجوع إلى أهله وإلّا بطل الطلب و خسرت الصفقة، سواء كان الطلب هو العقل المجرّد أم سائر القوى الخادمة له، و الأمران متشابكان، فلا لبّ إلّا و معه قشر، و لا قشر إلّا و فيه اللب، و اللبيب هو الذي ميّز بين الأمرين فاختار اللب و عدل عن القشر.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي»: في قوله تعالى: **﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾** قال عليه السلام: «اصطفاها مرّتين: أمّا الأُولى فاصطفاها، أي اختارها. و أمّا الثانية فإنّها حملت من غير فحل، فاصطفاها بذلك على نساء العالمين».

أقول: يستفاد من الحديث أنّ جهات الاصطفاء مختلفة، و يمكن أن تكون في نفس واحدة جهات عديدة من الاصطفاء، و يمكن أن يستفاد من إطلاق الاصطفاء في مثل الخليل و الكليم، تحقّق جملة من جهات الاصطفاء.

و في «المجمع»: «قال أبو جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾** اصطفاك لذرّية الأنبياء و طهّرك من السفاح، و اصطفاك لولادة عيسى من غير فحل».

أقول: ظهر وجه ذلك ممّا تقدّم آنفاً.

و في «الدرّ المنثور»: أخرج الحاكم في «صحيحه» عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل نساء العالمين خديجة، و فاطمة، و مريم، و آسية امرأة فرعون».

أقول: الأفضليّة من الأُمور النسبيّة الإضافيّة، و يمكن أن تتحقّق في بعض هذه الأربعة أشدّ و أكثر من تحقّقها في البعض الآخر، و يصحّ أن يقال بأفضليّة

خديجة من جميع تلك النساء.

أوّلاً: لأنّها أوّل مسلمة، وأنّها بذلت نفسها و نفيسها في الإسلام و تكفّلت مثل محمّد خاتم الأنبياء ﷺ الذي هو أفضل جميع الموجودات، فحازت بذلك درجة لا يمكن حصولها لأحد غيرها من النساء.

و ثانياً: أنّها أمّ المؤمنين و أمّ الأئمّة الأطهار ﻉ. و أمّ فاطمة الزهراء، فإنّ جهات شرفها على البقيّة ممّا لا تخفى على كلّ مسلم، و قد تقدّم بعض الكلام فيها أيضاً.

و في «العلل»، عن الصادق ﻉ في حديث: «أنّ مريم كانت سيّدة نساء عالمها، و أنّ الله عزّ و جلّ جعل فاطمة سيّدة نساء عالمها و عالم ابنة عمران و سيّدة نساء الأوّلين و الآخرين».

أقول: هذا الحديث يدلّ على ما ذكرناه آنفاً.

و في «تفسير القمّي»، في قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾** قال ﻉ: «لمّا ولدت اختصم آل عمران فيها فكلّهم قالوا نكفلها، فخرجوا و قارعوا بالسهام بينهم، فخرج سهم زكريا فتكفّلها زكريا».

أقول: المقارعة بالسهم عند حصول الحيرة و التحيّر فطريّة في الجملة، و قد قرّرها الشارع، و قد تقدّم في التفسير ما يتعلّق بذلك.

و في «تفسير العياشي»: في قوله تعالى: **﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾** عن أبي جعفر الباقر ﻉ: «يقرعون بها حين أوتمت من أبيها».

أقول: لا تنافي بين هذا الحديث و سابقه، لأنّ المشهور أنّها أوتمت و هي في الحمل، مضافاً إلى أنّ تحريرها للبيت عبارة عن انقطاعها عن أبيها، و لم يكن مَن يكفلها إلّا سدنة البيت.

و في «إكمال الدين»، عن الباقر ﻉ في قوله تعالى: **﴿وَ رَسُولاً إِلَى بَنِي**

إِسْرَائِيلَ﴾ قال: «إنّه أُرسل إلى بني إسرائيل خاصّة، وكانت نبوّته ببيت المقدس».

أقول: إنّه أُرسل إلى بني إسرائيل خاصّة باعتبار فعليّة الدعوة، لا بالنسبة إلى أصل النبوّة، فإنّها عامّة ومن أُولي العزم.

وفي «تفسير العياشي»، في قوله تعالى: **﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾** عن الصادق عليه السلام قال:

«كان بين داود وعيسى أربعمائة سنة، وكانت شريعة عيسى أنّه بعث بالتوحيد والإخلاص بما أُوصي به نوح وإبراهيم وموسى، وأُنزل عليه الإنجيل، وأُخذ عليه الميثاق الذي أُخذ على النبيّين، وشرّع له في الكتاب إقام الصلاة مع الدِّين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحريم الحرام وتحليل الحلال، وأُنزل عليه في الإنجيل مواعظ وأمثال وحدود ليس فيها قصاص، ولا أحكام حدود، ولا فرض مواريث، وأُنزل عليه تخفيف ما كان على موسى في التوراة، وهو قول الله في الذي قال عيسى لبني إسرائيل: **﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾**، وأمر عيسى مَن معه ممّن اتبعه من المؤمنين أن يؤمنوا بشريعة التوراة والإنجيل».

أقول: في الروايات كان بين داود وعيسى أربعمائة سنة وثمانون سنة، ويمكن حمل ذلك على اختلاف السنين بحسب الأقوام، على أنّه لا ثمرة في تحقيق ذلك.

وفي «تفسير القمّي»، في قوله تعالى: **﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾**، عن الباقر عليه السلام: «أنّ عيسى كان يقول لبني إسرائيل: إنّي رسول الله إليكم وإنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص، والأكمه هو الأعمى، قالوا: ما نرى الذي تصنع إلّا سحراً، فأرنا آية نعلم أنّك صادق، قال: أرأيتكم إن أخبرتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم

ـ يقول ما أكلتم في بيوتكم قبل أن تخرجوا و ما ادخرتم بالليل ـ تعلمون أنّي صادق؟ قالوا: نعم، فكان يقول: أنت أكلت كذا و كذا أو شربت كذا و كذا و رفعت كذا و كذا، فمنهم مَن يقبل منه فيؤمن، و منهم مَن يكفر و كان لهم في ذلك آية إن كانوا مؤمنين».

أقول: إنّ الإخبار بالمغيّبات الشخصيّة التي تتعلّق بحالات الأفراد له الأثر الكبير النفسي في نفوسهم، فتتعلّق نفسهم بالخبر، و لذا كان الإنباء من آخر الآيات التي جرت على يد عيسى عليه السلام، و لم يكن يقدر أحد من المخاطبين على إنكاره.

و في «تفسير القمّي» أيضاً: «في قوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ و هو السبت، و الشحوم، و الطير الذي حرّم الله تعالى على بني إسرائيل».

***

الآية ٥٢ ـ ٦٠

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ
اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي
مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا
يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى
عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ
مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه و تعالى جملة من قصص عيسى عليه السلام، و بيّن ما عليه من الصفات الحميدة و ما جرت من المعجزات على يديه، و دلّت الآيات الباهرات على صدق نبوّته و صحّة دعواه، و أمر الناس بطاعته، و اعتبر أن متابعته هي الصراط المستقيم.

شرع في هذه الآيات الشريفة ببيان ما آل إليه أمره و ما جرى بينه و بين

قومه بني إسرائيل من العناد و الكفر ، و ما لاقاه منهم من الإعراض و التولّي .

و على الرغم من أنّ المسيح جاء لينجيهم و يخفّف عنهم بعض الأعباء و التكاليف الشاقّة التي حملوها على أنفسهم ، عاندوه و همّوا بقتله ، و عندئذٍ دعا دعوته : (من أنصاري إلى الله) ، فلبّوا النداء الحواريون و أعلنوا انتصارهم له ، فأنجاه الله تعالى من مكرهم و رفعه إليه ، و أوعد الكافرين بالخزي و العذاب ، و وعد المؤمنين به علو الذكر و حسن المآب ، ثم ختم عزّ و جلّ بأن خلق عيسى كخلق آدم و أنّهما خلقا بالأمر التكويني الخارق للعادة ، و اعتبر أنّ ذلك هو الحقّ ، و غير ذلك من الدعاوي هي الباطلة .

و أوجز سبحانه في هذه الآيات القصص بما يؤدّي المطلوب منها في المحاجّة مع وفد نجران حين قدموا المدينة ، و ذكر بعض الخصوصيّات في مواضع أُخرى من القرآن الكريم .

***

التفسير

قوله تعالى : **﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾** .

مادّة (حسس) تدلّ على الإدراك بالمشاعر الحسيّة ، كالعين و الأُذن والأنف و اللسان و اليد ـ و يقابله الدرك العقلي ، أي ما يدركه الفكر :

قال تعالى : **﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾**[1] .

وقال تعالى : **﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾**[2] .

وقال تعالى حكاية عن يعقوب : **﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ**

---

١ . سورة مريم : الآية ٩٨ .

٢ . سورة الأنبياء : الآية ١٢ .

﴿وَأَخِيهِ﴾[1]، أي اطلبوه عن طريق الحسّ.

وفي الحديث: «إنّ الشيطان حسّاس لحاس»، أي شديد الحس والإدراك.

و في الحديث أنّه ﷺ: «كان في مسجد الخيف فسمع حسّ حـية»، أي حركتها و صوت مشيها.

وإنّما عبّر سبحانه و تعالى بـ(أحس) مع أنّ الكفر من الأُمـور المـعنويّة، لبيان أنّ كفرهم بلغ مبلغاً حتّى تعلّقت به الحواس الظاهرة، فيكون استعارة بليغة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[2].

والمعنى: فلمّا عرف عيسى من بني إسرائـيل الكـفر و عـلم مـنهم العـناد و اللجاج، و أنّهم قصدوا إيذاءه مع وضوح تلك الآيات الباهرات التـي عـرفوها منه، دعا الأنصار لتثبيت شرع الله تعالى و التمسّك بدينه.

و في الآية الشريفة التسلية لنبيّنا الأعظمﷺ حين ما رأى من قومه العناء و اللجاج.

كما يستفاد منها أنّ الآيات الكونيّة و المعجزات الباهرات لا تلجئ أحـداً على الإيمان و لا تكون ملزمة له، كما هو صريح بعض الآيات الشريفة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[3]، و ذلك صدر منهم من العناد و اللجاج ما جعل الأنبياء في العناء و المشقّة من أقوامهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

الأنصار جمع نصير، فعيل بمعنى فاعل، لأنّ كلّ واحد مـن المـتناصرين

---

١ . سورة يوسف: الآية ٨٧.

٢ . سورة الأنبياء: الآية ١٢.

٣ . سورة القصص: الآية ٥٦.

ناصر و منصور ، و هو بمعنى العون ، و نصرة الله للعبد ظاهرة ، و أمّا نصرة العبد لله هي نصرته لعبادته و القيام بحفظ حدوده و رعاية عهوده و امتثال أوامره و اجتناب مناهيه .

وإنّما أضاف إلى الأنصار نفسه لبيان أنّ نصرته نصرة الله تعالى . و قيّد الأنصار بكونهم إلى الله ، للتحريض و التشويق إلى لقاء الله تعالى ، و نظير ذلك كثير في القرآن الكريم :

قال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ﴾**[1] ، و قال تعالى : **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾**[2] .

وقد ذكر سبحانه و تعالى في موضع آخر بما يرفع الإجمال عن هذا الموضع ، قال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾** ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين **﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾**[3] .

و الاستفهام في هذه الآية الشريفة لاختبار القوم و معرفة المؤمن منهم عن غيره ، و بيان أهمّية النصرة لله تعالى .

قوله تعالى : **﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾** .

الحواريون جمع حواري ، و أصل المادّة تدلّ على البياض و التخلّص من كلّ عيب ، و لذلك سمّيت نساء أهل الجنّة بحور العين لشدّة بياضهن و سواد عيونهن ، و في الحديث : «أنّ في الجنّة لمجتمعاً للحور العين» .

وإنّما سمّى ناصر الأنبياء حواري ، باعتبار خلوصه في نفسه عن العيب

---

١ . سورة النساء : الآية ١٣٦ .

٢ . سورة البقرة : الآية ٢٤٥ .

٣ . سورة الصف : الآية ١٤ .

و الذنب و إخلاصه لغيره، فيكون ناصراً و خاصّة له.

و لم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم إلّا بالنسبة إلى أصحاب المسيح عليه السلام، و هم رسله الّذين أخلصوا في أنفسهم و نقّوها من كلّ عيب و كانوا مخلصين له، و هم الّذين كان عيسى عليه السلام يرسلهم إلى بني إسرائيل للوعظ و الإرشاد.

و قد اختلفوا في عددهم، و المشهور أنّهم كانوا اثنى عشر رسولاً، و ذكرهم إنجيل متى في الاصحاح العاشر ٢ ـ ٤، و قيل إنّ عددهم سبعون، و هم الّذين اختارهم عيسى وأرسلهم إلى الأقوام ليعلّموهم المسيحيّة، ولافائدة في معرفة العدد بعد وضوح أصل المعنى وأنّ المناط هو تحقّق الإخلاص والخلوص.

و المستفاد من الآية الشريفة ـ كما عرفت ـ أنّ الحواري أخصّ من مطلق الصاحب.

و الآية المباركة ترشد إلى أمر اجتماعي، و هو أنّ كلّ مرشد في الاجتماع لابدّ و أن يهيء لنفسه مركزاً يكون مصدراً لإرشاده، و يعتمد عليه في ما يستجدّ من الحوادث، و يستمد منه القوّة حين ما يتطلب ذلك، وإلّا كان عمله هدراً و أتعابه سدى. و هذا من أهمّ الأمور التي أُشير إليها في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم و السنّة المقدّسة، قال تعالى حكاية عن لوط: **﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾**[1]، و في ابتداء الدعوة في الإسلام اختار الرسول صلى الله عليه وآله رجالاً جعلهم مصدر الدعوة، و ذلك في بيعة العقبة و بيعة الشجرة، كما نتابع الكلام إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾**.

أي: استجابوا إلى دعوة المسيح، و هم الّذين اختارهم عيسى و جعلهم من

---

١. سورة هود: الآية ٨٠.

حواريه، و قالوا نحن متبّعوك و ناصروك في الدعوة إلى دين الله و الجهاد في سبيله، و يفسّر معنى النصرة في الله ما بعد هذه الآية.

و في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾، الطباق الشديد، أي نحن ناصروك لأنّه نصرة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

تبيِّن هذه الجملة معنى نصرة الله، إذ الإيمان الحقيقي نصرة الله تعالى، و نصرته جلّ جلاله ترجع إلى كمال النفس الإنسانيّة، و تهذيبها بالأخلاق الفاضلة و الجهاد مع أعداء الله تعالى.

و قوله جلّ شأنه: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، تسليم لهم لنبيّهم تسليماً حقيقيّاً. و هيئة التسليم تدلّ على الخضوع لله تعالى و إطاعته في جميع تشريعاته، و الإيمان من إحدى طرق التسليم، و لها مراتب متفاوتة.

و سياق الآية الشريفة يدلّ على كمال إيمانهم، و تمكّنه في قلوبهم، حتّى ظهر التسليم و الخضوع على جوارحهم عن جوانحهم و طلبوا من عيسى الشهادة بذلك.

و في الآية المباركة الدلالة على أنّ الإيمان بالله تعالى لو لم يكن مقروناً بشهادة المتبوع لا أثر له أبداً. و تقدّم الكلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1].

و يستفاد من الآية الشريفة أنّ إيمان الحواريين كان راسخاً في قلوبهم، وإنّما طلب عيسى عليه السلام منهم النصرة لله تعالى إتماماً للحجّة على غيرهم ممّن أحسّ منهم الكفر، و إعلاناً لشأنهم و إظهاراً لدرجاتهم الكاملة في الإيمان، فيكون قولهم (آمنا بالله) تأكيداً لما آمنوا به أوّلاً، و تثبيتاً لشهادة عيسى على

---

١. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

ذلك، و يدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[١]، و الوحي ـ بأيّ معنى أُخذ ـ كاشف عن كمال إيمانهم و جلالة قدرهم، و لكن استفادة كونهم أنبياء الله من الوحي إليهم مشكل، لأنّه أعمّ من ذلك، إذ قد يستعمل الوحي في مجرّد الإلقاء في القلب من الله تعالى، كما في قوله عزّ و جلّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾.

تضرّع منهم إلى الله تعالى و الدُّعاء على الإيمان، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[٣].

و الجملة مقول قول الحواريين، وإنّما حذف القول مبالغة في التضرّع، و للدلالة على التشرّف بالدعاء، و لبيان نفس الحكاية، و هو من أحسن الأساليب البلاغيّة و هو في القرآن الكريم كثير جدّاً، و يستفاد أنّ الداعي قد أهمل نفسه أمام المدعو و لا يرى لها شأناً، وإنّما همّه التضرّع و عرض الحال.

وإنّما ذكر المتابعة للرسول بعد الإيمان بالله تعالى، لبيان أنّ الإيمان به جلّت عظمته يستلزم العمل بما جاء به الرسول، وأنّ أحدهما بدون الآخر لا أثر له.

قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: و ثبّتنا مع الشاهدين، و المراد منه المعنى العام للشهود في كلّ عالم

---

١. سورة المائدة: الآية ١١١.

٢. سورة القصص: الآية ٧.

٣. سورة آل عمران: الآية ٨.

من العوالم، ففي عالم الدُّنيا شهود الواقع و الحقّ على ما هو عليه، المشتمل على تبليغ الحقّ أيضاً، الذي هو من أعلى درجات الإيمان، بل لا درجة فوقه، كما في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾**[1]. و بالنسبة إلى أعمال الجوارح شهود مطابقتها مع الواقع، و بالنسبة إلى عالم البرزخ و الآخرة شهود عين تلك الحقائق بصور مناسبة لتلك العوالم، و قد تقدّم في قوله تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**[2]، بعض الكلام فراجع.

قوله تعالى: **﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾**.

التفات إلى بني إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر، و مادّة (مكر) تدلّ على كلّ ما يصرف الإنسان عن مقصده، فإذا كان بحيلة فهو خديعة و شرّ، و إن كان بغيرها كان محموداً، و لذا يتقسّم المكر إلى قسمين، حسن و سيء، قال تعالى: **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾**[3]، و قال تعالى: **﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾**[4].

و قد وردت هذه المادّة في القرآن الكريم مكرّرة تبلغ أكثر من أربعين مورداً نُسبت ..

تارةً: إلى الإنسان بلا واسطة، قال تعالى: **﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا**

---

١. سورة المائدة: الآية ٨٣.

٢. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٣. سورة فاطر: الآية ٤٣.

٤. سورة النحل الآية: ٤٥.

يَشْعُرُونَ﴾[١].

و قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾**[٢].

و قال تعالى: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾**[٣].

و أشدّ ما وصف الله تعالى به مكر الإنسان قوله عزّ من قائل: **﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾**[٤].

و أخرى: بواسطة، قال تعالى: **﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾**[٥]، و المراد به الظلم و الشرّ الواقعان في الليل و النهار من الإنسان.

و ثالثة: نسبت إلى الله جلّ شأنه مزاوجة و مشاكلة في اللفظ، كما في هذه الآية الشريفة، و في قوله تعالى: **﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ﴾**[٦].

و بدون مزاوجة، قال تعالى: **﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾**[٧].

و قد اختلف المفسّرون و العلماء في نسبة المكر إلى الله تعالى، فقيل إنّه لا يجوز نسبته إليه عزّ و جلّ لأنّه منزّه عن المكر و الخديعة، فلا يُطلق عليه تعالى إلّا عن طريق المشاكلة، و قالوا إنّ كلّ مورد ورد فيه المكر منسوباً إليه عزّ و جلّ يحمل على الاستعارة، و هي تسمية جزاء المكر مكراً مقابلة كما هو المعروف

---

١. سورة النحل: الآية ٢٦.

٢. سورة فاطر: الآية ١٠.

٣. سورة الأنفال: الآية ٣٠.

٤. سورة إبراهيم: الآية ٤٦.

٥. سورة سبأ: الآية ٣٣.

٦. سورة النمل، الآية: ٥٠.

٧. سورة الأعراف: الآية ٩٩.

عند العرب، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[1]، و قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[2]، و غيرهما من الآيات الشريفة.

وهذا القول منهم مبني على استعمال المكر في المعنى السيء فقط، و هو المساوق للخديعة و الشرّ، فيكون قبيحاً و الله تعالى منزّه عنه، و لكن استعمال القرآن الكريم يأبى ذلك كما عرفت، مضافاً إلى أنّه استعمال اللفظ في المعنى الحقيقي و المجازي معاً، و هو غير صحيح.

وقيل: إنّه يجوز إطلاق المكر عليه تعالى كما أُطلق على غيره من أفراد الإنسان من دون مشاكلة أو الخروج عن المعنى الحقيقي، و أصحاب هذا القول اختلفوا في توجيه المكر بالنسبة إليه عزّ و جلّ، و جميع ما قيل في ذلك لم يقم عليه دليل يصحّ الاعتماد عليه.

و الصحيح أن يُقال: إنّ المكر في الأصل يطلق على كلّ ما يصرف الإنسان عن مقصوده خفية و سرّاً، و بهذا المعنى يصحّ إطلاقه عليه عزّ و جلّ بلا محذور فيه من عقل أو نقل، لفرض أنّ جميع أسرار إرادته المقدّسة مخفيّة عن مَن سواه، و هو عبارة أُخرى عن التدبير الأتمّ بما تقتضيه الحكمة المتعالية بأعمال خفيّة لا يعلمها الإنسان، فيجازي الظالمين على ظلمهم و الماكرين بمكرهم، و يحسن إلى المحسنين بما يوافق اللطف، و يؤيّد هذا المعنى ما ورد في بعض الدعوات المأثورة: «إلهي لا تؤدِّبني بعقوبتك و لا تمكر بي في حيلتك»، و في الحديث: «اللَّهُمَّ امكر لي و لا تمكر بي»، و معنى الحديث: ألحق مكرك بأعدائي لا بي، فإنّ مكره جلّ شأنه إيقاع بلائه بأعدائه دون أحبّائه و أوليائه.

والمراد بمكر بني إسرائيل في المقام اعمالهم جهات النفاق مع عيسى عليه السلام،

---

١. سورة البقرة: الآية ١٩٤.

٢. سورة الشورى: الآية ٤٠.

كما حكى الله تعالى عنهم مع أنبياء الله تعالى في آيات أُخرى، مثل تحريف الكلم عن مواضعه و إيذاء الأنبياء و قتلهم و تشريدهم.

كما أنّ المراد بمكر الله تعالى جزاؤهم بما خفي عن ادراكهم و لم تصل إليه عقولهم، بأنّ شبه المسيح عليهم و ردّ كيدهم على أنفسهم مع اعتقادهم بأنّهم قتلوه، فإنّه لو رفعه الله تعالى علناً و بمرأى منهم لاستحكمت شبهة الغلو و الأُلوهية فيه، و لو رفعه خفية لطال التشاجر و النزاع و المحنة على المؤمنين وكثر فيهم القتل و هتك الإعراض، طلباً منهم لإظهاره و تسليمه، فكان ذلك التشبيه لطفاً خفيّاً و مكراً منه عزّ و جلّ وفق الحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

أي: و الله يفعل أفعالاً خفيّة بما تقتضيه الحكمة المتعالية مع غفلة أهل المكر عن ذلك، وكون مكره تبارك و تعالى خيراً محضاً، إذ لوحظ بالنسبة إلى النظام الكلّي، و يكون المكر بعباده في نصرة الحقّ و أهله و إبطال الباطل و إزهاقه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

بيان لمكره عزّ و جلّ و إعمال سرّه الخفي على الناس، و العامل في (إذ) قوله (و مكر الله).

و مادّة (و ف ي) تدلّ على أخذ الشيء وافياً تماماً في الجملة، و هذا المعنى هو الشائع في جميع استعمالاتها العرفيّة و القرآنيّة، و في حديث المعراج: «فمررت بقوم تقرض شفاههم كلّما قرضت وفت»، أي نمت و طالت أو كملت كالأوّل.

وعنه ﷺ أيضاً: «إنّكم وفيتم سبعين أُمّة أنتم خيرها»، أي تمّت العدّة بكم

سبعين.

و أمّا الوفاة بمعنى الموت، فهو أحد موارد استعمالات هذه المادّة، و ليس من المعنى الحقيقي لها.

نعم، شاع استعمالها في الموت، و لعلّه لأجل أنّ الإنسان يأخذ من الحياة نصيبه التامّ بحسب استعداده، فالله يميته بعد ذلك و ينقله إلى عالم آخر.

و يدلّ على ما ذكرنا جملة من الآيات الشريفة، منها قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**﴾[1]، و المراد به التوفّي بأخذهم النوم و غلبته عليهم.

و قوله تعالى: ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى**﴾[2]، و لا يستقيم معنى الآية الشريفة لو كان معنى التوفّي هو الموت، أي الله يميت الأنفس حين موتها و التي لم تمت يميتها في منامها.

و من هذه الآيات و ما تقدّم من نظائرها يستفاد أنّ التوفّي أعمّ من الموت، بل لم يستعمل التوفّي في الموت إلّا بعناية خاصّة، و لذا لو لم تكن هذه العناية استعمل الموت بدله، و هي أنّ الوفاة إنّما تستعمل في مورد يكون فيه أخذ الشيء محفوظاً من دون نقص، كما في وفاء الدَّين و نحوه، فيُقال: «وافيته في الميعاد»، و بهذه العناية تستعمل في الموت و النوم، حيث تحفظ فيهما نفس الإنسان و لا تنعدم فيهما و لا يبطل شأنهما، فالله تعالى يأخذ الأنفس و يحفظها حتّى زمان عودها إلى الأجساد، لكن يختلف عالم النوم و عالم الموت.

و قد عبّر سبحانه و تعالى بالموت في عيسى في مورد آخر، حيث لم تكن

---

١. سورة الأنعام: الآية ٦٠.

٢. سورة الزمر: الآية ٤٢.

هذه العناية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[1].

و بالجملة: التعمّق في موارد استعمال هذه المادّة في الألسنة و اعتبارها مرادفة له، بحيث يتبادر منه هذا المعنى كلّ ما أُطلق، ولكنّه مع ذلك لا يوجب صرف اللفظ عن المعنى الموضوع له، و يقتضي أنّ الجامع القريب هو ما ذكرناه.

فيكون معنى الآية الشريفة هو أخذ عيسى عليه السلام من عالم الأرض و من بين الناس و حفظه عن مكر اليهود من دون أن ينالوا منه شيئاً، حتّى زمان عوده إلى الأرض، و يدلّ على ذلك قوله تعالى في موضع آخر ردّاً على اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[2].

و هذه الآية الشريفة صريحة في ردّ مزاعم اليهود في قتله و إبطال دعوى النصارى في موت المسيح بالصلب و رفعه إلى السماء بعد قتله على ما ذكروه في الأناجيل.

مضافا إلى أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[3]، ظاهر في أنّه لم يمت و أنّ موته سيقع بعد ذلك، و بانضمام هذه القرائن لا يبقى مجال للقول بأنّ المراد بالتوفّي هو الموت، هذا و لجمهور المفسّرين وجوه في تفسير الآية الشريفة.

منها: ما نسب إلى ابن عبّاس أنّه قال في قوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي

---

١. سورة النساء: الآية ١٥٩.

٢. سورة النساء: الآية ١٥٧ ـ ١٥٨.

٣. سورة النساء: الآية ١٥٩.

﴿مُتَوَفِّيكَ﴾، أي مميتك.

و لكن النسبة إليه مشكوكة، كما نسب إليه جملة من مسائل نافع بن الأزرق، و علىٰ فرض صدق النسبة لا دليل على حجّيته إلّا إذا نسبه إلى النبيّ ﷺ بوجه معتبر.

و منها: ما نسب إلى الربيع بن أنس، أنّه قال: «وفاة نوم لا وفاة موت»، و استشهد لذلك بجملة من الآيات الشريفة.

ولكنّه مردود بما عرفت سابقاً، كما أنّه اجتهاد بلا دليل عله

و منها: ما عن قتادة: هذا من المقدّم و المؤخّر، أي رافعك إلي و متوفّيك. و هو خلاف الظاهر، بل مخالف لصريح الآيات الأُخرى.

و منها: أنّ المراد هو الإماتة العادية المعروفة، و أنّ الرفع بعدها للروح، كما قال تعالى في شأن إدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾[1].

ولكنّه بعيد عن سياق الآيات، مع مخالفته لصريح الآيات الأُخرى و النصوص الدالّة على حياته الجسمانيّة، و سيأتي الكلام في رفعه إلى السماء.

و منها: ما عن بعض المفسِّرين أنّه عليه السلام نجا من اليهود و مات حتف أنفه و دفن في الأرض ثمّ رفعت روحه، و استدلّوا بظاهر لفظ الوفاة في المقام، و في سورة المائدة، الآية: ١١٧، و قوله تعالى حكاية عنه: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. و كذا قوله تعالى حاكياً عنه: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[2]، الدال على أنّ عيسى ككلّ البشر يولد و يموت و يُبعث.

وفيه: أنّ أصل الكبرى مسلّمة، فإنّه عليه السلام كسائر الأنبياء له موت بلا إشكال،

---

١ . سورة مريم: الآية ٥٧.

٢ . سورة مريم: الآية ٣٣.

وأمّا أنّ المراد بالتوفّي في المقام هو الموت الشائع، فهو أوّل الدعوى يحتاج إلى دليل، و الآية المباركة لا تدلّ على ذلك، بل هي ناظرة إلى أصل الكبرى، و يدلّ عليه أيضاً ما يأتي من:

قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

عطف على خبر إن، و الرفع ضد الوضع، و هو يستعمل في ما يشتمل على العلو، سواء كان علوّاً معنويّاً، كشرف المنزلة و الفضيلة و غيرهما مثل قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[١]، و قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٢]، قال الشاعر:

تلك الأماني يتركن الفتى ملكا على الأنام و لم ترفع له رأسا

يعني: أنّ الآمال توهم الفتى أنّه قد صار ملكاً، و لكن لا تعطيه كرامةً و شرفاً في الواقع.

أو محسوساً ظاهرياً كما في الأجسام الخارجيّة، إذ أُعليت عن مقرّها:

مثل قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[٤].

وفي حديث الاعتكاف: «كان إذا دخل العشر الآخر أيقظ أهله و رفع المئزر»، و لعلّه كناية عن الاجتهاد و الجدّ في العبادة بارتقاء النفس.

و هو من الأُمور النسبيّة تختلف باختلاف المتعلّق، قال تعالى حكاية عن

---

١ . سورة الزخرف: الآية ٣٢.

٢ . سورة المجادلة: الآية ١١.

٣ . سورة البقرة: الآية ٦٣.

٤ . سورة البقرة: الآية ١٢٧.

يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾[١]، و قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[٢].

و من أسمائه تعالى: «الرافع»، و هو الذي يرفع المؤمنين بالإسعاد و أولياءه بالتقرّب إليه. و تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ بعض الكلام.

و الجملة قرينة أُخرى لبيان معنى التوفّي في الجملة السابقة. أي أخذك من بين اليهود و أحفظك من مكرهم بالرفع إليّ.

وإنّما قيد الرفع بقوله: (الي) مع أنّه تعالى لا يحويه مكان و لا يخلو عنه مكان، تفخيماً لغاية الرفع من الأرض التي طالما أفسدها الكافرون و الفساق، فرفعه تعالى إلى موضع خاص محض لتسبيح الله تعالى و تقديسه، و لا توجب هذه الكلمة (إليَّ) صرف الرفع إلى الرفع المعنوي، باعتبار أنّه لا يتصوّر القرب و البُعد المكاني إليه عزّ و جلّ، فيكون نظير قوله تعالى: في شأن إدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾[٣]، لأنّ ظاهر الخطاب و تكريم الرفع إلى عيسى عليه السلام بكاف الخطاب ظاهر في رفع الموجود في الخارج و هو الجسم مع الروح، لا أحدهما فقط.

إن قلت: إنّ الشأن في الإنسان هو الروح فقط و الجسم تابع لها، فيصحّ توجيه الخطاب إلى الروح فقط.

قلت: نعم هو صحيح في الجملة، و لكن سياق الكلام يأبى عن ذلك، لأنّ رفع الروح إلى السماء إنّما هو شأن كلّ نبيّ، بل وليّ و أهل التقوى، فلا تبقى

---

١. سورة يوسف: الآية ١٠٠.

٢. سورة الرحمن: الآية ٧.

٣. سورة مريم: الآية ٥٧.

خصوصيّة في تخصيص عيسى بذلك، ولابدّ أن يكون في البين جهة معيّنة، وهي رفع روحه مع جسمانيّته الظاهرة، وبذلك امتاز عيسى عليه السلام عن إدريس الذي كان الرفع فيه معنويّاً روحانيّاً، بقرينة قوله تعالى: ﴿مَكَاناً عَلِيّاً﴾[1]، أي مكانة ومنزلة ممتازة عن غيره، فيكون الخطاب في المقام بالنسبة إلى عيسى كقوله تعالى بالنسبة إلى موسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[2]، حيث إنّ ظاهر حرف الخطاب إنّما يكون مع الإنسان الخارجي روحاً وجسماً، مع أنّه لو جعلنا الإنسان البرزخي كالإنسان في الدُّنيا مركباً من الجسم والروح كما أثبتناه في محلّه من أنّ الموجودات البرزخيّة والاخرويّة عين ما في العالم، فالأمر أوضح.

إن قلت: بناءً على ذلك فلا فرق بين عيسى عليه السلام وغيره في أنّ للجميع وجوداً برزخيّاً أيضاً.

يُقال: الفرق حينئذٍ أنّهم ماتوا فصار وجودهم وجوداً برزخيّاً، وعيسى عليه السلام لم يمت بل صار بوجوده العنصري الدنيوي وجوداً برزخيّاً، فيكون عيسى عليه السلام من قبيل الكلّي المنحصر في الفرد، كما هو شأن الموجودات الفلكيّة.

قوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الطهارة معروفة، وهي تستعمل في الطهارة الظاهريّة من الأرجاس، والمعنويّة من الذنوب والأحداث. وفي معنى آخر ألطف من ذلك كلّه، وهو: التخلّص ممّا هو من غير سنخه وصنفه.

والجملة معطوفة على خبر (إن)، وهي قرينة أُخرى على أنّ المراد بالرفع هو الجسماني والروحي معاً، والمراد منها الطهارة المعنويّة من رجس الكافرين

---

١. سورة مريم: الآية ٥٧.

٢. سورة طه: الآية ٤١.

وكفرهم و ابتعاده عن مخالطتهم و مكائدهم ، و عن مجتمع استولت عليه كلّ رذيلة و كفر و جحود ، و تنزيهه عن شبههم ، فيكون بمنزلة ابتعاد الطير عن السباع بل أشدّ .

و يستفاد من قوله تعالى : ﴿**مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ سبب تطهيره ، و هو الكفر و مجالسة الكفّار .

قوله تعالى : ﴿**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ .

وعد حسن و بشرى لعيسى عليه السلام و متبعيه . و المراد من الّذين اتّبعوك هم الّذين آمنوا بعيسى عليه السلام و اهتدوا بهديه ، و اتبعوه في جميع ما أنزل الله تعالى عليه ، فنالوا رضى الله تعالى و حبّه عزّ و جلّ ، و وعدهم الخير و التفوّق على الّذين كفروا و أعرضوا عن نبوّته .

و من سياق المقابلة بين الطائفتين يستفاد أنّ الطائفة الأُولى هي المؤمنة الهادية المطيعة لربّها ، التي اتّصفت بمقام الرضا و المحبّة لله تعالى ، و هم مختصّون بمَن تابع عيسى عليه السلام و استقام على الهدى دون كلّ مَن نسب نفسه إلى النصرانيّة ، كيف و قد اعتقدوا بالكفر و ما يخالف العبوديّة و أنكروا ما جاء به عيسى عليه السلام ، على ما حكى عنهم عزّ و جلّ في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم ، فيشمل النصارى المؤمنة قبل ظهور الإسلام و المسلمين بعد ظهوره ، المؤمنين بعيسى عليه السلام المبشّر بمحمّد صلّى الله عليه و آله .

و ظاهر الآية الشريفة يدلّ على تفوّقهم و تلبّسهم بالنسبة إلى الكافرين بعيسى عليه السلام ، و هم اليهود في الظاهر و الباطن و في الحجّة و البرهان و العدد ، و لم يقيّد سبحانه التفوّق بوقت خاصّ ، بل يستفاد من الآية الشريفة أنّه بشارة و وعد أبدي لهم ، فقد تحقّق هذا الوعد برهة من الزمن حين ما رفع عيسى عليه السلام من بين المؤمنين به مع شدّة مجاهدة الكفّار و اليهود على محو دينه و إزالة طريقته و قتل

المؤمنين به، فقد أظهر الله تعالى الحقّ و انتشر دينه وكثر أتباعه إلى أن خرجوا عن الصراط المستقيم و استولى عليهم الظلم و الفساد، و سيتحقّق وعد الله أيضاً إذا رجعوا إلى الملّة المستقيمة و الدِّين القويم، و هو ما أخبرنا عزّ و جلّ بظهور عيسى عليه السلام في آخر الزمان، و يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

وقيل: إنّ المراد بالفوقيّة، الفوقيّة في الاحتجاج و البرهان، و في جهة المقبوليّة لحجج المتّبعين له، و استماع الناس لها وكونهم أطوع لها.

و فيه: أنّ ذلك احتمال حسن ثبوتاً، كما هو كذلك في شريعة لاحقة بالنسبة إلى الشريعة السابقة، و لكنّ ظاهر الآية الشريفة التأبيد و الدوام بالنسبة إلى الفوقيّة، لا بالنسبة إلى الاحتجاج الذي هو له حدّ معين إلى ظهور الإسلام.

و قال بعض المفسّرين: إنّ ظاهر قوله تعالى: **﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**، إخبار عن المستقبل و وعد صرف عمّا يقع بعيسى و متّبعيه من الله تعالى.

و فيه: أنّه خلاف ظاهر الآيات الشريفة التي وردت في شأن عيسىٰ عليه السلام في المواضع المختلفة من القرآن الكريم، بل أنّ ظاهر قوله تعالى: **﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾**، تحقّق التوفّي بالنسبة إليه، و لا معنى لإخباره عزّ و جلّ بأنّه سيتوفاه بعد إماتته، مع أنّ ذلك كلّه خلاف السنّة الشريفة التي وردت في شرح حالات عيسى عليه السلام، و هي بمجموعها ممّا لا يسع لأحد إنكارها.

نعم، ما ورد عن النصارى في حالات عيسى عليه السلام قابل لكلّ احتمال، و جملة منها باطلة لا يمكن قبولها بوجه.

قوله تعالى: **﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾**.

التفات عن الغيبة إلى الخطاب، ليشمل عيسى عليه السلام و الّذين اتّبعوه، و الّذين كفروا به، فإنّ الجميع مصيرهم إلى الله تعالى و يحشرون إليه في يوم القيامة، فيقضي بينهم بالحقّ في ما اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام و دينه و شريعته، و ما اختلف فيه متّبعوه و الّذين كفروا به.

و في الخطاب الدلالة على شدّة الاعتناء بإيصال الثواب و العقاب لمستحقّيهما.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً﴾.

تفريع على ما تقدّم و تفصيل بعد إجمال، لبيان جزاء المبطل و كيفيّته، و هو الحكم الإلهي الذي يقضي به على الّذين كفروا، و هم اليهود الّذين خالفوا عيسى عليه السلام و حاربوه.

قوله تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

ذكر سبحانه و تعالى في الدُّنيا، لبيان تفوق الّذين اتّبعوا عيسى عليه السلام على اليهود الّذين كفروا به، فقد شدّد الله العذاب عليهم في الدُّنيا أن جعلهم مغلوبين مخذولين، ابتلاهم الله تعالى بأنواع البلايا من القتل والتشريد والذلّة. وفي الآخرة بأشدّ العذاب، وما لهم في ذلك من ناصرين وأعوان يدفعون بهم عذاب الله.

وإنّما أتى سبحانه بالجمع **(من ناصرين)** لبيان أن كلّ واحد منهم ليس له ناصر.

و في نفي الناصرين عنهم دلالة على أنّ ذلك قضاء حتم لا يقبل الشفاعة.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

بيان لحال المؤمنين و وعد حسن بالجزاء الأوفى لهم، و فيه التفات من

التكلّم إلى الغيبة، تلطفاً بهم و تحنّناً عليهم، و لزيادة ثقة المؤمنين بالجزاء.

وإنّما عدل سبحانه عن التعبير بـ«الّذين اتّبعوك» بهذا الخطاب، لبيان حقيقة الاتباع، و هي الإيمان و العمل الصالح، و أنّ مجرّد الاتّباع من دون أن يستتبع ذلك بعمل صالح لا أثر له، و لا يستلزم استحقاق هذا الجزاء الحسن، و قد أكّد ذلك سبحانه و تعالى في عدّة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[1]، و توفية الجزاء، أي إعطاء الثواب وافياً من غير نقص كما تقدّم، و مقتضى المقابلة بين الجملتين أن يكون الجزاء في الدارين الدُّنيا و الآخرة، ففي الدُّنيا الفوقيّة و الذكر الحسن و الغلبة و النصرة، و في الآخرة الجنّة و حسن المآب.

قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾**.

تأكيد لمضمون ما ورد في الآية السابقة، و هو أنّ مجرّد الاتّباع لبعض الأفراد لا يوجب اللحوق بالمؤمنين ما لم يستتبع الإيمان بالعمل الصالح، فإنّه ظالم و الله لا يحبّ الظالمين، فهذه الآية المباركة تشير إلى الطائفة الثالثة، و هي المتّبعون في اللسان و من انتسب إلى عيسى عليه السلام بالقول فقط، من دون أن يتلبّس بحقيقة الإيمان، و لعلّه لذلك لم يختم سبحانه و تعالى الآية الشريفة بما يدلّ على الرحمة و الرأفة و المغفرة، كما هو عادته تعالى في سائر الموارد.

قوله تعالى: **﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾**.

إشارة إلى قصص عيسى عليه السلام التي ذكرها الله تعالى من حين ولادته إلى رفعه إلى السماء. و المراد بالذكر الحكيم هو القرآن الكريم الذي أُحكمت آياته

---

١. سورة البقرة: الآية ٦٢.

بخلوصها من الباطل، و المتّقن نظمه و المشتمل على الحكمة، يهدي المؤمنين إلى الصراط المستقيم و الدين القويم، المبيّن للمغيبات.

وإنّما أتى بما يدلّ على البعد للإشارة إلى عظيم منزله المشار إليه وكرامته و شرفه، و بهذه الآية الشريفة يختتم سبحانه و تعالى قصص عيسى عليه السلام و أخباره من حين ولادته إلى وفاته و رفعه في المقام، ولكنّه تعالى لم يفرغ منها، و هذا ممّا تدلّ عليه هيئة المضارع في «نتلوه»، الدالّة على استمرار الوحي.

و الآية المباركة تدلّ على نبوّة رسول الله صلى الله عليه و آله و صدق دعواه و بطلان ما سواها.

قوله تعالى: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**.

إجمال بعد تفصيل، و إيجاز بعد إطناب لتأكيد الحجّة، و هذا من الأساليب المستحسنة المتّبعة في مقام الاحتجاج و الاستدلال.

و الآية الشريفة في مقام الردّ على شبهة طائفتين:

الأولى: اليهود الذين استبعدوا خلق الإنسان من غير أب، فاتّهموا مريم العذراء.

و الثانية: النصارى الذين ضلّوا في عيسى عليه السلام، فزعموا أنّه ابن الله تعالى، فكان الجواب قاطعاً، حيث إنّ كلتا الطائفتين تعترفان بآدم و أنّه خُلق من غير أب و لا أمّ، فما يقول فيه اليهود و النصارى يقال في عيسى عليه السلام، فاكتفى سبحانه و تعالى بالتشبيه بخلق آدم عليه السلام حيث اقتضى الحال أن يوجز البيان.

و الآية الشريفة على إيجازها اشتملت على حجّتين:

الأولى: أنّ عيسى و آدم عليهما السلام مخلوقان مسبوقان بالعدم، و قد خلقهما الله تعالى حسب حكمته و علمه، و فقد الأب فيهما لا يصير خلقهما ممتنعاً،

و لايوجب ادّعاء التهمة في عيسىٰ.

الثانية: أنّ عيسى عليه السلام كآدم في خلقه بالأمر التكويني، فلو اقتضى خلق عيسى من غير أب دعوى الاُلوهيّة فيه، لاقتضى خلق آدم تلك أيضاً، مع أنّه لم يدّع أحد الاُلوهيّة و لعلّه أنه أولى بذلك، إذ لم يخلق من أب و اُمّ، و أنّه مسجود الملائكة، بخلاف عيسى الذي خلق من اُمّ و من نفخ جبرائيل، فاجتمعت في مريم العذراء الحالة الانعقاديّة و المنعقديّة، فهو أبعد من دعوى الالوهية بمراتب عن آدم عليه السلام.

ثمّ إنّ الآية الشريفة تثبت حقيقة من الحقائق الواقعيّة، و هي أنّ مجاري الاُمور تحت قدرة الله تعالى و إرادته المقدّسة، و أنّه إذا أراد شيئاً يتحقّق و لا يقف دونها شيء، و إن كان خلاف العادة في عالم الأسباب و المسبّبات.

و يستفاد من قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، ترتّب الكون على الأمر من دون أن يتخلّف عن ذلك بلا احتياج إلى سبب معيّن.

و لكن الآية الشريفة لا تدلّ على انتفاء التدريج، إذ أنّ جميع الموجودات مخلوقة بإرادته التكوينيّة، سواء كانت من التدريجيّات أم لم تكن، و التدرّج إنّما يلاحظ بالنسبة إلى الأسباب، و أمّا إذا لوحظ بالقياس إلى أمر الله فلا تدريج و لا مهلة.

وإنّما عبّر سبحانه و تعالى بالفعل المضارع (كن فيكون)، مع أنّ الأمر كان في الماضي لتصوير ذلك الأمر تصوير مشاهدة و تجسيم في أذهان المخاطبين، كأنّه واقع الآن، و لأنّ المضارع أظهر في التحقّق و الثبوت.

و قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ يدلّ على وجه الشبه بين عيسى و آدم عليهما السلام في أنّهما خُلقا على خلاف العادة، و يحتمل أن يكون المراد به أنّ آدم عليه السلام في الخلق أغرب و أعظم، و مع ذلك لم يدّع أحد الاُلوهيّة فيه، يكون أقطع للخصم

و أحسم للشبهة.

قوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَاتَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

تأكيد لما ذكر في الآيات السابقة من قصص عيسى عليه السلام في أنّها الحق و ليست قابلة للافتراء و التشكيك، كما تدلّ الآية المباركة على أنّ الحقّ منحصر به تبارك و تعالى، و ما سوى ذلك من الباطل.

و في الآية الشريفة إيماء إلى أنّ جميع ما أُوحي إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله هو الحقّ، و هو على الحقّ أيضاً كما تقدّم مكرّراً.

وإنّما ذكر سبحانه و تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، للدلالة على أنّ الحقّ منه دون غيره، و إليه ينتهي كلّ شيء، لفرض أنّه المبدأ و المعاد.

و قوله تعالى: ﴿فَلَاتَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يدلّ على أنّ ما ذكره اليهود و النصارى في شأن عيسى عليه السلام مفتعل و امتراء، و فيه تشجيع لرسول الله صلّى الله عليه و آله على المحاجّة معهم و إبطال دعاويهم.

و الآية المباركة تشتمل على أبدع الأُسلوب و البيان في مقام الاحتجاج و المخاصمة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾[1].

وإنّما نسب الامتراء إلى النبيّ صلّى الله عليه و آله مع أنّه لا يحتمل فيه ذلك أبداً:

أوّلاً: لصحّة مخاطبة أحد و إرادة غيره على نحو: (إيّاك عني و اسمعي يا جارة)، و هو شائع في المحاورات الفصيحة.

و ثانياً: لإثبات دعواه و نفي دعاوي اليهود و النصارى، و عدم صحّة انتسابها إلى رسول الله صلّى الله عليه و آله.

***

١. سورة هود: الآية ١٠٩.

بحوث المقام

بحث أدبي:

الظرف في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ متعلّق بأنصاري بتضمين النصرة معنى السلوك والسير والذهاب، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[١]، والتضمين من المحسّنات البلاغيّة.

وقيل: متعلّق بفعل محذوف وقع حالاً من الياء، وهي مفعول به، ومعناه: مَن ينصرني حال كوني داعياً إلى الله تعالى، وإنّما قالوا ذلك حفاظاً على القواعد المعمولة في علم النحو، ولكن ذلك تطويل بلا طائل تحته، مع أنّ التضمين من المحسّنات البلاغيّة ـ كما عرفت ـ وهو أمرٌ مرغوب فيه.

وقيل: أنّ «إلى» بمعنى مع، ولكن لا كلّية في ذلك، وإنّما تأتي (إلى) بمعنى (مع) في موارد معدودة، فلا يقال: جاء زيد إليه مال. مع أنّه مخالف لأدب عيسى عليه السلام والقرآن مع الله تعالى.

وقال الزمخشري: إنّ (إلى) بمعنى الانتهاء، أي من ينصرني منتهياً نصره إلى الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ الطباق التامّ، وهو من المحسّنات البديعيّة.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ خبر أن، ﴿وَرَافِعُكَ﴾ عطف عليه، وكذا

---

١. سورة الصافات: الآية ٩٩.

﴿جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾. و متوفّيك أصله متوفيك (بالضمة على الياء)، و لكن حذفت الضمّة استثقالاً.

و تقديم الجار و المجرور في قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾. يفيد تأكيد الوعد و الوعيد.

و (ثم) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ للتراخي في الإخبار، لا في المخبر به.

وجملة: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ ابتدائية لا محل لها من الإعراب، مبيّنة لوجه الشبه.

***

بحث دلالي:

الآيات الشريفة تدلّ على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ على ظهور الكفر اليهود ظهوراً بيّناً، بحيث تعلّق به الإحساس، فلم يبق أي احتمال لرشدهم و اهتدائهم، و لذا عقّبه سبحانه و تعالى بما يدلّ على الامتحان الذي هو الوسيلة الوحيدة لتمييز المؤمن عن الكافر.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ على حقيقة من الحقائق الواقعيّة، و هي أنّ كلّ مرشد اجتماعي لابدّ له من مركز يعتمد عليه في ما يلاقيه في سبيل نشر دعوته، و الحافز الذي يحفزه على العمل عند ما يرى ما يثبطه فيه، و له الأثر الكبير في تنفيذ العمل و إنجازه، و هذا ممّا نشاهده في القوى الطبيعيّة أيضاً، فإنّها تتمركز في نقطة ثمّ تنتشر منها.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ على جلالة قدر الحواريين، فإنّهم آمنوا بجميع ما أُنزل على

عيسى عليه السلام بعد ما كفر قومه، و أسلموا أمرهم إلى الله تعالى و اتّبعوا ما جاء به رسولهم، و اتّقوا الله و عبدوا الله ربّهم و سلكوا الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى السعادة و الكمال. و هذا هو الذي طلبه عيسى عليه السلام منهم عندما قال: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾**، إلّا أنّ جميع ذلك لا يدلّ على كونهم أوصياء أو أنبياء ممّا ورد في هذه الآيات الشريفة الدالّة على مدحهم و المبيّنة لعظيم منزلتهم من بين سائر الناس الّذين كفروا بعيسى.

الرابع: أنّ قوله تعالى: **﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾**، يدلّ على أنّ للشاهدين منزلة كبرى و درجة عظمى من بين الناس، سواء في الدّنيا أم في الآخرة، حيث إنّ كلّ مؤمن إنّما يطلب أن يكون مع الشاهدين، قال تعالى: **﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾**[1]، فالشاهد هو الحجّة على الخلق، سواء كانت شهادته على التبليغ أم كانت على أعمال الخلق أو سائر الأُمّة.

و الشاهد هو الذي بلغ من التقوى درجة عليا، و من الإيمان منزلة كبرى حتّى اختاره الله تعالى لدرجة الشهادة، و هو الكامل الذي له الشهادة على الناقص، كما نشاهده في الطبيعيّات أيضاً، و قد تقدّم في قوله تعالى: **﴿يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**[2] بعض الكلام.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾**. أنّ كلّ مكر في دين الله يترتّب عليه الجزاء لا محالة، سواء في الدّنيا أم في الآخرة، و مكره تعالى أشدّ و أقوى من غيره، و مع ذلك فهو يفعل وفق الحكمة المتعالية، و به يصل المحسن إلى إحسانه و المسيء إلى نكال أعماله، و لذا كان في مكره

---

١ . سورة المائدة: الآية ٨٣ .

٢ . سورة البقرة: الآية ١٤٣.

كمال العناية بخلقه و اللطف بعباده، و يظهر ذلك بوضوح في مكره عزّ و جلّ باليهود الّذين أرادوا قتل المسيح و صلبه، فرفعه الله تعالى من بين أيديهم و حفظه و حفظ المؤمنين و دينه من الضياع، لئلا تذهب جميع أتعابه سدى.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾، على أنّ لعيسى بن مريم عليه السلام شأناً من بين الأنبياء، فقد أخذه من عالم الأرض الذي كثر فيه الفساد و استولى على أهله العصيان و الكفران و رفعه إلى السماء، التي هي محلّ القدس و القديسين، و لعلّ السرّ في ذلك أنّ عيسى عليه السلام خلق من مادّة أرضيّة متكوّنة من مريم العذراء و مادّة ملكوتيّة هي نفخة جبرائيل، و تجاذبت المادّتان فالأُولى تجذب عيسى إلى عالمها، و الثانية كذلك، و غلبت الثانية و رفعت عيسى عليه السلام إلى السماء إلّا أنّ الأُولى أوقفت هذا الرفع العلوي في السماء الرابعة، و لو لم تكن هذه لرفع عيسى عليه السلام إلى العرش الأعلى.

و يمكن أن يكون تحديد الرفع إلى السماء الرابعة أيضاً ما كان معه من حطام الدُّنيا، و هو مدرعة صوف، وكان قلبه متوجّهاً إلى أُمّه الحنينة عليه الرؤوفة به، و لولا هذان الأمران لما كان لرفعه حدّ معيّن، فإنّ توجّه القلب و لو في الجملة إلى غير الله تعالى يوجب التحديد، وكذلك المادّة التي هي من الأرض توجب منع السباحة في ذلك اليم و لو كانت من غزل و نسيج مريم عليها السلام.

ومن ذلك يعرف انقطاع قلب خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله عن جميع ما سوى الله بالكلّية حين رفع إلى العرش الأعلى و خاطب الله تعالى مواجهة، كما حكى عنه الجليل في كتابه.

إن قلت: إنّ آدم عليه السلام خلق أيضاً من مادّة أرضيّة و نفخة روحانيّة كما حكى عنه عزّ و جلّ في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ**

سَاجِدِينَ﴾[1] فلابدّ أن يكون هذا التجاذب فيه أيضاً.

قلت: إنّ آدم عليه السلام خلق من الأرض و للأرض و لم تكن فيه حكمة رفعه إلى السماء، بخلاف عيسى عليه السلام فإنّه خلق من مادّة أرضيّة و نفخة ملكوتيّة و تحقّقت فيه الحكمة لرفعه مدّة معيّنة.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾، على أنّ الرفع لم يكن رفعا معنويّاً فقط، بل كان جسمانيّاً و روحانيّاً معنوياً، فقد طهّره الله تعالى من مجالسة الّذين كفروا به و رفع ذكره و نزّهه عن الفسقة و العصاة.

و لو كان التطهير معنوياً لما اختصّ عيسى عليه السلام، بل أنّ جميع الأنبياء مطهّرون من الأرجاس و الأنجاس و الكفر و العصيان.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ على تفوّق مَن اتّبع عيسى عليه السلام على الّذين كفروا به في جميع شؤون السلطة و العدد، و الحجّة و البرهان و الشرف.

و إنّما عبّر سبحانه بـ: ﴿**الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ**﴾، لتضمّنه العلّة لهذا التفوّق، و هي الاتباع و الإيمان و العمل الصالح و التقوى، فيختصّ بمَن اتّبعه مخلصاً في أوّل دعوته و أهل الإسلام الذي اتّبعوه باتّباع رسول الله صلى الله عليه وآله.

عذاباً شديداً في الدُّنيا و الآخرة: «فإنّ تعذيب الّذين كفروا بعيسى عليه السلام في الدُّنيا و الآخرة يستلزم تفوّق الّذين اتّبعوه».

التاسع: إنّما علّق سبحانه و تعالى توفية أُجور المؤمنين على الإيمان و العمل الصالح، للدلالة على كمال هذين الأمرين و الإرشاد إلى الدعوة إليهما، و علّق العذاب على الكفر إيذانا بعظم قبح الكفر و الابتعاد عنه.

العاشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ**

---

١. سورة الحجر: الآية ٢٨ ـ ٢٩.

تُرَابٍ﴾ على صحّة الاستدلال و الاحتجاج مع الخصم بالوجه الحسن، فإنّه تعالى أثبت خلق عيسى من غير أب كما خلق آدم عليه السلام من غير أب و لا أُمّ، فإنّهما في التقدير واحد.

الحادي عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَاتَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ على أنّ الحقّ مبدؤه من الله تعالى و ختمه إليه عزّ و جلّ، و أنّ رسوله على الحقّ.

كما يدلّ على تحريك العزيمة فيه صلى الله عليه وآله للاحتجاج و المخاصمة على الحقّ و تثبيته على اليقين، و هذا أُسلوب لطيف في تحريك العزائم و تهييج الفطرة على الثبات في مقام الاحتجاج على الحقّ.

و يدلّ على أنّ ما عند غيره باطل لا أثر له، و أنّ السامع إذا ألقى إليه هذا الخطاب انزجر و ارتدع عن المخاصمة مع الحقّ، و قد ورد نظير هذه الآية الشريفة في سورة البقرة، آية ١٤٧، أيضاً و تقدّم الكلام فيها أيضاً.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ على أنّ مجرّد الاتّباع لا يكفي في القرب إليه تعالى و توفية الأجر الكبير إلّا إذا كان مقروناً بالعمل الصالح و الانقلاع عن الظلم، وإلّا فإنّه يوجب البُعد عنه عزّ و جلّ، فكأنّ هذه الآية الشريفة مسوقة لبيان حال طائفة ثالثة، و هي الفسّاق و مرتكبوا الظلم بعد ذكر طائفتين هما الّذين اتّبعوا عيسى عليه السلام، و الثانية هم الّذين كفروا به.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي»، في قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ**﴾ عن الصادق عليه السلام: «أي لمّا سمع و رأى أنّهم يكفرون. و الحواس الخمس التي قدّرها الله في الناس: السمع للصوت، و البصر للألوان و تمييزها، و الشمّ لمعرفة الروائح الطيّبة و المنتنة، و الذوق للطعوم و تمييزها، و اللمس لمعرفة الحار و البارد

و اللين و الخشن».

أقول: ما ذكره عليه‌السلام موافق لما اتّفق عليه الفلاسفة الإلهيون و الطبيعيون، و هو عليه‌السلام ليس في مقام الحصر، بل في مقام بيان ما هو الغالب، وإلّا فقد أثبت العلم الحديث حواس أُخرى ليست من المذكورات.

و في «العيون»، عن ابن فضال عن أبيه، قال: «قلت لأبي الحسن الرضا عليه‌السلام: لِمَ سُمّي الحواريون الحواريين؟ قال عليه‌السلام: أمّا عند الناس فإنّهم سمّوا حواريون لأنّهم كانوا قصارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل، و هو اسم مشتقّ من الخبز الحوار، و أمّا عندنا فسُمّي الحواريون الحواريين لأنّهم كانوا مخلصين في أنفسهم، و مخلصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ و التذكير».

أقول: يمكن فرض الجامع القريب بينهما، لأنّ غسل الثوب مستلزم لإزالة وسخه، و الوعظ و التذكير عن إخلاص يستلزمان نظافة النفس و طهارة الروح عن الذنوب.

و في «التوحيد»، عن الصادق عليه‌السلام: «أنّهم كانوا اثني عشر رجلاً، و كان أفضلهم و أعلمهم لوقا».

أقول: و في «تفسير القمّي» أيضاً كذلك.

و في «تفسير القمّي»، عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه‌السلام، قال: «إنّ عيسى عليه‌السلام وعد أصحابه ليلة رفعه الله إليه، فاجتمعوا إليه عند المساء و هم اثنا عشر رجلاً، فأدخلهم بيتاً ثمّ خرج عليه من عين في زاوية البيت، و هو ينفض رأسه من الماء، فقال: إنّ الله أوحى إليّ أنّه رافعي إليه الساعة و مطهّري من اليهود، فأيّكم يلقى عليه شبحي فيُقتل و يُصلب و يكون معي في درجتي؟ فقال شاب منهم: أنا يا روح الله، قال: فأنت هو ذا، فقال لهم عيسى عليه‌السلام: أما أن منكم لمن يكفر بي قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة، فقال له رجل منهم: أنا هو يا

نبي الله ، فقال عيسى عليه السلام : أتحسّ بذلك في نفسك فلتكن هو ، ثمّ قال لهم عيسى عليه السلام : أما إنّكم ستفرّقون بعدي على ثلاث فرق؛ فرقتين مفتريتين على الله في النار ، و فرقة تتبع شمعون صادقة على الله في الجنّة . ثمّ رفع الله عيسى إليه من زاوية البيت و هم ينظرون إليه .

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : إنّ اليهود جاءت في طلب عيسى عليه السلام من ليلتهم فأخذوا الرجل الذي قال له عيسى عليه السلام إنّ منكم ليكفر بي من قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة ، و أخذوا الشاب الذي أُلقي عليه شبح عيسى فقُتل و صُلب ، و كفر الذي قال له عيسى عليه السلام تكفر قبل أن تصبح اثنتي عشرة كفرة» .

أقول : روي قريب منه عن ابن عبّاس و قتادة و غيرهما ، و اختلاف أصحاب الأنبياء بعد فقدهم أمر عادي ، و ذلك لاختلاف عقولهم و إدراكاتهم و لا يجمع ذلك إلّا التثبّت على دين نبيّهم و متابعتهم ، و هي غير متحقّقة لديهم ، و يدلّ قوله تعالى : **﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّاَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾**[1] ، و الروايات في قتل شبيه المسيح أو غيره مختلفة ، و القرآن الكريم أجمل ذلك . و سيأتي في سورة النساء تفصيل الكلام .

و في «الإكمال» عن الصادق عليه السلام في حديث :

«بعث الله عيسى بن مريم عليه السلام و استودعه النور ، و العلم ، و الحكم و علوم الأنبياء قبله و زاده الإنجيل ، و بعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه و حكمته و إلى الإيمان بالله و رسوله ، فأبى أكثرهم إلّا طغياناً و كفراً ، فلمّا لم يؤمنوا دعا ربّه و عزم عليه فمسخ منهم شياطين ليريهم آية فيعتبروا فلم

---

١ . سورة الجاثية : الآية ١٧.

يزدهم ذلك إلّا طغياناً وكفراً، فأتى بيت المقدس فمكث يدعوهم و يرغّبهم في ما عند الله ثلاث و ثلاثين سنة حتّى طلبته اليهود، و ادّعت أنّها عذّبته و دفنته في الأرض حيّاً، و ادّعى بعضهم أنّهم قتلوه و صلبوه و ما كان الله ليجعل لهم سلطاناً عليه، وإنّما شبّه لهم، و ما قدروا على عذابه و قتله و لا على قتله و صلبه، لأنّهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيباً لقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ بعد أن توفّاه».

أقول: هذه الرواية تدلّ على أن مدّة الدعوة كانت ثلاثاً و ثلاثين سنة، لا أصل عمره الشريف، و يمكن حمل بقيّة الروايات عليه أيضاً، فقد ورد أنّ عمره كان أربعاً و ستّين سنة و قالت النصارى غير ذلك.

و المراد من مسخهم شياطين مسخ قلوبهم، فإنّ مَن أدمن على إنكار الحقّ يتغيّر قلبه لا محالة إلى حقيقة كفرهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

و يمكن الحمل على مسخهم بجهاتهم الجسمانيّة كما وردت روايات كثيرة في مسخ جملة من العصاة إلى بعض الحيوانات، و قد حكى الله تبارك و تعالى في القرآن الكريم عن مسخ اليهود إلى بعض الحيوانات، قال جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[2] و عبدة الطاغوت ليس إلّا من الشياطين.

و في «العيون» عن الرّضاعليه السلام: «أنّه ما شبّه أمر أحد من أنبياء الله وحججه على الناس إلّا أمر عيسى وحده، لأنّه رفع من الأرض حيّاً وقبض روحه بين السماء و الأرض، ثمّ رفع إلى السماء، و ردّ عليه روحه، و ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾، و قال الله حكاية عن

---

١. سورة المطففين: الآية ١٤.

٢. سورة المائدة: الآية ٦٠.

عيسى يوم القيامة: **﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**».

أقول: الحديث يدلّ على توفّي عيسى عليه السلام و موته قبل رفعه إلى السماء، و بهذا يمكن أن يجمع بين جميع الأقوال لفرض صراحة الحديث بأنّه مات ما بين السماء و الأرض ثمّ أرجع الله روحه إليه و رفعه.

و في «تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام: «رفع عيسى بن مريم بمدرعة صوف من غزل مريم و من نسج مريم و من خياطة مريم، فلمّا انتهى إلى الماء نُودي: يا عيسى ألق عنك زينة الدُّنيا».

أقول: إذا كانت المدرعة المباركة من متاع الدُّنيا، فما ظنّك بما في قلوب البشر الذي هو من أخسّ متاع الدُّنيا، و كيف يمكن الرفع بهما إلى السماء.

و في «تفسير القمّي»، في قوله تعالى: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** عن الصادق عليه السلام:

«أنّ نصارى نجران لمّا وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله و كان سيّدهم الأهتم، و العاقب، و السيّد، و حضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس و صلّوا، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، هذا في مسجدك؟ فقال صلى الله عليه وآله: دعوهم، فلمّا فرغوا دنوا من رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: إلى ما تدعونا؟ فقال: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله و أنّي رسول الله و أنّ عيسى عبدٌ مخلوق يأكل و يشرب و يحدث، قالوا: فمَنْ أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قل لهم ما تقولون في آدم عليه السلام، أكان عبداً مخلوقاً يأكل و يشرب و ينكح، فسألهم النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا: نعم، فقال: فمَن أبوه؟ فبهتوا، فأنزل الله تعالى: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**».

أقول: روى مثله السيوطي في «الدرّ المنثور» و غيره عن السدي و عكرمة و غيرهما.

و في «أسباب النزول» للواحدي: «أنّ وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال ﷺ: و ما أقول؟ قالوا: تقول: إنّه عبد، قال ﷺ: أجل إنّه عبد الله و رسوله و كلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا و قالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأمرنا مثله، فأنزل الله عزّ و جلّ: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾».

أقول: مثل هذه الروايات كثيرة تدلّ على سقوط كونه ابن الله مطلقاً، كما تدلّ على عدم كون الله تعالى أباه، ففسدت مزاعم النصارى و القول بالتثليث بأي نحو يتصوّر.

***

بحث عرفاني:

عالم الأمر أعظم العوالم الربوبيّة من كلّ جهة، و هو محيط بما سواه إحاطة الروح بالجسد، و هو شهود كلّه، بل بحسب بعض درجاته يتّحد فيه الشاهد و المشهود بالذات، لا سيما بناءً على ما أثبته بعض أعاظم الفلاسفة من اتّحاد العالم و المعلوم بالذات وجوداً، و بناءً على التفاني المحض في مرضاة المعبود الحقيقي. و الانقطاع التامّ إليه يصير العبد مورد إرادته و مشيئته و فعله تبارك و تعالىٰ من جميع الجهات، كالميّت بين يدي الغسّال مثلاً، وقد دلّت على ذلك الأدلّة العقليّة و النقليّة، والشاهد الحقيقي في تلك المراتب واحد، وهو الله الواحد القهّار و المشهود به ليس إلّا جماله وجلاله بالذات، فيتّحد الشاهد والمشهود.

ولعلَّ التأمُّل في سياق قوله تعالىٰ: ﴿**فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾، يقرب كونها إشارة إلى تلك المرتبة الجليلة الرفيعة، كما أنّ قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «اللّهمّ أرِنا الأشياء كما هي»، إشارة إلىٰ تلك المرتبة أيضاً، فإنّها ليست إلّا شوارق الجمال والجلال التي تظهر للنفوس المستعدّة، إمّا تدريجاً أو دفعةً بحسب المقتضيات، لكن بحيث يكون الفيض دائماً، والتدرّج والقصور إنّما هو من ناحية المستفيض،

وللبحث تفصيل لعلّنا نتعرّض له في المباحث الآتية إن شاء الله تعالىٰ .

و لأجل شدّة صعوبة الوصول إلى تلك المرتبة عبّر سبحانه و تعالى بقوله : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، و لم يعبّر بقوله : «من الشاهدين» ، لأنّ شـهود الجـمال و الجلال خاصّ لبعض أخصّ خواصّ الأولياء ، كأعاظم الأنبياء و المقرّبين .

والحمد لله أوّلاً و آخراً

***

« الفهرس »

سورة آل عمران الآية ١ ـ ٦

أهداف السورة وما فيها من أُصول المعارف ٣
الاحتمالات المتصوّرة في الحروف المقطّعة في أوائل السور ٥
لفظ الجلالة (الله) ومعناه ٦
معنى الحيّ القيوم ٦
الجامع بين الكتب السماوية ٩
التوراة والإنجيل ومعناهما ١١
الفرقان ومعناه ١٣
معنى العلم بالنسبة إليه تعالىٰ ١٦
الصورة ومعناها ١٦
كيف ومعناها وأنّها من الأعراض ١٩
أسباب الفعل وهل هي من صفات الفعل أو من صفات الفاعل؟ والمائز بينهما بالنسبة إليه تعالى، وما أورد من الإشكال عليه ٢٠

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات الشريفة تدلّ على أُمور: ٢٥
(١) يستفاد من الآيات توحيد الذات والمعبود والصفة والفعل لله تعالى ٢٥
(٢) ترتّب تنزيل الكتاب على الحيّ القيوم من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامة المنحصرة ٢٥
(٣) الوجه في التعبير بالتنزيل للكتاب ٢٦
(٤) ما يدلّ قوله تعالىٰ ﴿مصدّقاً لما بين يديه﴾ ٢٦

(٥) وجه تقديم تنزيل الكتاب على تنزيل التوراة والإنجيل ٢٦
(٦) يصحّ أن يكون الفرقان وصفاً بحال الذات، كما يصحّ أن يكون وصفاً بحال المتعلّق .. ٢٧
(٧) الوجه في تكرار مادّة نزل في الآيات الشريفة........ ٢٧
(٨) التقدير يتعلّق بجميع الشؤون المتعلّقة بالإنسان ٢٨
(٩) الوجه في تعقيب الآيات المباركة بقوله تعالى ﴿لا إله إلّا هو العزيز الحكيم﴾..... ٢٨
(١٠) الوجه في «هو» في الآيات الشريفة........ ٢٨
بحث روائي يتعلّق بالآيات الشريفة ٢٩
بحث فلسفي: يتعلّق بتحديد الفيض النازل منه تعالى........ ٣٦
بحث عرفاني: وفيه أنّ الإنسان أشرف الممكنات وفيه اجتمع العلل الأربع ٣٦

سورة آل عمران الآية ٧

الآيات المباركة تبيّن بعض أوصاف الكتاب........ ٣٩
المراد من الآيات المحكمات........ ٤٠
الزيغ ومعناه........ ٤٢
البغي ومعناه وأنّه علىٰ قسمين........ ٤٣
ما يتعلّق بقوله تعالىٰ: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنّا به﴾........ ٤٥

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآية الشريفة ٥٠
بحث دلالي: يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:........ ٥٠
(١) الوجه في التعبير بلفظ «الأُم».
(٢) الوجه في تقديم الفتنة على التأويل.
(٣) ما يستفاد من سياق الآية الشريفة.
(٤) يستفاد من قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾ المعنى السلبي.
(٥) الوجه في تكرار «الابتغاء».
(٦) الوجه في إطلاق الفتنة في الآية الشريفة.

(٧) اتباع المتشابه لغرض ابتغاء الفتنة من باب الحكمة لا من باب العلّة.
(٨) ابتغاء الفتنة قد يكون اختياريّاً وقد يكون غير اختياري.
(٩) الوجه في ختم الآية الشريفة بالثناء على الراسخين.
بحث روائي: يتعلّق بالآيات الشريفة ٥٣
ما ورد في تفسير القرآن بالرأي ٦٤
ما ورد أنّ للقرآن بطوناً ٦٩
ما ورد من أنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف ٧٢
بحث عرفاني يتعلّق بمعرفة حقائق الأشياء وأنّها توجب السعادة ٧٣
بحث فلسفي: يتعلّق باختلاف الاستعدادات في مراتب الاستفادة ٧٤
بحث علمي: يتعلّق بالمحكم والمتشابه وعلم التأويل وأنّها تحصل من الاستعدادات، وما يتحصّل من ذلك أُمور ٧٦
مفهوم المحكم والمتشابه ٧٧
المحكم والمتشابه من الأُمور النسبية ٧٧
المدار في المحكم والمتشابه ٧٨
أسباب التشابه ٧٨
نسبة التشابه ٧٩
واقعيّة المحكم والمتشابه ٨٠
موضوع المحكم والمتشابه ٨٠
التشابه في القرآن ٨٠
الحكمة في اشتمال القرآن على المتشابه ٨٢
المتشابه في السنّة ٨٢
التأويل ومعناه ٨٣
الفرق بين التأويل والتنزيل ٨٣
مورد التأويل في الآيات القرآنية ٨٥

الفرق بين التأويل ومطلق استعمال اللفظ ٨٥
دوران الأمر بين التأويل والتفسير ٨٦
الاستعارات والكنايات القرآنية ٨٧

سورة آل عمران الآية ٨ ـ ٩

الزيغ ومعناه ٨٩
المبالغة في أسمائه تعالى باعتبار المتعلّق لا باعتبار الذات ٩٠

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات الشريفة تدلّ على أُمور: ٩٢
(١) الوجه في إضافة الراسخون الرب إلى أنفسهم.
(٢) المراد من الرحمة في الآيات الشريفة.
(٣) إنّ عدم زيغ القلب أعمّ من الهبات المعنوية.
(٤) الوجه في تكرار الخطاب في الآية الشريفة.
(٥) يستفاد من الآية الشريفة أنّ علم الراسخين في العلم يدور مدار علم المبدأ والمعاد.
(٦) يستفاد من الآيات الشريفة أدب الدّعاء والابتهال.
(٧) احتمال التنافي بين الآيات والدفع عنه.
بحث روائي: يتعلّق بالآيات الشريفة ٩٥
بحث عرفاني: وفيه أنّ الممكنات لابدّ لها من ارتباط مع خالقها، وهذا الارتباط على قسمين ٩٧
بحث فلسفي: يتعلّق بالمعاد ١٠٠
ثبوت أصل المعاد ١٠٠
إثبات المعاد ١٠٢
المعاد الروحاني والجسماني ١٠٣
الشبهات الواردة على المعاد ١٠٦

سورة آل عمران الآية ١٠ ـ ١٣

الغناء ومعناه وأقسامه ١١١

الدأب ومعناه ١١٤
الآية الشريفة تشير إلى غزوة بدر ١١٨
وجه الجمع بين الآيتين المتنافيتين ١١٩

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات الشريفة تدلّ على أُمور: ١٢٢
(١) أنّ الحياة كما هي مسخّرة تحت إرادته تعالى كذلك لوازمها، ولابدّ من الارتباط مع عالم الغيب.
(٢) الآية الشريفة تدلّ على أنّ الكفر والباطل ممحوقان لا محالة ويمكن أن يجعل ذلك من السير الاستكمالي.
(٣) الآية تتضمّن الوعد بالغلبة للمؤمنين.
(٤) صريح الآية الشريفة عدم شمول الشفاعة للكافرين.
(٥) ذكر العلّة في الآية الشريفة في غلبة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة.
(٦) العلّة في استحقاق العقاب الدائم للإنسان هي إضمار الذنب.
(٧) يستفاد من الآية الشريفة أنّ أخذه تعالى للعاصين لا يكون من طرف خاص.
(٨) الوجه في تقديم الأموال على الأولاد في الآية المباركة.
(٩) الآية الشريفة تدلّ على أنّ العادات السيّئة لها الدخل في زيغ الإنسان وضلاله.
(١٠) الوجه في إضافة الأخذ وشدّة العقاب إلى ذاته الأقدس.
(١١) ظاهر الآية الشريفة أنّ الكافرين وقود النار في الدنيا والآخرة.
(١٢) يستفاد من الآية الشريفة انقطاع الفرعونية.
(١٣) الوجه في تخصيص الآية الشريفة بسبيل الله دون الجهاد.
بحث أدبي ١٢٥
بحث روائي: يتعلّق بالآية المباركة ١٢٦

سورة آل عمران الآية ١٤ ـ ١٧

معنى الزينة وأقسامها ١٢٨

ذكر تعالى في الآية المباركة أُصولاً ستّة من المشتهيات ١٢٩
الرضوان ومعناه ١٣٧
صفات المتّقين الواردة في الآية الكريمة ١٤٣

بحوث المقام

بحث دلالي: وفيه يستفاد من الآيات الشريفة أُمور ١٤٦
(١) أنّ جميع ما يلهي الإنسان عن ذكر الله تعالى إنّما هو حبّ الشهوات المذكورة في الآية المباركة.
(٢) الفاعل لتزيين المذكورات إنّما هو الشيطان.
(٣) التزيين إنّما تعلّق بحبّ الشهوات لا نفسها فإنّ لها دخل في الحياة.
(٤) ذكر أقسام الشهوات حسب رغبات الناس فيها.
(٥) الآية الشريفة تدلّ على أنّ نِعَم الآخرة تشابه لما في الدّنيا ولكن لا يشوبها نقص.
(٦) الآية الشريفة تدلّ على نوعين من الجزاء.
(٧) تدلّ الآية على مراتب الجنّة واختلاف درجات أهل الجنّة.
(٨) يستفاد من الآية الشريفة أنّ الشهوات أُمور دنيئة وزائلة بالنسبة إلى ما عند الله تعالى.
(٩) الوجه في تقديم النساء على جميع الشهوات.
(١٠) الآية الشريفة تدلّ على تعدّد الجنّة لكلّ واحد من المتّقين.
(١١) الوجه في جعل رضوان الله في مقابل الجنّات والأزواج.
(١٢) الوجه في اقتران الاستغفار بالإنفاق.
بحث روائي: يتعلّق بالآية المباركة ١٥١
بحث فلسفي: وفيه أنّ كمال العلّة الفاعلية يقتضي كمال العلّة الغائية هذا في غير المبدأ، وأمّا فيه تعالى فهو بذاته وصفته وفعله حسن ١٥٢
اللذّة إمّا جسمانية أو روحانية ١٥٣
هل الشهوات مختصّة بهذا العالم؟ ١٥٤
بحث عرفاني: وفيه أنّ معرفة حقائق الموجودات وشهودها لها مراتب قد يُفاض بعضها على

الغير، وأنّ حبّ الشهوات من أغلظ الحجب الظلمانية بين العقل ومعرفة الحقائق ١٥٥
بحث علمي: وفيه أنّ الإنسان قرين الشهوات وبالعقل يسيطر عليها، وأنّ الآية المباركة ردّ على من زعم أنّ كبت تلك الشهوات توجب المفاسد والأمراض ١٥٧

سورة آل عمران الآية ١٨ ـ ٢٠

الشهادة ومعناها وأقسامها ١٦١
في شهادة الملائكة وأولوا العلم بوحدانيّته تعالى ١٦٣
القسط ومعناه ١٦٤
الآية الشريفة تدلّ على أدب المحاجّة ١٧١

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآية الشريفة ١٧٤
بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات الشريفة تدلّ على أُمور: ١٧٤
(١) اتّحاد الشاهد والمشهود به والشهادة.
(٢) إنّ الشهادة في الآية المباركة واقعية حقيقيّة ولا معنى لحملها على المعنى الاستعاري.
(٣) شهادة الملائكة وأولوا العلم لا تكون إلّا عن العلم بالتوحيد.
(٤) إطلاق الملائكة يشمل الكروبيّين وسادتها.
(٥) الآية الشريفة تدلّ على فضل العلم وأهله.
(٦) الوجه في تكرار جملة: «لا إله إلّا الله».
(٧) إنّ جملة «قائماً بالقسط» تدلّ على بطلان الجبر والتفويض والوجه في التعبير بالقسط.
(٨) يظهر من سياق الآية الشريفة أنّ منشأ القيام بالقسط هو الشهادة بالوحدانية.
(٩) الآية الشريفة تدلّ على أنّ أساس النظام هو الدِّين وهو الذي يتكفّل جميع جهاته التكوينيّة.
(١٠) يستفاد من الآية الشريفة أنّ الكفّار لا حظّ لهم من هذه الآية.
(١١) تدلّ الآية الشريفة على أنّ الإذعان بالمعارف الإلٰهية هو الدِّين وأنّ خلاف ذلك يكون من البغي.

(١٢) الآية الشريفة تدلّ على أدب المحاجّة.
بحث روائي: يتعلّق بالآية المباركة ١٧٨
ما ورد في فضل الآية الشريفة من الروايات ١٧٩
بحث علمي: يتعلّق بقوله تعالى: ﴿قائماً بالقسط﴾ ١٨٢

سورة آل عمران الآية ٢١ ـ ٢٢

الكفر ومعناه ١٨٥
الفرق بين القتل والموت ١٨٦
البشارة ومعناها ١٨٧

بحوث المقام

بحث علمي: يتعلّق بالنصرة ١٨٩
بحث روائي: يتعلّق بالآية الشريفة ١٨٩

سورة آل عمران الآية ٢٣ ـ ٢٥

النصيب ومعناه ١٩٢
الدعوة ومعناها ١٩٣
الافتراء ومعناه وحكمه ١٩٦

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآية المباركة ١٩٨
بحث دلالي: وفيه يستفاد من الآيات الشريفة أُمور ١٩٨
(١) يستفاد من الآية المباركة أنّ ما عند الكفّار ليس من الله تعالى.
(٢) الآية الشريفة عامّة تشمل اليهود والنصارى وغيرهم.
(٣) الآية المباركة تشير إلى حقيقة اجتماعية.
(٤) الوجه في إجمال قوله تعالىٰ: ﴿كتاب الله﴾.
(٥) ما يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وهم معرضون﴾.
(٦) الوجه في نسبة الجمع في قوله تعالىٰ: ﴿إلى نفسه﴾ والإتيان بالمجهول في قوله تعالىٰ:

﴿ووفيت﴾.
(٧) ما يستفاد من الآية الكريمة أهمّية ذلك اليوم.
(٨) يستفاد من الآية المباركة كمال عدله تعالى.
(٩) تدلّ الآية على ثبوت المعاد.
بحث روائي: متعلّق بالآية المباركة ٢٠٠
بحث أخلاقي: يتعلّق بالغرور ٢٠١

سورة آل عمران الآية ٢٦ ـ ٢٧

الخطاب موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ٢٠٥
الملك ومعناه وأقسامه ٢٠٦
النزع ومعناه ٢٠٨
العزّة والذلّة ومعناهما ٢١٠
الخير ومعناه ٢١٣
تدلّ الآية الكريمة على أمرين ٢١٣
الولوج ومعناه ٢١٦
الموت والحياة وتقابلهما وخروج أحدهما من الآخر ٢١٨
الرزق ومعناه وأنّه على نوعين ٢١٩

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآية الكريمة ٢٢٠
بحث دلالي: وفيه أنّ الآية المباركة تدلّ على أُمور ٢٢١
(١) تعيين المخاطب في الآية الشريفة.
(٢) الوجه في تقديم اسم الجلالة في الآية الكريمة.
(٣) في الآية الشريفة أسرار البلاغة ولطائفها.
(٤) ما جمع في الآية المباركة من الأُمور التكوينيّة والاجتماعية.
(٥) الوجه في التعبير بالمشيئة دون الإرادة.

(٦) الوجه في التعبير بالعزّة والذلّة.
(٧) الوجه في الاقتصار على ذكر الخير فقط.
(٨) يستفاد من الآية أنّ العزّة ترجع إليه تعالى.
(٩) الآية الشريفة جامعة للتوحيد الذاتي والفعلي.
(١٠) الآية الشريفة من القضايا التي تشتمل على العلّة والمعلول.
بحث روائي: يتعلّق بالآية المباركة ٢٢٤
بحث فلسفي: يستفاد من الآية الشريفة قواعد فلسفية ٢٢٧
بحث قرآني: وفيه أنّ جميع القوى والأسباب وإن كانت مقهورة تحت قدرته تعالى ولكن ذلك لاينافي تحقيق الأسباب الظاهرية ٢٢٩
بحث عرفاني: وفيه أنّ الآية الشريفة من أجل موارد تجلّيات الله تعالى لعباده ٢٣١

سورة آل عمران الآية ٢٨ ـ ٣٢

الأولياء ومعناه ٢٣٤
التقيّة ومعناها وموردها ٢٣٩
النفس والمراد منها ٢٤٠
الآية الشريفة تدلّ على أنّه تعالى عالم بالجزئيات كما هو عالم بالكلّيات ٢٤٢
الوجه في تكرار الآية الشريفة في القرآن ٢٤٣
الوجه في التأكيدات الواردة في الآية الشريفة ٢٤٤
الآية الشريفة تدلّ على عموم قدرته تعالى ٢٤٤
الوجه في التعبير بقوله تعالى: ﴿محضراً﴾ ٢٤٧
الأمد ومعناه ٢٤٧
الوجه في إضافة التحذير إلى نفسه الأقدس ٢٤٨
ما يترتّب من الآثار على تنظيم الروابط بين العبد وبين الله تعالى ٢٤٩
الحبّ ومعناه وتعلّقه بجميع الأشياء ٢٥٠
في أنّ محبّة الله للعبد تترتّب على محبّة الله تعالى ٢٥١

المحبّة لا تتحقّق مع الذنب ٢٥٢

بحوث المقام

بحث أدبي يتعلّق بالآية المباركة ٢٥٧
بحث دلالي وفيه تدلّ الآيات الشريفة على أُمور ٢٥٩
(١) الآية المباركة ترشد إلى أعظم دستور إلٰهي، والوجه في التعبير بالاتّخاذ.
(٢) سبب الانقطاع عن الله تعالى هو الكفر.
(٣) يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿فليس من الله في شيء﴾ انقطاع العلاقة بين الله وبين من يتّخذ الكافرين أولياء.
(٤) مشروعيّة التقيّة والرخصة فيها في موارد محدودة.
(٥) النهي عن التولّي من أعظم المناهي.
(٦) يستفاد من الآية الشريفة شديدة التهديد.
(٧) يستفاد من الآية الشريفة إحاطة علمه تعالى وسعته.
(٨) يستفاد من قوله تعالى: ﴿والله رؤوفٌ بالعباد﴾ تأكيد التهديد والتخويف.
(٩) الوجه في التعبير بالحبّ في الآيات الشريفة دون الولاية.
(١٠) الاتّباع الموجب للمحبّة إنّما يتحقّق في إطاعة الله والرسول.
(١١) الوجه في تكرار «قل» في الآيات الشريفة.
بحث عرفاني: وفيه يستفاد من الآيات الشريفة مباحث عرفانية ٢٦٤
بحث فلسفي ٢٦٧
بحث روائي ٢٧٠

سورة آل عمران الآية ٣٣ ـ ٤١

الاصطفاء ومعناه ٢٧٦
الآية الشريفة ليست في مقام تعداد المصطفين وحصرهم ٢٨٠
الذرّية ومعناها ٢٨٢
أسباب الاصطفاء ٢٨٣

التحرير ومعناه ٢٨٥
التقبّل ومعناه ٢٨٨
مريم ومعناها ٢٩٠
الإنبات والمراد منها ٢٩٢
الكفالة ومعناها ٢٩٣
قوله تعالى: ﴿هنالك﴾ من أسماء الإشارة والكلام فيها ٢٩٦
طلب النعمة إذا شوهدت على شخص يكون على أقسام ثلاثة ٢٩٨
السميع ومعناه ٢٩٩
البشارة ومعناها ٣٠٠
التسمية كانت من قبله تعالى ٣٠١
أوصاف يحيى ٣٠١
الأوصاف المتشابهة بين يحيى وعيسى عليهما السلام ٣٠٣
الولادة في أنبياء الله تعالى بخلاف الأسباب الظاهرية محصورة في ثلاثة كما في القرآن ... ٣٠٨
الآية ومعناها ٣٠٩
حكمة جعل الآية ٣٠٩
هل أنّ عدم التكلّم كان اضطرارياً؟ ٣١٠
الرمز ومعناه ٣١٣

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآيات الشريفة ٣١٤
بحث دلالي: وفيه يستفاد من الآيات الشريفة أُمور: ٣١٦
(١) إنّ الاصطفاء إنّما يكون بإرادته تعالى وليس للإنسان إرادة فيه.
(٢) الوجه في عدم ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله في آية الاصطفاء.
(٣) الاصطفاء يلازم الاختيار.
(٤) الغرض من الاصطفاء.

(٥) إنّ الذرّية المصطفاة لا تزال محفوظة .
(٦) الآية الشريفة تدلّ على كمال انقطاع امرأة عمران إلى ربّها .
(٧) الوجه في التعبير بـ«ما في بطني» .
(٨) الآية المباركة تدلّ على كمال تحسّرها .
(٩) يستفاد من الآية الشريفة أنّ التسمية كانت من حقوق امرأة عمران .
(١٠) الآية الشريفة تدلّ على دوام الاستعاذة من الشيطان للوليدة وذرّيتها وأنّها لا تدلّ على أنّ كلّ مولود يمسّه الشيطان إلّا من عصمه الله تعالى .
(١١) الآية الشريفة تدلّ على الجزاء العظيم لتحرير امرأة عمران ما في بطنها .
(١) الآية المباركة تدلّ على أنّ الرزق بيد الله تعالى وأنّه يعلم بخصوصيّاته وأنّ رزق مريم عليها السلام من باب ذكر المصداق .
(١٣) تدلّ الآية المباركة أنّ حالة الصلاة أقرب الحالات إلى الله تعالى .
(١٤) الآية الشريفة تدلّ على رجحان طلب الولد منه تعالى .
(١٥) الآية المباركة تدلّ على أنّ كلّ نبيّ لابدّ أن يخبر عن نبيّ سابق .
(١٦) أنّ للكلام أثر في تربية النطفة .
(١٧) لا يستفاد من الآية الشريفة مقدار عمر زكريا .
(١٨) لا يستفاد من الآية الشريفة أنّ العقر قد عرض لأجل الكبر أو أنّه كان سابقاً .
(١٩) يستفاد من الآية الشريفة أنّ عدم التكلّم كان اختياريّاً .
بحث فقهي : يتعلّق بالتحرير ٣٢٣
بحث عرفاني : يتعلّق بدرجات الإيمان والاصطفاء ٣٢٤
بحث روائي : يتعلّق بالآية المباركة ٣٢٦

سورة آل عمران الآية ٤٢ ـ ٥١

الوجه في تكرار الاصطفاء في الآية الشريفة ٣٣٤
المراد من القنوت والركوع والسجود الواردة في الآية المباركة ٣٣٤
معنى الوحي في الآية المباركة ٣٣٦

القلم ومعناه ٣٣٧
الآية الشريفة تدلّ على قداسة أُمّ المسيح ٣٤٠
المراد من الملائكة في الآية الشريفة ٣٤١
وجه تسمية عيسى بن مريم بالمسيح ٣٤٢
المراد من الكلمة الواردة في الآية الشريفة ٣٤٣
الوجيه ومعناه ٣٤٤
المراد من المقرّبين ٣٤٥
المراد من الصالحين في الآية الشريفة، وأنّها لقيست في مقام الحصر ٣٤٧
الآية المباركة تتضمّن السؤال عن كيفيّة وقوع البشارة ٣٤٩
الوجه في التعبير بالخلق في شأن المسيح وفي شأن يحيى بالفعل ٣٥٠
المراد من الأمر التكويني «كُن فيكون» ٣٥١
الآية الشريفة وإن كانت تدلّ على أنّ خلق عيسى كان إبداعيّاً إلّا أنّها لا تنفي توسّط الأسباب ٣٥٢
تعداد ما صدر من المسيح من المعجزات والآيات ٣٥٥

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآيات الشريفة ٣٦٢
بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات الشريفة تدلّ على أُمور ٣٦٤
(١) الآيات تدلّ على أنّ مريم كانت تتكلّم مع الملائكة.
(٢) الآيات الشريفة تدلّ على تقدّم مريم عليها السلام على نساء العالمين من جهات عديدة ولا ينافي أن تكون امرأة أُخرى أفضل منها من جهة أُخرىٰ.
(٣) ما يترتّب على الاصطفاء.
(٤) ما ورد في القرآن من اخبار مريم وعيسى وزكريا ويحيى هي الصحيحة وما سواها لم تسلم من يد التحريف.
(٥) الآية الشريفة تدلّ على نبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٦) إنّ التسمية بالمسيح كانت من قبل الله تعالى ويستفاد منه أنّ جميع أسماء الأنبياء كذلك.
(٧) الآية الشريفة تدلّ على كمال انقطاع مريم عليها السلام إلى ربّها.
(٨) إنّ ما خلقه عيسىٰ عليه السلام لم يكن له نظير في الخارج.
(٩) الوجه في أنّ كلام عيسىٰ عليه السلام في أدواره المختلفة كان واحداً.
(١٠) الوجه في ذكر أمثلة متعدّدة لآيات نبوّته وصدق دعوته.
(١١) الوجه في تكرار قوله تعالى: ﴿بإذني﴾.
بحث فلسفي ٣٧٠
بحث روائي: يتعلّق بالآية الشريفة ٣٧١

سورة آل عمران الآية ٥٢ ـ ٦٠

الحس ومعناه ٣٧٦
ما يتعلّق بالحواريّين ٣٧٨
الشهود ومعناه ٣٨١
معنى المكر وانتسابه إلى الله تعالى ٣٨٣
الوفاة ومعناها ٣٨٥
معنى الرفع ٣٨٩
ما يستفاد من مقابلة المؤمنين بالمسيح والكافرين به ٣٩٢
المراد من الفوقية في الآية الشريفة ٣٩٣
الآية الشريفة ردّ على طائفتين ٣٩٥
ما تثبتهما الآية الشريفة من الحقائق الواقعيّة ٣٩٧

بحوث المقام

بحث أدبي: يتعلّق بالآية المباركة ٣٩٩
بحث دلالي: وفيه أنّ الآيات الشريفة تدلّ على اُمور ٤٠٠
(١) أنّ الكفر ظهر في اليهود بحث تعلّق به الإحساس.
(٢) الآية الشريفة تدلّ على حقيقة من الحقائق الواقعيّة.

(٣) تدلّ الآية المباركة على جلالة قدر الحواريّين.
(٤) للشاهد منزلة كبرى.
(٥) ما يترتّب من الجزاء على كلّ مكر الجزاء.
(٦) لعيسى ابن مريم عند الله شأنا من بين الأنبياء.
(٧) لم يكن رفع عيسى معنوياً فقط بل كان جسمانياً أيضاً.
(٨) تفوّق تابعي عيسى على الكافرين.
(٩) الوجه في تعليق أجور المؤمنين على الإيمان والعمل الصالح.
(١٠) الآية الشريفة تدلّ على أنّ الحقّ منه تعالى وختمه إليه عزّوجلّ.
(١١) الآية تدلّ على تحريك العزيمة للاحتجاج والمخاصمة على الحقّ.
(١٢) مجرّد الاتّباع لايكفي في القرب إليه إلّا إذا كان مقروناً بالعمل الصالح والانقلاع عن الظلم.
بحث روائي: يتعلّق بالآية الشريفة ٤٠٤
بحث عرفاني ٤٠٩
الفهرس ٤١٢

***